القـــرآن

{)وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَـعَ مَسَـاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُـذْكَرَ فِيهَا اسْـمُهُ وَسَـعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الـدُّنْيَا خِـزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (البقرة:114)

التفسير:ـ

{ 114 } قوله تعــالى: { ومن أظلم }: { من } اسم اســتفهام؛ وهي مبتدأ؛ و{ أظلم } خبرها؛ والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ يعـني لا أحد أظلم؛ والميزان الذي يبيِّن أن الاستفهام بمعنى النفي أنك لو حـذفت الاسـتفهام، وأقمت النفي مقامه لصـح؛ والفائـدة من تحويل النفي إلى الاسـتفهام أنه أبلغ في النفي؛ إذ إن الاستفهام الذي بمعنى النفي مشرب معنى التحـدي؛ كأنه يقول: بيِّنوا لي أيّ أحد أظلم من كذا وكذا.

وقوله تعـالى: { أظلم } اسم تفضـيل من الظلم؛ وأصـله في اللغة النقص؛ وهو أن يفرط الإنسان فيما يجب؛ أو يعتدي فيما يحرم؛ ويدل على هـذا قوله تعـالى: {كلتا الجنـتين آتت أكلها ولم تظلم منه شـيئاً} [الكهـف: 33] أي لم تنقص؛ وهو في الشــرع بهــذا المعـنى؛ لأن الظلم عبــارة عن تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم ـــ وهذا نقص

قوله تعالى: { ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه }: «مِن» حرف جر؛ و{ مَن } اسم موصول؛ أي من الذي منـع؛ وأضـيفت المسـاجد إلى الله عز وجــل؛ لأنها محل عبادتــه؛ فتكــون الإضــافة هنا من بــاب التشريف.

وقوله تعالى: { مسـاجد الله } منصـوب على أنه مفعـول { منع }؛ و{ أن يذكر فيها اسمه } بدل منه.

قوله تعـالى: { وسعى في خرابها } معطـوف على { منع }؛ يعـني جمع وصـفين: منع المسـاجد أن يـذكر فيها اسـمه؛ والسـعي في خرابهـا؛ والخراب هو الفساد، كما قال تعالى: {يخربون بيوتهم بأيـديهم} [الحشـر: 2] .

قوله تعالى: { أولئك } اسم إشارة يعـود إلى الـذين منعـوا مسـاجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها؛ { ما كـان لهم أن يـدخلوها إلا خائفين } يحتمل ثلاثة معان:

الأول: ما كـان ينبغي لهـؤلاء أن يـدخلوها إلا خـائفين فضـلاً عن أن يمنعـوا عباد الله؛ لأنهم كافرون بالله عز وجل؛ فليس لهم حق أن يدخلوا المساجد إلا خائفين.

الثاني: أن هذا خبر بمعنى النهي؛ يعـني: لا تـدعوهم يـدخلوها - إذا ظهـرتم عليهم - إلا خائفين.

الثـالث: أنها بشـارة من الله عز وجل أن هـؤلاء الـذين منعـوا المسـاجد - ومنهم المشــركون الـذين منعـوا النـبي صـلى الله عليه وسـلم المسـجد الحرام - ستكون الدولة عليهم، ولا يدخلونها إلا وهم ترجف قلوبهم.

قوله تعـالى: { لهم في الـدنيا خـزي } أي ذل، وعـار { ولهم في الآخـرة عذاب عظيم } أي عقوبة عظيمة.

الفوائد:

1- من فوائد الآيـة: أن المعاصي تختلف قبحـاً؛ لقوله تعـالى: { ومن أظلم }؛ و{ أظلم } اسم تفضيل؛ واسم التفضيل يقتضي مفضَّلاً، ومفضَّلاً عليه؛ وكما أن المعاصي تختلـف، فكـذلك الطاعـات تختلـف: بعضـها أفضل من بعض؛ وإذا كانت الأعمـال تختلف فالعامل نتيجة لها يختلـف؛ فبعض النـاس أقوى إيماناً من بعض؛ وبهذا نعـرف أن القـول الصـحيح قـول أهل السـنة، والجماعة في أن الإيمان يزيد، وينقص، والناس يتفاوتون تفاوتـاً عظيمـاً لا في الكسب القلـبي، ولا في الكسب البـدني: فـإن النـاس يتفـاوتون في اليقين؛ ويتفاوتون في الأعمال الظاهرة من قول أو فعل.

يتفـاوتون في اليقين: فـإن الإنسـان نفسه تتفـاوت أحواله بين حين وآخر؛ في بعض الأحيان يصـفو ذهنه وقلبه حـتى كأنما يشـاهد الآخـرة رأي عين؛ وفي بعض الأحيان تستولي عليه الغفلة، فيَقِلُّ يقينه؛ ولهـذا قـال الله تعـالى لإبـراهيم: {أو لم تـؤمن قـال بلى ولكن ليطمئن قلـبي} [البقـرة: 260] ؛ وتفـاوت النـاس في العلم، واليقين أمر معلـوم: فلو أتى رجـل، وقال: «قدم فلان» - والرجل ثقة عنـدي - صـار عنـدي علم بقدومـه؛ فـإذا جاء آخـر، وقـال: «قـدم فلان» ازداد علمي؛ فـإذا جـاء الثـالث ازداد علمي أكـثر؛ فـإذا رأيتُه ازداد علمي؛ فـالأمور العلمية تتفـاوت في إدراك القلـوب لها.

أيضاً يتفاوت الناس في الأقوال: فالذي يسبِّح الله عشر مـرات أزيد إيماناً ممن يسبِّحه خمس مرات؛ وهذه زيادة كمية الإيمان؛ كـذلك يتفـاوت الناس في الأعمـال من حيث جنس العمـل: فالمتعبد بالفريضة أزيد إيمانـاً من المتعبد بالنافلـة؛ لقوله تعـالى في الحـديث القدسـي: «ما تقـرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه» ؛ فبهذا يكـون القـول الصـواب بلا ريب قول أهل السنة، والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص[1].

2 ــــ ومن فوائد الآية: جـواز منع دخـول المسـاجد لمصـلحة؛ لقوله تعالى: { أن يذكر فيها اسـمه}؛ ومنع مسـاجد الله له أسـباب؛ فتـارة تمنع المسـاجد من أن تمتهن فرشـها، أو أرضـها، أو كتبهـا، أو مصـاحفها؛ فتغلَّق الأبواب حماية لها؛ وتـارة تغلق أبوابها خوفـاً من الفتنـة، كما لو اجتمع فيها قوم لإثارة الفتن، والتشويش على العامة؛ فتغلق منعاً لهؤلاء من الاجتماع؛ وتارة تغلق لترميمها، وإصلاحها؛ وتارة تغلق خوفاً من سرقة ما فيهـا؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح، أو مطلوب.

3 ــــ ومنها: تحريم منع المساجد من أن يـذكر فيها اسم الله سـواء كان ذكر الله: صلاة، أو قراءة للقرآن، أو تعليماً للعلم، أو غير ذلك.

وأخذ بعض العلماء من هـذه الآيـة: تحـريم التحجـر؛ وهو أن يضع شـيئاً في الصف، فيمنع غيره من الصلاة فيـه، ويخـرج من المسـجد؛ قـالوا: لأن هـذا منع المكان الذي تحجره بالمسجد أن يذكر فيه اسم الله؛ لأن هذا المكـان أحق الناس به أسبق الناس إليه؛ وهذا قد منع من هو أحق بالمكان منه أن يــذكر فيه اسم اللــه؛ وهــذا مأخذ قــوي؛ ولا شك أن التحجر حــرام: أن الإنسـان يضع شـيئاً، ويـذهب، ويـبيع، ويشـتري، ويـذهب إلى بيته يسـتمتع

---

[1] أخرجه البخاري ص545 – 546، كتاب الرقاق، باب 38ك التواضع، حديث رقم 6502.

بأولاده، وأهله؛ وأما إذا كان الإنسـان في نفس المسـجد فلا حـرج أن يضع ما يحجز به المكان بشرط ألا يتخطى الرقـاب عند الوصـول إليـه، أو تصل إليه الصفوف؛ فيبقى في مكانه؛ لأنه حينئذ يكون قد شغل مكانين.

4- ومن فوائد الآيـة: شـرف المسـاجد؛ لإضـافتها إلى اللـه؛ لقوله تعالى: { مسـاجد الله }؛ والمضـاف إلى الله ينقسم إلى ثلاثة أقسـام: إما أن يكون أوصافاً؛ أو أعياناً؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة؛ فإذا كان المضـاف إلى الله وصفاً فهو من صفاته غير مخلوق، مثل كلام الله، وعلم الله؛ وإذا كان المضاف إلى الله عيناً قائمة بنفسـها فهو مخلـوق وليس من صـفاته، مثل مساجد الله، وناقة الله، وبيت الله؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلى الله من باب إضـافة المخلـوق لخالقه على وجه التشـريف؛ ولا شـيء من المخلوقات يضاف إلى الله عز وجل إلا لسـبب خـاص بـه؛ ولـولا هـذا السـبب ما خص بالإضـافة؛ وإذا كـان المضـاف إلى الله ما يتعلق بأعيـان مخلوقة فهو أيضـاً مخلــوق؛ وهــذا مثل قوله تعــالى: {ونفخت فيه من روحي} [الحجر: 29] ؛ فإن الروح هنا مخلوقة؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة.

5- ومن فوائد الآية: أن المصلّيات التي تكون في البيوت، أو الدوائر الحكومية لا يثبت لها هذا الحكم؛ لأنها مصـلّيات خاصـة؛ فلا يثبت لها شـيء من أحكام المساجد.

6- ومنها: أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سبباً للشرك؛ لأن { مسـاجد الله } معناها موضع السـجود لـه؛ فـإذا وضع فيها ما يكـون سبباً للشرك فقد خرجت عن موضوعها، مثل أن نقـبر فيها المـوتى؛ فهـذا محرم؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

7- ومنها: وجوب تطهير المساجد؛ وهذا مأخوذ من إضـافتها إلى الله تلك الإضافة القاضية بتشريفها، وتعظيمها؛ ولهذا قال تعالى: { وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود }.

8- ومنها: أن الناس فيها سواء؛ لأن الله تعالى أضافها إلى نفسه: { مساجد الله }؛ والناس عباد الله - بالنسبة إلى الله في المسـجد سـواء -؛ فكل من أتى إلى هذه المساجد لعبادة الله فإنه لا فرق بينه وبين الآخرين.

وهنا نقـول: إن للعـالِم الحق أن يتخذ مكانـاً يجعله لإلقـاء الـدرس، وتعليم الناس؛ لكنه إذا أقيمت الصلاة لا يمنع الناس - هو، وغيره سواء -.

9- ومنها: أن ذكر الله لا بد أن يكون باسمه، فتقـول: لا إله إلا اللـه؛ سبحان اللـه؛ سـبحان ربك رب العـزة عما يصـفون؛ سـبحان ربي العظيم؛ فالذكر باللسـان لا يكـون إلا باسم اللـه؛ أما ذكر القلب فيكـون ذكـراً للـه، وذكـراً لأسـمائه؛ فقد يتأمل الإنسـان في قلبه أسـماء اللـه، ويتـدبر فيهـا، ويكــون ذكــراً للاســم؛ وقد يتأمل في أفعــال الله عز وجــل، ومخلوقاتــه، وأحكامه الشرعية.

أما ذكره بالضمير المفرد فبدعة، وليس بذكر، مثل طريقة الصـوفية الذين يقولون: أفضل الذكر أن تقول: «هو»، «هو»؛ «هو»، «هـو»؛ قـالوا: لأنك لا تشاهد إلا الله ـــ والعياذ بالله؛ فهم يـرون أن أكمل حـال الإنسـان هو الفناء ـــ أي يفنى عن مشـاهدة ما سـوى اللـه، بحيث إنه ما شـاهد إلا اللـه؛ ويقولـون: ليس بلازم أن تقـول: «لا إله إلا اللـه»: تثبت إلهين: واحد منفي، والثاني مثبت! بل قل: «هو»، «هو»، «هو»؛ فهذا لا شك من البدع؛ وليس ذكراً لله عز وجل؛ بل هو من المنكر.

10 ـــ ومن فوائد الآيـة: تحـريم تخـريب المسـاجد؛ لقوله تعـالى: { وسـعى في خرابها }؛ ويشـمل الخـراب الحسـي، والمعنـوي؛ لأنه قد يتسـلط بعض النـاس ـــ والعيـاذ بالله ـــ على هـدم المسـاجد حسًّـا بالمعاول، والقنابـل؛ وقد يخربها معنًى، بحيث ينشر فيها البـدع والخرافـات المنافية لوظيفة المساجد.

ـــ ومنهـا: البشـارة للمؤمـنين بـأن العاقبة لهم، وأن هـؤلاء الـذين منعـوهم لن يـدخلوها إلا وهم خـائفون؛ وهـذا على أحد الاحتمـالات الـتي ذكرناها.

12 ـــ ومنهـا: أن عقوبة من منع مسـاجد الله أن يـذكر فيها اسـمه وسعى في خرابها، الخزي والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

13 ـــ ومنها: أن الـذنب إذا كـان فيه تعـدٍّ على العبـاد فـإن الله قد يجمع لفاعله بين العقوبـتين: عقوبة الـدنيا، وعقوبة الآخـرة؛ عقوبة الـدنيا ليشفي قلب المظلوم المعتدى عليه؛ ولا شك أن الإنسان إذا اعتدى عليك، ثم رأيت عقوبة الله فيه أنك تفرح بأن الله سبحانه وتعالى اقتص لك منـه؛ أما إذا كان في حق الله فإن الله تعـالى لا يجمع عليه بين عقوبـتين؛ لقوله تعـالى: {وما أصـابكم من مصـيبة فبما كسـبت أيـديكم ويعفو عن كثـير} [الشورى: 30] .

14 ـــ ومن فوائد الآية: إثبـات يـوم القيامـة؛ لقوله تعـالى: { ولهم في الآخرة عذاب عظيم }.

15 ـــ ومنها: أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا، كما أن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدنيا؛ ولكن الله سبحانه وتعالى يُري عباده نموذجـاً من هذا، ومن هذا؛ لأنه لا يستقيم فهم الوعيد، ولا فهم الوعد، إلا بمشاهدة نموذج من ذلـك؛ لو كـان الله توعد بالنـار، ونحن لا نـدري ما هي النـار، فلا نخاف إلا خوفـاً إجماليـاً عامـاً؛ وكـذلك لو وعد بـالنعيم والجنـة، ولا نعـرف نموذجاً من هذا النعيم، لم يكن الوعد به حافزاً للعمل.

القـرآن

{)وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:115)

التفسير:

{ 115 } قوله تعـــالى: { ولله المشـــرق والمغـــرب }؛ اللام للاختصـــاص؛ يعـــني أن الله ســـبحانه وتعـــالى مختص بملك المشـــرق، والمغرب؛ وأما من سواه فملكه محـدود؛ و{ المشـرق } مكـان الشـروق؛ و{ المغرب } مكان الغروب؛ وقد وردت المشـرق، والمغـرب في القـرآن على ثلاثة أوجه: مفردة، ومثناة، وجمـع؛ فجـاءت مفـردة هنا فقـال تعـالى: { ولله المشـــرق والمغـــرب }؛ وجـــاءت مثنـــاة في قوله تعـــالى: {رب المشرقين ورب المغربين} [الرحمن: 17] ، وجمعاً في قوله تعالى: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب} [المعارج: 40] ؛ والجمع بين هذه الأوجه الثلاثة أن نقول: أما «المشرق» فلا ينافي «المشارق» ، ولا «المشرقين» ؛ لأنه مفرد محلى بـ «أل» ؛ فهو للجنس الشامل للواحد، والمتعدد؛ وأما { رب المشرقين ورب المغربين }، و{ رب المشـارق والمغـارب } فـالجمع بينهما أن يقال: إن جمع { المشـارق }، و{ المغـارب } باعتبـار الشـارق،

والغارب؛ لأن الشارق، والغارب كثير: الشـمس، والقمـر، والنجـوم؛ كله له مشرق، ومغرب؛ فمن يحصي النجوم! أو باعتبار مشرق كل يوم، ومغربـه؛ لأن كل يـوم للشـمس مشـرق، ومغـرب؛ وللقمر مشـرق، ومغـرب؛ وثنَّى باعتبار مشرق الشتاء، ومشرق الصيف؛ فمشـرق الشـتاء تكـون الشـمس في أقصى الجنوب؛ ومشرق الصيف في أقصى الشمال؛ وبينهما مسـافات عظيمة لا يعلمها إلا الله؛ وسورة «الـرحمن» أكـثر ما فيها بصـيغة التثنيـة؛ فلـذلك كـان من المناسب اللفظي أن يـذكر المشـرق، والمغـرب بصـيغة التثنيــة؛ أما عند العظمة فــذكرت بــالجمع: {فلا أقسم بــرب المشــارق والمغـارب إنا لقـادرون * على أن نبـدل خـيراً منهم وما نحن بمسـبوقين} [المعـارج: 40، 41] ؛ فقوله تعـالى: { ولله المشـرق والمغـرب } أي مشرق كل شارق؛ ومغرب كل غارب؛ ويحتمل أن المراد له كل شيء؛ لأن ذكر المشرق والمغرب يعني الإحاطة والشمول.

قوله تعالى: { فأينما تولوا فثم وجه الله }؛ «أين» شرطية؛ و «ما» زائدة للتوكيـد؛ و{ تولـوا } فعل الشـرط مضـارع مجـزوم بـأداة الشـرط؛ وعلامة جزمه حذف النـون؛ وقوله تعـالى: { فثم وجه الله }: الفـاء رابطة لجواب الشرط؛ و{ ثم } اسم إشـارة يشـار به للبعيـد؛ وهو ظـرف متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ { وجه } مبتـدأ مـؤخر؛ والجملة من المبتـدأ، وخـبره في محل جزم جواب الشرط.

قوله تعالى: { تولوا } أي تتجهوا؛ { فثم } أي فهناك؛ والإشارة إلى الجهة التي تولوا إليها؛ و{ وجه الله }: اختلف فيه المفسرون من السلف، والخلف، فقال بعضهم: المراد به وجه الله الحقيقي؛ وقال بعضهم: المـراد به الجهة: { فثم وجه الله } يعني: في المكـان الـذي اتجهتم إليه جهة الله عز وجـل؛ وذلـك؛ لأن الله محيط بكل شـيء؛ ولكن الـراجح أن المـراد به الوجه الحقيقي؛ لأن ذلك هو الأصل؛ وليس هناك ما يمنعه؛ وقد أخبر النبي صـلى الله عليه وسـلم أن الله تعـالى قِبَل وجه المصـلي[1]؛ والمصـلُّون حسب مكانهم يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنـوب؛ وأهل المشـرق إلى المغـرب؛ وأهل المغـرب إلى الشـرق؛ وكل يتجه جهــة؛ لكن الاتجــاه الــذي يجمعهم الكعبــة؛ وكل يتجه إلى وجه اللــه؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: أنكم مهما توجهتم في صلاتكم فإنكم تتجهـون إلى الله ســواء إلى المشــرق، أو إلى المغــرب، أو إلى الشــمال، أو إلى الجنوب.

قوله تعــــالى: { إن الله واسع عليم }؛ «الواســـع» يعــــني واسع الإحاطـة، وواسع الصـفات؛ فهو واسع في علمــه، وفي قدرتــه، وسـمعه، وبصره، وغـير ذلك من صـفاته؛ و{ عليم } أي ذو علم؛ وعلمه محيط بكل شيء.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآيـة: انفـراد الله بالملـك؛ لتقـديم الخـبر في قوله تعالى: { ولله المشرق والمغرب}.

2 ــــ ومنها: عموم ملك اللـه؛ لأن المشـرق والمغـرب يحتويـان كل شيء.

---

[1] أخرجه البخاري ص35، كتاب الصلاة، باب 33: حك البزاق باليد من المسجد، حديث رقم 406، وأخرجه مسلم ص763، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب 13: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها...، حديث رقم 1223 [50] 547.

3 ـــ ومنهـا: إحاطة الله تعـالى بكل شـيء؛ لقوله تعـالى: { فأينما تولوا فثم وجه الله }.

4 ـــ ومنهـا: عمـوم ملك الله تعـالى للمشـرق، والمغـرب خلقـاً وتقديراً؛ وله أن يوجه عبـاده إلى ما شـاء منهما من مشـرق ومغـرب؛ فله ملك المشرق والمغرب توجيهـاً؛ وقد سـبق أن قوله تعـالى: {ما ننسخ من آية أو ننسـها...} [البقـرة: 106] إلى آيـات نسخ القبلة كله تمهيد لتحويل القبلة؛ فكأن الله تعالى يقول: لله المشرق والمغرب فإذا شاء جعل اتجـاه القبلة إلى المشـرق؛ وإذا شـاء جعله إلى المغـرب؛ فأينما تولـوا فثم وجه الله.

5 ـــ ومنها: إثبات الوجه لله سـبحانه وتعـالى؛ لقوله تعـالى: { فثم وجه الله }.

6 ـــ ومنهـا: أن الله تعـالى له مكـان لقوله تعـالى: { فثم }؛ لأن «ثم» إشـارة إلى المكـان؛ ولكن مكانه في العلـو؛ لا يحيط به شـيء من مخلوقاته؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: «أين الله؟ قـالت: في السماء»[2] .

7 ـــ ومنها: إبطال بدعتين ضالتين؛ إحداهما بدعة الحلولية القـائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته؛ فـإن قـول هـؤلاء باطل يبطله السـمع، والعقل، والفطرة أيضاً؛ الثانية: قول النفاة المعطلة الذين يقولون: إن الله لا داخل العالم، ولا خارجه؛ ولا فوق العـالم، ولا تحتـه؛ ولا يمين العـالم، ولا شمال العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم؛ وهـذا القـول قـال بعض أهل العلم: لو قيل لنا: صفوا لنا العدم ما وجدنا وصفاً أدق من هذا.

8 ـــ ومن فوائد الآية: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: { واسع }، و{ عليم }.

9ـــ ومنها: إثبات سعة اللـه، وعلمـه؛ ونسـتفيد صـفة ثالثة من جمع السـعة والعلم؛ للإشـارة إلى أن علم الله واسع بمعـنى أنه لا يفوته شـيء من كل معلوم لا في الأرض، ولا في السماء.

القـــرآن

{)وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَـانِتُونَ) (البقـرة:116))بَـدِيعُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَـى أَمْـراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة:117)

التفسير:

{ 116 } قوله تعالى: { وقالوا اتخذ الله ولداً } أي قالت النصارى، واليهـــود، والمشـــركون، اتخذ الله ولـــداً؛ اليهـــود قـــالت: عُزير ابن اللـــه؛ والنصارى قالت: المسيح ابن الله؛ والمشركون قالوا: الملائكة بنـات اللـه؛ فنزه الله نفسه عن ذلك بقوله تعالى: { سبحانه } أي تنزيهـاً له أن يكـون له ولـد؛ لأنه الغـني بذاته عن جميع مخلوقاتـه؛ وهو سـبحانه وتعـالى مالك لجميع المخلوقـات، كما قـال تعـالى مبطلاً هـذه الـدعوى: { بل له ما في السموات والأرض }؛ ومن له ملك السـموات والأرض، لا يحتـاج إلى ولـد؛

[2] أخرجه مسلم ص761، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب 7: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم 1199 [33] 537.

ولأنه لو كان له ولد لكان الولد مماثلاً له؛ والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

قوله تعالى: { كل له قانتون } أي كل له خاشع ذليل؛ لأنه مملــوك؛ والله ـــ تبارك وتعـالى ـــ هو المالـك؛ وهـذا من الاسـتدلال بالعقل على كذب دعوى هؤلاء أن له سبحانه وتعالى ولداً.

{ 117 } قوله تعالى: { بديع }: فعيل بمعنى مُفعل؛ أي مبدع؛ ولها نظير في اللغة العربية، مثل قول الشاعر:

أم الريحانةَ الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع فــ«السـميع» بمعـنى المسمِع؛ { بديع السموات والأرض} أي موجدهما على غير مثال سابق.

قوله تعـالى: { وإذا قضى أمـراً فإنما يقـول له كن فيكـون } أي إذا أراد أن يقضي أمــراً؛ والفعل يــأتي بمعــنى إرادته المقارنة لــه، مثل قوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الـرجيم} [النحـل: 98] أي إذا أردت قراءتــه؛ والـدليل على تأويل {قضى } بمعـني «أراد أن يقضي» هو قوله تعالى في آية أخرى: {إنما أمـره إذا أراد شـيئاً أن يقـول له كن فيكون} [يس: 82] ؛ على أنه يصلح أن يكون { إذا قضى أمراً... } بمعنى إذا فعل شيئاً فإنما يقول تعالى له عند فعله: { كن فيكون }؛ يعني أن فعله سبحانه وتعالى للشيء يكون بعد قوله عز وجل: { كن } من غير تأخر؛ لأنه ليس أمراً شاقاً عليه؛ و{ أمراً } واحد الأمـور؛ يعـني الشـؤون؛ أي إذا قضى شأناً من شـؤونه سـبحانه وتعـالى فـإن ذلك لا يصـعب عليـه: { فإنما يقول له كن }؛ أي لا يقول له إلا «كن» مرة واحـدة بـدون تكـرار؛ و{ كن } هنا تامة من «كان» بمعـنى حـدث؛ { فيكـون } أي فيحـدث كما أمره الله سبحانه وتعالى على ما أراد الله عز وجل.

وفي قوله تعالى: { فيكون } قراءتــان؛ هما النصـب، والرفـع؛ فعلى قراءة النصب تكون جواباً للأمـر: { كن } أي فبسـبب ذلك يكـون؛ وتكـون الفاء للسببية؛ وعلى قراءة الرفع تكون للاستئناف؛ أي فهو يكون.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيتين: بيان عتوّ الإنسان وطغيانـه، حيث سـبَّ الله سـبحانه وتعـالى هـذه السـبَّة العظيمـة، فقـال: إن الله اتخذ ولـداً!!! في الحديث الصحيح القدسي: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: إنه لن يعيدني كما بـدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شـتمه إيـاي فقوله اتخذ الله ولـداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفْئاً أحدٌ»[1] ؛ فهـذا من أعظم العـدوان؛ وهو يشـير كما تقـدم في التفسـير إلى ثلاث طوائـف: اليهـود، والنصـارى، والمشـركين؛ وقد أبطل الله هــذه الـدعوى الكاذبة من سـتة أوجه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: { سبحانه }؛ فإن تنزهه عن النقص يقتضي أن يكون منزهاً عن اتخاذ الولـد؛ لأن اتخـاذ الولد يقصد به الإعانـة، ودفع الحاجة، أو بقاء العنصر؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلـك؛ ومـنزه أيضاً عن المماثلة؛ ولو كان له ولد لكان مثيلاً له.

الوجه الثاني: في قوله تعالى: { بل له ما في السموات والأرض }؛ وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.

---

(1) أخرجه البخاري ص431، كتاب التفسير، باب 1: حديث رقم 4974.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: { بل له ما في السموات والأرض }، والمملوك لا يكـون ولـداً للمالـك؛ حـتى إنه شـرعاً إذا ملك الإنسـان ولـده يعتق عليـه؛ فـالمملوك لا يمكن أن يكـون ولـداً للمالـك؛ فالله خـالق؛ وما سواه مخلوق؛ فكيف يكون المخلوق ولداً للخالق!
الوجه الرابع: في قوله تعالى: { كل له قـانتون }؛ ووجهه أن العبـاد كلهم خاضعون ذليلون؛ وهذا يقتضي أنهم مربوبون لله عابـدون لـه؛ والعبد لا يكون ولداً لربه.
الوجه الخــامس: في قوله تعــالى: { بــديع الســموات والأرض }؛ ووجهه أنه سـبحانه وتعـالى مبـدع السـموات والأرض؛ فالقـادر على خلق السـموات والأرض قـادر على أن يخلق إنسـاناً بلا أب، كما قـال تعـالى: {لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس} [غافر: 57] .
الوجه الســادس: في قوله تعــالى: { إذا قضى أمــراً فإنما يقــول له كن فيكون }؛ ومن كان هذه قدرته فلا يستحيل عليه أن يوجد ولداً بدون أب. فبطلت شبهتهم التي يحتجون بها على أن لله ولداً.
2 ـــ ومن فوائد الآيـتين: امتنـاع أن يكـون لله ولـد؛ لهـذه الوجـوه الستة.
3ـــ ومنها: عموم ملك الله سبحانه وتعـالى؛ لقوله تعـالى: { بل له ما في السموات والأرض }.
4ـــ ومنها: أن الله لا شـريك له في ملكـه؛ لتقـديم الخـبر في قوله تعالى: { له ما في السموات والأرض }؛ وتقديم الخبر يفيد الاختصاص.
5ـــ ومنها: أن كل من في السموات، والأرض قانت للـه؛ والمـراد القنـوت العـام ـــ وهو الخضـوع للأمر الكـوني ـــ؛ والقنـوت يطلق على معنيين؛ معنى عام وخاص؛ «المعنى الخاص» هو قنوت العبادة، والطاعــة، كما في قوله تعـالى: {أمَّن هو قـانت آنـاء الليل سـاجداً وقائمـاً} [الزمـر: 9]ـ ، وكما في قوله تعــالى: {وصــدَّقت بكلمــات ربها وكتبه وكـانت من القانتين} [التحـريم: 12]ـ ، وكما في قوله تعـالى: {يا مـريم اقنـتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} [آل عمران: 43]ـ ؛ و«المعنى العام» هو قنوت الذل العـام؛ وهـذا شـامل لكل من في السـموات، والأرض، كما في هذه الآية: { كل له قانتون }؛ حتى الكفار بهذا المعنى قانتون لله ســبحانه وتعالى؛ لا يخرجون عن حكمه الكوني.
6 ـــ ومن فوائد الآيتين: عظم قدرة الله عز وجل ببـدع السـموات، والأرض؛ فإنها مخلوقات عظيمة.
7ـــ ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى بأن هـذه السـموات، والأرض على نظــام بــديع عجيب؛ قــال تعــالى: {ما تــرى في خلق الــرحمن من تفاوت} [الملك: 3]ـ ؛ هذا النظام الواسع الكبير العظيم لا يختل، ولا يتغير على مر السنين، والأعوام؛ فتدل على قـدرة بـاهرة بالغـة، وحكمة عظيمة بالغة: كل شيء منظم تنظيمـاً بـديعاً متناسـباً، فلا يصـطدم شـيء بشـيء فيفسده؛ ولا يغير شيء شـيئاً؛ بل كل سـائر حسب ما أمـره الله بـه؛ قـال الله تعـالى: {وأوحى في كل سـماء أمرهـا} [فصـلت: 12]ـ ؛ إذاً { بـديع السموات والأرض } يستفاد منها القوة، والقدرة، والحكمة.
8ـــ ومن فوائد الآيـتين: أن السـموات عـدد؛ لأن الجمع يـدل على العدد؛ وقد بيَّن الله في القرآن، وثبتت السـنة، وأجمع المسـلمون على أن

السماء جرم محسوس؛ وليس كما قال أهل الإلحاد: إن الـذي فوقنا فضـاء لا نهاية لـه؛ وأما الأرض فلم تـأت في القـرآن إلا مفـردة؛ لكن أشـار الله سـبحانه وتعـالى إلى أنها سـبع في قوله تعـالى: {الله الـذي خلق سـبع سموات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: 12] ؛ وصرحت السـنة بـذلك في قوله (ص): «من اقتطع شـبراً من الأرض ظلمـاً طوقه الله إيـاه يـوم القيامة من سبع أرضين»[1] .

9ـــ ومن فوائد الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شـيء، ولا يمتنع عن أمـره شـيء؛ لقوله تعـالى: { إذا قضى أمـراً فإنما يقـول له كن فيكون }.

10ـــ ومنها: إثبات القول لله؛ لقوله تعالى: { فإنما يقول له }.

11ـــ ومنهـا: أن قـول الله بصـوت مسـموع؛ لقوله تعـالى: { فإنما يقول له كن فيكون }؛ و{ له } صريحة في توجيه القول للمقول له؛ ولولا أنه يسمعه لما صار في توجيهه له فائدة؛ ولهذا يسمعه الموجه إليه الأمـر، فيمتثل، ويكون.

12ـــ ومنهـا: أن قـول الله بحـروف؛ لقوله تعـالى: { كن }؛ وهي كلمة بحرفين.

فإن قال قائل: كيف يمكن أن نتصور هذا ونحن نقـول: ليس كمثله شـيء؛ وأنتم تقولون: إنه بحروف؟ قلنـا: نعم؛ الحـروف هي الحـروف؛ لكن كيفية الكلام، وحقيقة النطق بها ـــ أو القول ـــ لا يماثل نطق المخلوق، وقوله؛ ومن هنا نعرف أننا لا نكـون ممثِّلة إذا قلنـا: إنه بحـرف، وصـوت مسـموع؛ لأننا نقـــول: صـــوت ليس كأصـــوات المخلـــوقين؛ بل هو حسب ما يليق بعظمته، وجلاله.

13ـــ ومن فوائد الآيـتين: أن الجمـاد خاضع لله سـبحانه وتعـالى؛ وذلك لأن قوله تعـــالى: { وإذا قضى أمـــراً فإنما يقـــول له كن فيكـــون } يشمل الأمور المتعلقة بالحيوان، والمتعلقة بالجمـاد؛ فالجمـاد إذا قـال الله تعالى له: { كن } كان.

14ـــ ومنها: أنه ليس بين أمر الله بالتكوين، وتكونه تراخٍ؛ بل يكون على الفوريـة؛ وذلك لقوله تعـالى: { فيكـون }: بالفـاء؛ والفـاء تـدل على الترتيب، والتعقيب.

القـــــرآن

{)وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ) (البقـرة: (118

التفسير:

{ 118 } قوله تعالى: { وقال الذين لا يعلمون } أي ليسوا من ذوي العلم { لولا يكلمنا الله } أي هلّا يكلمنا الله بتصـديق الرسل { أو تأتينا آية } أي علامة على صـدقهم؛ وهـذا منهم على سـبيل التعنت والعنـاد؛ فـالتعنت قولهم: { لـولا يكلمنا الله }؛ والعنـاد قـولهم: { أو تأتينا آية }؛ لأن الرسل

---

[1] اخرجه البخاري ص259، كتاب بدء الخلق، باب 2: ما جاء في سبع أرضين، حديث رقم 3198، وأخرجه مسلم ص958، كتاب المساقاة، باب 30: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم 4132 [137] 1610، واللفظ لمسلم.

أتوا بالآيات التي يـؤمن على مثلها البشـر؛ وأعظمها القـرآن الكـريم الـذي نزل على محمد صـلى الله عليه وسـلم؛ وقد تحـداهم الله أن يـأتوا بمثلـه، فعجزوا.

قوله تعالى: { كذلك قـال الـذين من قبلهم مثل قـولهم }؛ أي مثـلَ هذا القول قال الذين من قبلهم؛ وعلى هذا يكـون { مثل قـولهم } توكيـداً لقوله تعالى: { كذلك }؛ أي مثل هذا القول الذي اقــترحوه قد اقترحه من قبلهم: قوم موسى قالوا: {لن نؤمن لك حـتى نـرى الله جهرة} [البقـرة: 55] ؛ فهذا دأب المكذبين للرسل ينكرون، ويقترحون؛ وقد أتوا من الآيات بأعظم مما اقترحوه.

قوله تعـالى: { تشـابهت قلــوبهم }: الأولــون، والآخــرون قلــوبهم متشـــابهة في رد الحـــق، والعنـــاد، والتعنت، والجحـــود؛ من أول ما بعثت الرسل إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ـــــ بل وإلى يـوم القيامة ـــــ فقلوب أهل الكفر، والعناد متشـابهة؛ إنما يختلف الأسـلوب؛ قد يقـترح هـؤلاء شـيئاً؛ وهـؤلاء شـيئاً آخـر؛ لكن الكلام على جنس الاقـتراح، وعـدم قبولهم للحق.

قوله تعــالى: { قد بينا } أي أظهرنــا؛ لأن «بــان» بمعــنى ظهــر؛ و«بيَّن» بمعنى أظهر؛ و{ الآيات } جمع آية؛ وهي العلامة المعيِّنة لمدلولها؛ فكل علامة تعين مدلولها تسمى آية؛ فآيات الله هي العلامات الدالة عليه.

قوله تعالى: { لقوم يوقنون } متعلقة بقوله تعالى: { بينا }؛ و «الإيقــان» هو العلم الذي لا يخالجه شك.

الفوائد:

1 ـــــ من فوائد الآية: أن أهل الباطل يجـادلون بالباطـل؛ لأن طلبهم الآيات التي يعينونها ما هو إلا تعنت واستكبار؛ ففي الآيـات الـتي جـاءت بها الرسل ما يــؤمن على مثلها البشــر؛ ثم إنهم لو جــاءت الآيــات على ما اقـترحوا لم يؤمنـوا إذا حقت عليهم كلمة ربهم؛ لقوله تعـالى: {إن الـذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حـتى يـروا العـذاب الأليم} [يوسف: 96، 97] .

2 ـــــ ومنها: وصف من لم يَنقَدْ للحق بالجهل؛ لقوله تعالى: { وقال الذين لا يعلمون }؛ فكل إنسان يكابر الحق، وينابذه فإنه أجهل الناس.

3 ـــــ ومنها: أن المشركين يقـرون بـأن الله يتكلم بحـرف، وصـوت مسموع؛ لقوله تعالى: { لـولا يكلمنا الله فهم خـير في هـذا ممن يـدعون أن كلام الله هو المعنى القائم في نفسه.

4 ـــــ ومنها: أنه ما من رسول إلا وله آية؛ لأن قـولهم: { أو تأتينا آية } هذا مدَّعى غيرهم؛ إذ إن من لم يأت بآية لا يلام من لم يصـدقه؛ مثلاً إذا جــاء رجل يقــول: «أنا رســول اللــه؛ آمنــوا بي وإلا قتلتكم، واســتحللت نسـاءكم، وأمـوالكم» فلا نطيعـه؛ ولو أننا أنكرنـاه لكنا غـير ملـومين؛ لكن الرسل تأتي بالآيـات؛ ما من رسـول إلا وأعطـاه الله تعـالى من الآيـات ما يؤمن على مثلها البشر؛ فالله تعالى لا يرسل الرسل، ويتركهم بدون تأييد.

5 ـــــ ومن فوائد الآية: أن أقوال أهل الباطل تتشـابه؛ لقوله تعـالى: { كذلك قـال الـذين من قبلهم مثل قـولهم وقوله تعـالى: {كـذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنـون * أتواصـوا به بل هم

قوم طاغون} [الذاريات: 52، 53] ؛ وأنت لو تأملت الدعاوى الباطلة التي رد بها المشـركون رسـالة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم من زمنه إلى اليوم لوجدت أنها متشابهة، كما قـال تعـالى: {وإذا رأوهم قـالوا إن هـؤلاء لضالون} [المطففين: 32] ؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن، والسنة هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئاً.

6 ــــ ومن فوائد الآيــة: أن الأقــوال تابعة لما في القلــوب؛ لقوله تعـالى: { كـذلك قـال الـذين من قبلهم مثل قـولهم تشـابهت قلـوبهم }؛ فلتشابه القلوب تشابهت الأقـوال؛ ويؤيد هـذا قـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»[1].

7ــــ ومنها: تشابه قلوب الكفار؛ لقوله تعالى: { تشابهت قلوبهم }.

8ــــ ومنهـا: تسـلية الرسـول صـلى الله عليه وسـلم؛ لأن الإنسـان المصاب إذا رأى أن غيره أصيب فإنه يتسلى بـذلك، وتخف عليه المصـيبة، كما قـــال تعـــالى: {ولن ينفعكم اليــــوم إذ ظلمتم أنكم في العــــذاب مشتركون} [الزخرف: 39] ؛ فالله تعالى يسلي رسوله (صـلى الله عليه وسلم) بأن هذا القول الذي قيل له قد قيل لمن قبله.

9 ــــ ومنها: إبطال دعوى قـولهم: { أو تأتينا آية } في قوله تعـالى: { قد بينا الآيات }.

10 ــــ ومنها: أنه لا ينتفع بالآيـات إلا الموقنـون؛ لقوله تعـالى: { قد بينا الآيات لقوم يوقنون }؛ وأما غير الموقنين فلا تتبين لهم الآيـات لما في قلوبهم من الريب والشك.

11 ــــ ومنها: أن الموقن قد يتبين له من الآيات ما لم يتبين لغـيره؛ ويؤيده قوله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتـاهم تقـواهم} [محمـد: 17] .

12 ــــ ومنها: أن الآيات تنقسم إلى قسمين: آيـات شـرعية، وآيـات كونية؛

فالآيات الشـرعية: ما جـاءت به الرسل من الـوحي؛ والقسم الثـاني آيات كونيـة: وهي مخلوقـات الله الدالة عليـه، وعلى ما تقتضـيه أسـماؤه، وصفاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها:

وفي كل شــيء له آية تــدل على أنه واحد 13 ــــــ ومنهــا: زيــادة العلم باليقين؛ لأن من آيات الله هذا الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فكلما ازداد يقينك تبين لك من آيات الله ما لم يتبين لغيرك، فيزداد علمك؛ فبـاليقين يـزداد العلم؛ قـال تعـالى: {ويـزداد الـذين آمنـوا إيمانـاً} [المدثر: 31] ؛ فكلما كان الإنسان أقوى يقيناً كان أكثر علماً؛ وكلما ازداد علمه ازداد يقينه؛ فهما متلازمان.

---

[1] أخرجه البخاري ص6، كتاب الإيمان، باب 39: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم 52، وأخرجه مسلم ص955، كتاب المساقاة، باب 2: أخذ الحلال وترك الحرام، حديث رقم 4094 [107] 1599.

القـــرآن

{)إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) (البقرة:119)

التفسير:

{ 119 } قوله تعالى: { إنا أرسلناك }؛ «إن» للتوكيد؛ اسمها «نا» لكن حذفت النون لتوالي الأمثال؛ مع أن الأصل أنها لا تحذف: «إننا»؛ لكن لا نقول اسمها الألف؛ إذ إن الألف لا تكون ضميراً إلا إذا اتصلت بفعل، مثل: قالا، قاما، وما أشبه ذلك؛ وحذف المرسل إليه لإفادة العموم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى العالمين؛ وغيره من الرسل إلى قومهم خاصة.

قوله تعالى: { بالحق }؛ الباء هنا للمصاحبة، أو الملابسة؛ يعني أرسلناك متلبساً بالحق؛ أو أن المعنى: حاملاً الحق في هذه الرسالة؛ والآية تحتمل المعنيين؛ أحدهما: أن إرسالك حق؛ والثاني: أن ما أرسلت به حق؛ والمعنيان كلاهما صحيح؛ فتحمل الآية عليهما؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم رسالته حق؛ وعليه فالباء للملابسة؛ والرسول صلى الله عليه وسلم ما أرسل به فهو حق؛ وعلى هذا فالباء للمصاحبة ـــ يعني أن رسالتك مصحوبة بالحق ـــ؛ لأن ما جئت به حق؛ والحق هو الثابت المستقر؛ وهو ضد الباطل؛ والحق بالنسبة للأخبار الصدق؛ وبالنسبة للأحكام العدل.

قوله تعالى: { بشيراً } من البشارة؛ وهي الإخبار بما يسر؛ وقد تقع فيما يسوء، كقوله تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم} [آل عمران: 21] .

قوله تعالى: { ونذيراً } من الإنذار؛ وهو الإعلام بالمكروه؛ أي بما يخاف منه.

والرسول صلى الله عليه وسلم لا شك أنه مبشر بما يسر ـــ وهو الجنة ـــ؛ ومنذر بما يخاف منه ـــ وهو النار و{ بشيراً } حال من الكاف في { أرسلناك }؛ و{ نذيراً } حال أخرى بواسطة حرف العطف؛ فجمع الله له بين كونه مبشراً، ومنذراً؛ لأن ما جاء به أمر، ونهي؛ والمناسب للأمر: البشارة؛ وللنهي: الإنذار؛ فعليه تكون رسالة النبي صلى الله عليه وسلم جامعة بين البشرى، وبين الإنذار؛ والأمر، والنهي؛ إذاً فالرسول مبشر للمتقين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً؛ ومنذر للكافرين أن لهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

قوله تعالى: { ولا تسأل عن أصحاب الجحيم }؛ في { تسأل } قراءتان؛ إحداهما بالرفع على أن { لا} نافية؛ والفعل مبني لما لم يسم فاعله؛ يعني: ولا تُسأل أنت عن أصحاب الجحيم؛ أي لا يسألك الله عنهم؛ لأنك بلَّغت؛ والحساب على الله؛ والقراءة الثانية: بالجزم على أن { لا } ناهية؛ و{ تَسأَلْ }: فعل مضارع مبني للفاعل مجزوم بها؛ والمعنى: لا تَسأل عن أصحاب الجحيم بما هم عليه من العذاب؛ فإنهم في حال لا يتصورها الإنسان؛ وهذا غاية ما يكون من الإنذار لهؤلاء المكذبين المخالفين الذين هم أصحاب الجحيم؛ فالنهي هنا للتهويل؛ والقراءتان سبعيتان جامعتان للمعنيين؛ و{ أصحاب } جمع صاحب؛ وهو الملازم؛

و{ الجحيم } النار العظيمة؛ وهي لها أسماء كثيرة منها: النار، والسعير، وجهنم، والجحيم؛ كل ذلك لاختلاف أوصافها؛ وإلا فهي واحدة.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: الرد على هؤلاء الذين قالوا: { لولا يكلمنا الله... }؛ لقوله تعالى: { إنا أرسلناك بالحق }.

2ـــ ومنها: ثبوت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: { إنا أرسلناك }.

3ـــ ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم رسول صادق؛ وليس برب؛ لأن الرسول لا يمكن أن يكون له مقام المرسِل.

4 ـــ ومنها: أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم متضمنة لأمر، ونهي، وتبشير، وإنذار؛ لقوله تعالى: { بشيراً ونذيراً }؛ والحكمة من ذلك ظاهرة؛ وذلك لأن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات؛ أو بالعكس؛ فلو كانت الشريعة كلها أوامر ما تبين الابتلاء في كفّ الإنسان نفسه عن المحارم، ولو كانت كلها نواهي ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسه على الأوامر؛ فكان الابتلاء بالأمر، والنهي غاية الحكمة؛ فالشيخ الكبير يهون عليه ترك الزنى؛ ولذلك كانت عقوبته على الزنى أشد من عقوبة الشاب؛ المهم أن الابتلاء لا يتم إلا بتنويع التكليف؛ فمثلاً الصلاة تكليف بدني؛ والزكاة بذل للمحبوب؛ والصيام ترك محبوب؛ والحج تكليف بدني، ومالي.

5 ـــ ومن فوائد الآية: أن وظيفة الرسل الإبلاغ؛ وليسوا مكلفين بعمل الناس؛ لقوله تعالى: { ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم }.

وعلى القراءة الثانية نستفيد فائدة ثانية ؛ وهي شدة عذاب أصحاب الجحيم ـــ والعياذ بالله ـــ؛ لقوله تعالى: { ولا تَسأل عن أصحاب الجحيم }.

القـــــرآن

{)وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (البقرة:120)

التفسير:

{ 120 } قوله تعالى: { ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم }: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يتألف اليهود، والنصارى؛ والذي يحب أن يتألفهم يحب أن يرضوا عنه؛ فبين الله عزّ وجلّ أن هؤلاء اليهود والنصارى قوم ذوو عناد؛ لا يمكن أن يرضوا عنك مهما تألفتهم؛ ومهما ركنت إليهم بالتألف ـــ لا بالمودة ـــ فإنهم لن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنهَ عنه؛ ثم بعد ذلك كان يأمر بمخالفتهم؛ و{ لا } هنا للتوكيد؛ وليست مستقلة؛ فإنها لو حذفت، وقيل: «ولن ترضى عنك اليهود والنصارى» لاستقام الكلام؛ لكنها زيدت للتوكيد؛ لأجل ألا يظن الظان أن المراد أن الجميع لا يرضون مجتمعين؛ مع أن الواقع أن كل طائفة لن ترضى؛ ونظير ذلك في زيادة «لا»: قوله تعالى: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} [الفاتحة: 7] : فإنها تفيد ما أفادته «لا» في قوله تعالى: { ولا

النصـارى و{ حـتى }: حـرف غايـة؛ وهي تنصب المضـارع بنفسـها عند الكوفـيين؛ وبـ«أن» المقـدرة عند البصـريين؛ و{ ملتهم } أي دينهم الـذي كانوا عليه؛ فاليهود لن يرضوا عنك حتى تكون يهودياً، والنصـارى لن ترضى عنك حتى تكون نصرانياً؛ ولكن الجـواب الوحيد لهـؤلاء الـذين يقولـون: «لا نرضى عنك حتى تتبع ملتنا»، قوله تعـالى: { قل أي مجيبـاً لهم في عـدم اتباع ملتهم { إن هدى الله هو الهـدى } أي ليس الهـدى ما أنتم عليـه؛ بل إن هــدى الله وحـــده هو الهـــدى؛ و{ هو } ضـــمير فصل لا محل له من الإعـراب؛ وقوله تعـالى: { الهـدى } خـبر { إن }؛ أما اسـمها فهو قوله تعالى: { هدى الله }.

قوله تعالى: { ولئن اتبعت أهواءهم }: الخطاب للرسول صـلى الله عليه وسلم؛ أو لكل من يتأتى خطابه؛ ولكن الأقرب أنه للرسول (ص)؛ و{ لئن اتبعت } جملة فيها شـــرط، وقســـم؛ وإذا اجتمعا ـــــ أي الشـــرط، والقسم فإنه يحذف جواب المؤخر منهما؛ قال ابن مالك في الألفية:

واحذف لدى اجتمـاع شـرط وقسم جـواب ما أخـرت فهو ملـتزم والقسَـم دلت عليه اللام في قوله تعـــالى: { ولئن اتبعت }؛ إذ إن التقـــدير: «والله لئن اتبعت»؛ والشـــرط «إن» . والجـــواب: { ما لك من اللـــه... }؛ وهو جواب القسم بناءً على القاعـدة الـتي أشـار إليها ابن مالـك؛ ولأنه لو كـان جواب الشرط لوجب اقترانه بالفـاء؛ لأنه نُفي بـ{ ما }؛ وجـواب الشـرط قيل: إنه محذوف دل عليه جـواب القسـم؛ وقيـل: إنه لا يحتـاج إليه لتمـام الكلام بدونـه؛ وهـذا القـول هو الـراجح ـــ أنه لا يحتـاج إليه لتمـام الكلام بدونه ـــ؛ والدليل على ذلك؛ أنه لم يأت ذكره في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ فـإذا لم يـأت في أي أسـلوب من أسـاليب اللغة العربية دل على أن الكلام مستغن عنه.

قوله تعالى: { بعد الذي جاءك من العلم } يشـير إلى الـوحي الـذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم سواء كان القـرآن، أو السـنة؛ فالـذي جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عِلم.

قوله تعـالى: { ما لك من الله من ولي ولا نصـير }: { ما } نافيـة؛ و{ لك } جار ومجرور خبر مقـدم؛ و{ وليّ } مجـرور لفظـاً مرفـوع محلاً على أنه مبتدأ مرفوع بضـمة مقـدرة على آخـره منع من ظهورها اشـتغال المحل بحركة حـرف الجر الزائد إعرابـاً؛ وأصـلها: «ما لك من الله وليٌّ»؛ وجملة: { ما لك من الله } لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب القسم؛ و «الولي» هو الذي يتولى غيره بحفظـه، وصـيانته؛ فـالمعنى: ما أحد يتـولى حفظك سوى الله عزّ وجلّ؛ و «النصير» هو الذي يدفع الشـر؛ أي: ولا أحد يتولى نصرك، فيدفع عنك الشر سوى الله عزّ وجلّ.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: بيان عناد اليهـود، والنصـارى، حيث لا يرضـون عن أحد إلا إذا اتبع دينهم.

2ـــ ومنهـا: أن من كـان لا يرضى إلا بـذلك فسـيحاول إدخـال غـير اليهود، والنصارى في اليهودية، والنصرانية.

3 ـــ ومنها: الحذر من اليهـود، والنصـارى؛ إذ لا يرضـون لأحد حـتى يكون يهودياً؛ أو نصرانياً.

4 ـــ ومنهـا: أن الكفر ملة واحـدة؛ لقوله تعـالى: { ملتهم }؛ وهو باعتبار مضادة الإسـلام ملة واحـدة؛ أما باعتبـار أنواعه فإنه ملـل: اليهودية ملـة؛ والنصـرانية ملـة؛ والبوذية ملـة؛ وهكـذا بقية الملـل؛ ولكن كل هـذه الملل باعتبـار مضـادة الإسـلام تعتـبر ملة واحـدة؛ لأنه يصـدق عليها اسم الكفر؛ فتكون جنساً، والملل أنواعاً.

5ـــ ومنهـا: الـرد على أهل الكفر بهـذه الكلمـة: { هـدى الله هو الهـدى }؛ والمعـنى: إن كـان معكم هـدى الله فـأنتم مهتـدون؛ وإلا فـأنتم ضالون.

6 ـــ ومنها: أن ما عدا هدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصـرفون} [يـونس: 32] ؛ فكل ما لا يوافق هـدى الله فإنه ضلال؛ وليس ثمة واسطة بين هدى الله، والضلال.

7 ـــ ومنها: أن البـدع ضـلالة؛ لقوله تعـالى: { قل إن هـدى الله هو الهـدى }؛ وقوله تعـالى: {وإنا أو إيـاكم لعلى هـدى أو في ضـلال مـبين} [سبأ: 24] ؛ فليس بعد الهدى إلا الضـلال؛ ولقـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة»[1] .

8 ـــ ومنهـا: تحـريم اتبـاع أهـواء اليهـود، والنصـارى؛ لقوله تعـالى: { ولئن اتبعت أهواءهم بعد الـذي جـاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا نصير }.

9 ـــ ومنهـا: أن ما عليه اليهـود والنصـارى ليس دينـاً؛ بل هو هـوى؛ لقوله تعالى: { أهواءهم }؛ ولم يقل ملتهم كما في الأول؛ ففي الأول قال تعـالى: { ولن ترضى عنك اليهـود ولا النصـارى حـتى تتبع ملتهم}؛ لأنهم يعتقدون أنهم على ملة، ودين؛ ولكن بيَّن الله تعالى أن هذا ليس بدين، ولا ملة؛ بل هوى؛ وليسوا على هدًى؛ إذ لو كانوا على هدى لوجب على اليهـود أن يؤمنـوا بالمسـيح عيسى بن مـريم؛ ولـوجب عليهم جميعـاً أن يؤمنـوا بمحمد صـلى الله عليه وسـلم؛ لكن دينهم هـوى، وليس هـدًى؛ وهكـذا كل إنسـان يتبع غـير ما جـاءت به الرسل ـــ عليهم الصـلوات والسـلام ـــ، ويتعصب له؛ فإن ملته هوى، وليست هدًى.

10ـــ ومن فوائد الآيـــة: أن من اتبع الهـــوى بعد العلم فهو أشد ضلالة؛ لقوله تعالى: { ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم... } الآية.

10ـــ ومنها: أن ما جاء إلى الرسول سـواء كـان القـرآن، أو السـنة فهو علم؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً ـــ لا يقـرأ، ولا يكتب ـــ، كما قـال تعـالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتـاب ولا تخطه بيمينـك} [العنكبوت: 48] ؛ ولكن الله تعالى أنزل عليه هذا الكتاب حتى صار بذلك نبياً جاء بالعلم النافع، والعمل الصالح.

12ـــ ومنهـا: أن من أراد الله به سـوءاً فلا مـرد لـه؛ لقوله تعـالى: { ما لك من الله من ولي ولا نصير }.

13ـــ ومنهـا: أنك إذا اتبعت غـير شـريعة الله فلا أحد يحفظك من الله؛ ولا أحد ينصرك من دونه ـــ حـتى لو كـثر الجنـود عنـدك؛ ولو كـثرت الشُـرَط؛ ولو اشـتدت القـوة ـــ؛ لأن النصر والولاية تكـون بالهداية باتبـاع هدى الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم

---

(1) سبق تخريجه 1/140.

أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} [الأنعام: 82] فـالأمن إنما يكـون بالإيمـان، وعدم الظلم.

14ــــ ومنهـا: أنه يجب تعلق القلب بالله خوفـاً، ورجـاءً؛ لأنك مـتى علمت أنه ليس لك وليّ، ولا نصـير فلا تتعلق إلا باللــه؛ فلا تعلق قلبك أيها المسلم إلا بربك.

القــــــرآن

{)الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة:121)

التفسير:

{ 121 } قوله تعالى: { الذين آتيناهم الكتـاب } مبتـدأ؛ وجملـة؛ { يتلونه حق تلاوته } قيـل: إنها خـبر المبتـدأ؛ وعلى هـذا فتكـون الجملة الثانيـة: { أولئك يؤمنون به } استئنافية؛ وقيل: إن قوله تعالى: { يتلونه حق تلاوته } جملة حاليـة، وأن جملـة: { أولئك يؤمنـون به } خـبر المبتـدأ؛ والأقـرب الإعراب الثاني؛ لأن الكلام هنا عن الإيمان بما جـاء به الرسـول صـلى الله عليه وسلم: لا يؤمنون به إلا من يتلو الكتـاب حق تلاوته سـواء التـوراة، أو الإنجيل، أو القرآن؛ وعلى هذا فقيد الذي آتينـاه الكتـاب بكـونهم يتلونه حق التلاوة أحسن ـــ يعني: أن من أوتي الكتاب، وصار على هـذا الوصف ــــ يتلوه حق تلاوته ـــ فهو الذي يؤمن به ـــ.

وقوله تعالى: { آتيناهم الكتاب } أي أعطينـاهم الكتـاب؛ والإيتـاء هنا إيتـاء شرعي، وكوني؛ لأن الله تعـالى قـدر أن يعطيهم الكتـاب، فأعطـاهم إيـاه؛ وهو أيضـاً إيتـاء شـرعي؛ لأنه فيه الشـرائع، والبيـان؛ والمـراد بمن آتـاهم الكتاب: إما هذه الأمة؛ أو هي، وغيرها؛ وهذا هو الأرجح ـــ أنه شـامل لكل من آتاه الله الكتاب ـــ؛ و{ الكتاب } المراد به الجنس؛ فيشـمل القـرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها من كتب الله عزّ وجلّ.

قوله تعـــــــالى: { يتلونه حق تلاوته }؛ «التلاوة» تطلق على تلاوة اللفظ ـــ وهي القراءة ـــ؛ وعلى تلاوة المعـنى وهي التفسـير ـــ؛ وعلى تلاوة الحكم ــــ وهي الاتِّبـاع ـــ؛ هـذه المعـاني الثلاثة للتلاوة داخلة في قوله تعـالى: { يتلونه حق تلاوته }؛ فــ «التلاوة اللفظيـة» قـراءة القـرآن باللفظ الــذي يجب أن يكــون عليه معربــاً كما جــاء لا يغــير؛ و«التلاوة المعنوية» أن يفسره على ما أراد الله؛ ونحن نعلم مراد الله بهـذا القـرآن؛ لأنه جــاء باللغة العربيــة، كما قــال لله تعــالى: {بلســان عــربي مــبين} [الشـعراء: 195[؛ وهـذا المعـنى في اللغة العربية هو ما يقتضـيه هـذا اللفظ؛ فنكون بـذلك قد علمنا معـنى كلام الله عـزّ وجـلّ؛ و«تلاوة الحكم» امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وتصديق الأخبار.

وقوله تعــالى: { حق تلاوته } هــذا من بــاب إضــافة الوصف إلى موصــوفه ــــ يعـني: التلاوة الحق ـــ؛ أي التلاوة الجِـد، والثبـات، وعـدم الانحـراف يمينـاً، أو شـمالاً؛ وهو من حيث الإعـراب: مفعـول مطلـق؛ لأنه مضاف إلى مصدر، كما قال ابن مالك في الألفية:

كجِدَّ كل الجِدِّ قوله تعالى: { ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون }؛ { من } شـرطية جازمـة؛ { يكفر } مجــزوم على أنه فعل الشـرط؛ { به } أي بالكتاب؛ وجملة: { فأولئك هم الخاسرون } هي جواب الشـرط؛ واقـترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ والجملة الاسمية إذا كـانت جوابـاً للشـرط وجب

اقترانها بالفاء؛ وأتى بالجملة الاسمية المفيـدة للثبـوت، والاسـتمرار؛ وأتى بضمير الفصل { هم } لإفادة الحصر، والتوكيد؛ يعني: فأولئك الذين كفروا به هم الخاسرون لا غيرهم؛ وأصل «الخسران» النقص؛ ولهـذا يقـال: ربح؛ ويقال في مقابله: خسر؛ فهـؤلاء هم الـذي حصل عليهم النقص لا غـيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة، وفانية، فلا تنفعهم.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيـة: منة الله عـزّ وجـلّ على من آتـاه الله تعـالى الكتاب، فتلاه حق تلاوته.

2ـــ ومنهـا: أنه ليس مجـرد إتيـان الكتـاب فضـيلة للإنسـان؛ بل الفضيلة بتلاوته حق تلاوته.

3ـــ ومنهـا: أن للإيمـان علامــة؛ وعلامته العمــل؛ لقوله تعـالى: { أولئك يؤمنون به } بعد قوله عزّ وجلّ: { يتلونه حق تلاوته }.

4ـــ ومنهـا: أن من خـالف القـرآن في شـيء كـان ذلك دليلاً على نقص إيمانه؛ لقوله تعالى: { يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به }؛ فمعـنى ذلك: إذا لم يتلوه حق تلاوته فإنهم لم يؤمنوا به؛ بل نقص من إيمانهم بقدر ما نقص من تلاوتهم له.

5ـــ ومنها: أن تلاوة القرآن نوعان؛ تلاوة حـق؛ وتلاوة ناقصة ليست تامة؛ فالتلاوة الحق أن يكون الإنسان تالياً للفظه، ولمعناه عـاملاً بأحكامه مصدقاً بأخباره؛ فمن استكبر أو جحد فإنه لم يتله حق تلاوته.

6ـــ ومنها: أن الكـافر بـالقرآن مهما أصـاب من الـدنيا فهو خاسـر؛ لقوله تعالى: { ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون }؛ يكـون خاسـراً ـــــ ولو نال من الدنيا من أموال، وبنين، ومراكب فخمـة، وقصـور مشـيدة ـــ؛ لأن هذه كلها سـوف تـذهب، وتـزول؛ أو هو يـزول عنهـا، ولا تنفعـه؛ واذكر قصة قـارون، واتل قـول الله تعـالى: {قل إن الخاسـرين الـذين خسـروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين} [الزمـر: 15] ؛ فإذاً يصدق عليهم أنهم هم الخاسرون، كما في قوله تعالى: {يا أيها الـذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر اللـه} [المنـافقون: 9] ؛ ولما كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربح قال تعالى: { ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون } [المنافقون: 9] يعني: ولو ربحوا في دنياهم.

7ـــ ومن فوائد الآيـة: علـوّ مرتبة من يتلـون الكتـاب حق تلاوتـه؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: { أولئك يؤمنون به }.

القــــرآن

{)يَا بَنِي إِسْـرائيلَ اذْكُـرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّـلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة:122)

)وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَـدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) (البقرة:123)

التفسير:

{ 122 } قوله تعالى: { يا بني إسرائيل اذكـروا نعمـتي... } الآيـة؛ سـبق الكلام على نظيرها، وفوائدها.

{123 } قوله تعالى: { واتقوا يوماً }: سبق الكلام على نظيرها.

قوله تعالى: { لا تجزي نفس عن نفس شيئاً } أي لا تغني نفس عن نفس شيئاً؛ فليس تفضيل آبائكم على العالمين بمغنٍ عنكم شيئاً؛ لا تقولوا: لنا آباء مفضلون على العالمين، وسَنَسْلَم بهم من النار، أو من عذاب هذا اليوم؛ و{ شيئاً } نكرة في سياق النفي، فتعم أيّ شيء؛ ولا يرد على هذا الشفاعة الشرعية التي ثبتت بها السُّنة؛ فإن هذه الآية مخصوصة بها.

قوله تعالى: { ولا يُقبَل منها } أي من النفس؛ والذي يَقبل، أو يَردّ هو الله سبحانه وتعالى؛ و{ عدل } أي ما يعدل به العذاب عن نفسه ـــ وهو الفداء ـــ؛ فـ «العدل» معناه الشيء المعادِل، كما قال الله ـــ تبارك وتعالى ـــ: {أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره} [المائدة: 95] أي ما يعادله من الصيام؛ وهنا: لو أتت بالفداء لا يقبل.

قوله تعالى: { ولا تنفعها شفاعة }؛ «الشفاعة» هي التوسط للغير بدفع مضرة، أو جلب منفعة؛ سميت بذلك؛ لأن الشافع إذا انضم إلى المشفوع له، صار شِفعاً بعد أن كان وتراً؛ فالشفاعة لأهل النار أن يخرجوا منها: شفاعة لدفع مضرة؛ والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة؛ شفاعة في جلب منفعة.

قوله تعالى: { ولا هم ينصرون }: مع أن السياق يرجع إلى مفرد في قوله تعالى: { نفس عن نفس }، وقوله تعالى: { ولا يقبل منها }، وقوله تعالى: { ولا تنفعها }؛ جاء الكلام هنا بصيغة الجمع باعتبار المعنى؛ لأن قوله تعالى: { لا تجزي نفس عن نفس } للعموم؛ والعموم يدل على الجمع، والكثرة؛ ثم إن هنا مناسبة لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ ومراعاة الفواصل أمر ورد به القرآن ـــ حتى إنه من أجل المراعاة يقدم المفضول على الفاضل ـــ، كما في قوله تعالى في سورة طه؛ {قالوا آمنا برب العالمين * رب هارون وموسى} [الشعراء: 47، 48] ؛ لأن سورة طه كلها على فاصلة ألف إلا بعض الآيات القليلة؛ فمراعاة الفواصل إذاً من بلاغة القرآن.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: إثبات يوم القيامة، وأن هذا اليوم شديد يجب اتقاؤه والحذر منه.

2ـــ ومنها: أن ذلك اليوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً؛ حتى الوالد لا يجزي عن ولده شيئاً؛ ولا المولود يجزي عن والده شيئاً، كما قال تعالى: { يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً }.

3ـــ ومنها: أن من استحق العذاب ذلك اليوم لا يُقبل منه عدل؛ قال تعالى: { إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم }.

4ـــ ومنها: ثبوت أصل الشفاعة في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: { لا تنفعها شفاعة }؛ وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في أهل الموقف أن يُقضى بينهم[1] ، وأنه (ص) يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا

---

(1) راجع البخاري ص393 – 394، كتاب التفسير، باب 5: (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً)، حديث رقم 4712؛ ومسلماً ص714 – 715، كتاب الإيمان، باب 84: أنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم 480 [327] 194.

النار[2] ؛ وفيمن دخل النار أن يخرج منها[3]؛ فعلى هذا يكون العموم في قوله تعالى: { ولا تنفعها شفاعة} مخصوصاً بما ثبتت به السنة من الشفاعة.

5ــــ ومنها: أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لقوله تعالى في آية أخرى: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين} [المدثر: 48] .

6ــــ ومنها: أنه لا ينصر أحد أحداً من عذاب الله؛ لقوله تعالى: { ولا هم ينصرون }.

القـــــرآن

{)وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة:124)

التفسير:

{ 124 } قوله تعالى: { وإذ ابتلى إبراهيم ربه }؛ { إبراهيم } مفعول مقدم؛ و{ ربه } فاعل مؤخر؛ فالمبتلي هو الله؛ والمبتلى هو إبراهيم؛ والابتلاء هو الاختبار، والامتحان؛ و{ إبراهيم } بكسر الهاء، وياء بعدها؛ وفيها قراءة: { إبراهام } بفتح الهاء، وألف بعدها؛ وهنا أضاف الربوبية إلى إبراهيم: وهي من الربوبية الخاصة؛ فالربوبية بإزاء العبودية؛ فكما أن العبودية نوعان ــــ خاصة، وعامة ــــ فالربوبية أيضاً نوعان: خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قول السحرة: {آمنا برب العالمين} [الأعراف: 121] : هذه عامة؛ {رب موسى وهارون} [الشعراء: 48] : هذه خاصة؛ ولا شك أن ربوبية الله سبحانه وتعالى للرسل ــــ ولا سيما أولو العزم منهم؛ وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام ــــ أخص الربوبيات.

قوله تعالى: { بكلمات }؛ هذه الكلمات ــــ التي هي محل الابتلاء، والاختبار ــــ أطلقها الله سبحانه وتعالى؛ فهي كلمات كونية؛ وشرعية؛ أو جامعة بينهما؛ واختلف المفسرون في هذه الكلمات؛ وأصح الأقوال فيها أن كل ما أمره به شرعاً، أو قضاه عليه قدراً، فهو كلمات؛ فمن ذلك أنه ابتُلي بالأمر بذبح ابنه، فامتثل؛ لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذلك عنه حين استسلم لربه؛ وهذا من الكلمات الشرعية؛ وهذا امتحان من أعظم الامتحانات؛ ومن ذلك أن الله امتحنه بأن أوقدت له النار، وألقي فيها؛ وهذا من الكلمات الكونية؛ وصبر، واحتسب؛ فأنجاه الله منها، وقال تعالى: {يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} [الأنبياء: 69] ؛ وكل ما قدره الله عليه مما يحتاج إلى صبر، ومصابرة، أو أمره به فهو داخل في قوله تعالى: { بكلمات }.

قوله تعالى: { إني جاعلك }أي مصيرك؛ وهي تنصب مفعولين؛ لأنها مشتقة من «جعل» التي بمعنى «صيّر»؛ والمفعول الأول: الكاف التي في محل جر بالإضافة؛ والمفعول الثاني: { إماماً }.

وقوله تعالى: { للناس إماماً } عامة فيمن أتى بعده: فإنه صار إماماً حتى لخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}

---

(2) راجع حاشية رقم 2، 1/173.

(3) راجع حاشية رقم 3، 1/173.

[النحل: 123] ؛ و«الإمام» مَن يُقتدى به سواء في الخير، أو في الشر؛ لكن لا ريب أن المراد هنا إمامة الخير.
فإذا قال قائل: أرُونا دليلاً على أن الإمامة في الشر تسمى إمامة؟ قلنا: قوله تعالى: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون} [القصص: 41] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] ؛ وهذا لأنه إمام.
قوله تعالى: { ومن ذريتي } أي واجعل من ذريتي إماماً؛ وهنا { مِن } يحتمل أنها لبيان الجنس؛ وبناءً على ذلك تصلح { ذريتي } لجميع الذرية؛ يعني: واجعل ذريتي كلهم أئمة؛ ويحتمل أنها للتبعيض؛ وعليه فيكون المقصود: اجعل بعض الذرية إماماً؛ والكلام يحتمل هذا، وهذا؛ ولكن سواء قلنا؛ إنها لبيان الجنس؛ أو للتبعيض؛ فالله تعالى أعطاه ذلك مقيداً، فقال تعالى: { لا ينال } أي لا يصيب { عهدي } أي تعهدي لك بهذا { الظالمين }؛ و{ عهدي } فاعل؛ و{ الظالمين } مفعول به؛ أي أجعل من ذريتك إماماً؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآية: أن الله قد يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة؛ لقوله تعالى: { وإذ ابتلى إبراهيم ربه) وكما أنه يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة شرعية، فإنه قد يبتليهم بأحكام كونية، مثل: مرض، مصائب في المال، أو في الأهل؛ وما أشبه ذلك.
2ــــ ومنها: فضيلة إبراهيم (ص)؛ لقوله تعالى: { ربه } حيث أضاف ربوبيته إلى إبراهيم ــــ وهي ربوبية خاصة ــــ؛ ولقوله تعالى: { فأتمهن }؛ ولقوله تعالى: { إني جاعلك للناس إماماً }.
3ــــ ومنها: أن من أتم ما كلفه الله به كان من الأئمة؛ لقوله تعالى: { إني جاعلك للناس إماماً }؛ فإنه لما أتمَّهن جوزي على ذلك بأن جُعل للناس إماماً.
4ــــ ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يدعو لذريته بالإمامة، والصلاح؛ لقوله تعالى: { قال ومن ذريتي }؛ وإبراهيم طلب أن يكون من ذريته أئمة، وطلب أن يكون من ذريته من يقيم الصلاة: {رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي} [إبراهيم: 40] .
5ــــ ومنها: أن الظالم لا يستحق أن يكون إماماً؛ والمراد: الظلم الأكبر ــــ الذي هو الكفر ــــ؛ لقوله تعالى: { لا ينال عهدي الظالمين }.
6ــــ ومنها: أن الظلم ينزل بأهله إلى أسفل سافلين؛ لا يجعلهم في قمة؛ بل ينزلهم إما في الدنيا؛ وإما في الآخرة.

القـــــرآن

{)وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (البقرة:125)

التفسير:

---

[1] أخرجه مسلم ص838، كتاب الزكاة، باب 20: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة...، حديث رقم 2351 [69] 1017.

{ 125 } قوله تعـالى: { وإذ جعلنا الـبيت مثابة للنـاس وأمنـاً }؛ { إذ } للظرفيـة؛ وهي متعلقة بمحـذوف تقـديره: «اذكـر»؛ يعـني: اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي صيرناه للناس؛ و{ جعلنا } أي صـيرنا؛ و{ الـبيت }: «أل» هنا للعهد الذهني؛ والمراد به الكعبـة؛ لأنها بيت الله عـزّ وجـلّ؛ وأتى هنا بــ «أل» للتفخيم والتعظيم؛ يعـني: الـبيت المعهـود الـذي لا يُجهـل، ولا يُنسى جعلناه مثابة...؛ و «المثابة» بمعنى المرجـع؛ أي يثـوب النـاس إليـه، ويرجعون إليه من كل أقطار الـدنيا سـواء ثـابوا إليه بأبـدانهم، أو بقلـوبهم، فالذين يأتون إليه حجاجاً، أو معتمرين يثوبون إليه بأبدانهم؛ والذين يتجهون إليه كل يوم بصلواتهم يثوبون إليه بقلوبهم فـإنهم لا يزالـون يتـذكرون هـذا البيت في كل يوم، وليلة؛ بل استقباله من شروط صحة صلاتنا.
وقوله تعالى: { أمناً } أي وجعلناه أمناً للناس؛ أي مكان أمن يأمن النـاس فيه على دمـائهم، وأمـوالهم ـــ حـتى أشـجار الحـرم، وحشيشه آمن من القطع ـــ.
قوله تعـالى: { واتخـذوا من مقـام إبـراهيم مصـلًّى } أي صـيِّروا، واجعلوا؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفعل الأمر: { اتخِـذوا }؛ والثانيـة: بفعل الماضــي: { اتخَـذوا } أي: واتخذ النـاس؛ وعلى الأولى: اتخـذوا أنتم من مقام إبراهيم مصلًّى؛ و{ مِن } هنا لبيان الجنس؛ ويجوز أن تُضمَّن «في»؛ يعني: واتخذوا في هذا المقـام مكانـاً للصـلاة؛ و «المقـام» مكـان القيـام؛ ويطلق إطلاقين: إطلاقاً عاماً - وهو مكان قيام إبراهيم للعبادة -؛ وإطلاقـاً خاصـاً ـــ وهو مقامه لبنـاء الكعبة ـــ؛ فعلى الإطلاق الأول يكـون جميع مواقف الحج، ومشاعر الحج من مقام إبراهيم: عرفة؛ مزدلفة؛ الجمـرات؛ الصفا، والمروة... إلخ؛ وعلى الإطلاق الثـاني الخـاص يكـون المـراد الحجر المعين الذي قام عليه إبراهيم (ص) ليرفع قواعد الـبيت؛ وهو هـذا المقـام المشهور المعروف للجميع.
وقولـه: { مصـلًّى } مفعـول أول لــ{ اتخـذوا } منصـوب بالفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر؛ والتنوين الـذي فيه عـوض عن الألف المحذوفــة؛ والمفعــول الثــاني: هو الجــار والمجــرور المقــدم؛ و «المصلى» مكان الصلاة؛ وهل المراد بالصـلاة الصـلاة اللغويـة؛ أو الصـلاة الشرعية المعروفة؟ يحتمل هذا، وهذا؛ فإن قلنا بالأول شمل جميع مناسك الحج؛ لأنها كلها محل للـــدعاء؛ وإن قلنا بالثـــاني اختص بــــالركعتين بعد الطواف خلف المقام؛ ويؤيـده أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم حين فـرغ من طوافه تقدم إلى مقـام إبـراهيم، وقـرأ: { واتخـذوا من مقـام إبـراهيم مصلى }، وصلى ركعتين[1]؛ والقول بالعموم أشمل؛ ويجاب عن فعل النبي صـلى الله عليه وسـلم بأنه فسر المعـنى ببعض أفـراده؛ وهـذا لا يقتضي التخصيص عند أهل التحقيق من الأصوليين.
قوله تعالى: { وعهدنا إلى إبراهيم }؛ «العهد» الوصـية بما هو هـام؛ وليست مجرد الوصية؛ بل لا تكون عهـداً إلا إذا كـان الأمر هامـاً؛ ومنه عهْد أبي بكر بالخلافة إلى عمر ؛ ومعلوم أن أهم ما يكون من أمـور المسـلمين العامة الخلافة.
قوله تعالى: { وإسـماعيل }: هو ابن إبـراهيم؛ وهو أبو العـرب؛ وهو الذبيح على القول الصحيح؛ يعني: هو الذي أمر الله إبراهيم أن يذبحه؛ وهو

[1] راجع مسلماً ص880 – 881، كتاب الحج، باب 19: حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 2950 [147] 1218.

الــذي قــال لأبيــه: {يا أبت افعل ما تــؤمر ســتجدني إن شــاء الله من الصابرين} [الصافات: 102] ؛ وقول من قـال: «إنه إسـحاق» بعيـد؛ وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا منقول عن بني إسـرائيل: لأن بـني إسـرائيل يودون أن الذبيح إسحاق؛ لأنه أبوهم دون إسماعيل؛ لأنه أبو العرب عمهم؛ ولكن من تأمل آيات «الصافات» تبين له ضعف هذا القول.

قوله تعالى: { أن طهـرا بيـتي }؛ { أنْ } تفسـيرية؛ لأنّ { عهـدنا } فيه معنى القول دون حروفه؛ أي أنّ العهد هو قوله تعالى: { طهرا بيتي... }؛ و{ طهرا } فعل أمر؛ و{ بيتي } المراد به الكعبة؛ وأضافها الله سبحانه وتعـالى إلى نفسه إضـافة تشـريف؛ والمـراد تطهـير الـبيت من الأرجـاس الحسية والمعنوية.

قوله تعالى: { للطائفين } أي للذين يطوفـون بـالبيت؛ فـاللام هـذه للتعليل ـــ أي لأجلهم ـــ؛ والثـاني: { العـاكفين } أي الـذين يقيمـون فيه للعبـادة؛ والثـالث: { الركع السـجود } أي الـذين يصـلون فيـه؛ وعـبر عن الصلاة بالركوع، والسجود؛ لأنهما ركنان فيها؛ فإذا أطلق جزء العبـادة عليها كـان ذلك دليلاً على أن هـذا الجـزء ركن فيها لا تصح بدونـه؛ و{ الركع } جمع راكـع؛ و{ السـجود } جمع سـاجد؛ وهنا بـدأ بـــ{ الطـائفين }؛ لأن عبـادتهم خاصة بهـذا المسـجد؛ ثم بـــ{ العـاكفين }؛ لأن عبـادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطـائفين؛ وثلّث بـــ{ الركع السـجود }؛ لأن ذلك يصح بكل مكـــان بـــالأرض؛ لقوله (ص): «جعلت لي الأرض مســـجداً وطهوراً»[2]؛ فإذاً يكون الله سبحانه وتعالى بدأ بالأخص فالأخص.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: فضيلة الـبيت الحـرام من وجهين: أنه مثابـة؛ وأمن.

2ـــ ومنهـا: ظهـور رحمة اللـه؛ فإنه لما جعل هـذا الـبيت مثابـة، والناس لابد أن يرجعوا إليه رحمهم بأن جعله أمناً؛ وإنما أحلها الله لرسوله (ص) سـاعة من نهـار للضـرورة؛ وهي سـاعة الفتح؛ ثم قـال (ص): «وقد عادت حرمتها اليـوم كحرمتها بـالأمس» ؛ ثم أورد (ص) سـؤالاً قـال فيـه: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يـأذن لكم»[1] ؛ والحكم لله العلي الكبير: أذِن للرسول في تلك السـاعة؛ ولكنه لم يأذن لأحد بعده كما لم يأذن لأحد قبله؛ ولهذا نُهي عن حمل السلاح في الحرم حتى يبقى كل إنسان آمناً؛ ولما طعن ابن عمر ـــ رضي الله عنهما ـــ وهو على راحلته في مـنى ـــ طعنه أحد الخـوارج بسـنان الـرمح في أخمص قدمه حـتى لـزقت قدمه بالركـاب جـاءه الحجـاج يعـوده، فقـال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟! فقال ابن عمر: أنت أصبتني! قـال: وكيـف؟ قال: «حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيـه، وأدخلت السـلاح الحـرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم»[2] ؛ وبهذا تعـرف عظم جـرم أولئك الـذين يوقعون المخاوف بين المسلمين في مواسم الحج، وأنهم ـــ والعيـاذ بالله ـــ من أعظم الناس جرمـاً؛ لأن الله سـبحانه وتعـالى جعل هـذا البلد آمنـاً

---

(2) سبق تخريجه 1/344.

(1) أخرجه البخاري ص12، كتاب العلم، باب 37: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم 104، وأخرجه مسلم ص903 - 904، كتاب الحج، باب 82: تحريم مكة وتحريم صيدها...، حديث رقم 3304 [446] 1354.

(2) أخرجه البخاري ص76، كتاب العيدين، باب 9: ما يكره من حمل السلاح في العيد والحرم، حديث رقم 966.

في كل وقت؛ فكيف في وقت أداء مناسك الحج الــتي ما أُمِّن ــــــ والله أعلم ــــ إلا لأجلها.

3ــــ ومن فوائد الآيــة: أنه ينبغي أن يكــون كل مكــان مثابة للنــاس أمنــاً؛ ولهــذا كــره أهل العلم أن يحمل الســلاح في المســاجد؛ قــالوا: لأن المساجد محل أمن؛ لكن إذا كان المراد من حمل السلاح حفظ الأمن كان مأموراً به.

4ــــ ومنها: وجوب اتخاذ المصلى من مقام إبراهيم؛ لقوله تعالى: { واتخذوا من مقــام إبــراهيم مصــلّى }؛ لأن الأصل في الأمر الوجــوب؛ فــإن قلنا بــأن المــراد بالمقــام جميع مناسك الحج فلا إشــكال؛ لأن فيه ما لا يتم الحج إلا به كــالوقوف بعرفــة، والطــواف بــالبيت، والســعي بين الصــفا والمــروة؛ ومنه ما يصح الحج بدونه مع وجوبه كــالمبيت بمزدلفــة، ورمي الجمــرات؛ ومنه ما يصح الحج بدونه وليس بــواجب، كصــلاة الركعــتين بعد الطواف على المشهور؛ وإذا قلنــا: المــراد به الركعتــان بعد الطــواف صــار فيه إشكال: فإن جمهور العلمــاء على أنهما ســنة؛ وذهب الإمــام مالك إلى أنهما واجبتان؛ والذي ينبغي للإنسان: أن لا يدعهما؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فسر الآية بهمــا، حيث تقــدم إلى مقــام إبــراهيم بعد الطــواف، فقرأ: { واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى }.

5 ــــ ومنها: أن الله سبحانه وتعــالى يــثيب العامل بــأكثر من عملــه؛ فإبراهيم (ص) لما أتم الكلمات جعله الله تعالى إماماً للناس، وأمر النــاس أن يتخذوا من مقامه مصلًّى؛ وهذا بعض من إمامته.

6ــــ ومنها: وجوب تطهير البيت من الأرجــاس الحســية، والمعنويــة؛ لقوله تعــالى: { وعهــدنا إلى إبــراهيم وإســماعيل أن طهــرا }؛ والعهد هو الوصــية بــالأمر الهــام؛ ويؤيد ذلك قوله تعــالى: {يا أيها الــذين آمنــوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} [التوبة: 28] ؛ ولهذا لا يجوز للمشركين وغيرهم من أهل الكفر أن يدخلوا أميال الحرم؛ لأنهم إذا دخلوها قربوا من المسجد الحرام والله تعالى يقول: {فلا يقربــوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} [التوبة: 28] .

7ــــ ومن فوائد الآية: اشتراط طهارة مكان الطواف؛ لقوله تعــالى: { للطائفين }.

8 ــــ ومنها: اشتراط طهارة لباس الطائفين من بــاب أولى، وأنه لا يجــوز أن يطــوف بثــوب نجس؛ لأن ملابسة الإنســان للثيــاب ألصق من ملابسته للمكان.

9ــــ ومنهــا: أن الطــواف لا يكــون إلا حــول الكعبــة؛ لقوله تعــالى: { وطهرا بيتي للطائفين }؛ ولهذا قال العلماء: يشترط لصحة الطــواف أن يكون في المسجد الحرام، وأنه لو طاف خارج المسجد ما أجزأه؛ فلو أراد الإنسان ــــ مثلاً ــــ أن يطــوف حــول المســجد الحــرام من خــارج فإنه لا يجزئ؛ لأنه يكون حينئذ طائفاً بالمسجد لا بالكعبة؛ أما الــذين يطوفــون في نفس المسجد ســواء فــوق أو تحت، فهــؤلاء يجــزئهم الطــواف؛ وعلى هــذا يجب الحــذر من الطــواف في المســعى، أو فوقــه؛ لأن المســعى ليس من المسجد؛ إذ لو كان من المسجد لكــانت المــرأة إذا حاضت بعد الطــواف لا تسعى؛ لأنه يلزم من سعيها أن تمكث في المسجد.

10ــــ ومن فوائد الآيــة: فضـيلة هــذه العبـادات الأربـع: الطـواف، والاعتكـاف، والركـوع، والسـجود؛ وأن الركـوع والسـجود أفضل هيئة في الصـلاة؛ فـالركوع أفضل هيئة من القيـام؛ والسـجود أفضل منـه؛ والقيـام أفضل من الركوع، والسجود بما يُقـرأ فيـه؛ ولهـذا نُهي المصـلي أن يقـرأ القـرآن راكعـاً، أو سـاجداً؛ فـإنَّ ذِكْر القيـام كلام اللـه؛ وهو أفضل من كل شـيء؛ وذكر الركـوع والسـجود هو التسـبيح؛ وهو أقل حرمة من القـرآن؛ ولذلك حل الـذكر للجنب دون قـراءة القـرآن، ويجـوز مس الورقـات الـتي فيها الذكر بغير وضـوء دون مس المصـحف؛ فالله سـبحانه وتعـالى حكيم: جعل لكل ركن من أركان الصـلاة مـيزة يختص بهـا؛ فالقيـام اختصه بفضل ذكره؛ والركوع والسجود بفضل هيئتهما.

تــنــبــيــه:

اختلف المؤرخـون: هل كـان الحجر الـذي كـان يرفع عليه إبـراهيم (ص) بناءَ الكعبة لاصقاً بالكعبة، أو كان منفصلاً عنها في مكانه الآن؛ فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقاً بالكعبة، وأن الـذي أخـره إلى هـذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وبناءً على ذلك يكــون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: إن هذا مكانه على عهد النبي صـلى الله عليه وسـلم فالظـاهر أنه لا يجـوز أن يغـير؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقره؛ وإذا أقـره النـبي صـلى الله عليه وسـلم فليس لنا أن نــؤخره عنــه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رســالة في هـــذا الموضـوع، وقرَّظها الشـيخ عبد العزيز بن بـاز، ورأى أنه يجـوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بنـاءً على المشـهور عند المـؤرخين أنه كـان لاصـقاً بالكعبـة، ثم أُخِّر؛ وهـذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة ــــ وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعـون عنـده في المواسـم؛ وفيه نوع مفسدة ــــ وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيـام المواسـم؛ فهـذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بقاؤه في مكانــه؟ أو الأولى تـأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئة فالأولى أن يبقى ما كان على ما كــان، وحذراً من التشـويش واختلاف الآراء في هـذه المسـألة؛ ومسـألة تضـييق المصــلين على الطـائفين هـذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفـادت؛ أو بـالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلّت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي.

القـــــــــرآن

)وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَـداً آمِنـاً وَارْزُقْ أَهْلَـهُ مِنَ الثَّمَـرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَـرَ فَأُمَتِّعُـهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْـطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (البقرة:126)

التفسير:

{ 126 } قوله تعـالى: { وإذ قـال إبـراهيم } أي اذكر إذ قـال إبـراهيم: { رب اجعل } أي صيِّر { هذا } أي مكة { بلداً آمناً }؛ «البلـد» اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبـيرة، أو مدينة صـغيرة؛ كله يسـمى بلداً؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى مكة بلداً، كما في قوله تعالى: {وهــذا البلد الأمين} [التين: 3] ؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعـالى:

{وكــأين من قرية هي أشد قــوة من قريتك الــتي أخرجتك أهلكنــاهم} [محمد: 13] .
وقوله تعالى: { آمناً }: قال بعض المفسـرين: أي آمنـاً مَن فيـه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن، والخوف؛ «البلـد» أرض، وبنـاء؛ وإنما الـذي يكـون آمناً: أهلُه؛ أما هو فيكون أمْناً؛ والذي ينبغي هو أن يبقى على ظـاهره، وأن يكــون البلد نفسه آمنــاً؛ وإذا أَمِنَ البلد أَمِن مَن فيه ـــــ وهو أبلغ ـــ؛ لأنه مثلاً لو جاء أحد، وهدم البنـاء ما كـان البنـاء آمنـاً، وصـار البنـاء عرضة لأن يتسلط عليه من يُتلفه؛ فكون البلد آمناً أبلغ من أن نفسره بـ«آمناً أهلــه»؛ لأنه يشمل البلد، ومن فيه؛ ولهذا قال تعـالى: { وارزق أهله }؛ لأن البلد لا يرزق.
قوله تعالى: { ارزق } فعل دعاء؛ ومعناه: أعطِ؛ و{ أهله } مفعــول أول؛ و{ من الثمرات } مفعول ثانٍ؛ و{ من آمن بالله واليوم الآخر } بدل من قوله: { أهله } ـــــ بــدل بعض من كل ـــ؛ و«الإيمــان» في اللغــة: التصديق؛ وفي الشـرع: التصـديق المسـتلزم للقبـول، والإذعـان؛ والإيمـان بالله يتضـمن الإيمــان بوجــوده، وربوبيتــه، وألوهيتــه، وأسـمائه، وصـفاته؛ و{ اليوم الآخر } هو يوم القيامة؛ وسـمي آخـراً؛ لأنه لا يـوم بعـده؛ وسـبق بيان ذلك.
قوله تعــالى: { قــال ومن كفر }؛ القائل هو الله سـبحانه وتعــالى؛ فأجاب الله تعالى دعاءه؛ يعـني: وأرزق من كفر أيضـاً؛ فهي معطوفة على قوله تعالى: { من آمن }؛ ولكنه تعالى قال في الكافر: { فأمتعه قليلاً.. } إلخ.
قوله تعـالى: { فأمتعه } فيها قراءتـان؛ الأولى بفتح الميم، وتشـديد التــاء؛ والثانية بإســكان الميم، وتخفيف التــاء؛ و «الإمتــاع» و «التمــتيع» معناهما واحـد؛ وهو أن يعطيه ما يتمتع بــه؛ و«المتعــة»: البلغة الــتي تلائم الإنسان.
قوله تعالى: { قليلاً }: القلة هنا تتناول الزمان، وتتناول عين الممتَّع به؛ فالزمن قصير: مهما طال بالإنسان العمر فهو قليل؛ قال الله عزّ وجلّ: {كأنهم يــوم يــرون ما يوعـدون لم يلبثـوا إلا سـاعة من نهـار} [الأحقـاف: 35] ؛ كذلك عين الممتع به قليل؛ كل ما يحصل للإنسـان من هـذه الـدنيا من اللذة، والمتاع قليل بالنسبة للآخرة، كما جاء في الحديث الصــحيح عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: «لموضع سـوطٍ في الجنة خـير من الدنيا وما فيها»[1]؛ ومع قلته فهو مشـوب بكـدر سـابق، ولاحـق، كما قـال الشاعر:
فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ ويقول الآخر:
لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم
وإذا شــئت أن تعـــرف حقيقة الأمر فقس ما بقي من حياتك بما مضــى؛ الآن كلنا يعـرف أننا خلفنا أيامــاً كثـيرة؛ فما خلفنا بــالأمس كأنه لا شيء؛ نحن الآن في الـوقت الـذي نحن فيـه؛ وأما ما مضى فكأنه لم يكن؛ ولهذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم واصـفاً الـدنيا: «إنما مثلي ومثل

---

[1] سبق تخريجه 1/258.

الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»[2] : إنسان اطمأن قليلاً تحت ظل شجرة، ثم ارتحل! هذه الدنيا كلها.

قوله تعالى: { ثم أضطره إلى عذاب النار } أي ألجئه إلى عذاب النار؛ وإنما جعل الله ذلك إلجاءً؛ لأن كل إنسان يفر من عذاب النار؛ لكنه لا بد له منه إن كان من أهل النار؛ لأنه هو الذي فعل الأسباب التي توجبه؛ و «العذاب» العقوبة التي يتألم بها المرء؛ و{ النار } اسم معروف.

قوله تعالى: { وبئس المصير }؛ { بئس } فعل ماض جامد إنشائي يراد به الذم؛ و{ المصير } فاعل { بئس }؛ والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: وبئس المصير هي؛ لأنه لو لم تقدر هذا لم تكن الجملة عائدة على ما سبق؛ و{ المصير } بمعنى مكان الصيرورة؛ أي المرجع الذي يصير إليه الإنسان.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآية: التنويه بفضل إبراهيم؛ لأن قوله تعالى: { وإذ قال } سبق أنها على تقدير: واذكر إذ قال؛ ولولا أن هذا أمر يستحق التنويه، والإعلام ما أمر به.

2ــــ ومنها: أنه لا غني للإنسان عن دعاء الله مهما كانت مرتبته؛ فلا أحد يستغني عن الدعاء أبداً؛ لقوله تعالى: { رب اجعل... } إلخ.

3ــــ ومنها: أن للدعاء أثراً في حصول المقصود سواء كان دفع مكروه، أو جلب محبوب؛ لأنه لولا أن للدعاء أثراً لكان الدعاء عبثاً؛ وقول من يقول: «لا حاجة للدعاء: إن كان الله كتب هذا فهو حاصل، دعوت أو لم أدعُ؛ وإن كان الله لم يكتبه فلن يحصل، دعوت أو لم أدعُ»، فإن جوابنا عن هذا أن نقول: إن الله قد كتبه بناءً على دعائك؛ فإذا لم تدع لم يحصل، كما أنه لو قال: «لن آكل الطعام؛ فإن أراد الله لي الحياة فسوف أحيا ــــ ولو لم آكل؛ وإن كان يريد أن أموت فسوف أموت ــــ ولو ملأت بطني إلى حلقومي»؛ نقول: لكن الأكل سبب للحياة؛ فإنكار أن يكون الدعاء سبباً إنكار أمور بديهيات؛ لأننا نعلم علم اليقين فيما أخبرنا به، وفيما شاهدناه، وفيما جرى علينا أن الله سبحانه وتعالى يقدِّر الأشياء بالدعاء؛ فالله تعالى قص علينا في القرآن قصصاً كثيرة فيها إجابة للدعاء؛ كذلك يجري للإنسان نفسه أشياء يدعو الله بها فيشاهدها رأي العين أنها جاءت نتيجة لدعائه؛ فإذاً الشرع، والواقع كلاهما يبطل دعوى من أنكر تأثير الدعاء.

4ــــ ومن فوائد الآية: رأفة إبراهيم (ص) بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمناً يتضمن الإرفاق بمن أمّه من الناس.

5ــــ ومنها: رأفة إبراهيم (ص) أيضاً، حيث سأل الله أن يرزق أهله من الثمرات؛ لقوله تعالى: { وارزق أهله من الثمرات }.

6ــــ ومنها: أدب إبراهيم (ص)، حيث لم يعمم في هذا الدعاء؛ فقال: { وارزق أهله من الثمرات من آمن } خوفاً من أن يقول الله له: «من آمن فأرزقه»، كما قال تعالى حين سأله إبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة: {لا ينال عهدي الظالمين} [البقرة: 124] ؛ فتأدب في طلب الرزق:

---

(2) أخرجه أحمد ج1/441، حديث رقم 4207؛ وأخرجه الترمذي ص1890، كتاب الزهد، باب 44: حديث: "ما الدنيا إلا كراكب استظل"، حديث رقم 2377، وأخرجه ابن ماجة ص2727، كتاب الزهد، باب 3: مثل الدنيا، حديث رقم 4109، واللفظ لأحمد؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح 2/280 حديث رقم 1936.

أن يكـون للمؤمـنين فقط من أهل هـذا البلـد؛ لكن المسـألة صـارت على عكس الأولى: الأولى خصص الله دعاءه؛ وهذا بالعكس: عمم.

7ــــ ومنهـا: أن رزق الله شـامل للمـؤمن، والكـافر؛ لقوله تعـالى: { ومن كفر }؛ فـالرزق عــام شـامل للمــؤمن، والكــافر؛ بل للإنســان، والحيــوان، كما قــال تعــالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها} [هود: 6] ؛ وأنت تـرى بعض الخشـاش في الأرض ما حوله شــيء، ولكن ييسر الله له الــرزق يُجلب إليه من حيث لا يشعر، ولا يحتسـب؛ ويُـذكر في هـذه الأمـور قصص غريبـة، ويشـاهَد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العميـاء يَجلب الله لها رزقـاً كلما احتـاجت إلى ذلك، فتأكله؛ والله على كل شيء قدير.

8ــــ ومن فوائد الآية: أنه يجب علينا أن نتخذ من هذا الوقت القصير عملاً كثــيراً ينفعنا في الآخــرة؛ لقوله تعــالى: { فأمتعه قليلاً }؛ والعمل اليسير ــــ ولله الحمد ــــ يثمر ثمرات كثيرة في الآخـرة يضـاعف بعشـرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

9ــــ ومنها: إثبات عذاب النار.

10ــــ ومنها: إثبات كلام الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { قـال }؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ والـدليل على أنه بحـرف أن قوله تعـالى: { ومن كفر } مثلاً مكوَّن من حروف؛ والدليل على أنه بصوت مسموع: المحاورة مع إبراهيم؛ فلولا أن إبراهيم يسمع صوتاً لم تكن محاورة.

11ــــ ومنهـا: إثبـات سـمع اللـه؛ لأنه يسـمع إبـراهيم وهو يكلمه سبحانه وتعالى.

12 ــــ ومنها: إثبات اليوم الآخر.

13ــــ ومنها: الثناء على النـار بهـذا الـذم، وأنها بئس المصـير؛ فكل إنسان يسمع هـذا من كلام الله عـزّ وجـلّ سـوف ينفر من هـذه النـار، ولا يعمل عمل أهلها.

القــــــرآن

{)وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة:127)

التفسير:

{ 127 } لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه جعل هذا البيت مثابة للناس بيَّن الله تعالى كيف نشأ هذا البيت، فقال تعالى: { وإذ يرفع... }.

قوله تعالى: { وإذ يرفع }؛ { إذ } ظرف عاملها محذوف؛ والتقدير: واذكر إذ يرفع؛ و{ يرفع } فعل مضارع؛ والمضارع للحاضر، أو للمسـتقبل؛ ورفع البيت ماض؛ لكنه يعبَّر بالمضارع عن الماضي على حكاية الحال كـأن إبـراهيم يرفع الآن، يعـني: ذكّرهم بهـذه الحـال الـتي كأنها الآن مشـاهدة أمامهم.

قوله تعالى: { إبراهيم } فيها قراءتـان؛ إحـداهما: بكسر الهـاء بعـدها يـاء؛ والثانية: بفتح الهاء بعدها ألف: { إبراهام

قوله تعالى: { القواعد } مفعول { يرفع }؛ جمع قاعدة؛ وقاعـدة الشـيء أساسه.

قوله تعالى: { من البيت } بيان للقواعد؛ وهي في محل نصب على الحال؛ والمراد بـ{ البيت } الكعبة، كما سبق.
قوله تعالى: { وإسماعيل } عطفاً على قوله تعـالى: { إبـراهيم }؛ فهو مشـــارك لأبيه في رفع القواعـــد؛ وأخّر ذكر إســـماعيل؛ لأن الأصـــل: إبراهيم؛ وإسماعيل مُعِين؛ هذا الظاهر ـــ والله أعلم ـــ.
قوله تعــالى: { ربنا تقبل منا }؛ «رب» منــادى حــذفت منه «يــا» النداء؛ وأصله: يا ربنا؛ حذفت «يا» النداء للبداءة بالمدعو المنادى ــــ وهو الله ـــ؛ وجملــة: { ربنا تقبل منا } عاملها محـذوف تقـديره: «يقـولان»؛ وجملة: «يقولان» في موضع نصب على الحال؛ ودعَوَا الله سبحانه وتعالى باسم «الرب» ؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خلق وإيجاد.
قوله تعــالى: { ربنا تقبل منا } يعــني كل واحد يقــول بلســانه: ربنا تقبل منا؛ هذا ظاهر اللفظ؛ و «القبـول» أخذ الشـيء، والرضا بـه؛ ومنه ما يــذكره الفقهــاء في قــولهم: ينعقد الــبيع بالإيجــاب، والقبــول؛ فتقبُّلُ الله سـبحانه وتعـالى للعمل أن يتلقـاه بالرضـا، فيرضى عن فاعلـه؛ وإذا رضي الله تعالى عن فاعله فلا بد أن يثيبه الثواب الذي وعده إياه.
قوله تعالى: { إنك أنت السـميع العليم }: هـذه الجملة تعليل لطلب القبـول؛ يعـني: نسـألك أن تقْبل لأنك أنت السـميع العليم: تسـمع أقوالنـا، وتعلم أحوالنـا؛ وهـذه الجملة مؤكـدة بمؤكـدين؛ أحـدهما: «إنّ» ؛ والثـاني: { أنت }؛ ومن المعلوم أن ضـمير الفصل يفيد التوكيـد؛ وضـمير الفصل لا محل له من الإعراب؛ و{ السميع } خبر «إن» ؛ وقوله تعـالى: { العليم } أي ذو العلم.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: فضل عمـارة الكعبـة؛ لأن الله تعـالى أمر نبيه أن يذكر هذه الحادثة؛ لقوله تعالى: { وإذ يرفع... } إلخ.
2ـــ ومنها: فضل إبراهيم، وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، حيث قاما برفع هذه القواعد.
3ـــ ومنهــا: أن من إحكــام البنــاء أن يؤسس على قواعــد؛ لقوله تعالى: { وإذ يرفع إبراهيم القواعد }؛ وإذا بني على غير قاعدة فإنه ينهار.
4ـــ ومنها: جواز المعاونة في أفعال الخير.
5ـــ ومنهــا: أهمية القبـول، وأن المـدار في الحقيقة عليـه؛ وليس على العمــل؛ فكم من إنســان عمل أعمــالاً كثـيرة وليس له من عمله إلا التعب، فلم تنفعه؛ وكم من إنسان عمل أعمالاً قليلة قبلت فنفعه الله بها؛ ولهذا جاء في الحديث: «رب صائم حظه من صيامه الجوع، والظمــأ؛ ورب قائم حظه من قيامه السهر»[1] .
6ـــ ومنهــا: إثبــات اسـمين من أسـماء اللـه؛ وهما { السـميع }، و{ العليم }؛ وكل اسم من أســماء الله يــدل على صــفة من صــفاته؛ بل على صفتين أحياناً، أو أكثر ـــ ما يلزم من إثبـات الصـفة الـتي يـدل عليها الاسم ـــ؛ مثـال ذلـك: «الخـالق» دل على صـفة الخلـق؛ وصـفة الخلق تستلزم ثبوت صفة العلم، والقدرة؛ وقد يدل الاسم على الأثر إذا كان ذلك

---

[1] أخرجه أحمد 2/373، حديث رقم 8843 واللفظ له، وأخرجه ابن ماجة ص2578، كتاب الصيام، باب 21: ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، حديث رقم 1690؛ قال الألباني في صحيح ابن ماجة، حسن صحيح 1/282، حديث رقم 1371.

الاسم متعدياً؛ مثاله: { السميع } يـدل على صـفة السـمع، ويـدل على أن الله يسمع كل صوت يحدث.

7ــــ ومن فوائد الآية: إثبات السـمع لله عـزّ وجـلّ؛ وينقسم السـمع إلى قسمين: سمع بمعنى سماع الأصوات؛ وسـمع بمعـنى الإجابـة؛ فمثـال الأول قوله تبارك وتعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجـواهم بلى} [الزخـرف: 80] ، وقوله تعـالى: {قد سـمع الله قـول الـتي تجادلك في زوجهـا} [المجادلـة: 1] ؛ ومثـال الثـاني قوله تعـالى: {إن ربي لسـميع الدعاء} [إبراهيم: 39] أي مستجيب الدعاء؛ وكذلك قول المصلي: «سـمع الله لمن حمـده» ــــ يعـني اسـتجاب لمن حمـده ـــ؛ والسـمع الـذي هو بمعنى سماع الأصوات من صفاته الذاتيـة؛ والسـمع بمعـنى الاسـتجابة من صـفاته الفعليـة؛ لأن الاسـتجابة تتعلق بمشـيئته: إن شـاء اسـتجاب لمن حمده؛ وإن شاء لم يستجب؛ وأما سماع الأصوات فإنه ملازم لذاته ـــــ لم يـزل، ولا يـزال سـميعاً ـــ؛ إذ إن خلاف السـمع الصـمم؛ والصـمم نقص؛ والله سـبحانه وتعـالى مـنزه عن كل نقص؛ وكلا المعنـيين يناسب الـدعاء: فهو سبحانه وتعالى يسمع صوت الداعي، ويستجيب دعاءه.

والسمع ــــ أعني سماع الأصوات ــــ تـارة يفيد تهديـداً؛ وتـارة يفيد إقراراً، وإحاطة؛ وتارة يفيد تأييداً. يفيد تهديداً ، كما في قوله تعـالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سـنكتب ما قـالوا...} [آل عمران: 181] الآية، وقوله تعـالى: {أم يحسـبون أنا لا نسـمع سـرهم ونجـــواهم بلى} [الزخـــرف: 80] ويفيد إقـــراراً، وإحاطة ، كما في قوله تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} [المجادلة: 1] ؛ ويفيد تأييداً ، كما في قوله تعالى لموسى وهـارون: {إنـني معكما أسـمع وأرى} [طه: 46] .

8ــــ ومن فوائد الآية: إثبات العلم لله ــــ تبارك وتعـالى ـــــ جملـةً، وتفصيلاً؛ موجـوداً، أو معـدوماً؛ ممكنـاً، أو واجبـاً، أو مسـتحيلاً؛ مثـال علمه بالجملة: قوله تعـالى: {لتعلمـوا أن الله على كل شـيء قـدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} [الطلاق: 12] ، وقوله تعالى: {الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً} [طه: 98] ، ومثال علمه بالتفصيل: قوله تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في الـبر والبحر وما تسـقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمـات الأرض ولا رطب ولا يـابس إلا في كتاب مبين} [الأنعام: 59] ؛ ومثـال علمه بـالموجود: ما أخـبر الله به عن علمه بما كـــان، مثل قـــول الله تعـــالى: {علم الله أنكم كنتم تختـــانون أنفسكم} [البقرة: 187] ؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي قد وجِد: ما علمه الله من أحـوال الماضـين؛ ومثـال علمه بالمعـدوم الـذي لم يوجد بعـد: ما علمه الله عزّ وجلّ من أحوال القيامة، ومآل الخلق؛ ومثال علمه بالممكن: ما علمه الله عـزّ وجـلّ من الحـوادث الواقعة من الإنسـان؛ ومثـال علمه بـــالواجب: ما علمه الله عـــزّ وجـــلّ من كمـــال صـــفاته؛ ومثـــال علمه بالمسـتحيل: قوله تعـالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كـان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} [المؤمنون: 91] ، وقوله تعالى: { لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا } [الأنبياء: 22] .

واعلم أن من أنكر علم الله فهو كافر سواء أنكره فيما يتعلق بفعله، أو فيما يتعلق بخلقـه؛ فلو قـال: إن الله تعـالى لا يعلم ما يفعله العبد فهو

كافر، كما لو قال: إن الله لا يعلم ما يفعله بنفسه؛ ولهذا كفَّر أهل السنة والجماعة غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أفعال العباد؛ فالذي ينكر علم الله بأفعال العباد لا شك أنه كافر؛ لأن الله تعالى يقول: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد

[ق: 16] ، ويقول سبحانه وتعالى: {أم يحسبون أنا لا نعلم سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} [الزخرف: 80] ؛ فالذي يقول: إن الله لا يعلم أفعال العباد فإنه كافر بهذه الآيات؛ ولهذا قال الشافعي في القدرية: «ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خُصِموا؛ وإن أنكروه كفروا»؛ وإيمانك بهذا يوجب لك مراقبته، والخوف منه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه؛ لأنك متى علمت أنه عالم بك فإنك تخشاه؛ تستحيي منه عند المخالفة؛ وترغب فيما عنده عند الموافقة.

9ـــ ومن فوائد الآية: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته المناسبة لما يدعو به؛ لقوله تعالى: { إنك أنت السميع العليم }.

10ـــ ومنها: أن الدعاء يكون باسم «الرب» ؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خَلْق، وإيجاد.

القـــــــــــرآن

{)رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:128)

التفسير:

{ 128 } قوله تعالى: { ربنا واجعلنا مسلمين }: أتى بالواو عطفاً على قوله تعالى: { ربنا تقبل منا } يعني ربنا واجعلنا مع قبولك مسلمين لك؛ و{ اجعلنا } أي صيِّرنا.

قوله تعالى: { ومن ذريتنا أمة مسلمة لك } يعني واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك؛ فأتى بـ{ من } التي للتبعيض؛ والمراد بـ{ ذريتنا } من تفرعوا منهما؛ فذرية الإنسان من تفرعوا منه.

قوله تعالى: { أمة مسلمة لك } هذه الأمة هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم، وإسماعيل إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن اليهود، والنصارى ليسوا من بني إسماعيل؛ بل من بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قوله تعالى: { وأرنا مناسكنا } أي بيِّنها لنا حتى نراها؛ و «المناسك» جمع منسك؛ وهو هنا مكان العبادة.

قوله تعالى: { وتب علينا } أي وفقنا للتوبة فنتوب؛ والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ ومن الله عزّ وجلَّ: هي توفيق العبد للتوبة، ثم قبولها منه.

قوله تعالى: { إنك أنت التواب الرحيم }: هذا من باب التوسل بأسماء الله عزّ وجلّ المناسبة للمطلوب؛ و{ التواب } صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه؛ و{ الرحيم } أي الموصوف بالرحمة التي يرحم بها من يشاء من عباده.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: شدة افتقار الإنسان إلى ربه، حيث كرر كلمة: { ربنا }؛ وأنه بحاجة إلى ربوبية الله الخاصة التي تقتضي عناية خاصة.

2ـــ ومنها: أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت الله؛ وإلا هلك؛ لقوله تعالى: { واجعلنا مسلمين }؛ فإنهما مسلمان بلا شك: فهما نبيَّان؛ ولكن لا يدوم هذا الإسلام إلا بتوفيق الله؛ قال الله سبحانه وتعالى للرسول (ص): {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلًا * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات} [الإسراء: 74، 75] .

3ـــ ومنها: أهمية الإخلاص؛ لقوله تعالى: { مسلمين لك }: { لك } تدل على إخلاص الإسلام لله عزّ وجلّ، كما قال تعالى في آية أخرى: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه} [البقرة: 112] .

4ـــ ومنها: أن الإسلام يشمل كل استسلام لله سبحانه وتعالى، ظاهراً وباطناً.

5ـــ ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته في الدعاء؛ لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة؛ لقوله تعالى: { ومن ذريتنا أمة مسلمة لك }؛ وقال إبراهيم (ص) في آية أخرى: { واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام }؛ فالذرية صلاحها لها شأن كبير بالنسبة للإنسان.

6ـــ ومنها: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: { وأرنا مناسكنا } يعني: أعلمنا بها.

7ـــ ومنها: أن الأصل في العبادات أنها توقيفية ـــ يعني: الإنسان لا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع ـــ؛ لقوله تعالى: { وأرنا مناسكنا }.

8ـــ ومنها: تحريم التعبد لله بما لم يشرعه؛ لأنهما دعَوَا الله عزّ وجلّ أن يريهما مناسكهما؛ فلولا أن العبادة تتوقف على ذلك لتَعبدا بدون هذا السؤال.

9ـــ ومنها: افتقار كل إنسان إلى توبة الله؛ لقوله تعالى: { وتب علينا }؛ إذ لا يخلو الإنسان من تقصير.

10ـــ ومنها: إثبات { التواب }، و{ الرحيم } اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وما تضمناه من صفة.

11ـــ ومنها: مشروعية التوسل إلى الله عزّ وجلّ بأسمائه، وصفاته؛ لأن قوله تعالى: { إنك أنت التواب الرحيم } تعليل للطلب السابق؛ فهو وسيلة يتوصل بها الداعي إلى حصول مطلوبه.

12ـــ ومنها: أن التوسل بأسماء الله يكون باسم مطابق لما دعا به؛ لقوله تعالى: { وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم }، ولقوله تعالى: { ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها }.

تـنـبـيـه:

إن قال قائل: كيف يستقيم أن يسأل إبراهيم، وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مسلمين له مع أنهما كانا كذلك؟

فالجواب: أن المراد بذلك تثبيتهما على الإسلام؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان لا يأمن العاقبة؛ أو يقال: إن المراد تقوية إسلامهما بالإخلاص لله عزّ وجلّ، والانقياد لطاعته؛ أو يقال: إنهما قالا ذلك توطئة لما

بعـــدها في قولهمـــا: { ومن ذريتنا أمة مســـلمة لك }؛ والأول أقـــوى الاحتمالات.

القـــــــــرآن

{)رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـــولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـــكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـــابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (البقرة:129)

التفسير:

{ 129 } قوله تعالى: { ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك }، أي أرسل فيهم رسـولاً مرسَـلاً من عنـدك يقـرأ عليهم آياتـك، ويبينها لهم، كما قال الله ـــ تبارك وتعـالى ــــ: {وأنزلنا إليك الـذكر لتـبين للنـاس ما نزل إليهم} [النحل: 44] .

قوله تعـالى: { ويعلمهم الكتـاب } أي القـرآن، وما فيه من أخبـار صادقة نافعة، وأحكام عادلـة؛ { والحكمة قيـل: هي السـنة؛ لقوله تعـالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النسـاء: 113] ؛ ويحتمل أن يكـون المـراد بها معرفة أسـرار الشـريعة المطهـرة، وأنها شـريعة كاملة صـالحة لكل زمان، ومكان.

قوله تعالى: { ويزكيهم } أي ينمي أخلاقهم، ويطهرها من الرذائل.

قوله تعـالى: { إنك أنت العزيز الحكيم }؛ { أنت }: ضـمير فصل لا محل له من الإعـراب؛ و{ العزيـز} خـبر { إن }؛ و{ الحكيم } خـبر ثـان؛ والكاف اسم { إن }؛ و{ العزيز } أي ذو العزة؛ و «العزة» بمعنى القهـر، والغلبة؛ فهو سبحانه وتعالى ذو قوة، وذو غلبـة: لا يغلبه شـيء، ولا يعجـزه شيء؛ و{ الحكيم } أي ذو الحُكم، والحكمة.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: ضرورة الناس إلى بعث الرسـل؛ ولـذلك دعـا إبراهيمُ وإسماعيلُ الله سبحانه وتعالى أن يبعث فيهم الرسول.

2ـــ ومنها: أن كون الرسـول منهم أقـرب إلى قبـول دعوتـه؛ لقوله تعـــالى: { رســـولاً منهم }؛ لأنهم يعرفونـــه، كما قـــال تعـــالى: {ما ضل صاحبكم وما غوى} [النجم: 53] ؛ فتأمل قوله تعالى: {ما ضل صاحبكم} [النجم: 53] ، حيث أضـافه إليهم؛ يعـني: صـاحبكم ــــ الـذي تعرفونـه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته ـــ ما ضل، وما غوى.

3ـــ ومنهـا: أن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم جعل الله سـبحانه وتعالى فيه من الخير أنه يتلو الآيات، ويعلم الكتـاب، ويعلم الحكمـة؛ لقوله تعالى: { يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة }.

4ـــ ومنها: أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن ذكر آيات الله الكونيـة، والشـرعية، وتتضـمن تعليم الكتـاب تلاوةً، ومعنًى، وتتضـمن أيضـاً الحكمة ــــ وهي معرفة أسـرار الشـريعة، وتتضـمن تزكية الخلـق؛ لقوله تعالى: { يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم }.

5ـــ ومنها: أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يزكي الأخلاق، ويطهرها من كل رذيلة، كما قـال صـلى الله عليه وسـلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] ؛ وهكذا كانت شريعة الرسول صـلى الله عليه وسـلم:

[1] أخرجه أحمد ج2/381، حديث رقم 8939، وأخرجه الحاكم في مستدركه 2/613، وقال حديث صحيح على شرط مسلم؛ وأقره الذهبي، وقال ابن عبد البر: وهذا حديث مدني صحيح (التمهيد 24/334).

تنمية للأخلاق الفاضلة، وتطهيراً من كل رذيلة؛ فهو يأمر بالبر، ويأمر بالمعروف، ويأمر بالإحسان، ويأمر بالصلة، ويأمر بالصدق، ويأمر بكل خير؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به ـــ وهذه تزكية ـــ؛ وينهى عن ضد ذلك؛ ينهى عن الإثم، والقطيعة، والعدوان، والعقوق، والكذب، والغش، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق ـــ وهذه أيضاً تزكية ـــ.

وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تَسأل! شرك، وكفر؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تَسأل أيضاً عن حالهم! القوي يأكل الضعيف؛ والغني يأكل الفقير؛ ويأكلون الربا أضعافاً مضاعفة؛ يُغِير بعضهم على بعض؛ يتعايرون بالأنساب؛ يدعون بدعوى الجاهلية... إلخ.

جاء الإسلام، وهدم كل هذا؛ ومن تدبر التاريخ قبل بعثه (ص) وبعده، علم الفرق العظيم بين حال الناس قبل البعثة، وحالهم بعدها؛ وظهر له معنى قوله تعالى: { ويزكيهم }.

6ـــ ومنها: أن هذه الشريعة كاملة؛ لتضمن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه المعاني الجليلة مما يدل على كمال شريعته.

7ـــ ومنها: إثبات العزة، والحكمة لله؛ لقوله تعالى: { إنك أنت العزيز الحكيم }.

8ـــ ومنها: إثبات هذين الاسمين لله: { العزيز }، و{ الحكيم }.

9ـــ ومنها: مناسبة العزة، والحكمة لبعث الرسول؛ وهي ظاهرة جداً؛ لأن ما يجيء به الرسول كله حكمة، وفيه العزة: قال الله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: 80] ؛ للمؤمنين عرباً كانوا، أو عجماً؛ من كان مؤمناً بالله عزّ وجلّ قائماً بأمر الله فإن له العزة؛ ومن لم يكن كذلك فاته من العزة بقدر ما أخل به من الإيمان، والعمل الصالح؛ ولهذا يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة.

القـــــــرآن

{)وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (البقرة:130)

التفسير:

{ 130 } قوله تعالى: { ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه }؛ { مَن } اسم استفهام يراد به النفي؛ وهو مبتدأ؛ وجملة: { يرغب } خبره؛ ولا نقول: { مَن } هنا شرطية؛ نعم، لو كانت الآية: «ومن يرغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه» صارت شرطية؛ لكن الأول أبلغ.

قوله تعالى: { يرغب عن ملة إبراهيم }: يقال: رغب في كذا؛ ورغب عنه؛ والفرق أن «رغب فيه» يعني طلبه؛ و«رغب عنه» يعني تركه، واجتنبه؛ هنا: { ومن يرغب عن ملة إبراهيم } يعني تركها؛ و «الملة» بمعنى الدين - أي دين إبراهيم -؛ ودين إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) أنه كان حنيفاً مسلماً لله، ولم يكن من المشركين؛ و{ إبراهيم } هو الخليل صلى الله عليه وسلم الذي هو أبو الأنبياء، وأشرفهم بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وجعله الله إماماً، قال الله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتاً

[النحل: 120]، وجعل ملته هي الملة الحنيفية؛ فـإذا كـان كـذلك فلا أحد يرغب عن الملة الحنيفية القويمة.
قوله تعـــالى: { إلا من ســـفه نفسه } أي أوقعها في ســـفه؛ و «السـفه» ضد الرشـد؛ وقيـل: معنـاه: جهل نفسه أي جهل ما يجب لهـا، فضـيعها؛ ولنا أن نقـول: إن التعبـير بما يحتمل الـوجهين فيه نكتة عظيمـة؛ وهي أن يكـون التعبـير صـالحاً للأمـرين؛ فكأنه نـاب عن جملـتين؛ فهو في الحقيقة جاهل إن لم يتعمد المخالفة؛ وسفيه إن تعمد المخالفة.
قوله تعـالى: { ولقد اصـطفيناه في الـدنيا }: الجملة هنا مؤكـدة بمؤكدات ثلاثة؛ وهي القسم المقدر؛ واللام؛ و «قد» ؛ لأن اللام هنا موطئة للقسم؛ والتقدير: وواللّهِ لقد.
وقوله تعالى: { اصطفيناه } افتعـال من الصـفوة؛ فأصل هـذه المـادة من صفا يصفو؛ ومعـنى { اصـطفيناه في الـدنيا اخترنـاه، وجعلنـاه صـفياً من الخلـق: اصـطفاه الله سـبحانه وتعـالى في الـدنيا على كل الأنبيـاء ما عـدا محمداً (ص)؛ واتخذه الله سبحانه وتعالى خليلاً.
قوله تعـالى: { وإنه في الآخــرة لمن الصــالحين }: { إنه }: «إنّ» واسمها؛ و{ لمن الصالحين }: خبرها؛ وهذه الجملة مؤكدة بــ «إن» واللام فقــط؛ و{ في الآخــرة }: في موضع نصب على الحــال؛ أي إنه في حــال كونه في الآخرة؛ لمن الصالحين؛ في الـدنيا اصـطفاه اللـه، واختـاره؛ وفي الآخرة يكون من الصالحين الذين أدوا ما أوجب الله عليهم لنفسه ولخلقه.
وهنا ذكر الله تعالى الاصطفاء في الدنيا، والصـلاح في الآخـرة؛ فهل هنا نكتة لتغاير الحالين، أو لا؟
الجـواب: يبـدو لي ـــ والله أعلم ـــ أن هنـاك نكتـة؛ وهي أن الـدنيا دار شهوات، وابتلاء؛ فلا يصبر عن هذه الشهوات، ولا على هـذا الابتلاء إلا واحد دون الآخـر؛ فـإذا أخلص الإنسـان نفسه لله صـار صـفوة من عبـاد اللــه؛ والآخرة ليست هكذا؛ الآخـرة حـتى الكفـار يؤمنـون؛ ولكن الفـرق بين من يكون من الصالحين، وغير الصالحين؛ لأنهم إذا عرضوا على النار قيل لهم: {أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا} [الأنعام: 30]، وقيل لهم: {أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى} [غافر: 50]؛ وقالوا: {يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسـلون} [يس: 52] ... وهكـذا ما يدل على أنهم مؤمنون؛ لكنهم ليسوا من الصالحين؛ فإن كانت هذه هي النكتة فـذلك من فضل اللـه؛ وإن لم تكن إياها فـالعلم عند اللـه؛ ولا بد أن يكون هناك نكتة جهلناها.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: أن الرشد في اتباع ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: { إلا من سفه نفسه }.
2ـــ ومنها: أن مخالفة هذه الملة سفه؛ مهما كـان الإنسـان حكيمـاً في قوله فإنه يعتبر سفيهاً إذا لم يلتزم بشريعة الله.
3ـــ ومنهـا: فضـيلة إبـراهيم ـــ عليه الصـلاة والسـلام ـــ، حيث اصطفاه الله، واختاره على العالمين؛ لقوله تعـالى: { ولقد اصـطفيناه في الدنيا }.
4ـــ ومنها: إثبات الآخرة؛ لقوله تعالى: { وإنه في الآخرة }.

5ـــ ومنهـا: أن الصـلاح وصف للأنبيـاء، ومن دونهم؛ فيوصف النـبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح؛ ولهذا كانت الأنبياء ـــــ عليهم الصلاة والسلام ــــ يحيـون الرسـول صـلى الله عليه وسـلم ليلة المعـراج بقولهم: «مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح»[1] ؛ فوصفوه بالصلاح.

6ـــ ومنهـا: أن المخـالفين للرسل سـفهاء؛ لقوله تعـالى: { ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، وقوله في المنافقين: {ألا إنهم هم السفهاء} [البقرة: 13] ، وقوله تعالى: {سيقول السفهاء من النـاس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليهـا} [البقـرة: 142] ؛ فـإنهم ـــــ وإن كـانوا أذكيـاء، وعنـدهم علم بالصـناعة، والسياسة ـــــ هم في الحقيقة سفهاء؛ لأن العاقل هو الذي يتبع ما جاءت به الرسل فقط.

القـــــــــرآن

{)إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (البقرة:131)

التفسير:

{ 131 } قوله تعـالى: { إذ قـال له ربه أسـلم }؛ هـذا من الثنـاء على إبراهيم؛ { إذ }: يحتمل أن تكون متعلقة بقولـه: { ولقد اصـطفيناه } أي: ولقد اصـطفيناه إذ قـال له ربـه؛ ويحتمل أن تكـون متعلقة بمحـذوف، والتقدير: اذكر إذ قال له ربـه؛ فيكـون أمـراً للرسـول (ص) أن ينـوه بهـذه الحال التي كان إبراهيم (ص) عليها.

قوله تعالى: { أسلمت } يشمل إسلام الباطن، والظاهر.

قوله تعـالى: { لـرب العـالمين } يتضـمن توحيد الربوبيـة، والأسـماء، والصفات؛ وما أكثر الذين أمـروا بالإسـلام ولم يسـلموا: تسـعمائة وتسـعة وتسعون من الألف من بني آدم كلهم في النار، وواحد من ألف في الجنـة؛ لأنهم أمروا بالإسلام، ولم يسلموا.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآيـة: فضـيلة إبـراهيم (ص)، حيث لم يتـوانَ، ولم يستكبر؛ فبـادَر بقولـه: { أسـلمت لـرب العـالمين } حين قـال له ربه عـزّ وجلّ: { أسلم } ولم يستكبر؛ بل أقر؛ لأنه مربوب لرب العالمين.

2ـــ ومنها: إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى العامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: { لرب العالمين }.

3ـــ ومنهـا: الإشـارة إلى أن الخلق من آيـات اللـه؛ لأنهم سُـمّوا «عالمين»، حيث إنهم عَلَم على خالقهم.

4ـــ ومنها: المناسبة بين قوله تعالى: { أسلمت }، و{ رب }؛ كأن هذا علة لقوله تعالى: { أسلمت }؛ فإن الرب هو الذي يسـتحق أن يُسْـلَم له؛ الرب: الخالق؛ ولهذا أنكر الله سبحانه وتعالى عبادة الأصنام، وبيّن علة ذلك بأنهم لا يخلقون؛ قال تعالى: {والذين يدعون من دون الله لا يخلقـون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثـون} [النحـل: 20، 21] ؛ فتبين بهذا مناسبة ذكر الإسلام مقروناً بالربوبية.

---

[1] أخرجه البخاري في 315 – 316، كتاب مناقب الأنصار، باب 42: المعراج، الحديث رقم 3887، وأخرجه مسلم ص707، كتاب الإيمان، باب 74: الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم 416 [264] 164.

القـــــــــرآن

{)وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (البقرة:132)

التفسير:

{ 132 } قوله تعـالى: { ووصى بها إبـراهيم بنيه ويعقـوب }؛{ وصى } فيها قراءتـان؛ إحـداهما بهمـزة مفتوحة مع تخفيف الصـاد: { أوصَـى }، والثانية بحذف الهمزة مع تشديد الصاد: { وصَّى }؛ أما { إبـراهيم } ففيها قراءتان؛ إحداهما بكسر الهاء بعدها يـاء: { إبـراهيم }؛ والثانية بفتح الهـاء بعـدها ألـف: { إبراهـام }؛ وقـراءة: { أوصى } لا تنطبق عليها الشـروط الثلاثة في القراءة، والمجموعة في البيتين، وهما:

وكل ما وافق وجه نحو وكان للرسم احتمالاً يحـوي وصح نقلاً فهو القُـران فهـذه الثلاثة الأركـان فقوله تعـالى: { وصى }، و{ أوصى } لم تتفق في الرسم؛ إذاً الشروط أو الأركان التي ذكرت بناءً على الأغلب.

قوله تعالى: { ووصى بها إبراهيم }: الضمير «ها» يعـود على هـذه الكلمة العظيمة؛ وهي {أسلمت لرب العالمين} [البقرة: 131] ؛ ويجوز أن يكون الضمير يعود على الملة ـــ أي: وصى بهذه الملة ـــ؛ والمعـنى واحـد؛ لأن {ملة إبـراهيم} [البقـرة: 130] هي {إذ قـال له ربه أسـلم قـال أسـلمت لـرب العـالمين} [البقـرة: 131] ؛ و «التوصـية» العهد المؤكّد في الأمر الهام.

قوله تعالى: { بنيه } مفعـول { وصى }؛ ولهـذا نُصـبت باليـاء؛ لأنها ملحق بجمع المذكر السالم.

قوله تعالى: { ويعقوب } معطوفة على { إبراهيم } فهي مرفوعة؛ يعني: وكذلك وصى بها يعقـوب بنيـه؛ وسـمي يعقـوب: قيـل: لأنه عقب إسـحاق؛ وقيل: إنه اسم غير عربي، ومثله لا يطلب له اشتقاق.

قال يعقـوب: { يا بـني } أي يا أبنـائي؛ وإنما نـاداهم بوصف البنـوة ترفقـاً معهم ليكون أدعى إلى القبول.

قوله تعالى: { إن الله اصطفى } أي اختار { لكم } أي لأجلكم { الدين } أي العبـادة، والعمـل؛ ويطلق على الجـزاء؛ ففي قوله تعـالى: {مالك يـوم الـدين} [الفاتحـة: 4] المـراد بـــ {الـدين} الجـزاء؛ وفي قوله تعـالى: {ورضيت لكم الإسلام دينـاً} [المائـدة: 3] ؛ «الـدين» : العبـادة؛ فالـدين يطلق على هذا، وعلى هذا ـــ على العمـل، وعلى الجـزاء عليه ـــ؛ ومنه قولهم: كما تدين تدان ـــ يعني كما تعمل تُجازى.

قوله تعـالى: { فلا تمـوتن } الفـاء للتفريـع؛ أي فعلى هـذا الاختيـار تمسكوا بهذا الدين؛ و «لا» ناهية؛ و{ تموتن } مجـزوم بحـذف النـون؛ لأنه من الأفعال الخمسة؛ والنون هنا الـتي فيها للتوكيـد؛ وأصـلها: «تموتـونَنَّ»: حذفت النون للجزم فصارت «تموتونّ»؛ ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ لأن الحرف المشدد أوله سـاكن؛ والـواو سـاكنة؛ فحـذفت الـواو؛ قـال ابن مالك:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن لينـاً فحذفه اسـتحق قوله تعـــالى: { إلا وأنتم مســـلمون } جملة حالية يـــراد بها اســـتمرارهم على الإسلام إلى الممات.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآيـة: أهمية هـذه الوصـية؛ لأنه اعتـنى بها إبـراهيم، ويعقـوب؛ فـإبراهيم أبو العـرب والإسـرائيليين؛ ويعقـوب أبو الإسـرائيليين؛ فهذان الرسولان الكريمان اعتنيا بها، حيث جعلاها مما يوصى به.
2ــــ ومنها: أنه ينبغي العناية بهذه الوصية اقتداءً بإبراهيم، ويعقوب.
3ــــ ومنها: أن الله سـبحانه وتعـالى اختـار لعبـاده من الـدين ما هو أقوم بمصالحهم؛ لقوله تعالى: { اصطفى لكم الدين }؛ فلولا أنه أقــوم ما يقوم بمصالح العباد ما اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده.
4ــــ ومنها: أنه ينبغي التلطف في الخطاب؛ لقوله تعـالى: { يا بـنيّ }؛ فإن نداءهم بالبنوة يقتضي قبول ما يلقى إليهم.
5ــــ ومنهـا: أنه ينبغي للإنسـان أن يتعاهد نفسه دائمـاً حـتى لا يأتيه الموت وهو غافل؛ لقوله تعالى: { فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون }.
6ــــ ومنهـا: أن الأعمـال بـالخواتيم؛ لقوله تعـالى: { فلا تمـوتن إلا وأنتم مسلمون }.

القــــــــــرآن

)أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة:133)

التفسير:

{ 133 } قوله تعــالى: { أم كنتم شــهداء }؛ { أم } هنا منقطعــة؛ و«المنقطعـة» يقـول المعربـون: إنها بمعـنى «بـل» وهمـزة الاسـتفهام؛ فمعـنى { أم كنتم }: بل أكنتم؛ والضـمير في { كنتم } يعـود على اليهـود الذين ادعوا أنهم على الحق، وأنّ هذه وصية أبيهم يعقوب، فالتزَموا ما هم عليـه؛ ويحتمل أن يكـون عائـداً على جميع المخـاطبين، ويكـون المقصـود بـذلك الإعلام بما حصل من يعقـوب حين حضـره المـوت؛ وهـذا الاحتمـال أولى؛ لأنه لا يوجد هنا دليل على أنه يعود على اليهـود؛ بل الآية كلها عامـة؛ وهي أيضـاً منقطعة عن اليهـود بآيـات سـابقة كثـيرة؛ فـالمعنى: تقرير ما وصى به يعقوب حين موته؛ و{ شهداء } جمع شهيد، أو شاهد ــــ بمعـنى حاضر ــــ.
قوله تعالى: { إذ حضر يعقوب المـوت }؛ { إذ } ظـرف مبنية على السـكون في محل نصب ــــ أي وقت حضــور يعقــوب المــوت ــــ؛ و{ يعقوب } منصوبة؛ لأنها مفعـول به مقـدم؛ و{ المـوت } فاعل مـؤخر؛ لأن الحاضر الموت؛ والمحضور يعقوب.
قوله تعالى: { إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي }؛ { إذ } بــدل من { إذ } الأولى: يعني: إذ حضر إذ قال؛ يعني: أم كنتم شهداء إذ قـال لبنيـه: «ما تعبـدون من بعـدي» حين حضـره المـوت؛ وبنو يعقـوب هم يوسـف، وإخوته: أحد عشر رجلاً؛ حضر يعقوب الموت، فكان أولاده حاضرون، فقال لهم: { ما تعبــدون من بعـدي } أي من بعد مـوتي { قـالوا نعبد إلهك }: بدؤوا به؛ لأنهم يخاطبونه؛ { وإله آبائك } جمع أب؛ ثم بينوا الآبـاء بقـولهم: { إبراهيم وإسماعيل وإسحاق }؛ { إبراهيم } بالنسبة إلى يعقوب جدّ؛ و{ إسـماعيل } بالنسـبة إليه عم؛ و{ إسـحاق } بالنسـبة إليه أب مباشـر؛ أما إطلاق الأبوة على إبراهيم، وعلى إسحاق فـالأمر فيه ظـاهر؛ لأن إسـحاق

أبوه، وإبراهيم جده؛ والجد أب؛ بل قـال الله عـزّ وجـلّ لهـذه الأمـة: {ملة أبيكم إبراهيم} [الحج: 78] ؛ وهي بينها وبين إبراهيم عالَم؛ لكن الإشكال في عدِّهم إسـماعيل من آبائه مع أنه عمهم؛ فيقـال كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم لعمر رضي الله عنـه: «أما شـعرت أن عم الرجل صـنو أبيه»[1] ؛ و«الصنو» الغصنان أصلهما واحد؛ فذُكر مع الآباء؛ لأن العم صنو الأب؛ وكما قال الرسول صلى الله عليه وسـلم: «الخالة بمنزلة الأم»[2] ؛ كذلك نقول: العم بمنزلة الأب؛ وقيل: إن هـذا من بـاب التغليب، وأن الأب لا يطلق حقيقة على العم إلا مقروناً بـالأب الحقيقي؛ وعلى هـذا فلا يكـون فيها إشـــكال إطلاقــاً؛ لأن التغليب ســائغ في اللغة العربيــة، فيقـــال: «القمران»؛ والمراد بهما الشمس، والقمر؛ ويقـال: «العُمَـرانِ»؛ وهما أبو بكر، وعمر.

وقوله تعالى: { إبراهيم } بدل من { آبائك }؛ أو عطف بيـان؛ وفيها قراءة: { إبراهام } بفتح الهاء بعدها ألف.

قوله تعالى: { إلهاً واحداً } أي نعبده؛ و{ إلهاً } هذه حال؛ يسـمونها حـال موطئـة؛ ولكنها بنـاءً على أن «إلـه»، و«اللـه» غـير مشـتق؛ والصـحيح أنه مشتق، وأنه بمعـنى مـألوه؛ وعليه فتكـون حـالاً مؤسسة حقيقيـة؛ وليست موطئـة؛ لأن الحـال الموطئة الـتي تكـون تمهيـداً لمشـتق، مثـل: {قرآنـاً عربياً} [يوسف: 2] فإن «قرآن» غير مشتقة؛ والحـال ــــ كما تقـدم ــــ تكون مشتقة و{ واحداً } حال أخرى مكررة.

قوله تعالى: { ونحن له مسلمون }؛ { نحن } مبتـدأ؛ و{ مسـلمون } خبره؛ و{ له } جار ومجرور متعلقة بـ{ مسلمون } قدمت عليها لإفـادة الحصر ــــ من حيث المعنى؛ ولمراعاة فواصل الآيات ــــ من حيث اللفظ؛ و{ نحن له مسلمون } أي منقادون لأمر هذا الإله الواحد سبحانه وتعـالى، وشرعه.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآيـة: أن التوحيد وصـية الأنبيـاء؛ لقوله تعـالى: { ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك.

2ــــ ومنها: أن الموت حق حتى على الأنبياء؛ قال الله تعـالى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} [آل عمران: 144] .

3ــــ ومنها: جواز الوصية عند حضور الأجل؛ لقوله تعالى: { إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعـدي قـالوا نعبد إلهك }؛ وهـذا كالوصية لهم؛ ولكنه يشترط أن يكون الموصي يعي ما يقول؛ فـإن كـان لا يعي ما يقول فإنه لا تصح وصيته.

4ــــ ومنها: رجحان القول الصحيح بأن الجدّ أب في الميراث؛ لقوله تعالى: { آبائك إبراهيم }.

5ــــ ومنهــا: أنه يجــوز إطلاق اسم الأب على العم تغليبــاً؛ لقوله تعالى: { وإسماعيل }.

6ــــ ومنها: أن أبناء يعقوب كانوا على التوحيـد، حيث قـالوا: { نعبد إلهك وإله آبائك }؛ وهذا لا شك توحيد منهم.

---

(1) أخرجه مسلم ص832، كتاب الزكاة، باب 3: في تقديم الزكاة ومنعها، حديث رقم 2277 [11] 983.

(2) أخرجه البخاري ص214، كتاب الصلح، باب 6: كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان...، حديث رقم 2699.

7ـــ ومنها: أن النفوس مجبولة على اتباع الآباء؛ لكن إن كان على حق فهو حق؛ وإن كان على باطل فهو باطل؛ لقولهم: { وإله آبائك }؛ ولهذا الذين حضروا وفاة أبي طالب قالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

8ـــ ومنها: أهمية التوحيد، والعناية به؛ لقوله تعالى: { ما تعبدون من بعدي }.

9ـــ ومنها: أن العبادة والألوهية معناهما واحد؛ لكن العبادة باعتبار العابد؛ والألوهية باعتبار المعبود؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة؛ وبعضهم يقول: توحيد الألوهية.

10ـــ ومنها: إخلاص الإسلام لله، حيث قال تعالى: { ونحن له مسلمون }؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول في { له }؛ لأنه متعلق بـ{ مسلمون }؛ فهو معمول له؛ وقد عُلم أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

11ـــ ومنها: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: { إلهاً واحداً }.

القـــــــرآن

{)تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة:134)

التفسير:

{ 134 } قوله تعالى: { تلك آمة قد خلت }: المشار إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن سبق؛ وكان اليهود يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في هؤلاء؛ فبين الله تعالى أن هذه أمة قد مضت { لها ما كسبت ولكم ما كسبتم } فلا تنالون مما كسبوا شيئاً؛ ولا ينالون مما كسبتم شيئاً.

و «الأمة» هنا بمعنى طائفة؛ وتطلق في القرآن على عدة معانٍ؛ المعنى الأول: الطائفة، كما هنا؛ المعنى الثاني: الحقبة من الزمن، مثل قوله تعالى: {وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة} [يوسف: 45] يعني: بعد حقبة من الزمن؛ والمعنى الثالث: الإمام، مثل قوله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة} [النحل: 120]ـ ؛ والمعنى الرابع: الطريق، والملة، مثل قوله تعالى: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} [الزخرف: 22] .

قوله تعالى: { ولا تسألون عما كانوا يعملون } أي لا تُسألون عن أعمال من سبقكم؛ لأن لهم ما كسبوا، ولكم ما كسبتم.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئاً؛ لقوله تعالى: { تلك أمة قد خلت... } الآية؛ يعني هم مضوا، وأسلموا لله؛ وأنتم أيها اليهود الموجودون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم أن تنظروا ماذا كسبتم لأنفسكم.

2ـــ ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نسكت عما جرى بين الصحابة؛ لأنا نقول كما قال الله لهؤلاء: { تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم } فنحن معنيون الآن بأنفسنا؛ ويُذكر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـــ رحمه الله ـــ أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: «هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها» ؛ هذه كلمة عظيمة؛ فعلى هذا النزاع فيما جرى بين معاوية، وعلي بن أبي طالب، وعائشة، وما أشبه ذلك لا محل له؛ لكن الذي يجب أن نعتني به حاضر الأمة؛ هذا الذي يجب أن يبين فيه الحق، ويبطَل فيه الباطل؛ ونقول: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} [الحشر: 10] .

3ـــ ومن فوائد الآية: أن الإنسان وعملَه؛ لقوله تعالى: { لها ما كسبت ولكم ما كسبتم }؛ فلا أحد يعطى من عمل أحد، ولا يؤخذ منه؛ قال تعالى: {كل نفس بما كسبت رهينة} [المدثر: 38] .

4ـــ ومنها: أن الآخِر لا يُسأل عن عمل الأول؛ ولكن الأول قد يُسأل عن عمل الآخر، كما قال تعالى: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} [القصص: 41] ؛ فقد يكون الأول صاحب بدعة، ويُتَّبَع على بدعته؛ فيكون دالاً على ضلالة؛ فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لكن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[1] ؛ وفي لفظ: «فتؤذوا الأحياء»[2] .

5ـــ ومن فوائد الآية: إثبات عدل الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يؤاخذ أحداً بما لم يعمله؛ لقوله تعالى: { ولا تسألون عما كانوا يعملون }.

6 ـــ ومنها: إثبات السؤال، وأن الإنسان سيُسأل؛ لقوله تعالى: { ولا تسألون عما كانوا يعملون }؛ منطوق الآية: نفي السؤال عن عمل الغير؛ ومفهومها: ثبوت السؤال عن عمل العامل، وأنه مسؤول عن العمل.

القـــــــرآن

{)وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (البقرة:135)

التفسير:

{ 135 } قوله تعالى: { وقالوا }: الضمير يعود على اليهود، والنصارى، يخاطبون المسلمين؛ { كونوا هوداً } يعني من اليهود على ملتهم؛ و «هود» جمع هائد، مثل «عود» جمع عائد؛ والذين يقولون: { كونوا هوداً }

---

(1) سبق تخريجه 1/294.

(2) أخرجه أحمد 4/252، حديث رقم 18396، وأخرجه الترمذي ص1855 – 1851، كتاب البر والصلة، باب 50: ما جاء في الشتم، حديث رقم 1982، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح 2/190، حديث رقم 1614.

هم اليهود؛ وقوله تعالى: { أو نصارى } يقوله النصارى؛ أي كونـوا نصـارى ـــ أي على ملتهم ـــ.
قوله تعالى: { تهتدوا } مجزوم على أنه جواب الأمر؛ أي تكونوا مهتدين.
قـال الله تعـالى في جـواب من يـدعو إلى اليهودية من اليهـود، أو النصـــرانية من النصـــارى: { قل بل ملة إبـــراهيم حنيفـــاً }؛ { بل } هنا للإضراب الإبطالي؛ لأنها تبطل ما سبق؛ يعني: بل لا نتبـع، ولا نكـون هـوداً، ولا نصـارى؛ بل ملة إبـراهيم؛ وبهـذا التقـدير يتـبين لنا على أيّ وجه نصب { ملة }؛ فهي مفعــول لفعل محــذوف تقــديره: بل نتبع ملة إبـــراهيم؛ و «الملـة» بمعـنى الـدين كما سـبق؛ وملة إبـراهيم هي التوحيـد؛ يعـني نتبع توحيد الله عزّ وجلّ، والإسلام لـه؛ لأن إبـراهيم لما قـال له ربه عـزّ وجـلّ: {أسلم} [البقرة: 131] ؛ قال: {أسلمت لرب العالمين} [البقرة: 131] .
وقوله تعالى: { حنيفاً } منصوب على الحال من إبراهيم؛ وهي حال لازمة بدليل قوله تعالى: { وما كان من المشركين }.
قوله تعالى: { وما كان من المشركين }: هذا توكيد لقوله تعالى: { حنيفاً }؛ لأن «الحنيف» المائل عما سوى التوحيد؛ مأخوذ من حنف الـذئب ــــ أي ميلــه؛ فهو مائل عن كل ما ســوى التوحيــد؛ إذاً { وما كـــان من المشركين } يكون توكيداً لهذه الحال توكيـداً معنويـاً لا إعرابيـاً؛ يعـني أنه (ص) ما كان فيما مضى من المشــركين، ولا فيما يسـتقبل؛ لأن «كـان» لا تـدل على الحـدث؛ تـدل على اتصـاف اسـمها بخبرهـا، مثـل: {وكـان الله غفوراً رحيماً} [النساء: 96] ؛ فقوله تعالى: { وما كـان } يعـني أن هـذا الوصف منتف عنه؛ وقوله تعـالى: { من المشـركين } يعم انتفـاء الشـرك الأصغر والأكـبر عنـه؛ هـذه هي الملة الـتي يتبعها الرسـول صـلى الله عليه وسلم، ونتبعها نحن ـــ إن شاء الله سبحانه وتعالى؛ ونرجو الله عـزّ وجـلّ أن نمـوت عليهـا؛ هـذه هي الملة الحنيفية الحقيقية الـتي توصل العبد إلى ربه، كما قال تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} [الأنعام: 153] .

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: أن أهل الباطل يـدْعون إلى ضـلالهم، ويـدَّعون فيه الخير؛ { كونوا هـوداً أو نصـارى هـذه دعـوة إلى ضـلال؛ { تهتـدوا }: ادعاء أن ذلك خـير؛ وهكـذا أيضـاً قد ورث هـؤلاء اليهـود من ضل من هـذه الأمة، كأهل البدع في العقيدة، والقدر، والإيمان ـــ الذين ادعـوا أنهم على حق، وأن من سلك طريقهم فقد اهتدى؛ قال النبي صلى الله عليه وسـلم: «لتركبن سَنن من كان قبلكم»[1] .
2ـــ ومن فوائد الآية: أن كل داع إلى ضـلال ففيه شـبه من اليهـود، والنصارى؛ دعاة السفور الآن يقولون: اتركوا المـرأة تتحـرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاءِ، وتركِ التـبرج، ونحو ذلـك؛ أعطوها الحريـة؛ وهكـذا كل داع إلى ضـلالة سـوف يطلي هـذه الضـلالة بما يغر البليد فهو شبيه باليهود، والنصارى.
3ـــ ومنها: مقابلة الباطل بـالحق؛ لقوله تعـالى: { بل ملة إبـراهيم حنيفـاً }؛ إذ لابد للإنسـان من أن يسـير على طريـق؛ لكن هل هو حـق، أو

(1) سبق تخريجه 1/280.

باطـل؟! بين الله أن كل ما خـالف الحق فهو باطل في قوله تعـالى: { بل ملة إبراهيم حنيفاً }.

4ـــ ومنها: الثناء على إبراهيم عليه السلام من وجوه ثلاثة:

أولاً: إمامته؛ ووجهها: أننا أمرنا باتباعه؛ والمتبوع هو الإمام.

ثانياً: أنه حنيف؛ والحنيف هو المائل عن كل دين سوى الإسلام.

ثالثاً: أنه ليس فيه شــرك في عمله (ص)؛ لقوله تعــالى: { وما كــان من المشركين }.

5ـــ ومن فوائد الآيــة: أن الشــرك ممتنع في حق الأنبيــاء؛ لقوله تعالى: { وما كان من المشركين }.

6ـــ ومنهــا: أن ملة إبــراهيم (ص) أفضل الملــل؛ وهي التوحيــد، والحنيفية السمحة؛ لقوله تعالى: { بل ملة إبراهيم حنيفاً }.

7ـــ ومنهــا: أن اليهودية والنصــرانية نــوع من الشــرك؛ لأن قوله تعــالى: { وما كــان من المشــركين } في مقابل دعــوتهم إلى اليهودية والنصـرانية يـدل على أنهما نـوع من الشـرك؛ كل من كفر بالله ففيه نـوع من الشرك؛ لكن إن اتخذ إلهاً فهو شرك حقيقـة، وواقعـاً؛ وإلا فإنه شـرك باعتبار اتباع الهوى.

القـــــــــرآن

{)قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَــى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة:136)

التفسير:

{ 136 } قوله تعالى: { قولوا آمنا بالله }: الخطاب للرسول (ص)، وأمته جميعاً؛ والمـراد بـالقول هنا القـول باللسـان، وبـالقلب؛ فـالقول باللسـان: نطقه؛ والقول بالقلب: اعتقاده؛ و «الإيمان» ـــ كما سبق ـــ هو التصديق المستلزم للقبـول، والإذعـان؛ والإيمـان بالله يتضـمن أربعة أمـور: الإيمـان بوجوده؛ والإيمان بانفراده بالربوبية؛ والألوهية؛ والأسماء، والصفات.

قوله تعالى: { وما أنزل إلينا } يعني وآمنا بما أنزل إلينـا؛ فــ{ ما } اسم موصول مبني على السـكون في محل جر عطفـاً على لفظ الجلالـة: { الله }؛ وقوله تعالى: { وما أنزل إلينا } يشـمل القـرآن ــــ وهو مـنزل ـــ؛ ويشـــمل الســـنة أيضـــاً؛ لقوله تعـــالى: {وأنـــزل الله عليك الكتـــاب والحكمة} [النساء: 113] : فإن {الحكمة} [البقرة: 269] هي السنة.

قوله تعالى: { وما أنزل إلى إبراهيم وإسـماعيل وإسـحاق ويعقـوب والأسباط }؛ { إبراهيم } منزل إليه؛ لأنه نبي رسول؛ والذي أنزل إليه هي الصحف التي ذكرها الله تعالى في موضعين من القرآن: {صـحف إبـراهيم وموسى} [الأعلى: 19]ـ ، {أم لم ينبأ بما في صـحف موسى * وإبـراهيم الذي وفى} [النجم: 36، 37]؛ و{ إسماعيل } نبي منزل إليه قطعاً؛ ولم نعلم ما الذي أنزل إليه بالتحديد؛ و{ إسحاق ويعقوب } أيضاً منزل إليهمـا؛ لكن لم يذكر لنا ما الذي أنزل إليهما؛ و{ الأسباط } جمع سِبْط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف؛ وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بـني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم.

قوله تعـالى: { وما أوتي موسى وعيسى } يعـني: وما أعطـوا من الآيات الشرعية، والكونية؛ الشـرعية كـالتوراة لموسـى، والإنجيل لعيسـى؛ والكونية كاليد والعصا لموسى؛ وكـإخراج المـوتى من قبـورهم بـإذن اللـه، وإبـراء الأكمه والأبـرص بـإذن الله لعيسـى؛ ونص على موسـى، وعيسـى؛ لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل.

هنا قد يسأل سائل: لِمَ عبر الله تعـالى بقولـه: { وما أنـزل إلينا وما أنـزل إلى إبـراهيم وإسـماعيل }، وفي موسى وعيسى قـال تعـالى: { وما أوتي موسى وعيسى }؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟

فـالجواب: أن نقـول بحسب ما يظهر لنا ــــ والعلم عند اللـه: إن هنـاك حكمة لفظية، وحكمة معنوية.

الحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: «ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسـى... وما أنـزل إلى النبـيين» تكـررت أربع مرات؛ ومعلـوم أن من أسـاليب البلاغة الاختصـار في تكـرار الألفـاظ بقدر الإمكان.

أما الحكمة المعنويـــة: فلأن موسى وعيسى دينهما بـــاقٍ إلى زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتـوا من الآيـات؛ فالنصـارى يقولـون: عيسى بن مريم يُحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولـون: إن

موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فـبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحي وآيات.

قوله تعـالى: { وما أوتي النـبيون من ربهم } من بـاب عطف العـام على الخـاص؛ والمـراد بما أوتـوه: ما أظهـره الله على أيـديهم من الآيـات الكونيـة، وما أوحـاه إليهم من الآيـات الشـرعية؛ و{ من ربهم }: { من } للابتـــداء؛ لأن هـــذا الإيتـــاء من اللـــه؛ وإضـــافة الربوبية إليهم على وجه الخصــوص؛ وإلا فالله ســبحانه وتعــالى رب كل شــيء؛ لكن هــذه ربوبية خاصة.

قوله تعـــالى: { لا نفـــرق بين أحد منهم } هـــذه الجملة داخلة في مقول القول؛ يعني: قولوا آمنا على هذا الوجه؛ { لا نفرق بين أحد منهم } أي في الإيمـــان؛ وليس في الاتّبـــاع؛ والضـــمير في { منهم } يعـــود على الأنبياء.

قوله تعالى: { ونحن له مسلمون }؛ { له} الضـمير يعـود على الله ســبحانه وتعــالى - يعــني: ونحن لله ؛ وقدمه على عامله لإفــادة الحصــر، ومناسبة رؤوس الآي؛ و «الإسلام» هنا هو الاستسلام لله ظاهراً، وباطناً.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: وجوب الإيمان بالله، وما أنزل إلينــا... إلى آخر ما ذكر في هذه الآية؛ لقوله تعالى: { قولوا آمنا بالله... } الآية.

2ـــ ومنها: أن الذين يؤمنـون بوجـود الله لكن يشـركون معه غـيره في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته لم يكونوا مؤمنين.

3ـــ ومنها: أن الـذين يؤمنـون باللـه، وبربوبيتـه، وأنه الـرب الفعـال الخلاق الـذي لا يشـاركه أحد في هـذا، لكنهم يعبـدون معه غـيره ليسـوا بمؤمنين.

4ـــ ومنها: أن الذين يؤمنـون بوجـود اللـه، وربوبيتـه، وألوهيته لكن في الأسماء والصـفات لا يؤمنـون ـــ إما أن ينكـروا الأسـماء، والصـفات؛ وإما أن ينكروا الأسـماء دون الصـفات؛ وإما أن ينكـروا بعض الصـفات ـــ هؤلاء لم يؤمنوا بالله حق الإيمان، وإيمانهم ناقص.

5ـــ ومنهـا: أن الكتب الـتي أوتيها الرسل قد نـزلت من عند اللـه؛ لقوله تعــالى: { وما أنــزل إلينا }، ولقوله تعــالى: {لقد أرســلنا رســلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقـوم النـاس بالقسـط} [الحديـد: 25] .

6ـــ ومنها: الإشارة إلى البداءة بالأهم ـــ وإن كـان متـأخراً؛ لقوله تعالى: { وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم } مع أن ما أنزل إلينا متـأخر عما سبق.

7ـــ ومنهـا: الإيمـان بما أوتي النـبيون من الآيـات الكونيـة، والآيـات الشرعية.

8ـــ ومنها: أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، على حد سـواء في أصل الإيمان؛ وأما الشرائع فلكلٍّ منهم جعل الله شـرعة ومنهاجـاً، كما قـال تعـالى: {لكل جعلنا منكم شـرعة ومنهاجـاً} [المائـدة: 48]؛ فنحن مأمورون باتّبـاع شـريعة محمد صـلى الله عليه وسـلم الـتي نسـخت جميع الأديان؛ أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله، وأنهم صادقون بما جـاءوا به فإنا لا نفرق بين أحد منهم؛ لقوله تعـالى: { لا نفـرق بين أحد منهم }، وقوله تعـالى: {آمن الرسـول بما أنـزل إليه من ربه والمؤمنـون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} [البقرة: 285] .

9ـــ ومن فوائد الآية: وجوب الإخلاص لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { ونحن له مسلمون }.

10ـــ ومنها: أن الرسل ليسوا مستقلين بهـذه الآيـات؛ فلا يملكـون أن يأتوا بهذه الآيات، أو بهذا الوحي؛ فهم يتلقـون من اللـه؛ حـتى الرسـول صلى الله عليه وسلم إذا طُلب منه الآيات لا يسـتطيع أن يـأتي بهـا؛ ولهـذا لما اقترح المكذبون عدة آيات قـال تعـالى: {قل سـبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً } [الإسراء: 93] ، وقال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين} [العنكبوت: 50] ، أي فلا أملك أن آتي بالآيات.

11ـــ ومنهـا: أنه ينبغي للمـؤمن أن يشـعر أنه هو وإخوانه كنفس واحدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم: «المـؤمن للمـؤمن كالبنيـان

يشد بعضه بعضاً»[1] وشبّك بين أصابعه؛ لقوله تعالى: { ونحن له مسلمون }: فأتى بضمير الجمع: { قولوا آمنا بالله... ونحن... }.

12ـــ ومنها: أن الإسلام لا بد أن يكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ لإطلاقه في قوله تعـالى: { مسـلمون }؛ فيستسـلم قلب المـرء لله ــــ تبارك وتعالى ـــ محبة، وتعظيماً، وإجلالاً؛ ويستسـلم لسـانه لما أمـره الله سبحانه وتعالى أن يقول؛ وتستسلم جوارحه لما أمره الله تعالى أن يفعل.

---

(1) أخرجه البخاري ص40، كتاب الصلاة، باب 88: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم 481؛ وأخرجه مسلم ص1130، كتاب البر والصلة، باب 17: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم 6585 [65] 2585؛ بدون و "شبك أصابعه".

القــــــــرآن

{)فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِـهِ فَقَـدِ اهْتَـدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِـقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة:137)

التفسير:

{ 137 } قوله تعـالى: { فـإن آمنـوا } أي اليهـود، والنصـارى؛ لأن هـذه الآيات كلها متتابعة: { وقالوا كونـوا هـوداً أو نصـارى... قولـوا آمنا باللـه... فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به... }.

قوله تعالى: { بمثل ما آمنتم به }: اختلف المعربون في الباء، وفي «مثل» أيهما الزائد؟ فقيل: إن «مثل» هي الزائدة، وأن التقدير: فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا؛ وأن «مثل» زائـدة إعرابـاً لا معنًى؛ وأن المعـنى: أنهم إن آمنوا بما آمنتم به إيماناً مماثلاً لإيمانكم؛ فعلى هذا تكـون الزيـادة في كلمة «مثل» ؛ وقيل: إن الزائد هو البـاء - حـرف الجـر-؛ وأن التقـدير: فـإن آمنـوا مثل ما آمنتم - أي مثل إيمـانكم -؛ والبـاء الثانية أيضـاً زائـدة؛ فصـار قـولان: الأول: أن الزائد «مثـل» ؛ والثـاني أن الزائد البـاء؛ والجميع اتفقوا على أن المراد الزيادة الإعرابية؛ وليست الزيادة المعنوية؛ لأنه ليس في القرآن ما هو زائد معنى - أي لا فائدة فيه -؛ والمعروف أن الأسـماء لا تزاد؛ وأما الزيادة في الحروف فكثيرة؛ لأن الاسم كلمة جـاءت لمعـنى في نفسـها؛ والحـرف كلمة جـاءت لمعـنى في غيرهـا؛ ومعلـوم أننا لو وزنا بـالميزان المسـتقيم لكـان ما يجيء لمعـنى في غـيره أولى بالزيـادة مما يجيء لمعنى في نفسه؛ ولهذا أنكر بعض النحويين زيادة الأسـماء، وقـالوا: لا يمكن أن تـزاد الأسـماء؛ لأنها جـاءت لمعـنى في ذاتهـا؛ بخلاف الحـرف؛ فعلى هذا تكون الزيادة في البـاء - أي فـإن آمنـوا مثل ما آمنتم -؛ أي مثل إيمـانكم؛ وعلى كلا الاحتمـالين من حيث الإعـراب فـالمعنى واحد - أي إن آمنوا إيماناً مطابقاً لإيمانكم مماثلاً له من كل الوجوه فقد اهتدوا -.

قوله تعالى: { فقد اهتدوا } أي سلكوا سـبيل الهدايـة؛ و «الهدايـة» هنا هداية العلم، والتوفيق؛ لأنهم آمنوا عن علم فوفِّقـوا، واهتـدوا؛ والهداية هنا مطلقة كما أن المسلمين الـذين آمنـوا على الوصف المـذكور مهتـدون هداية مطلقة.

قوله تعـالى: { وإن تولـوا }: «التـولي» الإعـراض؛ أي عن الإيمـان بمثل ما آمنتم به.

قوله تعالى: { فإنما هم في شقاق } جملة اسمية للدلالة على الاستمرار، والثبوت؛ وأتت بـ «إنما» الدالة على الحصر؛ أي فما حالهم إلا الشقاق؛ و{ في } للظرفية ـــ كأن الشـقاق محيط بهم من كل جـانب منغمسـون فيه ـــ؛ و «الشقاق» بمعـنى الخلاف؛ وهو في كل معانيه يـدور على هـذا ـــ حتى في قوله تعالى: { وإن الظالمين لفي شـقاق بعيد }: فبعضـهم قـال: «الشـقاق» هنا بمعـنى الضـلال؛ ولكن الصـحيح أن معنـاه: الخلاف؛ فكلما جاءت في القرآن فمآلها إلى الخلاف؛ ولكنها أشـد، حيث تفيد الاختلاف مع طلب المشقة على الخصم؛ ويدل لهذا أن أصل معنى «الشقاق» أن يكون أحد الطرفين في شق، والثاني في شق آخر؛ وبهذا يكون الخلاف.

وكأن الإنسان إذا سمع { فإنما هم في شقاق } قد يهـاب، ويخـاف؛ فطمـأن الله تعـالى المؤمـنين بقولـه: { فسـيكفيكهم الله }؛ هـذه الجملة فيها فعل، وفاعل، ومفعولان؛ الفاعـل: لفظ الجلالـة؛ والفعـل: { يكفي }؛

والمفعـول الأول: الكـاف؛ والمفعـول الثـاني: الهـاء؛ والسـين هنا يقـول العلمـاء: إنها للتنفيس، وتفيد شـيئين هما تحقق الوقـوع، وقـرب الوقـوع؛ بخلاف «سوف» فإنها تفيد التحقق؛ ولكن مع مهلة.

قوله تعالى: { وهو السميع العليم }؛ { السميع } من أسـماء اللـه؛ و{ العليم } أيضاً من أسمائه - تبارك وتعالى -؛ وسبق تفسيرهما.

قد يقول قائل: يبـدو لنا أن المناسب أن يقـول: «وهو القـوي العزيـز» لأنه قـال: { فسـيكفيكهم الله } فما هو الجـواب عن ختمها بالسـمع، والعلم؟ فالظـاهر لي - والله أعلم - أنه لما كـان تـدبير الكيد للرسـول (ص) من هؤلاء قد يكون بـالأقوال، وقد يكـون بالأفعـال؛ والتـدبير أمر خفي ليس هو حرباً يعلن حـتى نقـول: ينبغي أن يقابل بقـوة، وعـزة؛ قـال تعـالى: { وهو السـميع العليم } أي حـتى الأمـور الـتي لا يُـدرى عنهـا، ولا يبرزونهـا، ولا يظهرون الحرابة للرسول (ص) فإن الله سميع عليم بها؛ هذا ما ظهر لي - والله أعلم -.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: أنه لا بد أن يكون إيمان اليهود، والنصـارى مثل إيمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأمته حقيقة، ووصفاً.

2ـــ ومنها: أن ما خـالف ما عليه الـنبي صـلى الله عليه وسـلم فهو ضلال؛ لأن الله سبحانه وتعـالى علق الاهتـداء بـأن يؤمنـوا بمثل ما آمن به الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته.

3ـــ ومنها: أنه لا حجة لمن تولى عن شريعة الـنبي صـلى الله عليه وسلم إلا الشقاق، والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: { فإن تولـوا فإنما هم في شقاق }.

4ـــ ومنها: وقوع الشقاق بين أهل الكتـاب، والمسـلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتفق المسلمون وأهل الكتاب؛ فتبطل دعـوة أهل الضـلال الـذين يدْعون إلى توحيد الأديان؛ لقوله تعالى: { فإنما هم في شـقاق}؛ فـاليهود، والنصـارى لما لم يؤمنـوا صـاروا معنا في شـقاق؛ وهـذا الشـقاق لا بد أن يؤدي إلى عداوة، وبغضـاء؛ وبالتـالي إلى قتـال؛ وهكـذا وقـع: فالمسـلمون قاتلوا اليهود، وقاتلوا النصارى - الروم كلهم نصارى -؛ ومن بعد ذلك قاتلوا النصارى في الحروب الصليبية؛ وسيقاتلونهم أيضاً مرة أخرى حـتى يـدخل الإسلام عاصمتهم الروم؛ ولا بد من هذا في المستقبل بإذن الله؛ وسنقاتل اليهود حتى يختـبئ اليهـودي بـالحجر، والشـجر فينـادي: «يا عبد اللـه، هـذا يهودي ورائي فاقتله إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»[1] فلا يبَلِّغ عنهم.

5ـــ ومن فوائد الآيـة: الوعيد الشـديد لهـؤلاء المتـولين عن شـريعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لقوله: { فسيكفيكهم الله }.

6ـــ ومنهـا: تكفل الله سـبحانه وتعـالى لنبيه محمد صـلى الله عليه وسلم أنهم إذا لم يؤمنوا بمثل ما آمن المؤمنون، وتولوا، فإن الله سـبحانه وتعـالى سـيكفيه إيـاهم عن قـرب؛ لقوله تعـالى: { فسـيكفيكهم الله }؛ والحمد لله أنه صار ذلك عن قرب: فإن الرسول صلى الله عليه وسـلم لم يُتوفَّ حتى أجلى اليهود عن المدينة، وفتح حصونهم في خيبر، وأبقاهم فيها عمـالاً؛ وفي خلافة أمـير المؤمـنين عمر رضي الله عنه أجلاهم من خيـبر؛ فكفى الله المؤمنين شرهم ـــ والحمد لله ـــ.

7ـــ ومن فوائد الآيـة: الإشـارة إلى التوكل على الله ــــ تبـارك وتعالى ـــ في الدعوة إليه، وفي سائر الأمور؛ لأنه إذا كان وحـده سـبحانه وتعالى هو الكافي فيجب أن يكون التوكل والاعتماد عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: 3] .

8ـــ ومنها: إثبات الاسمين الكريمين { السميع }، و{ العليم }، وما يتضمناه من الصفات والمعاني العظيمة.

9ـــ ومنهـا: أنه يجب على المـرء مراقبة الله سـبحانه وتعـالى في جميع أقواله؛ لأن الله سبحانه وتعالى سامع لها لا يخفى عليه الصوت مهما خفي؛ بل هو يعلم عزّ وجـلّ ما توسـوس به نفس الإنسـان - وإن لم يتكلم به

10ـــ ومنها: مراقبة الله سبحانه وتعالى في السـر، والعلن؛ وذلـك؛ لأن مقتضى اسمه الكريم: { العليم } أنه يعلم كل شيء.

---

(1) سبق تخريجه 1/169.

القـــــــــــــرآن

{}صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) (البقرة:138)

التفسير:

{ 138 } قوله تعالى: { صبغة الله }؛ «الصبغة» معناها اللون؛ وقالوا: المراد بـ{ صبغة الله } دين الله؛ وسمي «الدين» صبغة لظهور أثره على العامل به؛ فإن المتدين يظهر أثر الدين عليه: يظهر على صفحات وجهه، ويظهر على مسلكه، ويظهر على خشوعه، وعلى سمته، وعلى هيئته كلها؛ فهو بمنزلة الصبغ للثوب يظهر أثره عليه؛ وقيل: سمي صبغة للزومه كلزوم الصبغ للثوب؛ ولا يمنع أن نقول: إنه سمي بذلك للوجهين جميعاً: فهو صبغة للزومه؛ وهو صبغة أيضاً لظهور أثره على العامل به.

ووجه نصب { صبغة الله }: قيل: إنها مصدر معنوي؛ لقوله تعالى: { آمنا } في قوله تعالى: { قولوا آمنا بالله }؛ فإن { آمنا } معناها الدين، وأن التقدير: تدينا دين الله؛ ولا ريب أن هذا بعيد؛ لأن { آمنا } في آية أخرى قبلها؛ ويبعد أن يكون هذا متعلقاً بها؛ ولأنه فُصِل بينهما بفواصل كثيرة؛ إذاً هو منصوب على الإغراء - يعني: الزموا صبغة الله، ولا يصدنكم هؤلاء عن دينكم -؛ وأضيفت «الصبغة» إلى الله؛ لأنها منه: فإن الشريعة جاءت من الله؛ ولا أحد يشرع للخلق إلا خالقهم.

قوله تعالى: { ومن أحسن من الله صبغة }: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي لا أحد أحسن من الله صبغة؛ وذلك؛ لأن دين الله عزّ وجلّ مشتمل على المصالح، ودرء المفاسد؛ ولا يوجد دين يشتمل على هذا إلا ما جاء من عند الله، سواء كان الدين الإسلامي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، أو الأديان الأخرى ما دامت قائمة لم تنسخ؛ ومجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن التحدي؛ فإن القائل إذا قال: «ليس مثل زيد بشر» ليس كقوله: «مَنْ مثل زيد مِن البشر؟!»؛ الثاني أبلغ: كأنه يتحدى المخاطَب أن يأتي بأحد مثله.

قوله تعالى: { ونحن له عابدون }: الضمير { نحن } يعود على النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه؛ وتقديم المعمول في قوله تعالى: { له عابدون } على عامله هنا له فائدتان؛ أولهما: لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ والثانية: معنوية؛ وهي الحصر، والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: {إياك نعبد} [الفاتحة: 5] ؛ و «العبادة» التذلل لله عزّ وجلّ بفعل أوامره محبة له، واجتناب نواهيه تعظيماً له مع شعور الإنسان بمنزلته، وأن منزلته أن يكون عبداً لله عزّ وجلّ.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: وجوب الالتزام بدين الله؛ لأن المعنى: الزموا صبغة الله عزّ وجلّ.

2ـــ ومنها: أن هذا الدين حق؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه؛ وكل ما يضاف إلى الله عزّ وجلّ فإنه حق.

3ـــ ومنها: أن دين الله سبحانه وتعالى أحسن الأديان، وأكملها، وأشملها، وأقومها بمصالح العباد؛ لقوله تعالى: { ومن أحسن من الله صبغة }.

4ـــ ومنهـا: وجـوب إخلاص العبـادة للـه؛ لقوله تعـالى: { ونحن له عابدون }؛ فقدم المعمول لإفادة الحصر؛ وعبادة الله فخر، وشرف للعبـد؛ ولهذا جاء وصف العبودية في المقامـات العليا لرسـول الله (ص)، فجـاءت في مقام الـدفاع عنه في قوله تعـالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبـدنا} [البقـرة: 23ـ] ؛ وفي مقـام تكريمه بالإسـراء في قوله تعـالى: {سـبحان الـذي أسـرى بعبـده ليلاً من المسـجد الحـرام إلى المسـجد الأقصى} [الإسراء: 1ـ] ، وفي مقام رسالته، مثل قوله تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً} [الكهـف: 1ـ] ؛ ويقـول الشاعر في معشوقته:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسـمائي 5 ـــــ ومن فوائد الآيـة: أن العقل يقضي بالتزام الدين؛ لقوله تعالى: { ومن أحسن من الله صـبغة }؛ فإن العقل يهدي إلى الـتزام الأحسـن؛ كل إنسـان له عقل سـليم فـإن عقله يأمره بالتزام الأحسن.

القـــــــــرآن

{)قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) (البقرة:139)

التفسير:

{ 139 } قوله تعـــالى: { قل أتحاجُّوننا في الله }: الخطـــاب في قوله تعـــالى: { قل } موجه إلى رســـول الله (ص)؛ و{ أتحاجوننا في الله } موجه للذين يحاجون الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود، والنصارى؛ و «المحاجة» هي أن يدلي كل خصم بحجته لينقض حجة الخصم الآخر.

قوله تعـــالى: { ولنا أعمالنا ولكم أعمـــالكم } أي أننا لا نســـأل عنكم، ولا تُسألون عنا؛ كل له عمله؛ وسيجازيه الله به يوم القيامة.

قوله تعالى: { ونحن له مخلصـون } أي لله عـزّ وجـلّ مخلصـون؛ و «الإخلاص» تنقية الشيء من كل الشوائب التي قد تَعْلَق به؛ فـالمعنى: أننا مخلصون لله الدينَ لا نشرك به شيئاً.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: الإنكـار على اليهـود والنصـارى الـذين يحـاجون المسـلمين في الله مع إقـرارهم بأنه ربهم؛ لقوله تعـالى: { قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم }.

2ـــ ومنها: وجوب البراءة من أعمـال الكفـار؛ لقوله تعـالى: { ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم }؛ فإن المراد بذلك البراءة مما هم عليه.

3ـــ ومنها: أنه ينبغي للمرء أن يفتخر بما هو عليه من الحـق؛ لقوله تعالى: { ولنا أعمالنا } أي فنحن مفتخرون بها بريئون من أعمالكم.

4ـــ ومنها: أنه لا يجـوز التشـبه بأعـداء اللـه؛ لأن المشـابهة موافقة في العمل؛ لهذا قال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «من تشـبه بقـوم فهو منهم»[1]؛ وهنا قال تعالى: { ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم }: فنحن متميزون عنكم، وأنتم متميزون عنا.

5ـــ ومنها: وجوب الإخلاص لله؛ لتقـديم المعمـول في قوله تعـالى: { ونحن له مخلصون }.

---

(1) سبق تخريجه 1/359.

القـــــــــرآن

{)أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة:140))تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (البقرة:141)

التفسير:

{ 140 } قوله تعالى: { أم تقولون إن إبراهيم... }؛ { أم } هنا للإضراب؛ والمعنى: بل أتقولون؛ وهو إضراب انتقال؛ وليس إضراب إبطال؛ والمعنى أنه انتقل من توبيخ هؤلاء الذين يحاجون في الله إلى توبيخ آخر؛ وهو دعواهم أن هؤلاء الرسل الكرام كانوا هوداً، أو نصارى؛ وهذه دعوى كاذبة؛ فليس هؤلاء هوداً، ولا نصارى؛ بل إن الله سبحانه وتعالى قال موبخاً لهؤلاء مبيناً ضلالهم ـــ الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهودياً، أو نصرانياً {ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين} [آل عمران: 67]، وقال تعالى: {وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون} [آل عمران: 65]؛ فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً وكتاب اليهود والنصارى لم ينزل إلا من بعد إبراهيم؟!!!

قوله تعالى: { وإسماعيل }: هو أكبر أولاد إبراهيم؛ وهو الذي أمر الله أباه أن يذبحه؛ والقصة مبسوطة في سورة الصافات.

قوله تعالى: { وإسحاق }: هو أخو إسماعيل؛ وهو الولد الثاني لإبراهيم (ص)؛ { ويعقوب }: هو ابن إسحاق؛ وهو الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل؛ { والأسباط } سبق الكلام على بيانهم[2].

قوله تعالى: { كانوا هوداً أو نصارى } يعني كانوا على ملة اليهودية، والنصرانية؛ وهذا من سفه هؤلاء اليهود الذين يدعون ذلك؛ لأن أصل اليهودية، والنصرانية حدثت بعد هؤلاء؛ فكيف يكون هؤلاء هوداً، أو نصارى؟!!!

ثم أبطل الله تعالى دعواهم بطريق آخر فقال: { قل أأنتم أعلم أم الله }؛ ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم من الله عزّ وجلّ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قال ذلك إلزاماً للخصم حتى يتبين بطلان ما ادعاه؛ وهو كقوله تعالى: { آلله خير أم ما يشركون }؛ ومن المعلوم أن الله خير مما يشركون؛ لكن من أجل إفحام الخصم، وإلزامه بما هو ظاهر لا إشكال فيه.

قوله تعالى: { ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله } يعني لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وهؤلاء اليهود والنصارى كتموا الشهادة عندهم من الله؛ لأن الله - تبارك وتعالى - أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر أوصافه في التوراة، والإنجيل، كما قال الله - تبارك وتعالى - في سورة الأعراف: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} [الأعراف:

---

(2) انظر 2/87.

157]؛ فهذه أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل معلومة لبني إسرائيل؛ ولكنهم يكتمون هذه الشهادة؛ ولا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله تعالى في كتمان الشهادة؛ وإن كان المشرك أظلم الظالمين؛ لكن اسم التفضيل يختص بالشيء المعين الذي يشترك فيه المفضل، والمفضل عليه.

قوله تعالى: { وما الله بغافل عما تعملون } يعني أن الله عزّ وجلّ لا يغفل عما يعمل هؤلاء؛ بل هو جل وعلا عالم به، وسوف يحاسبهم عليه.

{ 141 } قوله تعالى: { تلك أمة قد خلت لها ما كسبت... } الآية: قد سبق الكلام على نظيرها، وفوائدها.

الفوائد:

1 ــ من فوائد الآية: إبطال دعوى هؤلاء اليهود، والنصارى أن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، كانوا هوداً أو نصارى؛ فهذه الدعوى باطلة؛ بل وصفُ هؤلاءِ الإسلام؛ فإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ليسوا هوداً، ولا نصارى؛ بل هم مسلمون لله سبحانه وتعالى.

2 ــ ومنها: رد علم هذه الأشياء إلى الله؛ لقوله تعالى: { أأنتم أعلم أم الله }.

3 ــ ومنها: الرد على أهل التحريف في أسماء الله، وصفاته الذين يقولون: «إن هذا جائز عقلاً على الله؛ فنقر به؛ وهذا يمتنع عقلاً على الله؛ فلا نقر به» كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم؛ نقول لهم كلهم في الجواب: { أأنتم أعلم أم الله }: أأنتم أعلم بما يجوز على الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟!!! وهذه في الحقيقة حجة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالى بعقولهم، فيقولون: «يجب لله كذا؛ يمتنع عليه كذا»؛ نقول: { أأنتم أعلم أم الله }.

4 ــ ومن فوائد الآية: عظم كتم العلم؛ لقوله تعالى: { ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله }؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، كما قال الله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم} [آل عمران: 18]؛ فكل إنسان يكتم علماً فقد كتم شهادة عنده من الله؛ ثم إن في هذا عظم إثمه؛ لقوله تعالى: { ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله }.

5 ــ ومنها: كمال علم الله، ومراقبته لعباده؛ لقوله تعالى: { وما الله بغافل عما تعملون }.

6 ــ ومنها: ثبوت الصفات المنفية؛ وهي ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ لقوله تعالى: { وما الله بغافل عما تعملون }؛ فإن هذه صفة منفية، وليست ثبوتية؛ والصفات المنفية متضمنة لإثبات كمال ضدها؛ فلكمال مراقبته، وعلمه سبحانه وتعالى ليس بغافل عما نعمل.

7 ــ ومنها: تخويف الإنسان، وإنذاره من المخالفة؛ لقوله تعالى: { وما الله بغافل عما تعملون}؛ فإياك والمخالفة؛ مثلما تهدد إنساناً بشيء تقول: لست بغافل عنك.

8 ــ ومنها: إضافة العمل إلى العامل؛ ففيه رد على الجبرية الذين يقولون: «إن الإنسان مجبر على عمله»؛ لقوله تعالى: { عما تعملون }.

القـــــــرآن

{)سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (البقرة:142)

التفسير:

{ 142 } قوله تعالى: { سيقول السفهاء من الناس }؛ { سيقول }: السين للتنفيس؛ وإذا دخلت على المضارع أخلصته للمستقبل؛ المضارع إذا دخلت عليه «لم» أخلصته للماضي؛ وإذا دخلت عليه السين أخلصته للمستقبل؛ وإذا كان مجرداً فهو صالح للحاضر، والمستقبل؛ و{ سيقول } تفيد أيضاً مع الاستقبال تحقيق وقوع هذا الشيء، وتفيد أيضاً قرب هذا الشيء؛ بخلاف «سوف» فإنها تدل على المستقبل البعيد؛ و{ السفهاء } جمع سفيه؛ وهو الذي لا يحسن التصرف لنفسه؛ وكل من خالف الحكمة في تصرفه فهو سفيه؛ فهؤلاء السفهاء سفهاء في دينهم؛ وقد يكونون في المال جيدين؛ وسفه الدين بينه الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه} [البقرة: 130] .

وقوله تعالى: { من الناس } بيان للسفهاء؛ وهي في موضع نصب على الحال - يعني حال كونهم من الناس قوله تعالى: { ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها } في موضع نصب على أنها مقول القول؛ و{ ما } اسم استفهام؛ يعني: أيّ شيء صرفهم { عن قبلتهم } أي ما يستقبلون؛ فقبلة الإنسان ما يستقبله؛ والمراد بها بيت المقدس؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة صار متجهاً إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً؛ أو سبعة عشر شهراً[1] - يعني إما سنة وأربعة أشهر؛ أو سنة وخمسة أشهر؛ إذا كان مستقبلاً لبيت المقدس تكون الكعبة خلفه تماماً؛ لهذا يقول ابن عمر: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشأم»[2].

قوله تعالى: { التي كانوا عليها } أي قبل أن يتجهوا إلى الكعبة؛ فأخبر الله عزّ وجلّ بما سيقول هؤلاء السفهاء، وأعلمه بالرد عليهم.

قوله تعالى: { قل لله المشرق والمغرب }؛ { لله }: خبر مقدم؛ و{ المشرق } مبتدأ مؤخر؛ وتقديم الخبر وهو حقه التأخير ــــ يفيد الحصر؛ يعني: لله وحده المشرق، والمغرب؛ فهو الذي يوجه إن شاء إلى المشرق؛ وإن شاء إلى المغرب؛ وإن شاء إلى الشمال؛ وإن شاء إلى الجنوب؛ وخص المشرق، والمغرب؛ لأن منهما تطلع الشمس، وتغرب؛ و{ المشرق }: مكان شروق الشمس، والقمر، والنجوم؛ و{ المغرب } محل غروبها.

قوله تعالى: { يهدي من يشاء } أي يدِلّ، ويوفق؛ و{ من يشاء } مفعول { يهدي }؛ وهي عامة؛ ولكن كل شيء قيد بمشيئة الله فهو مقرون بالحكمة: يهدي من يشاء ممن هو أهل للهداية؛ و «المشيئة» هي الإرادة الكونية: فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن.

---

(1) راجع البخاري ص5، كتاب الإيمان، باب 30: الصلاة من الإيمان...، حديث رقم 40، وراجع صحيح مسلم ص759، كتاب المساجد، باب 2: تحويل القبلة من المقدس إلى الكعبة، حديث رقم 1177 [12] 525.

(2) أخرجه البخاري ص15، كتاب الوضوء، باب 14: التبرز في البيوت، حديث رقم 148، وأخرجه مسلم ص723 – 724، كتاب الوضوء، باب 17: الاستطابة، حديث رقم 612 [62] 266.

قوله تعالى: { إلى صراط مستقيم }؛ «الصـراط» الطريق الواسع الذي يسـهل سـلوكه؛ والمـراد به هنا شـريعة الله الـتي شـرعها لعبـاده، و «المستقيم» الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآيـة: علم الله تعـالى بما سـيكون؛ لقوله تعـالى: { سيقول السفهاء }.

2ـــ ومنها: تحقق وقوع خبر الله عزّ وجلّ؛ لأنهم قالوا ذلك.

3ـــ ومنها: من اعترض على حكم الله فهو سفيه.

4ـــ ومنها: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، حيث أخبر الله تعالى أنه لا يعترض عليه في ذلك إلا سفيه.

5ـــ ومنها: إعلام المرء بما يتوقع أن يكون ليستعد له؛ ومن ذلك أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم لما بعث معـاذ بن جبل إلى اليمن قـال لـه: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب» ؛ ليكون مستعداً[3].

6ـــ ومنها: جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية لإسكات النـاس حـتى لا يحصل منازعـة؛ إذا قـال أحـد: لمـاذا كـذا؟ قلت: الله ربك يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ «لماذا أحل كذا، وحـرم كـذا؟» تقـول: لأنه ربـك؛ «لمـاذا توجه النـاس من المشـرق إلى المغـرب؛ من المغـرب إلى المشرق؛ من بيت المقـدس إلى الكعبـة؟» قلت: لأن ذلك بمقتضى ربوبية الله: { لله المشرق والمغرب }.

7ـــ من فوائد الآيـة: أن العـدو يحتج على عـدوه بما يثـير نعرتـه، ويلزمـه؛ لقوله تعـالى: { عن قبلتهم }؛ لم يقولـوا: عن القبلـة؛ كـأنهم يقولون: كنتم تتولون ذلك فما الذي صرفكم عنه؟!! وهكذا قد يثـير شـعور الإنسـان حـتى يبقى على ما هو عليـه، وكـأنهم قـالوا: بـالأمس تختارونهـا، واليـوم تنكرونهـا، وتنبـذونها؛ فالخصم دائمـاً يُهيج خصـمه بما يثـير نعرتـه؛ ليوافقه فيما ذهب إليه.

8ـــ من فوائد الآية: عموم ملك الله عزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: { لله المشـرق والمغـرب }؛ فهو المالك سـبحانه وتعـالى للجهـات يُصـرِّف إليها العبـــاد كيف يشـــاء؛ ونحن ليس علينا إلا الســـمع، والطاعـــة؛ أينما وجهنا توجهنـا؛ هـذا المهم؛ لا أن تتجه إلى كـذا، أو إلى كـذا؛ فالسـجود لغـير الله شـرك؛ وكـان بالنسـبة للملائكة حين أمــرهم الله بالسـجود لآدم طاعــة، وعبادة؛ وقتل النفس بغير حق ـــ ولا سيما قتل الولد ـــ من أكبر الكبائر؛ وحين أمر الله تعالى إبـراهيم أن يـذبح ابنه كـان قربـة، وعبـادة؛ فالاعتبـار بطاعة الله سبحانه وتعالى.

9ـــ من فوائد الآية: إثبات مشـيئة اللـه؛ لقوله تعـالى: { يهـدي من يشاء }.

فإن قال قائل: هل في ذلك حجة للجبرية في قـولهم: إن العبد مجـبر على عمله؟

فالجواب: أنه لا حجة لهم في ذلك؛ لأن الاحتجـاج ببعض القـرآن دون بعض كفر به؛ فالقرآن من متكلم واحد؛ فمطلقه في موضع يقيد في موضع آخر؛ بل إن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم تقيد القرآن، وتبينه، وتخصصـه؛ فإذاً لا دليل في هذه الآية للجبرية إلا من نظر بعين أعور؛ لأن الأعور ينظر

---

[3] سبق تخريجه 1/148.

من جانب العين الصحيحة؛ لكن من جانب العين العوراء لا يـرى؛ والـواجب أن ينظر الإنسـان إلى النصـوص بعيـنين ثـاقبتين؛ وليس بعين واحـدة؛ وقد دلت النصـوص من الكتـاب، والسـنة على أن الإنسـان له إرادة، واختيـار، وقدرة، وأضافت أعماله إليه؛ وحينئذ لا يمكن أن يكون مجبراً.

10ــــ من فوائد الآية: أن الهداية بيد الله؛ لقوله تعالى: { يهدي من يشاء }، ومنها: أنْ هدَى هذه الأمة إلى القبلة التي يرضاها الرسـول صـلى الله عليه وسلم.

11ــــ ومنها: الثناء على هذه الأمة؛ لأنها التي على صراط مسـتقيم؛ لأن أول من يدخل في قوله تعالى: { يهدي من يشاء إلى صراط مسـتقيم } هؤلاء الذين تولوا عن بيت المقدس إلى الكعبة.

12ــــ ومنها: أن معارضة الشرع كما أنه سفه، فهو أيضاً ضلال؛ لأن الشرع هو الصراط المستقيم ــــ وهو الهداية؛ وما سواه ضلال، واعوجاج.

13ــــ ومنها: فضيلة هذه الأمـة، حيث هـداها الله إلى اسـتقبال بيته الذي هو أول بيت وضع الناس.

القـــــــــرآن

{)وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَـةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِـعُ الرَّسُـولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (البقرة:143)

التفسير:

{ 143 } قوله تعالى: { وكذلك جعلنـاكم أمة وسـطاً }؛ الكـاف هنا اسم بمعنى «مثل» في محل نصب على المفعولية المطلقة ــــ أي: مثلَ ذلـك؛ والمشار إليه ما سـبق؛ وهو جعل القبلة إلى الكعبـة؛ أي: مثـلَ هـذا الجعل الذي جعلنا لكم ــــ وهو اتجاهكم إلى القبلة ــــ جعلناكم أمة وسطاً.

وقوله تعـالى: { جعلنـاكم } أي صـيرناكم؛ والكـاف مفعوله الأول؛ و{ أمة } مفعوله الثاني؛ و{ أمة } هنا بمعنى جماعة؛ وتطلق في القـرآن على أربعة معانٍ، وسبق بيانها[1]؛ و{ وسطاً } أي عدلاً خياراً.

قوله تعالى: { لتكونوا شهداء على الناس }؛ اللام في قولـه: { لتكونـوا } للتعليـل؛ وليست للعاقبـة؛ والفـرق بين لام العاقبـة، ولام التعليـل: أن لام العاقبة تدخل على أمر غير مراد؛ لكن النتيجة آلت إليه؛ ولام التعليل تدخل على أمر مراد ليكـون علة للحكم؛ و{ شـهداء } جمع شـهيد؛ أي تشـهدون على الناس بأن الرسل قد بلغتهم؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر.

قوله تعالى: { ويكـون الرسـول عليكم شـهيداً }: النـبي صـلى الله عليه وسلم يشهد على أمته بأنه بلغ البلاغ المبين.

قوله تعـالى: { وما جعلنا القبلة الـتي كنت عليها } وهي اسـتقبال بيت المقـــدس { إلا لنعلم من يتبع الرســـول ممن ينقلب على عقبيه }: المـراد علم ظهـور، أو علم يـترتب عليه الجـزاء؛ لأن علم الله الكـائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد، ويُنظر؛ أو علم ظهور ــــ أي علم بأن الشيء حصـل، فيعلمه أنه حاصـل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفـرق بين العلم بالشـيء أنه سيحصـل، والعلم بأنه قد

---

[1] انظر 2/81.

حصل؛ وقد قال بعض أهل المعاني: إن { لنعلم } هنا بمعـنى الماضي ــــ أي إلا لعلمنا؛ والمعنى: وما جعلنا القبلة الـتي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسـول ممن ينقلب على عقبيـه؛ وهـذا ــــ وإن كـان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحياناً ــــ لكنه ضـعيف هنا من حيث المعنى؛ إذ لا حكمة من ذلك؛ لأنه يكون معنى الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسـول ممن ينقلب على عقبيـه؛ وحينئذ يقـال: إذاً ما الفائـدة؟!؛ لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هـذه القبلة إلا لأنه قد علم من يبقى على دينـه، ومن لا يبقى؛ فالصـواب الوجهـان الأولان؛ وأحسـنهما أن يكون المراد بـالعلم هنا الـذي يـترتب عليه الجـزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف.

وذكر بعض المعربين أن «نعلم» هنا ضمن معنى «نميز» بدليل قوله تعالى: { ممن ينقلب }؛ مثل: {ليمـيز الله الخـبيث من الطيب} [الأنفـال: 37] ؛ فقالوا: إن مثل هذا التقييد يدل على أن هذا الفعل للتميـيز ــــ أي لنمـيز من يتبع ممن ينقلب على عقبيـه؛ وليس هـذا ببعيد أن يكـون الفعل ضـمن معـنى «نمـيز» مع أنه دال على العلم؛ إذ لا تميـيز إلا بعد العلم؛ والفعل إذا ضـمن معـنى فعل آخر فإنه يـدل على معنـاه الأصـلي، وعلى معناه المضمن.

وقوله تعـالى: { وما جعلنا }: { ما } نافيـة؛ و{ جعلنا } يحتمل أن تكون بمعنى «صيرنا»؛ أو بمعـنى «شـرعنا»؛ فعلى الاحتمـال الأول تحتـاج إلى مفعولين؛ وعلى الثاني لا تحتاج إلى مفعولين؛ و«الجعل» يأتي بمعـنى الشرع في القرآن الكـريم، كما في قوله تعـالى: {ما جعل الله من بحـيرة ولا سـائبة ولا وصـيلة ولا حـام} [المائـدة: 103] أي ما شـرع؛ وعلى هـذا المعـنى لا يبقى في الآية أيّ إشـكال؛ يعـني: ما شـرعنا القبلة الـتي كنت عليها ــــ وهي اتجاهك إلى بيت المقدس ــــ إلا لنعلم من يتبع الرسول إذا صرفناك عنها ممن ينقلب على عقبيـه؛ أما على احتمـال أن تكـون بمعـنى «صيرنا» فإنها تحتاج إلى مفعولين؛ الأول: { القبلة }؛ والتقدير: وما صيرنا القبلة التي كنت عليها قبلةً.

وقوله تعـالى: { إلا لنعلم من يتبع الرسـول }؛ { إلا } أداة حصـر؛ وهـذا الاسـتثناء من أعم الأحـوال؛ إذا كـان الاسـتثناء مفرغـاً يقولـون: إنه استثناء من أعم الأحـوال ــــ يعـني: ما جعلنا بـأي حـال من الأحـوال هـذه القبلة إلا لهذه الحال فقط لنعلم من يتبـع؛ والمـراد بــ{ الرسـول } محمد صلى الله عليه وسـلم؛ وأظهر وصـفه في موضع الإضـمار تنويهـاً بصـدقه، وحثاً على اتباعه؛ إذ مقتضى السياق ــــ لـولا ذلك ــــ أن يقـال: إلا لنعلم من يتبعه.

والأصل في «الاتبـاع» المشي خلف الإنسـان؛ وهو يختلف بـاختلاف السياق: إن تعلق بأمور حسية فمعنـاه: أنك تمشي خلفه في الشـارع، وما أشـبه ذلـك؛ وإن تعلق بــأمور معنوية يكـون المـراد به التأسي بأفعالـه، وأقواله؛ وهنا علق بأمور معنوية؛ فيكون المراد به التأسي بأقواله وأفعاله.

وقوله تعـالى: { ممن ينقلب على عقبيه } أشد مما لو قـال: ممن لم يتبع الرسول؛ لأن الانقلاب على العقب أشد نفوراً، واستنكاراً ممن وقف.

قوله تعـالى: { وإن كـانت لكبـيرة }؛ الضـمير يعـود على الواقعـة؛ يعني: وإن كانت هذه الواقعة ــــ وهي تحويل القبلة ــــ لكبـيرة؛ و{ إن }

هنا مخففة من الثقيلة؛ واسمها ضمير الشأن؛ والتقدير: وإنها كانت لكبيرة؛ واللام هنا للتوكيد؛ ويجوز أن نقـول: إنها للفصل بين «إنْ» النافيـة، و«إنْ» المخففة؛ و{ كبـيرة } أي عظيمة شـاقة؛ فـالكبَر يـراد به الشـيء الشـاق العظيم؛ ومنه قوله (ص) في صاحبَي القبرين: «إنهما ليعـذبان وما يعـذبان في كبير»[1]، أي في أمر شاق عليهما.

قوله تعالى: { إلا على الذين هدى الله }؛ { الذين } اسم موصول؛ والعائد ضـمير منصـوب محـذوف؛ والتقـدير: إلا على الـذين هـداهم اللـه؛ والمـــراد بالهداية هنا هداية العلم، وهداية التوفيـــق؛ أما كونها هداية العلم فلأن الذين يخشون الله هم العلماء، كما قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عبــاده العلمــاء} [فــاطر: 28] أي العلمــاء بــه، وبأســمائه، وصــفاته، وبأحكامــه؛ هــذه هي هداية العلم؛ لأنهم إذا علمــوا خشــوا الله ســبحانه وتعالى، ولم يكرهوا شريعته، ولم يكبر ذلك عليهم، ولم يشق؛ كذلك هداية التوفيق ـــ وهي المهمة: إذا وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعـالى سـهل عليه دينــه، وصــار أيسر عليه من كل شــيء، كما قــال تعــالى: {فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى} [الليل: 5 ـــ 7] .

قوله تعالى: { هدى الله }: أضاف الفعل إلى نفسـه؛ لأن كل شـيء بقضاء الله، وقدره.

قوله تعـالى: { وما كــان الله ليضـيع إيمــانكم }؛ اللام في قوله تعــالى: { ليضيع } يسمونها لام الجحود؛ و«الجحـود» يعـني النفي؛ وهـذه اللام لها ضابط؛ وهو أن تقع بعد «كون» منفي؛ فاللام التي تأتي بعد «كـون» منفي تسـمى لام الجحـود؛ هـذا من جهة الإعـراب؛ أما من جهة المعـنى فكلما جاءت «ما كان الله...» في القرآن فهي الأمر الممتنع غاية الامتناع؛ مثـل: «لا ينبغي»، أو «ما ينبغي» فالمراد أنه ممتنع مسـتحيل، كقوله تعـالى: {لا الشـمس ينبغي لها أن تـدرك القمـر} [يس: 40]، وقوله تعـالى: {وما ينبغي للــرحمن أن يتخذ ولــداً} [مــريم: 92] أي ممتنع مســتحيل؛ وقوله (ص): «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام»[1]، المعنى: أنه مستحيل.

قوله تعالى: { ليضيع إيمانكم }؛ «يضيع» بمعنى يتركه سـدًى بـدون مجازاة عليه؛ والمراد بـ{ إيمانكم} صلاتهم إلى بيت المقـدس؛ وهـذا عـام للـذين مـاتوا قبل تحويل القبلـة، ومن بقـوا حـتى حـولت؛ وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود صـاروا يقولـون للمسـلمين: الذين صلوا منكم قبل تحويل القبلة ضاعت صلاتهم، وليس لهم فيها ثواب؛ فأنزل الله تعالى: { وما كان الله ليضيع إيمانكم }.

قوله تعـالى: { إن الله بالنـاس لـرؤوف رحيم }؛ { لـرؤوف } فيها قراءتان: { لرؤف } بحذف الواو بعد الهمـزة؛ و{ لـرؤوف } بإثبـات الـواو بعد الهمـزة؛ وكلتاهما قراءتـان سـبعيتان؛ هـذه الجملة مؤكـدة بمؤكـدين؛ أحدهما: { إنّ }؛ والثاني: اللام، و{ لرؤوف } قال العلماء: إن الرأفة أشد الرحمـة؛ فهي رحمة خاصـة؛ و{ رحيم } أي متصف بالرحمـة؛ وقـالوا: إنه قـدمت { لـرؤوف } على { رحيم } ـــ مع أن «الـرؤوف» أبلغ ـــ من

---

(1) أخرجه البخاري ص20، كتاب الوضوء، باب ، حديث رقم 218، وأخرجه مسلم ص727، كتاب الطهارة، باب 34: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم 677[111] 292.

(1) أخرجه مسلم ص709، كتاب الإيمان، باب 79: في قوله عليه السلام: "إن الله لا ينام"...، حديث رقم 445 [293] 179.

أجل مراعاة الفواصل؛ وقال تعالى: { رحيم } لأن هذا يتعلق بفعله ــــ أي برحمته الخلق.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآية: فضيلة هذه الأمة حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع للناس؛ وروى الإمام أحمد في مسنده أن مما يحسدنا عليه اليهود القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها؛ فهم يحسدوننا على هذه الخصلة؛ وكذلك على يوم الجمعة، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين[2]؛ المهم أن استقبال القبلة مما حسدونا عليه؛ لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وأعظم بيت في الأرض؛ ولا يوجد بيت قصده ركن من أركان الإسلام للحج إلا الكعبة؛ ولذلك حسدنا اليهود عليها، وأثاروا ضجة عظيمة على التولي عن قبلتهم إلى الكعبة، وصاروا مع من يناصرهم من المشركين؛ أحدثوا أمراً عظيماً حتى إن بعض المسلمين ارتد ــــ والعياذ بالله ــــ عن الإسلام لما سمع من زخرف القول من هؤلاء اليهود، وغيرهم.

2ــــ ومن فوائد الآية: فضل هذه الأمة على جميع الأمم؛ لقوله تعالى: { وسطاً }.

3ــــ ومنها: عدالة هذه الأمة؛ لقوله تعالى: { لتكونوا شهداء على الناس }؛ والشهيد قوله مقبول؛ والمراد بـ «الأمة» هنا أمة الإجابة؛ ومن هنا نعرف حذق أهل الفقه، حيث قالوا: إن «العدل» من استقام على دين الله؛ يعني: هذه الأمة أمة وسط إذا كانت على دين الرسول صلى الله عليه وسلم فتكون شهيداً، وتقبل شهادتها إذا استقامت على دين الله، وكانت أمة حقيقية؛ فعلية يؤخذ من هذا حدّ «العدل»: أن العدل من استقام على دين الله.

4ــــ من فوائد الآية: أن هذه الأمة تشهد على الأمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: { لتكونوا شهداء على الناس }؛ والشهادة تكون في الدنيا، والآخرة؛ فإذا حشر الناس، وسئل الرسل: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم؛ ثم تسأل الأمم: هل بُلِّغتم؟ فيقولون: ما جاءنا من بشير، ولا نذير؛ ما جاءنا من أحد؛ فيقال للرسول: من يشهد لك؟ فيقول: «محمد، وأمته»؛ يُستشهدون يوم القيامة، ويَشهدون؛ فيكونون شهداء على الناس.

فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمن خبره أصدق من المعاينة ــــ صلوات الله وسلامه عليه.

5ــــ من فوائد الآية: أن نبينا (ص) يكون شهيداً علينا يوم القيامة ــــ شهيداً علينا بالعدالة؛ وقيل: شهيداً علينا بأنه بلغ البلاغ المبين؛ وقد ثبت عنه (ص) أنه قال يوم عرفة في أعظم مجمع حصل له مع الصحابة: «ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد؛ ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد؛ ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد»[1]؛ فأشهد

---

(2) أخرجه أحمد ص1869، حديث رقم 25543؛ وفيه علي بن عاصم شيخ الإمام أحمد؛ قال يعقوب بن شيبة: "كان من أهل الدين، والصلاح، والخير البارع، وكان شديد التوقي، أنكر عليه كثرة الغلط، والخطأ مع تماديه على ذلك" (ميزان الاعتدال 3/135)؛ وقال الألباني: "ولذلك ضعفه جمهور أئمة الحديث، وكذبه ابن معين وغيره"، (سلسلة الأحاديث الضعيفة 3/443)؛ وقال أحمد: "هو والله عندي ثقة، وأنا أحدث عنه" (الكامل في ضعفاء الرجال 6/326).

(1) أخرجه البخاري ص590، كتاب الفتن، باب 8: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ترجعوا بعدي كفاراً"...، حديث رقم 7078، وأخرجه مسلم ص880 – 881، كتاب الحج، باب 19: حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 2950 [147] 1218.

النبي صلى الله عليه وسلم ربه على إقرار أمته بالبلاغ؛ نعم؛ لقد بلغ البلاغ المبين (ص)، فترك أمته على المحجة البيضاء؛ وما مات حتى أكمل الله به الدين؛ وما بقي شيء يحتاج الناس إليه في دينهم صغيراً كان، أو كبـيراً إلا بينه (ص) بيانـاً واضـحاً - والحمد لله - فالرسـول صـلى الله عليه وسـلم شهيد على هذه الأمة؛ قال الله تعـالى في سـورة النسـاء: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هـؤلاء شـهيداً} [النسـاء: 41] ، يعـني: كيف تكون الحـال في ذلك اليـوم عظيم؛ ولهـذا لما قـرأ ابن مسـعود على النبي صلى الله عليه وسلم، ووصل إلى هذه الآية قال له النبي صـلى الله عليه وسلم: «حسبك» يعني: قف؛ قال: «فإذا عيناه (ص) تذرفان»[2]؛ لأن الأمر العظيم؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم شهيد علينـا؛ يشـهد بأننا بُلِّغنـا، وأقيمت علينا الحجة، وما بقي لنا عذر بأيّ وجه من الوجوه؛ ولهـذا لا عـذر لأحد بعد أن يتبين له الهدى أن يشاق الله ورسوله، كما قال تعـالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غـير سـبيل المؤمـنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً} [النساء: 115] .

6ـــ ومن فوائد الآيـة: إثبـات رسـالة النـبي صـلى الله عليه وسـلم؛ لقوله تعالى: { ويكون الرسول عليكم شهيداً }.

7ـــ ومنها: أنه لا رسـول بعـده؛ لأن «أل» هنا للعهـد، وهو يخـاطب هذه الأمة؛ فالرسول المعهود فيها واحد؛ وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ ويلزم من ذلك أن لا يكون بعده رسول.

8ـــ ومنهـا: أن الله سـبحانه وتعـالى قد يمتحن العبـاد بالأحكـام الشرعية إيجاباً، أو تحريماً، أو نسخاً؛ لقوله تعـالى: { ما جعلنا القبلة الـتي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرســـول ممن ينقلب على عقبيه }؛ فلينتبه الإنسـان لهـذا؛ فـإن الله قد يبتليه بالمـال بـأن يعطيه مـالاً ليبلـوه أيقـوم بواجبـه، أم لا؛ وهـذه محنـة؛ لأن غـالب من ابتلي بالمـال طغى من وجـه، وشح من وجه آخر؛ ثم اعتدى في تمول المال؛ فضَلَّ في تموله، والتصرف فيه، وتصريفه؛ وقد يبتليه بالعلم؛ فيرزقه علمـاً ليبلـوه أيعمل بـه، أم لا؛ ثم هل يعلمه الناس، أم لا؛ ثم هل يدعو به إلى سبيل اللـه، أم لا؛ فليحـذر من آتاه الله علماً أن يخل بواحد من هذه الأمور.

وكذلك قد يمتحن العبـاد بالأحكـام الكونية ؛ ومنها ما يجـري على العبد من المصائب.

ومن امتحانه بهما أن الله حـــرم الصـــيد على المحـــرِم، ثم أرســـله على الصحابة وهم محرمون حتى تناله أيديهم، ورماحهم.

9ـــ ومن فوائد الآية: وجوب اتباع الرسول صـلى الله عليه وسـلم؛ لقوله تعـــالى: { لنعلم من يتبع الرســـول فالله امتحن العبـــاد ليعلم هل يتبعون الرسول؛ والصحابة رضي الله عنهم اتبعوا الرسول صـلى الله عليه وسلم في ذلك أشد الاتباع: جاءهم رجل وهم يصـلون الفجر في قبـاء وهم ركوع، فقال: «إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة القرآن، وقد أمر أن يسـتقبل الكعبة فاسـتقبلوها وكـانت وجــوههم إلى الشـأم؛ فاستداروا إلى الكعبة»[3]؛ هذا هو الاتبـاع العظيم؛ وكـذلك فعل بنو سـلمة

---

(2) أخرجه البخاري ص437، كتاب فضائل القرآن، باب 33: قول المقرئ للقارئ "حسبك"؛ وأخرجه مسلم ص803، كتاب صلاة المسافرين، باب 40: فضل استماع القرآن...، حديث رقم 1867 [247] 800؛ واللفظ للبخاري.

في مسجد القبلتين[4]؛ إذاً فاتباع الرسول واجب؛ وإلا لما احـتيج إلى محنة الناس عليه.

10ــــ ومن فوائد الآيـة: إثبـات علم اللـه؛ لقوله تعـالى: { لنعلم }؛ وعلم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، كما قال تعـالى: {لتعلمـوا أن الله على كل شـيء قـدير وأن الله قد أحـاط بكل شـيء علمـاً} [الطلاق: 12] .

11ــــ ومنهـا: أن الـردة عن الإسـلام انقلاب؛ لقوله تعـالى: { ممن ينقلب على عقبيه }؛ فإن بعض الذين أسـلموا ارتـدوا حينما تحـولت القبلة إلى الكعبـة؛ وقـالوا: «إن محمـداً ليس على يقين من أمـره: بـالأمس له قبلة؛ واليوم له قبلـة»؛ وما علمـوا أن ذلك مما يؤيد رسـالته؛ لأن الإنسـان الكذاب يحرص على أن لا يتراجع؛ لأن الـتراجع وصـمة فيـه؛ لكن الإنسـان الصدوق لا يهتم أن يقول ما أوحي إليـه، سـواء وافق ما كـان عليه أولاً، أو خالف.

12 ــــ ومنهـا: أن التقـدم حقيقة إنما يكـون بالإسـلام، وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام؛ لقوله تعالى: { ممن ينقلب على عقبيه }؛ فإن هذا حقيقة الرجوع على غـير هـدًى؛ لأن الـذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه؛ فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسـنة رسـوله رجعيـون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقة؛ لأن الله سمى مخالفة الرسول صـلى الله عليه وسلم انقلاباً على العقب؛ ولا أبلغ من هذا الرجـوع أن الإنسـان يرجع على عقبيه رجوعاً أعمى ــــ والعياذ بالله ــــ لا يدري ما وراءه.

13ــــ ومن فوائد الآيـة: أن تغيـير القبلة شـاق إلا على طائفة معينة من الناس؛ لقوله تعالى: { وإن كانت لكبـيرة إلا على الـذين هـدى الله }؛ وهذا يقع كثيراً للإنسان: تشق عليه بعض الأوامر الشرعية، واجتنـاب بعض النواهي الشرعية؛ لكن بتمام الإيمان تـزول هـذه المشـقة، وتكـون سـهلة؛ والعلماء اختلفوا: أيهما أفضل رجل يفعل العبادة بمشقة، ويـترك المعصـية بمشـقة؛ وآخر يفعل العبـادة بيسـر، ويـترك المعصـية بيسـر؛ قـال بعض العلماء: الأول أفضل؛ لأنه مجاهد يجاهد نفسـه، فيتعب؛ وقـال آخـرون: بل الثاني أفضل؛ لأن العبادة كأنها امتزجت بدمه ولحمه، حـتى صـارت سـجية لـه، ويسـيرة عليه لا ينشـرح صـدره إلا بهـا؛ والصـحيح أن يقـال: أما الـذي يفعلها بسـهولة، ويسـر، وانقيـاد فهـذا أكمل حـالاً بلا شـك؛ لأنه مطمئن بالإيمان فـرح بالطاعـة؛ أما الثـاني فحاله أدنى؛ ولكنه يـؤجر على مجاهـدة نفسه على الطاعة؛ وعلى ترك المعصية؛ على أن هذا الثاني الذي قلنا: إنه مفضـول، وله أجر المشـقة ربما يمن الله عـزّ وجـلّ عليه ــــ وهو أكـرم الأكرمين ــــ حتى تكون العبادة في نفسه سهلة، ويفعلها بارتياح؛ وهـذا هو معنى قول بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغـير الله فـأبى أن يكـون إلا للـه؛ فالإنسان قد يفعل العبادة في البداية بمشقة، ويكون عنده نـوع من التعب في تنفيـذها؛ لكن إذا علم الله من نيته صـدق القصد والطلب، يسر الله له الطاعة حتى كانت سجية له.

---

[3] أخرجه البخاري ص35، كتاب الصلاة، باب 32: ما جاء في القبلة...، حديث رقم 403، وأخرجه مسلم ص759 – 760، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب 2: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث رقم 1178 [13] 526.

[4] راجع الطبقات الكبرى لابن سعد 1/241 – 242.

14ــــ ومن فوائد الآية: إظهار منة الله عزّ وجلّ على من هداه الله؛ لأنه نسب الهداية إليه؛ لقوله تعـالى: { إلا على الـذين هـدى الله }؛ وهـذه أعظم منة منَّ الله بها عليه أن هداه للإسلام؛ فيجب أن يشعر بها الإنسان؛ لا يمنّ بدينه على ربــه؛ بل يعتقد أن المنة لله عليــه، كما قــال تعــالى: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} [الحجرات: 17] ؛ فكم من أناس ضـلوا عن الحق مع بيانه، ووضوحه؛ وهم كثيرون؛ بل هم الأكثر، كما قال تعــالى: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل اللـه} [الأنعـام: 116] ؛ وانظر إلى الفضــل، والكــرم: هو الــذي منّ علينا بالهدايــة، ثم يقــول في سورة الرحمن: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن: 60] ؛ فكأننا نحن الذين أحسنا؛ فأحسن إلينا بالجزاء مع أن له الإحسان أولاً، وآخــراً؛ هو الــذي أحسن إلينا أولاً، وأحسن إلينا آخــراً؛ ولكن هــذه مِن منَّته ســبحانه وتعالى، ومِن شكره لسعي عبده، كما قال تعالى: {إن هذا كان لكم جــزاءً وكان سعيكم مشكوراً} [الإنسان: 22] .

15ــــ ومن فوائد الآيــة: أن الله سـبحانه وتعـالى لا يضـيع أجر عمل عامل إذا كــان مبنيــاً على الإيمــان؛ لقوله تعـالى: { وما كــان الله ليضـيع إيمانكم }؛ كل عمل تعمله صادر عن إيمانه فإنه لن يضيع؛ ستجده مسجلاً ــــ قــولاً كــان، أو فعلاً، أو همّــاً بــالقلب، كما قــال النـبي صـلى الله عليه وسلم: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة»[1].

16ــــ ومنها: إثبـات اسـمين من أسـماء اللـه؛ وهمـا: «الـرؤوف» و «الرحيم» ، وما تضمناه من الصفة؛ وهي الرأفة، والرحمة.

17ــــ ومنها: إثبات عمــوم الرحمة لكل النــاس؛ لقوله تعـالى: { إن الله بالنــاس لــرؤوف رحيم }؛ وهــذه هي الرحمة العامة الــتي بها يعيش الناس في دنياهم بــرزق الله من طعــام، وشـراب، وكسـوة، وغيرهـا؛ وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الـدنيا، والآخـرة، كالعلم والإيمان المثمرَين لطاعة الله، ورسوله.

18ــــ ومنهـا: أن العمل من الإيمـان، لقوله تعـالى: { وما كــان الله ليضيع إيمانكم }؛ فإنها فسـرت بالصـلاة إلى بيت المقـدس؛ وهـذا مـذهب أهل السنة والجماعة: أن العمل داخل في الإيمان؛ وهــذا أحد أدلتهم؛ ومن الـدليل على ذلك قوله (صـلى الله عليه وسـلم): «الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة؛ فأفضـلها قـول: لا إله إلا اللـه؛ وأدناهـا: إماطة الأذى عن الطريـق؛ والحياء شعبة من الإيمان»[1]؛ فقول: «لا إله إلا الله» من أعمال اللســان؛ و «إماطة الأذى عن الطريق» من أعمال الجوارح؛ وقوله (صـلى الله عليه وسلم): «الحياء شـعبة من الإيمـان» من أعمـال القلـوب؛ كما أن الإيمـان أيضاً يطلق على الاعتقاد؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»[2]؛ فقوله (ص): «أن تؤمن بالله» هذا اعتقاد القلب؛ فالإيمـان عند أهل السـنة والجماعة يشـمل: اعتقـاد القلب، وقـول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح؛ ووجه كون الأعمال من الإيمان أنها

---

(1) أخرجه البخاري ص544، كتاب الرقاق، باب 31: من هم بحسنة أو سيئة، حديث رقم 6491، وأخرجه مسلم ص700، كتاب الإيمان، باب 59: إذا هم العبد بحسنة...، حديث رقم 338 [207] 131.

(1) أخرجه مسلم ص687، كتاب الإيمان، باب 12: بيان عدد شعب الإيمان...، حديث رقم 153 [58] 35.

(2) سبق تخريجه 1/201.

صادرة عن إيمان؛ الإيمان هو الذي حمل عليها، ولهذا لا يعد عمل المنـافق من الإيمان؛ عمل المنافق ـــ صلاته، وذكـره لله؛ ونفقاته ـــ لا يُعَدّ من الإيمان؛ لأنه صادر عن غير إيمان.

القـــــــرآن

{)قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (البقرة:144)

التفسير:

{ 144 } قوله تعالى: { قد نرى تقلب وجهك في السـماء }؛ { قد } هنا للتحقيق؛ و{ نرى } فعل مضارع عبر به عن الماضي؛ لأن النبي صلى الله عليه وسـلم كـان يكـرر تقلب وجهه في السـماء؛ فـأتى بالفعل المضـارع للدلالة على استمرار رؤية الله له كما اسـتمر تقلب وجه النـبي صـلى الله عليه وسـلم في السـماء ترقبـاً لـنزول جبريل بتحويل القبلة إلى الكعبـة؛ وقيـل: إنه فعل مضـارع على بابـه، فيكـون إخبـاراً بـأن الله سـيرى تقلب وجهه، ثم يحوله إلى القبلة التي يرضاها؛ وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ.

قوله تعالى: { فلنولينك } الفاء للتفريع؛ لأن ما بعدها مفرع على ما قبلها؛ واللام موطئة للقسم؛ فالجملة مؤكـدة بثلاثة مؤكـدات؛ وهي القسم المقـــدر، واللام، والنـــون؛ وقولـــه: { فلنولينك } أي فلنوجهنَّك؛ وقيـــل: فلنحولنَّك إلى {قبلة ترضـاها }؛ ونكِّرت { قبلة } للتعظيم؛ و{ ترضـاها } أي تطمئن إليهـا، وتحبهـا، وتقبلهـا؛ والرسـول صـلى الله عليه وسـلم قَبِل القبلة الأولى، ورضيها قبل أن يحول إلى الكعبـة؛ لكنه يحب أن يحـول إلى الكعبة.

قوله تعالى: { فول وجهك } أي استقبل بوجهك؛ و «وجـه» مفعـول أول؛ و{ شطر } مفعول ثان؛ والمراد بـ «الشطر» هنا الجهـة؛ يعـني: جهة المسـجد الحـرام؛ والمـراد بـــ «الوجـه» جميع البـدن؛ لأن البـدن بهيئته وطبيعته إذا استقبل الوجه جهة صار جميع البدن مستقبلاً لها.

قوله تعـالى: { المسـجد الحـرام }؛ «المسـجد» في الأصل مكـان السجود؛ وقيل: إن «المسجَد» بفتح الجيم: مكـان السـجود؛ و«المسجِد» بكسر الجيم: المكـان المعد للسـجود؛ فيكـون بينهما فـرق: هو أن المكـان المبني المعَدّ للسجود يسمى مسجِداً ـــ بالكسر ـــ وأما المكـان الـذي سجدت فيه بالفعل فيسمى مسجَداً ـــ بالفتح.

وقوله تعـالى: { الحـرام } صـفة مشـبهة من الحُـرم؛ وهو المنـع؛ وسمي «حراماً»؛ لأنه يمنع فيه من أشـياء لا تمنع في غـيره، ولأنه محـترم معظم؛ والمراد به الكعبة، وما حولها من البناء المعروف.

قوله تعالى: { وحيث ما كنتم فولـوا وجـوهكم شـطره }؛ عـدل عن الخطاب للنبي (ص) إلى الخطاب لأمته؛ لأن الخطـاب الموجه للنـبي (ص) خطاب له، وللأمة؛ إذ إنه الإمام؛ والخطاب إذا وجه للإمام فهو خطـاب لـه، ولمن اتبعـه؛ ونظـير ذلك أن الـوزير مثلاً يقـول للقائـد: اتجه إلى كـذا؛ المعـنى: اتجـه، ومن يتبعك من الجنـود؛ فهكـذا الخطـاب الموجه للرسـول (ص) يكون له، وللأمـة؛ ونظـير هـذا قوله تعـالى: {يا أيها النـبي إذا طلقتم

النساء} [الطلاق: 1] ؛ فخاطب النبي صلى الله عليه وسلم أولاً، ثم قال تعالى: {إذا طلقتم}؛ لأن الحكم له، ولأمته.

قوله تعالى: { حيث } ظرف مكان لكنها شرطية زيدت عليها { ما } لفظاً لا معنًى للتوكيد؛ و{ كنتم } فعل الشرط؛ وجواب الشرط قوله تعالى: { فولوا وجوهكم }.

قوله تعالى: { وإن الذين أوتوا الكتاب }؛ المراد بـ{ الكتاب } الجنس؛ وهو التوراة، والإنجيل؛ والذين أوتوه هم اليهود، والنصارى.

قوله تعالى: { ليعلمون أنه الحق من ربهم }؛ اللام للتوكيد؛ فالجملة إذاً مؤكدة بـ{ إن }، واللام؛ و«العِلم» إدراك الشيء إدراكاً جازماً مطابقاً للواقع.

وقوله تعالى: { أنه الحق } أي استقبالك المسجد الحرام الحق؛ و{ الحق } معناه الشيء الثابت؛ فإن أضيف إلى الخبر فهو الصدق؛ وإن أضيف إلى الحكم فهو العدل؛ قال الله تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً} [الأنعام: 115] .

قوله تعالى: { من ربهم }؛ «الرب» الخالق المالك الكامل السلطان المدبر لجميع الأمور.

قوله تعالى: { وما الله بغافل عما يعملون }؛ { ما } هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة قريش؛ والدليل على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: {ما هذا بشراً} [يوسف: 31] ؛ ولم يقل: «بشر» ؛ فالقرآن بلغة قريش؛ وقريش حجازيون؛ و{ ما } عندهم تعمل عمل «ليس».

وقوله تعالى: { بغافل }: الباء زائدة إعراباً مفيدة معنًى ــــ وهو التوكيد؛ و{ غافل } خبر { ما } منصوب بها؛ وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد؛ و «الغفلة» اللهو والسهو عن الشيء.

وقوله تعالى: { عما يعملون }: «ما» اسم موصول تفيد العموم؛ يعني: عن أيّ عمل يعملونه سواء كان يتعلق بالجوارح، أو يتعلق بالقلوب؛ فيشمل الاعتقاد، ويشمل القول، والفعل.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآية: إثبات رؤية الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { قد نرى تقلب وجهك في السماء }.

2ــــ ومنها: أن النظر إلى السماء ليس سوء أدب مع الله؛ لقوله تعالى: { قد نرى تقلب وجهك في السماء لكن في الصلاة لا يرفع بصره إلى السماء؛ لورود الوعيد الشديد به.

3ــــ ومنها: إثبات علو الله؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في السماء؛ لأن الوحي يأتيه من السماء.

4ــــ ومنها: كمال عبودية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه، حيث كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لكنه لم يفعل حتى أُمر بذلك.

5ــــ ومنها: إثبات عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: { فلنولينك قبلة }؛ فإن ضمير الجمع للتعظيم.

6ــــ ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لقوله تعالى: { ترضاها } مع قوله تعالى: { قد نرى تقلب وجهك }.

7ـــ ومنهـا: وجـوب الاتجـاه نحو المسـجد الحـرام؛ لقوله تعـالى: { فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام }.

8ـــ ومنهـا: أن الوجه أشـرف الأعضـاء حيث عـبر به عن سـائر الجسم.

9ـــ ومنها: ما استدل به المالكية على أنه ينبغي للمصـلي أن ينظر تلقاء وجهه؛ لقوله تعـالى: { فـول وجهك شـطر المسـجد الحـرام }؛ فـإذا ولّى الإنسـان وجهه شـطر المسـجد الحـرام فسـيكون نظـره تلقـاء وجهه غالباً؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: مـاذا ينظر إليه المصـلي حـال القيام؟ فالمشهور عن المالكية أن المصلي ينظر تلقاء وجهه؛ وعند الإمـام أحمد أنه ينظر إلى موضع سجوده[1] - وهو مذهب الشـافعي، وأبي حنيفـة؛ واستدلوا لذلك بأثر مرسل عن محمد بن سيرين أن النبي صـلى الله عليه وسـلم كـان يطـأطئ رأسـه، وينظر إلى موضع سـجوده ؛ ولأنه أظهر في الخشـوع؛ وقـال بعض العلمـاء: إن الإمـام والمنفـرد ينظـران إلى موضع السجود؛ وأما المأموم فينظر إلى إمامه - بكسر الهمـزة؛ واسـتدلوا لـذلك بأحاديث في البخاري؛ وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما صـلى صـلاة الكسـوف، وأخـبر أصـحابه بأنه عرضت عليه الجنة والنـار قـال لهم: «وذلك حين رأيتموني تقدمت وتأخرت»[2]؛ وهـذا دليل على أنهم ينظـرون إليه؛ ومنها أنه لما صنع له المنبر قام يصلي عليه، فكان يقوم، ويركع؛ فـإذا أراد السجود نزل، وسجد على الأرض؛ وقال: «إنما فعلت هـذا لتـأتموا بي، ولتعلَّموا صلاتي»[3]؛ وهذا دليل على أنهم ينظـرون إليـه؛ ومنها أيضـاً أنهم لما أخبروا أن الرسول صلى الله عليه وسـلم كـان يقـرأ في صـلاة السـر؛ قيل لهم: بم تعرفون ذلك؟ قالوا: «باضـطراب لحيتـه»[4]؛ وهـذه كلها في الصـــحيح؛ فهـــذا دليل على أن المـــأموم ينظر إلى إمامـــه؛ ولأنه أبلغ في الائتمام به؛ لأن الإمام قد يقوم، وقد يجلس ساهياً مثلاً؛ فإذا كـان المـأموم ينظر إلى الإمام كان ذلك أبلغ في الاقتداء به؛ أما الإمـام، والمنفـرد فإنهما ينظران إلى موضع السجود؛ وهذا القول أقرب؛ ولا سيما إذا كان المـأموم محتاجاً إلى ذلك، كما لو كان لا يسـمع، فيريد أن ينظر إلى الإمـام ليقتـدي به، أو نحو ذلك.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان جالساً؛ فإنه ينظر إلى موضع إشـارته؛ لقول عبد الله بن الزبير: «كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يجاوز بصره إشـارته»[5]؛ ومما يسـتثنى من ذلك عند بعضـهم: إذا كنت في المسـجد الحرام ويمكنك مشاهدة الكعبة؛ فإنك تنظر إلى الكعبة؛ ومنها إذا كنت في خـوف وحولك العـدو؛ فإنك تنظر إلى جهة العـدو؛ فهـذه المسـائل الثلاث

---

[1] راجع تفسير الطبري 19/8.

[2] أخرجه البخاري ص94، كتاب الجمعة، باب 11: إذا انفلتت الدابة في الصلاة، حديث رقم 212؛ وأخرجه مسلم ص820، كتاب الكسوف، باب 3: ما عرض على النبي في صلاة الكسوف...، حديث رقم 2102 [10] 904.

[3] أخرجه البخاري ص72، كتاب الجمعة، باب 26: الخطبة على المنبر، حديث رقم 917؛ وأخرجه مسلم ص762، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب 10: جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة...، حديث رقم 1216 [44] 544.

[4] أخرجه البخاري ص59، كتاب الأذان، باب 91: رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، حديث رقم 746.

[5] خرجه أبو داود ص1396، كتاب الصلاة، باب 180: الإشارة في التشهد، حديث رقم 990، وأخرجه النسائي ص2170 كتاب السهو، باب 39: موضع البصر عند الإشارة...، حديث رقم 1276، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه 1/355، باب 226: النظر إلى السباب، حديث رقم 718، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح (1/407).

تستثنى؛ والراجح في مسألة الكعبة أن المصلي لا ينظر إليها حال صلاته؛ لعدم الدليل على ذلك؛ ولأنه ربما ينشغل به عن صلاته، لا سيما إذا كان الناس يطوفون حولها؛ وأما استثناء الصلاة حال الخوف فصحيح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: { وخذوا حذركم }؛ وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بعث طليعة؛ فكان يصلي وهو يلتفت إلى الشعب هل جاء الطليعة أم لا[6].

10ــــ ومن فوائد الآية: عظمة هذا المسجد لوصفه بالحرام - أي ذي الحرمة والتعظيم - ولهذا كان من يدخله آمناً، ولا يدخله أحد إلا بإحرام وجوباً إن كان لم يؤد الفرض؛ أو استحباباً إن كان قد أداه - بخلاف غيره؛ فكل شيء فيه حياة فهو آمن داخل الحرم - حتى الجماد: فالشجر آمن لا يجوز قطعه في الحرم؛ والصيد آمن لا يقتل في الحرم؛ بل ولا ينفر من مكانه.

11ــــ ومنها: وجوب الاتجاه إلى القبلة في أيّ مكان كان الإنسان: من بر، أو بحر، أو جو؛ لقوله تعالى: { وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره }؛ ويشمل من كان في مكة، ومن كان بعيداً عنها، ومن كان في جوف الكعبة؛ لعموم قوله تعالى: { وحيث ما كنتم }؛ إذاً إذا كان في جوف الكعبة يستقبل أمام وجهه من أيّ الجهات كان؛ إلا أن بعض أهل العلم يقول: لا يستقبل الباب إذا كان مفتوحاً ما لم يكن له عتبة؛ لأنه لابد من شاخص يكون بين يديه حتى يصح أن يقال: إنه ولّى وجهه شطره؛ وإذا كنا خارج الكعبة ــــ ولكن في المسجد ــــ فإنا ندور حوله؛ لأننا لو استقمنا في صف مستقيم لم نوَلّ وجوهنا شطره؛ ويكون من خرج عن مسامتته ولّى وجهه جهة غيره؛ لأنه محصور الآن؛ وإذا ابتعدنا فإن بعض العلماء يقول: إن كنت في مكة فاستقبل المسجد؛ وإن كنت خارج مكة فاستقبل مكة؛ لكن هذا تقريبي؛ إنما الصواب في هذه المسألة أن من أمكنه مشاهدة عين الكعبة وجب عليه استقبال العين ــــ لا يخرج عن مسامتتها؛ ومن لا يمكن مشاهدتها لبعد، أو حيلولة شيء دونها استكفى بالجهة؛ لقوله تعالى: {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها} [البقرة: 286] .

ويسقط استقبال القبلة في مواضع؛ منها:

أ ــــ عند صلاة النفل في سفر؛ فيصلي حيث كان وجهه.

ب ــــ عند الخوف الشديد إذا كان لا يمكن استقبال القبلة.

ج ــــ إذا كان عاجزاً عن استقبال القبلة لمرض ــــ أو صلب ــــ يعني: لو صلب إلى غير القبلة، أو نحو ذلك.

أما إذا اشتبهت عليه القبلة فعليه أن يجتهد إن كان بمكان يصح فيه الاجتهاد؛ فإن أصاب فذاك؛ وإن أخطأ فهو معذور؛ إذاً فالاشتباه لا يُستثنى؛ لأن حقيقة الأمر أنه لا يجوز أن يصلي إلا وهو يعتقد أنه إلى القبلة؛ بخلاف الذي ذكرنا؛ فالعاجز يعرف أن القبلة خلفه، فيصلي إلى غير القبلة؛ وكذلك في شدة الخوف؛ وكذلك المتنفل في السفر.

---

[6] أخرجه أبو داود ص1290، كتاب الصلاة، باب 163: الرخصة في ذلك، حديث رقم 916، وأخرجه ابن خزيمة 1/246، باب 93: ذكر الدليل على أن الالتفات المنهي عنه في الصلاة...، حديث رقم 485، وأخرجه الحاكم في مستدركه 2/83 – 84، كتاب الجهاد، وقال الحاكم (صحيح على شرط الشيخين غير أنهما لم يخرجا لسهل لقلة رواية التابعين عنه)؛ وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: (صحيح) 1/256.

12- المسلمين على وجهة واحدة؛ لأنه تعالى قـال: { وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره }؛ فالمسلمون في أقطـار الـدنيا كلها يتجهـون إلى قبلة واحدة؛ هذا توحيد؛ ولا سيما أنهم يتجهون هذا الاتجـاه، ويتحـدون هـذا الاتحــاد في أعظم مشــعر عملي، أو في أعظم فريضة عملية ـــــ وهي الصلاة؛ فيدل هـذا على أن الشـرع يـراعي مراعـاة تامة توحيد المسـلمين في دينهم، وتوحيــدهم في الاتجــاه البــدني، وكــذلك في الاتجــاه القلــبي الفكري.

13- والنصارى؛ لقوله تعالى: { وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمـون أنه الحق من ربهم }؛ ولكن مع ذلك شنعوا على النبي صـلى الله عليه وسـلم تشنيعاً عظيماً حين توجه إلى الكعبة بأمر ربه.

14ـــ ومنها: أن ما كـان من عند الله فهو حـق؛ لقوله تعـالى: { أنه الحق } مضافاً إلى الله: { من ربهم }.

15ـــ ومنهـا: أن هـؤلاء المعانـدين من أهل الكتـاب يعانـدون مع علمهم التام، ومع إقـرارهم بربوبية الله سـبحانه وتعـالى؛ فهم يعلمـون أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيستقبل الكعبة؛ وهم علموا ذلك مما جـاء في كتبهم من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بـأن هـذا النـبي الأمي سوف يتجه إلى الكعبة؛ وكان عليهم حيث أقـروا بربوبية الله لهم، وعلمـوا الحق أن ينقادوا لـه، وأن يكونـوا أولى النـاس باتباعـه؛ لأن من أقر بربوبية الله سبحانه وتعالى لزم أن يقر بأحكامه، ويلـتزم بهـا؛ لأن الـرب له الملك المطلق يتصرف كيف يشـاء؛ ولهـذا أضـاف الربوبية هنا إليهم: { من ربهم }؛ لإقامة الحجة عليهم حيث يعترفون بربوبيته.

16ـــ ومن فوائد الآيـة: انتفـاء غفلة الله عـزّ وجـلّ عن أعمـالهم المتضـمن لكمـال علمـه، وإحاطته بهم؛ ولا يكفي أن نقـول: انتفـاء الغفلة فقط؛ بل نقـول: المتضـمن لكمـال العلم، والإحاطـة؛ لقوله تعـالى: { وما الله بغافل عما يعملون }.

17ـــ ومنها: صحة تقسـيم الصـفات إلى ثبوتيـة، ومنفيـة؛ لأن الـتي في الآية هنا منفية ـــ وهي قوله تعـالى: { وما الله بغافل عما يعملـون } فالصفات المنفية: كل صفة صُـدِّرت بما يـدل على النفي بـأيّ أداة كـانت، مثل قوله تعالى: {لا تأخذه سنة ولا نوم} [البقرة: 255]، وقوله تعـالى: {وتوكل على الحي الذي لا يموت} [الفرقان: 58]، وقوله تعـالى: {وما مسنا من لغوب} [ق: 38]، وقوله تعالى: {ولم يعيَ بخلقهن} [الأحقاف: 33]؛ واعلم أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يراد بها مع النفي: ضدها؛ فإذا قال الله تعالى عن نفسه: {وما مسنا من لغـوب} [ق: 38] فالمراد: نفي اللغوب، وإثبات كمال قوته، وقدرته.

18ـــ ومن فوائد الآية: تهديد هؤلاء المعاندين الـذين أوتـوا الكتـاب، وعلموا الحق، ولم يتبعوه؛ لقوله تعـالى: { وما الله بغافل عما يعملـون }؛ ويشبه هـؤلاء من بعض الوجـوه من يتعصب لمذهبه ـــ ولو علم أن الحق في خلافه ـــــ إحســـاناً للظن بمن قلـــدهم؛ ولو أتيتهم بكلام من كلام مشايخهم قالوا: على العين والرأس! ولهذا أكـثر شـيخ الإسـلام ـــ رحمه الله ـــ في «الفتوى الحموية» النقول عن العلماء من الأشاعرة، وغيرهم؛ وقـال: «إنه ليس كل من نقلنا قوله فإننا نقـول بـه؛ ولكن لما كـان بعض

الطوائف منتحلاً إلى إمام أو مذهب، صـار لو أُتي بكل آية ما تب؛ ÂˑË
È

نيفة[1] كلهم ينكرون تقليدهم مع مخالفة الكتـاب، والسـنة، ويقولـون: «اضـربوا بأقوالنا عُـرض الحائط إذا خـالفت الكتاب، والسنة»؛ ولهم عبارات في هذا المعنى كثيرة؛ وإذا كـانوا يقولـون هكذا فإن الذين يتعصبون لهم مع مخالفة الـدليل لم يقلـدوهم حقيقـة؛ ولو قلدوهم حقيقة لكانوا إذا بين لهم الدليل أخذوا به كما أمر به هؤلاء الأئمـة؛ لكنهم لم يقلدوهم حقيقة؛ بل تعصـبوا تعصـباً لا يحمـدون عليه ما دام قـام الدليل على خلافه؛ أما إذا لم يقم الدليل عند الإنسان ـــ سـواء كـان ممن يطلب الدليل، ويستطيع أن يعرف الحكم بالأدلة؛ أو لم يكن كذلك ـــ فهذا على كل حال يعـذر إذا قلد من يـرى أنه أقـرب إلى الحـق؛ أما مع وضـوح الدليل، وبيانه فإن التقليد حرام؛ ولهذا يقول شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: إن التقليد بمنزلة أكل الميتة يحل للضرورة، أما مع وجود لحم مـذكّى فلا تأكل الميتة؛ فمع وجود الدليل من الكتاب، والسنة، وتبينه للإنسان فإنه لا يحل له أن يقلد؛ ولهذا لم يأمر الله بسؤال أهل العلم إلا عند عـدم العلم فقال تعالى: {فاسألوا أهل الـذكر إن كنتم لا تعلمـون * بالبينـات والزبـر} [النحل: 43، 44] ؛ أما إذا كنا نعلم بالبينات، والزبر فلا نسألهم؛ ونأخذ من البينات، والزبر.

القـــــــرآن

{)وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُـوا قِبْلَتَـكَ وَمَا أَنْتَ بِتَـابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْـدِ مَا جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (البقرة:145)

التفسير:

{ 145 } في قوله تعـالى: { ولئن أتيت الـذين أوتـوا الكتـاب بكل آية ما تبعوا قبلتك } أمران متنازعان: قسَم، وشرط؛ قَسَـم مـدلول عليه بـاللام؛ لأن اللام واقعة في جـــواب القسم المقـــدر ــــ أي: والله لئن؛ والثـــاني المنازع للقسَـم: «إن» الشـرطية؛ وكل من القسـم، والشـرط يحتـاج إلى جواب؛ فجواب القسم: { ما تبعوا قبلتك}؛ والمحذوف جواب الشرط؛ لأن الشرط مؤخر؛ فاستغنى عن جوابه بجواب القسم؛ يقول ابن مالك:

واحـذف لـدى اجتمـاع شـرط وقسم جـواب ما أخـرت فهو ملـتزم وقوله تعـالى: { أتيت } بمعـنى جئت؛ و{ الـذين أوتـوا الكتـاب } يعـني اليهـود، والنصـارى؛ و{ بكل آية } البـاء للمصـاحبة؛ والمعـنى: مصـطحباً كل آيـة؛ ويحتمل أن تكون الباء للتقوية ـــ أي: تعدية الفعل؛ و «الآية» العلامة على صدق ما أتيت به إليهم؛ يعـني: إن أتيتهم بكل آية تـدل على صـدق ما أتيت به { ما تبعوا قبلتك } أي الكعبة؛ لعنادهم، واستكبارهم.

قوله تعالى: { وما أنت بتـابع قبلتهم }: الـواو هنا اسـتئنافية؛ لأننا لو جعلناها عاطفة على قوله تعـالى: {ما تبعـوا قبلتك } لصـار المعـنى: وما أنت بتابع قبلتهم في حال إتيانك بالآيات التي تدل على صـدق ما جئت بـه؛ ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يتبع قبلتهم مطلقـاً؛ وهذا هو السر في التعبير - والله أعلم بالجملة الاسمية في قوله تعالى: { وما أنت بتـــابع }، وفي الكلام عنهم أتى بالجملة الفعلية في قوله تعـــالى: { ما تبعوا قبلتك }.

قوله تعـالى: { وما بعضـهم } أي الـذين أوتـوا الكتـاب { بتـابع قبلة بعض }: فـاليهود لا تتبع قبلة النصـارى؛ والنصـارى لا تتبع قبلة اليهـود؛ لأن النصارى يقولون: إن اليهود كفار؛ واليهود يقولون: إن النصارى كفار ليسوا على حق؛ ولهذا يكذبون عيسى (ص).

قوله تعــالى: { ولئن اتبعت أهــواءهم }: نقــول فيها مثلما قلنا في قوله تعـالى: { ولئن أتيت }؛ ففيها قَسَـم، وشـرط؛ والجـواب للقسم ـــــ وهو قوله تعالى: { إنك إذاً... }؛ والخطاب للنبي (ص)؛ و «إن» الشــرطية لا تستلزم وقوع شـرطها؛ وإنما قلنا ذلك لئلا يقـول قائـل: هل من الممكن أن الرســول صـلى الله عليه وســلم يتبع أهــواءهم من بعد ما جــاءه من العلم؟ الجــواب: لا يمكن؛ و«إن» الشــرطية لا تســتلزم وقــوع جــواب شرطها: ألم يقل الله سـبحانه وتعـالى: {ولقد أوحي إليك وإلى الـذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك} [الزمر: 65]؛ وإشـراك النـبي صـلى الله عليه وسـلم لا يمكن أبـداً وقوعـه؛ وكـذلك قوله تعـالى: {قل إن كـان للـرحمن ولد فأنا أول العابـدين} [الزخـرف: 81]؛ ووجــود الولد لله لا يمكن.

وقوله تعــالى: { أهــواءهم } جمع هــوى، وهو الميــل؛ ومنه يقــال للنجم: «هوى» إذا مال، وسقط؛ ويطلق «الهـوى» في الغـالب على الميل عن الحــق؛ ويقابله «الهـدى»؛ فيقـال: اتبـعَ الهـوى بعد الهـدى؛ وإن صح الحديث وهو قول الرسول صلى الله عليه وسـلم: «لا يـؤمن أحـدكم حـتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1] - فهو دليل على أن الهوى يكون في الخير كما يكون في الشر.

قوله تعـالى: { من بعد ما جـاءك من العلم } متعلق بــ{ اتبعت }؛ يعني: إذا وقع هذا الاتباع بعد العلم فإنه يكون الظالم؛ وقوله تعـالى: { من بعد ما جـاءك } وردت في القـرآن على ثلاثة أوجـه؛ هـذا أحـدها؛ والثـاني { بعد ما جاءك من العلم }؛ والثالث: { بعد الـذي جـاءك من العلم }، أما { بعدما جـاءك من العلم }، و{ بعد الـذي... } فلا فـرق بينهما إلا أنه عـبر بــ{ ما } عن { الــذي }؛ وأما { من بعد ما جــاءك } فهي أبلغ من قوله تعــالى: { بعد الــذي جــاءك }؛ لأن { مِن } تــدل على أنه جــاءه العلم، وتمهل، وحصل هذا الأمر بعد مجيء العلم؛ نظـير ذلك قوله تعـالى: {ومن بيننا وبينك حجـاب} [فصـلت: 5]؛ فهو أشد مما لو قـالوا: «بيننا وبينك حجاب»؛ لأن { مِن } تدل على مسافة قبل الحجاب، ثم حجـاب، والمـراد بـ «العلم» الوحي الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم.

قوله تعـالى: { إنك إذاً لمن الظـالمين }: أكـدت بــ{ إن } واللام؛ وهذه الجملة جـواب القسـم؛ و{ إذاً } ظـرف؛ وهنا أدوات ثلاث: إذ، وإذا، وإذاً؛ وهـــذه الأدوات الثلاثة تنـــازعت الأزمنـــة: «إذ» للماضـــي؛ و «إذا» للمستقبل؛ و «إذاً» للحاضر؛ فمعـنى { إنك إذاً } أي إنك في حـال اتباعك أهــواءهم من بعد ما جــاءك من العلم { لمن الظــالمين } أي المعتــدين الذين نقصوا الواجب عليهم من اتباع الحق دون الأهواء.

الفوائد:

---

[1] أخرجه البغوي في شرح السنة 1/212 – 213، حديث رقم 104، قال النووي في آخر الأربعين النووية "حسن صحيح"، وقال الحافظ في الفتح 13/289: أخرجه الحسن بن سفيان وغيره؛ ورجاله ثقات؛ وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (2/394): تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه...

1ـــ من فوائد الآية: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصـاً على هداية الخلق؛ لأن قوله تعالى: { ولئن أتيت الـذين أوتـوا الكتـاب بكل آية } دليل على أنه (ص) كـان يعـرض الآيـات، ويـبين الحقـائق؛ ولكن لا ينتفعون بها.

2ـــ ومنها: شدة عناد هؤلاء الـذين أوتـوا الكتـاب؛ وأنهم مهما أوتـوا من الآيات فإنهم لن ينصاعوا لها، ولن يتبعوها.

3ـــ ومنها: أن الذين أوتوا الكتاب لن يتبعوا قبلة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وإذا كان كذلك فلن يتبعوا دينه؛ لأن القبلة بعض الدين؛ فمـتى كفروا بها فهو كفر بالدين كله.

4ـــ ومنهـا: أن الكعبة قبلة للمسـلمين خاصـة؛ لأنه تعـالى أضـاف اسـتقبالها إليهم؛ ولكن الظـاهر ـــــ والله أعلم ـــــ أن الكعبة قبلة لكل الأنبيـاء؛ لقوله تعـالى: {إن أول بيت وضع للنـاس للـذي ببكة مباركـاً} [آل عمران: 96وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة لكل الأنبياء؛ لكن أتباعهم من اليهود، والنصارى هم الذين بدلوا هذه القبلة.

5ـــ ومنهـا: وجـوب الانقيـاد للحق إذا ظهـرت آياتـه؛ لأن هـذه الآية سيقت مساق الذم؛ فدل هذا على وجوب اتباع الحق إذا تبينت الآيات.

6ـــ ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم مستحيل أن يكون تابعـاً لقبلتهم؛ لأن قبلتهم التي يدعونها لم تثبت شـرعاً؛ ثم لو فـرض أنها جـاءت في شرائعهم فإنها نُسِخت بقبلة الإسلام.

7ـــ ومنهـا: أنه يسـتحيل شـرعاً أن يتبع المسـلم طريقة اليهـود، والنصـارى؛ لقوله تعـالى: { وما أنت بتـابع قبلتهم }؛ وجه الاسـتحالة: أن الجملة جاءت بالاسمية المؤكـدة بحـرف الجر في سـياق النفي؛ فـالمؤمن حقيقة لا يمكن أن يتــابع أعــداء اللــه، ولا أن يأخذ بــآرائهم، وأفكــارهم، واتجاهاتهم؛ وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك غاية الحماية، حيث قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[2]، حتى نحذر ونبعد عن التشـبه بأعـداء الله، والتقليد لهم سواء في أمور العبادة، أو في أمور العادة؛ فـإن التشـبه بأعداء الله حرام: وقد يؤدي إلى الكفر، والشرك ـــ والعياذ بالله.

8ـــ ومن فوائد الآية: أن اليهود والنصارى لا يتبع بعضـهم بعضـاً؛ بل يضلل بعضهم بعضاً؛ فاليهود يرون النصارى ليسـوا على شـيء من الـدين؛ والنصارى يرون اليهود ليسوا على شيء من الـدين أيضـاً؛ كل منهم يضـلل الآخر فيما بينهم؛ كل واحد منهم يـــرى أن الآخر ليس على ملة صـــحيحة؛ ولهذا قال تعالى: {وما بعضهم بتـابع قبلة بعض} [البقـرة: 145] ؛ فقبلة اليهود إلى بيت المقدس ــــ إلى الصـخرة؛ وقبلة النصـارى إلى المشـرق يتجهون نحو الشـمس؛ لكنهم على الإسـلام يد واحـدة بعضـهم لبعض وليّ، كما قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهـود والنصـارى أوليـاء بعضهم أولياء بعض} [المائدة: 51] ؛ لأنهم كلهم أعداء للإسلام.

9ـــ ومن فوائد الآيـة: أن اتبـاع اليهـود والنصـارى اتبـاع للهـوى لا للهدى؛ لقوله تعالى: { ولئن اتبعت أهواءهم }.

10ـــ ومنها: أن اليهود والنصارى ليسوا على هـدى، حيث جعل الله سبحانه وتعالى ما هم عليه هوى، وليس بهدى.

---

[2] سبق تخريجه 1/359.

11ــــ ومنهـا: أن الإنسـان لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد قيـام الحجـة؛ لقوله تعـالى: { من بعد ما جـاءك من العلم }؛ فالإنسـان قد يتـابع غـيره جهلاً؛ فلا يؤاخذ به ــــ وإن كـان يسـمى ضـالاً؛ لكنه ليس بظـالم؛ لأنه لم يتعمد المخالفة؛ لا يتحقق الظلم إلا لمن عرف الحق وخالفه.

12ــــ ومنهـا: التلطف في الخطـاب للرسـول (ص)؛ لقوله تعـالى: { لمن الظـالمين }؛ لأنك لو قلت لرجـل: «أنت رجل ظـالم» لكـان أشد وقعـاً من قولك لـه: أنت من الظـالمين؛ ونظـيره قوله تعـالى: {عبس وتولى} [عبس: 1عندما تقرؤها تظن أن العـابس والمتـولي غـير الرسـول صلى الله عليه وسلم؛ تظن أنه رجل آخر؛ ولكن المراد به الرسـول صـلى الله عليه وسلم.

13ــــ ومنها: بيـان أن العلم حقيقة هو علم الشـريعة؛ لقوله تعـالى: { من بعد ما جـاءك من العلم }: أتى بــ «أل» المفيـدة للكمـال؛ ولا شك أن العلم الكامل الـذي هو محل الحمد والثنـاء هو العلم بالشـريعة؛ ولـذلك نقـول: إن عصر النبـوة هو عصر العلم؛ وليس عصـرنا الآن هو عصر العلم الذي يمدح على الإطلاق؛ لكن ما كان منه نافعاً في الدين فإنه يمـدح عليه لهذا.

14ــــ ومنهـا: أن الظلم، والعـدل، وغـير ذلك مقـرون بالأعمـال؛ لا بالأشخاص؛ بمعنى أنه ليس بين الله تعالى وأحد من الخلق شـيء يحابيـه، ويراعيه بـــه؛ كل من خالفه فهو ظـــالم؛ فلا نقـــول مثلاً: هـــذا قـــريب من الرسول صلى الله عليه وسلم تكفر سيئاته لقربه من الرسـول صـلى الله عليه وسلم؛ أو نقول: هذا إنسان من قريش من سـلالة الأشـراف ــــ من سلالة بني هاشم ــــ تكفّر عنه سيئاته؛ فإذا كـان الرسـول صـلى الله عليه وسـلم يقـول الله سـبحانه وتعـالى لـه: { ولئن اتبعت أهـواءهم من بعد ما جـــاءك من العلم إنك إذاً لمن الظـــالمين }؛ فما بالك بمن دون الرســـول صـلى الله عليه وسـلم!!! فلا أحد يحـابى من قِبل الله عـزّ وجـلّ من أجل نسبه، أو حسـبه، أو جاهه بين النـاس: قـال الله تعـالى: {إن أكـرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: 13] .

15ــــ ومن فوائد الآية: قد يرد التعليق على شـرط لا يمكن تحققـه؛ لقوله تعـالى: { ولئن اتبعت أهـواءهم من بعد ما جـاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين }؛ فهذا الشرط لا يمكن أن يقع من رسول الله (ص).

16ــــ ومنها: تحذير الأمة من اتبـاع أهـواء غـير المؤمـنين؛ وجه ذلك أنه إذا كان هذا الوصف يكون للرسـول (ص) لو اتبع أهـواءهم فالـذي دونه من بـاب أولى؛ فعلينا أن نحـذر غاية الحـذر من اتبـاع أهـواء أعـداء اللـه؛ فالواجب على علماء الأمة أن يحذِّروها مما وقعت فيها الآن من اتباع أهواء أعداء الله، ويـبينوا لهم أن اتبـاع أهـوائهم هو الظلم؛ والظلم ظلمـات يـوم القيامة؛ والظلم مرتع مبتغيه وخيم.

القـــــــرآن

{)الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُـونَ أَبْنَـاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقـاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة:146)

التفسير:

{ 146 } قوله تعـالى: { الـذين آتينـاهم الكتـاب يعرفونه كما يعرفـون أبناءهم }؛ { الذين } مبتـدأ؛ والخـبر جملـة: { يعرفونه }؛ والضـمير الهـاء المفعول يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ و{ كما }: الكاف للتشبيه؛ و «ما» مصدرية ــــ أي كمعرفة أبنائهم.

قوله تعـالى: { آتينـاهم } أي أعطينـاهم؛ والمـراد بــ{ الكتـاب } التوراة، والإنجيل؛ والذين أوتوهما اليهـود، والنصـارى؛ وإنما كـانوا يعرفـون النـبي صـلى الله عليه وسـلم كما يعرفـون أبنـاءهم؛ لأنهم يجدونه مكتوبـاً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهـاهم عن المنكـر، إلى آخر ما ذكر من أوصافه التي عرفوه بها كما يعرفـون أبنـاءهم؛ وعبَّر بقوله تعالى: { يعرفونه } بالفعل المضارع؛ لأن معـرفتهم به تتجـدد كلما تـأملوا آياته، وصـفاته؛ وعـبر بقوله تعـالى: { يعرفونه }؛ لأن الغـالب أن «العلم» يعبر به عن الأمور المعقولة التي تدرك بالحس الباطن، و«المعرفة» يعــبر بها عن الأمــور المحسوسة المدركة بــالحس الظــاهر؛ فأنا أقــول لــك: «أعرفت فلاناً»؛ ولا أقول لك: «أعلمت فلاناً»؛ لكن أقول: «أعـرفت فلانـاً فعلمت ما فعــل»؛ فهنا جعلنا العلم في الفعــل؛ و{ أبنــاءهم } جمع ابن؛ وخصه دون البنت؛ لأن تعلق الإنسان بالـذَّكَر أقـوى من تعلقه بـالأنثى؛ فهو به أعرف.

قوله تعالى: { وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون } يعـني طائفة منهم تكتم الحق ـــــ أي يخفونــه، فلا يبينونــه؛ ولهــذا ذكر الله في سـورة آل عمـران أن بعضـهم يقـول لبعض: كيف تـبينون الهـدى لمحمـد، وأصـحابه؟! إذا بينتمـوه يحـاجوكم به عند الله أفلا تعقلـون! فهم يتواصـون بالكتمان ــــ والعياذ بالله.

وقوله تعــالى: { وهم يعلمــون } في موضع نصب على الحــال من فاعل يكتمون ــــ وهو الواو؛ يعني: يكتمون والحال أنهم يعلمون أنه الحق؛ وهــذا أبلغ في الذم، وأقبح في الفعل أن يكونوا كاتمين للحق وهم يعلمون.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآية: أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم معـروف عند أهل الكتاب معرفة تامة؛ وذلك كما جاء في كتبهم، كما قال الله ــــ تبـارك وتعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الـذي يجدونه مكتوبـاً عنـدهم في التــوراة والإنجيل يــأمرهم بــالمعروف وينهــاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحـرم عليهم الخبـائث ويضع عنهم إصـرهم والأغلال الـتي كـانت عليهم} [الأعراف: 157] .

2ــــ ومنهـا: أنه لا عـذر ولا حجة لأهل الكتـاب في إنكـارهم رسـالة النــبي صــلى الله عليه وســلم؛ لأنهم أوتــوا من وصــفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم.

3ــــ ومنها: بيـان أن تعلق الإنسـان بـالابن أقـوى من تعلقه بـالبنت؛ لقوله تعالى: { كما يعرفون أبنـاءهم }؛ فهو يعـرف الابن أكـثر مما يعـرف البنت لقوة تعلقه به.

4 ـــ ومنها: الاحتراس في القرآن الكريم، حيث قال تعــالى: { وإن فريقـاً منهم }؛ لأن كتمـان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتم الحق؛ فإن من النصــارى من آمن، كالنجاشــي؛ ومن اليهود ـــ كعبد الله بن سلام ـــ مَن آمن، ولم يكتم الحق.

5ـــ ومنها: شدة اللوم، والـذم لهـؤلاء الـذين يكتمـون الحـق؛ لأنهم يكتمونه مع العلم به؛ فهم عامـدون ظـالمون؛ وهـذا أشد قبحـاً من كتمـان الإنسان ما يكون متردداً فيه.

القـــــــرآن

{)الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (البقرة:147)

التفسير:

{ 147 } قوله تعالى: { الحق من ربك }؛ { الحق } مبتـدأ؛ و{ من ربك } خـبره؛ وهنا الجملة لتقرير ما سـبق؛ يعـنى أن الحق ثـابت، وحاصل من ربك؛ وقيل: إن { الحق } خـبر لمبتـدأ محـذوف؛ والتقـدير: هـذا الحق من ربك.

وهنا الربوبية خاصــة؛ لأن الله ســبحانه وتعــالى رب العــالمين؛ لكن أضـافها إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم؛ لأن المقـام يقتضـيه، حيث هو مقام التثبيت، والنصرة؛ فلولا أن الله سبحانه وتعـالى ثبَّت الرسـول صـلى الله عليه وسلم لكان كما قال الله تعالى: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممــات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} [الإسراء: 74، 75] ؛ و «الرب» هو الخالق المالك المـدَبِّر: هو الــذي خلق الخلق كلــه؛ وهو مالك الخلق كلــه؛ وهو ســبحانه وتعــالى المدبر للخلق كله.

قوله تعــالى: { فلا تكــونن من الممــترين }؛ { لا } ناهيــة؛ والفعل بعدها مبني على الفتح في محل جزم؛ وإنما بني على الفتح لاتصــاله بنــون التوكيد؛ لأن الفعل المضارع إذا اتصل بنـون التوكيد صـار مبنيـاً على الفتح دائماً؛ والخطاب هنا للرسول (ص)؛ وهذا النهي يراد به التثبيت؛ إذ لا يمكن وقــوع الامــتراء من النــبي صــلى الله عليه وســلم؛ كما أن أمر المــؤمن بالإيمان يـراد به الثبـوت، والاسـتمرار عليـه، كما في قوله تعـالى: {يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الــذي نـزل على رسـوله والكتـاب الــذي أنـزل من قبـل} [النسـاء: 136] ، كما أن الشـرط قد يعلق بما لا يمكن وقوعه كما سبق في قوله تعالى: {ولئن اتبعت أهــواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين} [البقرة: 145] .

قوله تعالى: { من الممترين }: معنى «الامتراء»: الشك.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أن ما جاء من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: { الحق من ربك }.

2ــــ ومنهـا: أنه ما دام الحق من الله فإنه يجب أن يـؤمن الإنسـان به، وأن لا يلحقه في ذلك شك، ولا مرية.

3ــــ ومنها: أن كل شـيء خـالف ما جـاء عن الله فهو باطـل؛ لقوله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون} [يونس: 32] .

4ــــ ومنها: تقوية الرسـول صـلى الله عليه وسـلم على ما هو عليه من الحق ــــ وإن كتمه أهل الكتاب ــــ لأن الإنسان بشـر؛ لما أنكر هـؤلاء الذين أوتوا الكتاب الحق قد يعتري الإنسان شيء من الشبهة ــــ وإن كان بعيـداً؛ فـبين الله سـبحانه وتعـالى أن ما جـاء به هو الحـق؛ لقوله تعـالى: { الحق من ربك }.

5ــــ ومنهـا: عناية الله سـبحانه وتعـالى بـالنبي بـذكره بالربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: { من ربك}.

6- ومنهـا: أن الشك ينـافي الإيمـان؛ لقوله تعـالى: { فلا تكـونن من الممترين }.

7- ومنها: أنه قد ينهى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: { فلا تكونن من الممترين }؛ فإن النبي صلى الله عليه وسـلم لا يمكن أن يكون من الممترين.

8- ومنها: عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول صلى الله عليه وسـلم بالتثبيت؛ لأن قوله تعالى له: { الحق من ربك } يقتضي ثباته عليـه؛ وقوله تعالى: { فلا تكونن من الممترين } يقتضي استمراره على هذا الثبات؛ ولا شك أن في هـذا من تأييد الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، وتثبيته ما هو ظاهر.

القـــــــرآن

{)وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَـأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:148)

التفسير:

{ 148 } قوله تعـالى: { ولكل وجهة هو موليها }؛ الوجهـة، والجهـة، والوجـه، معناها متقـارب؛ أي: لكل واحد من النـاس جهة يتولاهـا؛ وهـذا شامل للجهة الحسـية، والمعنويـة؛ مثـال الحسـية: اختلاف النـاس إلى أين يتجهـون في صـلاتهم: فمنهم من يتجه نحو المشـرق؛ ومنهم من يتجه نحو بيت المقـدس؛ ومنهم من يتجه إلى الكعبـة؛ واختلاف النـاس كـذلك في اتجـاههم في العمـل: فمنهم من يتجه للتجـارة؛ ومنهم من يتجه للحـدادة؛ ومنهم من يتجه للنجـارة... وهكـذا؛ ومثـال المعنويـة: اختلاف النـاس في الملل، والنحل، وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: { هو موليها } فيها قراءتان؛ الأولى: بكسر اللام، ويـاء سـاكنة بعـدها - { مولِّيهـا } - على أنها اسم فاعـل؛ والقـراءة الثانيـة: بفتح اللام، وألف بعــدها - { مولَّاها } - على أنها اسم مفعــول؛ فـالمعنى على القـراءة الأولى: هو متجه إليهـا؛ والمعـنى على القـراءة الثانيـة: هو موجَّه إليها إما شرعاً؛ وإما قدراً؛ وإما شرعاً وقدراً؛ وجملة: { هو موليها }، أو { هو مولاها } في محل رفع صـفة لــ{ وجهة }؛ وليس المـراد بهـذه الجملة إقرار أهل الكفر على كفرهم؛ وإنما المراد - والله أعلم - تسلية المؤمنين، وتثـــبيتهم على ما هم عليه من الحــــق؛ لأن لكل أحد وجهة ولّاه الله إياها حسب ما تقتضيه حكمته.

قوله تعالى: { فاسـتبقوا الخـيرات } أمر من الاسـتباق؛ والمـراد به التسابق إلى الخـيرات؛ وتعـدّى بنفسه دون حـرف الجر كأنه ضُـمِّن معـنى افعلوا على وجه المسابقة؛ وفائـدة تضـمين الفعل فعلاً آخر لأجل أن يـدل التضـمين على المعنـيين، كقوله تعـالى: {عينـاً يشــرب بها عبـاد اللـه} [الإنسان: 6] .

قوله تعالى: { أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً }؛ «أين» شرطية؛ و «ما» زائـدة للتوكيـد؛ و{ تكونـوا } فعل الشـرط مجـزوم بحـذف النـون؛ والـواو فاعل؛ لأن «كان» هنا تامة؛ وليست ناقصة؛ يعـني: أينما توجـدوا يـأت بكم الله؛ و{ يأت } جواب الشرط مجـزوم بحـذف اليـاء؛ والكسـرة قبلها دليل عليها.

وقوله تعالى: { أينما تكونوا } في بـرّ، أو بحـر، أو جـوّ فـإن الله يـأتي بكم جميعـاً، وذلك يـوم القيامـة، حيث يحشر الله الأولين، والآخـرين في مقـام واحد.

قوله تعـالى: { إن الله على كل شــيء قـدير }: هــذه جملة خبرية مؤكدة بـ{ إن }؛ عامة في كل شيء من موجود، أو معـدوم؛ و «القـدرة» صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآيـة: أن الأمم قد تختلف مناهجها ــــ وإن اتفقت على أصل واحـد؛ وهو الإسـلام؛ ونعـني بــ«الإسـلام» المعنى العـام؛ وهو الاستسلام لله بشرائعه القائمة التي لم تُنسَخ.

2ـــ ومنها: أن الإنسان يجب عليه أن يتبع الحق أينما كان؛ ولا ينظر إلى كـثرة المخـالف؛ لا يقـل: النـاس على كـذا فكيف أشذ عنهم! بل يجب عليه أن يتبع الحـــق؛ لأن قوله تعـــالى: { ولكل وجهة } يشـــمل الوجهة الشــرعية، والوجهة القدريــة؛ يعــني ما وجه الله العبــاد إليه شــرعاً، وما وجههم إليه قـــدراً؛ الوجهة القدرية معروفـــة: فمن النـــاس من يهديه الله تعـالى فيكـون اتجاهه إلى الحـق؛ ومن النـاس من يُخـذَل فيَضـل، ويكـون اتجاهه إلى الباطل؛ فالوجهة التي يتبعها المشـركون، واليهـود، والنصـارى، وما أشبه ذلك هـذه وجهة قدريـة؛ أما شـرعية فلا؛ لأن الله ما شـرع الكفر أبداً؛ ولا شرع شيئاً من خصال الكفر؛ والوجهة الشـرعية: اختلاف الشـرائع بين النـاس؛ فلا تظن أن اختلاف الشـريعة الإسـلامية عن غيرها معنـاه أنها ليست حقاً؛ فإنها الحق من الله.

3ـــ ومن فوائد الآيـة: وجـوب المسـابقة إلى الخـير؛ لقوله تعـالى: { فاستبقوا الخيرات }.

4ـــ ومنهـا: أن الأمر يقتضي الفوريـة؛ لأن الاسـتباق إلى الخـير لا يكـون إلا بالمبـادرة إلى فعلـه؛ فهـذه الآية مما يسـتدل به على أن الأمر المطلق للفورية.

5ـــ ومنها: البلاغة التامة في قوله تعـالى: { فاسـتبقوا الخـيرات } دون «اسـتبقوا إلى الخـيرات» - وإن كـان بعض النـاس يقولـون: إنها نُـزِع منها حــرف الجــر؛ وليس بصـحيح؛ لأن { فاســتبقوا الخــيرات } يشـمل الاستباق إليها، والاسـتباق فيهـا؛ فليس معنـاه: إذا وصـلت إلى الخـير فإنك تقف؛ بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقاً؛ وهذا يشبهه قوله تعـالى: {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: 6] ؛ فـالمطلوب أن يصل الإنسـان إلى الصراط، ويستمر فيه؛ ولهذا قال تعالى: {اهدنا الصـراط المسـتقيم} [الفاتحة: 6] .

6ـــ ومن فوائد الآيـة: إحاطة الله تعـالى بـالخلق أينما كـانوا؛ لقوله تعالى: { أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً }.

7ـــ ومنهـا: الإشـارة إلى البعث؛ لأن الإتيـان بـالجميع يكـون يـوم القيامة.

8ـــ ومنها: إثبات عموم قدرة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { إن الله على كل شيء قـدير }؛ وقد قـال الله تعـالى: {وما كـان الله ليعجـزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً} [فاطر: 4].

وهنـاك كلمة يقولها بعض النـاس فيقـول: «إن الله على ما يشـاء قـدير»؛ وهذا لا ينبغي:

أولاً: لأنه خلاف إطلاق النص؛ فالنص مطلق.

ثانياً: لأنه قد يفهم منه تخصيص القدرة بما يشاء الله دون ما لم يشأ؛ والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء.

ثالثاً: أنه قد يفهم منه مـذهب المعتزلة القدرية الـذين قـالوا: «إن الله عـزّ وجلّ لا يشاء أفعال العبد؛ فهو غير قادر عليها».

ولهـذا ينبغي أن نطلق ما أطلقه الله لنفسـه، فنقـول: إن الله على كل شيء قدير؛ أما إذا جاءت القـدرة مضـافة إلى فعل معين فلا بـأس أن تقيد بالمشـيئة، كما في قوله تعـالى: {وهو على جمعهم إذا يشـاء قـدير} [الشورى: 29] ؛ فإن {إذا يشاء} عائدة على «الجمع» ؛ لا على «القدرة»

؛ فهو قدير على الشيء شاءه، أم لم يشأه؛ لكن جمعه لا يقع إلا بالمشيئة؛ ومنه الحـديث في قصة الرجل الـذي أكرمه الله سـبحانه وتعـالى، فقـال: «ولكـني على ما أشـاء قـادر»[1]؛ لأنه يتكلم عن فعل معين؛ ولهـذا قـال: «قادر» : أتى باسم الفاعل الدال على وقـوع الفعل دون الصـفة المشـبهة ــــ «قدير» ــــ الدالة على الاتصاف بالقدرة.

القــــــــرآن

{)وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة:149)

التفسير:

{ 149 } قوله تعالى: { ومن حيث خـرجت فـول وجهك شـطر المسـجد الحـرام }؛ ما أعظم هـذا الحـدث؛ ولهـذا أكـده الله عـدة مـرات؛ { من } حرف جر؛ و{ حيث } مبنية على الضم؛ قال ابن مالك في عدّ المبنيات:
كـأينَ أمسِ حيثُ والسـاكن كمْ و{ خـرجت }: الخطـاب هنا إما أن يكـون للرسول (ص)؛ وإما أن يكون لكل من يتأتى خطابـه؛ أي من حيث خـرجت أيها الإنسان { فول وجهك شطر المسجد الحرام } أي مستقبلاً لـه؛ وذلك عند الصلاة؛ و{ شطر المسجد } أي جهة المسجد؛ و{ المسجد الحـرام } هو المسجد الذي فيه الكعبة؛ لقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام...»[2]؛ بل لقوله تعالى: {هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محلـه} [الفتح: 25] ؛ ووصِف بالحرام لاحترامه، وتعظيمه.
قوله تعـالى: { وإنه } أي توليك شـطر المسـجد الحـرام { للحق } اللام هنا للتوكيد؛ فالجملة هنا مؤكدة بمؤكـدين؛ أحـدهما: «إن» ؛ والثـاني: اللام؛ و «الحق» هو الشيء الثابت؛ لأنه محقـوق ــــ أي مثبت؛ ومنه قوله تعـالى: {إن الـذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنـون} [يـونس: 96]ـ : {حقت} بمعنى ثبتت، ووجبت.
قوله تعالى: { من ربك } تقدم الكلام عليها، وأنها ربوبية خاصة.
قوله تعالى: { وما الله بغافل }: الباء حـرف جر زائد للتوكيـد؛ والأولى أن نقول: «الباء للتوكيد» فقط؛ ولا نقـول: «زائـد»؛ لئلا يفهم السـامع أن في القرآن ما ليس له معنى؛ و{ غافل } خـبر { ما } منصـوب بفتحة مقـدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر؛ و «الغفلة» الذهول.
قوله تعالى: { عما تعملون } بالتاء: خطاب للمسلمين؛ وفي قراءة: { عما يعملون } بالياء: خطاب لهؤلاء الذين اعترضوا على النبي صلى الله عليه وسـلم؛ فـإن الله تعـالى ليس بغافل عنهم؛ بل سـوف يجـازيهم بما يستحقون.

الفوائد:

---

[1] أخرجه مسلم ص712، كتاب الإيمان، باب 83، آخر أهل النار خروجاً، رقم الحديث: 463 [310] 187.
[2] أخرجه البخاري ص92، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة، باب 1: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم 1189، أخرجه مسلم ص909، كتاب الحج، باب 95: فضل المساجد الثلاثة، حديث رقم 3384 [511] 1397.

1ـــ من فوائد الآية: وجوب التوجه إلى المسـجد الحـرام أينما كـان الإنسان؛ لقوله تعـالى: { ومن حيث خـرجت فـول وجهك شـطر المسـجد الحرام }؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء...} [البقرة: 144] الآية[1].
2ـــ ومنها: تكرار الأمر الهام لتثبيته، والثبات عليـه، ودفع المعارضة فيه؛ لأنه كلما كرر كان مقتضـاه أن الأمر ثـابت محكم يجب الثبـوت عليـه؛ وكون المسلمين ينقلـون من وجهة إلى وجهة في القبلة أمر هـام له شـأن عظيم؛ ولهذا ارتد من ارتد من الناس حين حوِّلت القبلة.
3ـــ ومنها: إثبات حرمة المسجد الحرام، وتعظيمه؛ لقوله تعالى: { المسجد الحرام }؛ فالمسجد محـترم معظم؛ حـتى ما حوله صـار محترمـاً معظمـاً؛ فالبلد كله آمن حـتى الأشـجار الـتي لا إحسـاس لها آمنة في هـذا المكان؛ ولهذا حرم النبي صلى الله عليه وسـلم أن يختلى خلاهـا، أو يعضد شوكها[2]، أو يقطع شجرها[3]، كل هذا لاحترام هذا المكان، وتعظيمه.
4ـــ ومنهـا: أن التوجه إلى الكعبة هو الحـق؛ لقوله تعـالى: { وإنه للحق من ربك } فأثبت فيه الحقية مؤكداً بـ{ إن }، واللام.
5ـــ ومنها: كمال علم الله سبحانه وتعـالى، ومراقبته لخلقـه؛ لقوله تعالى: { وما الله بغافل عما تعملون }.
6ـــ ومنها: إضافة العمل إلى الإنسان، فيكون فيه رد على الجبرية؛ لقوله تعـالى: { عما تعملـون}؛ ولا شك أن الإنسـان يضـاف إليه عملـه؛ وعمله: كسـبه - إن كـان في الخـير - واكتسـابه - إن كـان في الشر - كما قال تعالى: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} [البقرة: 286] .
والناس في هذه المسألة ـــ أعني مسألة أعمال العباد ـــ ينقسـمون إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: من يرون أن الإنسان مجبر على العمل؛ لا يفعل شيئاً باختيـار أبـداً؛ وما فعله الاختيـاري إلا كفِعله الاضـطراري: فمن نـزل من السـطح على الـدرج درجة درجة هو كمن سـقط بـدون علمه من أعلى السطح؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهميـة؛ وهو مـذهب باطل تـرده الأدلة السمعية، والعقلية.
القسم الثـاني: من يـرون أن الإنسـان مسـتقل بعملـه، وأن الله سـبحانه وتعـالى لا يصـرِّف العبد إطلاقـاً؛ فالعبد له الحرية الكاملة في عملـه، ولا تعلق لمشـيئة الله بـه، ولا تعلق لتقـدير اللـه، وخلقه بعمل الإنسـان، وهـذا مذهب المعتزلة القدرية؛ وهو مذهب باطل للأدلة السمعية، والعقلية.
وكلا القسمين مع بطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة .
القسم الثالث: يرون أن فعل العبد باختياره؛ وله تعلق بمشيئة اللـه؛ فمتى فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالى قد شاءه، وقدره؛ وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريـد؛ بل كل ما وقع فهو مـراد لله مخلـوق لـه؛ ووجه كون فعل العبد مخلوقـاً للـه: أن الإنسـان مخلـوق للـه؛ وفعله كـائن بـأمرين: بعزيمة صـادقة؛ وقـدرة؛ والله عـزّ وجـلّ هو الـذي خلق العزيمة

---

[1] انظر 2/47.
[2] راجع البخاري ص144، كتاب جزاء الصيد، باب 10: لا يحل القتال بمكة، حديث رقم 1834؛ ومسلماً ص903، كتاب الحج، باب 82: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها، وشجرها، ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، حديث رقم 3302 [445] 1353.
[3] راجع البخاري ص12، كتاب العلم، باب 39: كتابة العلم، حديث رقم 112؛ ومسلماً ص904، كتاب الحج، باب 82: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها...، حديث رقم 3306 [448] 1355...

الصادقة، والقدرة؛ فالإنسان بصفاته، وأجزائه، وجميع ما فيه كله مخلوق لله عزّ وجلّ.

هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعاً؛ لأن الذين قالوا: «إن الإنسان مجبر» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر؛ والذين قالوا: «إنه مستقل» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة، والجماعة ـــ والحمد لله ـــ أخذوا بأيديهم بالدليلين؛ وقالوا: الإنسان يفعل باختياره؛ ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عزّ وجلّ؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رُفع عنه حكمه: فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ والمكره على الشيء لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ بل أبلغ من ذلك: الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل؛ لكنه لجهله يعفى عنه؛ كل ذلك يدل على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

القـــــــرآن

{)وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (البقرة:150)

التفسير:

{ 150 } قوله تعالى: { ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام } هذه الجملة تقدم الكلام عليها؛ وكررت للتوكيد، وبيان الأهمية، والتوطئة لما بعدها؛ وهو قوله تعالى: { لئلا يكون للناس عليكم حجة }؛ { لئلا اللام هنا للتعليل اقترنت بها «أن» المصدرية، و «لا» النافية؛ و{ يكون } فعل مضارع منصوب بـ «أن» المصدرية؛ ولا يضر الحيلولة بين الناصب والمنصوب بـ «لا» النافية؛ و{ حجة } اسم { يكون } إن كانت ناقصة؛ أو فاعل إن كانت تامة؛ والمراد بـ «الناس» كل من احتج على المسلمين بتحولهم من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وقد احتج على المسلمين في هذه المسألة اليهود، والمشركون، والمنافقون؛ فالحجة التي احتج بها اليهود لها جهتان:

الأولى: أنهم قالوا: إن الرجل ترك ملتنا إلى ملة آبائه.

والجهة الثانية: أنه لو بقي على استقبال بيت المقدس لقالوا: ليس هذا النبي هو الذي جاء وصفه في التوراة.

وأما حجة المشركين فقالوا: إنه متبع هواه؛ فقد داهن اليهود أول أمره، ثم عاد، واستقبل الكعبة؛ وقالوا: «هذا الرجل خالفنا في عقيدتنا وخالفنا في ملتنا حين هاجر إلى المدينة، ثم رجع إلى قبلتنا؛ فسيرجع إلى ديننا».

وأما حجة المنافقين فقالوا: إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبياً حقاً لثبت على دينه.

وهذه عادة أهل الباطل يموِّهون، ويقلبون الحق باطلاً؛ لأنهم يريدون غرضاً سيئاً؛ بل إن تحوله إلى استقبال الكعبة مع هذه الاعتراضات، والمضايقات دليل على أنه رسول الله حقاً فاعل ما يؤمر به.

وقوله تعالى: { عليكم }: الضمير يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ لأن كل حجة يُحتج به على الرسول للتلبيس وإبطال الدعوة، فهي في الحقيقة حجة على جميع أتباعه؛ لأن أتباعه إنما تبعوه

لأنه على الحـق؛ فـإذا جـاء من يُلَبِّس صـار ذلك تلبيسـاً على جميعهم ــــ التابع، والمتبوع.

وقوله تعــالى: { حجة } أي حجة باطلــة؛ ولا يلــزم من الاحتجــاج قبوله، كما قال تعـالى: {والـذين يحـاجون في الله من بعد ما اسـتجيب له حجتهم داحضة عند ربهم} [الشورى: 16] أي باطلة.

قوله تعــالى: { إلا الــذين ظلمــوا منهم }؛ المــراد بهم المعانــدون المكـابرون الـذين لا يَرْعَـوون للحق مهما تـبين؛ واختلف في الاسـتثناء أهو متصــل، أم منقطــع؟ فمنهم من قــال: إنه متصــل؛ ومنهم من قــال: إنه منقطع، و{ إلا بمعنى «لكن»؛ يعني: لئلا يكـون للنـاس عليكم حجـة؛ لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محـاجتهم، ومخاصـمتهم؛ ومن قـال: «إنه متصل» قال: يكون { الذين ظلموا } مستثنى من «النـاس» ؛ لأن النـاس منهم ظالم؛ ومنهم من ليس بظالم؛ والأقرب عندي ــــ والله أعلم ــــ أن الاستثناء منقطع؛ لأن قوله تعـالى: { لئلا يكـون للنـاس عليكم حجة } هـذا عام شامل؛ لكن من ظلم من اليهود، أو المشركين، فإنه لن يرعوي بهــذه الحكمة التي أبانها الله عزّ وجلّ.

قوله تعـالى: { فلا تخشـوهم واخشـوني } يعـني مهما قـال الـذين ظلمــوا من كلام، ومهما قــالوا من زخــارف القــول، ومهما ضــايقوا من المضايقات فلا تخشـوهم؛ و«الخشـية»، و«الخـوف» متقاربـان؛ إلا أن أهل العلم يقولون: إن الفرق أن «الخشية» لا تكون إلا عن علم؛ لقوله تعــالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: 28] بخلاف «الخــوف»: فقد يخـاف الإنسـان من المخـوف وهو لا يعلم عن حالـه؛ والفـرق الثـاني: أن «الخشية» تكون لعظم المخشيّ؛ و«الخوف» لضعف الخائف ــــ وإن كان المخوف ليس بعظيم، كما تقول مثلاً: الجبان يخاف من الجبان ــــ يخـاف أن يكون شجاعاً؛ وعلى كل حال إن صح هذا الفرق فهو ظاهر؛ لكن الفرق الأول واضح؛ وهو أن «الخشية» إنما تكون عن علم.

وأتى بـالأمر { واخشــوني } بعد النهي؛ لأنه كما يقــال: التخلية قبل التحليـة؛ أزِلْ الموانع أولاً، ثم أثبت؛ فـأولاً فـرِّغ قلبك من كل خشـية لغـير الله، ثم مكِّن خشية الله من قلبك؛ فأنت أزل الشوائب حتى يكــون المحل قابلاً؛ فإذا كان المحل قابلاً فحينئذٍ يكـون الـوارد عليه وارداً على شـيء لا ممانعة فيـه؛ والأمر هنا للوجـوب بلا شـك؛ الـواجب على المـرء أن يخشى الله وحده.

قوله تعــالى: { ولأتم نعمــتي عليكم } معطوفة على قوله تعــالى: { لئلا يكون }؛ وإتمام الشيء: بلوغ غايته؛ والغالب أنه يكـون في الكمـال؛ و «النعمة» هي ما ينعَم به الإنسان؛ ويقال: «نِعمة» بكسر النـون؛ ويقــال: «نَعمة» بالفتح؛ لكن الغالب في نعمة الخير أن تكون بالكسـر؛ و«النَّعمـة» بالفتح: التنعم من غير شكر، كما قال تعـالى: {ونعمة كـانوا فيها فـاكهين} [الدخان: 27] ، وقال تعالى: {وذرني والمكذبين أولي النَّعمة} [المزمل: 1ونزلت هذه الآية في أول الهجرة عند تحويل القبلة ــــ يعـني في السـنة الثانية ــــ ولا يعارضــها قوله تعــالى: {اليــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} [المائدة: 3] ؛ وقد نزلت في يوم عرفة في حجة الـوداع؛ لأن المــراد في آية المائــدة: {اليــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمـتي} الإتمـام العـام في كل الشـريعة؛ أما هنـا: {ولأتم نعمـتي عليكم}

[البقرة: 150] : في هذه الشريعة الخاصة ـــ وهي استقبال الكعبة بدلاً عن بيت المقدس؛ لأنه سبق أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقلب وجهه في السماء ينتظر متى يؤمر بالتوجه إلى الكعبة؛ فلا شك أنه من نعمة الله عزّ وجلّ أن أنعم على المسلمين بأن يتجهوا إلى هذا البيت الذي هو أول بيت وضع للناس، والذي ـــ كما قال بعض أهل العلم ـــ هو قبلة جميع الأنبياء، كما ذكره شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ ويحتمل وجهاً آخر في الجمع بين الآيتين: بأن هذه الآية جاءت بصيغة المضارع الدال على الاستمرار؛ وآية المائدة بصيغة الماضي الدال على الانتهاء.

وأضاف الله سبحانه وتعالى النعمة إليه؛ لأنه عزّ وجلّ صاحبها: هو الذي يسديها، ويولِيها على عباده؛ ولولا نعم الله العظيمة ما بقي الناس طرفة عين؛ وانظر إلى قوله تعالى: {إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم} [الفاتحة] ؛ في النعمة قال: {أنعمت عليهم}؛ لأن النعمة من الله وحده، كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله} [النحل: 53] ؛ وأما الغضب على المخالف في دين الله فيكون من الله، ومن أولياء الله من الرسل، وأتباعهم.

وقوله تعالى: { ولعلكم تهتدون }؛ «لعل» هنا للتعليل؛ أي: تكتسبون علماً، وعملاً؛ وهذه هي العلة الثانية؛ العلة الأولى: { لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم }؛ والعلة الثانية: { ولأتم نعمتي عليكم والثالثة: { ولعلكم تهتدون }؛ وسيأتي بيان أنواع الهداية.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآية: تكرير الأمر الهام؛ وذلك لتثبيته، وتَسِرَّ به النفوس، وبيان أهميته.

2ـــ ومنها: وجوب استقبال الكعبة أينما كان الإنسان؛ قال أهل العلم: من أمكنه مشاهدة الكعبة فالواجب إصابة عينها؛ ومن لم تمكنه كفى استقبال جهتها؛ لقوله تعالى: { فاتقوا الله ما استطعتم }؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: {قد نرى تقلب وجهك في السماء} [البقرة: 144] الآية.

3ـــ ومنها: دفع ملامة اللائمين ما أمكن؛ تعالى: { لئلا يكون للناس عليكم حجة }.

4ـــ ومنها: أن الظالم لا يدفع ملامته شيء؛ بمعنى أنه سيلوم وإن لم يكن محل لوم؛ لقوله تعالى: { إلا الذين ظلموا منهم }.

5ـــ ومنها: أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله؛ ولكن حججهم باطلة.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججاً لِيَنْقَضَّ عليهم منها، فيبطلها؛ قال الله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون} [الأنبياء: 18] .

6ـــ ومن فوائد الآية: وجوب تنفيذ شريعة الله عزّ وجلّ، وألا يخشى الإنسان لومة لائم.

7ـــ ومنها: وجوب خشية الله تعالى؛ لأنه هو الذي بيده النفع، والضرر.

8ـــ ومنها: نعمة الله ـــ تبارك وتعالى ـــ على هذه الأمة، وفضله، وإحسانه؛ لقوله تعالى: { ولأتم نعمتي عليكم }.
9ـــ ومنهـا: إثبـات حكمة الله سـبحانه وتعـالى؛ لقوله تعـالى: { ولأتم... ولعلكم تهتدون }.
10ـــ ومنها: أن تنفيذ أوامر الله، وخشـيته سـبب للهدايـة؛ والهداية نوعــان: هداية علميــة؛ وهداية عمليــة؛ ويقــال: هداية الإرشــاد؛ وهداية التوفيق.
فـ«الهداية العلمية» معناها أن الله يفتح على الإنسـان من العلم ما يحتـاج إليه لأمور دينه ودنياه.
و«الهداية العملية» أن يوفق للعمل بهذا العلم.
الأولى: وسيلة، والثانيـة: غايـة؛ ولهـذا لا خـير في علم بـدون عمـل؛ بل إن العلم بـدون عمل يكـون وبـالاً على صـاحبه؛ والهداية هنا شـاملة للعلميـة، والعملية؛ ووجه كونها شـاملة: أنهم لم يعلمـوا أن مرضـاة الله بالتوجه إلى الكعبة إلا بما علمهم اللـه؛ ثم إن الله وفقهم للعمل بـه؛ فلم يمـانعوا أبـداً؛ بل إن أهل قباء أتاهم الخبر وهم يصـلون صـلاة الفجر وكـانوا متجهين إلى بيت المقـــدس، فاســـتداروا إلى الكعبـــة؛ فصـــار الإمـــام نحو الجنـــوب، والمأمومون نحو الشمال؛ هـذه هداية عملية عظيمـة؛ لأن انتقـال الإنسـان إلى ما أمره الله به بهذه السهولة مع توقع المعارضات، والمضايقات يــدل على قـوة إيمـانهم، وثقتهم بـربهم سـبحانه وتعـالى؛ وهكـذا يجب على كل مؤمن إذا جاء أمر الله أن يمتثل الأمـر؛ وسـيجعل الله له من أمـره يسـراً؛ لأن تقوى الله فيها تيسـير الأمـور؛ لقوله تعـالى: { ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً }.
11ـــ ومنها: إثبات الحكمة في أفعال الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { ولعلكم تهتدون }.

القــــــرآن

{)كَمَا أَرْسَــلْنَا فِيكُمْ رَسُــولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُــزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (البقرة:151)

التفسير:

{ 151 } قوله تعالى: { كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم }؛ هذه أيضـاً منّة رابعة وجهت إلى المؤمــنين؛ والثلاث قبلها هي: قوله تعــالى: {لئلا يكــون للناس عليكم حجة} [البقرة: 150] ، وقوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم} [البقرة: 150] ، وقوله تعالى: {ولعلكم تهتدون} [البقرة: 150] ؛ يعني أن نعمة الله عــزّ وجــلّ علينا بالتوجه إلى الكعبة بــدلاً عن بيت المقــدس عظيمــة، كما أن نعمته علينا بالرسـول صـلى الله عليه وسـلم عظيمــة؛ و «الإرسال» بمعنى البعث؛ يعني أنه مرسل من الله سبحانه وتعالى.
قوله تعالى: { يتلو عليكم آياتنا } يعـني: يقـرأ عليكم آياتنـا؛ فيـأتي بها كما سمع.
قوله تعالى: { ويزكيكم } أي ويطهركم، وينمي أخلاقكم، ودينكم.
قوله تعالى: { ويعلمكم الكتاب } أي القرآن؛ وكان العرب أُمــيين لا يقرؤون، ولا يكتبون إلا النادر منهم.

قوله تعـالى: { والحكمة }: هي أسـرار الشـريعة، وحسن التصـرف بوضع كل شيء في موضـعه اللائق به - بعد أن كـانوا في الجاهلية يتصـرفون تصرفاً أهوج من عبادة الأصنام، وقتل الأولاد، والبغي على العباد...

قوله تعـالى: { ويعلمكم ما لم تكونــوا تعلمــون } أي من أمــور الــدين، والدنيا؛ وهذه الجملة لتقرير ما سبق من تعليمهم الكتاب، والحكمة.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآيـة: بيـان نعمة الله تعـالى علينا بإرسـال الرسـول صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: { كما أرسلنا فيكم رسولاً }؛ لأن هذه الآية متعلقة بقوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم} [البقرة: 150] ؛ فإن هذا من تمام النعمة؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليُعبَد بما شـرع؛ ولا يمكن أن نعـرف أن هـذا مما يرضـاه الله أن نتعبـده بـه، وهـذا مما لا يرضاه إلا بواسطة الرسـل؛ ولو أن الإنسـان وكِل إلى عقله في العبـادة ما عرف كيف يعبد الله؛ ولو وكِل إلى عقله في العبادة ما اجتمع النـاس على عبادة الله: لكـان كل واحد يقـول: هـذا هو الصـواب؛ ولو أن الإنسـان وكل إلى عقله في العبادة ما كانت أمتنا أمة واحدة؛ فعلى كل حـال لا يمكن لنا بمجـرد عقولنا أن نـدرك كيف نعبد اللـه؛ ومَثَل يسـير يـبين ذلـك: لو أمرنا بالتطهر للصلاة ـــ ولم يبين لنا الكيفية ـــ لتنـازع النـاس في ذلـك؛ وأخذ كلٌّ برأيه؛ فافترقت الأمة؛ فلولا أن الله أبان لنا كيف نعبــده ما عرفنا كيف نعبده، فهذا من نعمة الله علينا من إرسال هذا الرسول محمداً (صلى الله عليه وسـلم) الـذي بين لنا كل شـيء؛ ولهـذا قـال أبو ذر رضي الله عنـه: «تركنا رسـول الله (صـلى الله عليه وسـلم) وما طـائر يقلب جناحيه في السماء إلا عندنا منه علم»[1]؛ حتى الطيور في السماء علمنا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم.

2ـــ ومن فوائد الآية: أن كون الرسول مِنّا يقتضي أن تكون قـريش أول من يصدق به؛ لأنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون أمانتـه؛ ولهـذا وبخهم الله تعـالى على الكفر بـه، ووصْـفِه بالضـلال، والجنـون، فقـال جل وعلا: {ما ضل صـاحبكم وما غـوى} [النجم: 2] ، وقـال جل وعلا: {وما صاحبكم بمجنون} [التكوير: 22] .

3ـــ ومنها: أن النبي صـلى الله عليه وسـلم بلغ جميع ما أوحي إليه على وجه الكمال؛ لقوله تعالى: { يتلو عليكم آياتنا }؛ فـإن هـذا يـدل على أن جميع الآيات التي أوحاها الله إليه قد تلاها؛ ولهذا القرآن ـــ والحمد للهِ ـــ مبين لفظـه، ومعنـاه؛ ليس فيه شـيء يشـتبه على النـاس إلا اشـتباهاً نسبياً بحيث يشتبه على شخص دون الآخر، أو في حال دون الأخـرى؛ قـال الله تعالى: {إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه} [القيامة: 17 ـــ 19] .

4ـــ ومنها: أن من فوائد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حصول العلم؛ لأن هذه الآيات كلها علم؛ لقوله تعالى: { يتلو عليكم آياتنا }.

5ـــ ومنها: أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فهو من آيــات الله الدالة على كمال ربوبيته، وسلطانه، ورحمته، وحكمته سـواء كـان من

---

[1] أخرجه أحمد 5/162: حديث 21770، وأخرجه ابن حبان 1/142 باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها، حديث رقم 65، وأخرجه الطبراني فيالمعجم الكبير 2/166 رقم 1647؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد 8/267، (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)، (تخريج صحيح ابن حبان: 1/267، حديث 65 حاشية (1))، وقال: إسناده صحيح.

الآيـات الكونيـة، أو الشـرعية؛ لكن منها ما هو بيِّن ظـاهر؛ ومنها ما يخفى على كثير من الناس إلا الراسخين في العلم؛ ومنها ما هو بيْن ذلك.

6ـــ ومنها: أن الشريعة التي جـاء بها النـبي صـلى الله عليه وسـلم كلها تزكية للأمة، وتنمية لأخلاقها، ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة؛ ولهـذا كـان من القواعد المقـررة في الشـريعة أنها تـأتي بالمصـالح الخالصـة، أو الراجحة، وتنهى عن المفاسد الخالصـة، أو الراجحـة؛ فـالخمر فيه مصـالح، ومفاسـد؛ لكن مفاسـده راجحـة؛ ولهـذا حـرم؛ الحجر على السـفيه فيه مصالح، وفيه مفاسـد؛ لكن مصـالحه راجحـة؛ فلـذلك قـدمت المصـالح؛ أو مصـالح خالصة ـــ فليس فيها مفاسـد، كعبـادة الله مثلاً؛ هـذه قاعـدة الشريعة؛ ولهذا قال تعالى: { ويزكيكم }.

7ـــ ومن فوائد الآية: أن كل ما فيه تزكية للنفوس فإن الشريعة قد جاءت به؛ لقوله تعالى: { ويزكيكم

8ـــ ومنها: أن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومهمته الـتي جاء بها أنه يعلمنا الكتاب والحكمة.

9ـــ ومنهـا: الـرد على أهل التأويـل، وأهل التجهيـل؛ لقوله تعـالى: { يعلمكم الكتاب } ـــ أهل التأويل الذين يؤولون آيـات الصـفات ـــ لأنه لو كان هذا التأويل من العلم لعلمنا إياه النبي صلى الله عليه وسـلم؛ فلما لم يعلمنا إيـاه علمنا أنه ليس من العلم الـذي جـاء به الرسـول صـلى الله عليه وسـلم؛ وأهل التجهيل ـــ وهم طائفة يقولـون: «إن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، وأصـحابه، والأمة كلها لا تعلم معـاني آيـات الصـفات، وأحاديثها؛ فلا يدرون ما معناهـا؛ حـتى النـبي صـلى الله عليه وسـلم يتكلم بالحديث من صفات الله ولا يدري معناها»!!!

10ـــ ومن فوائد الآية: أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم الأمة لفظ القرآن، ومعناه؛ ولهذا إذا استشكل الصحابة شيئاً من المعنى سألوه، فعلمهم؛ ولكن الغالب أنهم لا يستشكلون؛ لأنه نزل بلغتهم، وفي عصرهم، يعرفون معناه، ومغزاه، وأسبابه.

11ـــ ومنهـا: اشـتمال الشـريعة على الحكمـة؛ لقوله تعـالى: { ويعلمكم الكتاب والحكمة }؛ فالشـريعة متضـمنة للحكمة تضـمناً كـاملاً؛ فما من شيء من مأموراتهـا، ولا منهياتهـا، إلا وهو مشـتمل على الحكمـة؛ لكن هنا حكمة لازمة لكل حكم؛ وهو طاعة الله ورسوله؛ فـإن هـذه أعظم حكمـة؛ وهي ثابتة فيما نعقل حكمتـه، وفيما لا نعقلهـا؛ ولهـذا لما قـالت المرأة لعائشة رضي الله عنها: «ما بال الحـائض تقضي الصـوم ولا تقضي الصـلاة؟ قـالت: كـان يصـيبنا ذلك فنـؤمر بقضـاء الصـوم ولا نـؤمر بقضـاء الصلاة»[1]؛ فبينت الحكمة من ذلك؛ وهو طاعة الله، ورسوله؛ وهذه حكمة لازمة في كل حكم سواء عقل معناه، أو لم يُعقَل.

12ـــ ومن فوائد الآية: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعـالى: { ويعلمكم ما لم تكونـوا تعلمـون }؛ وهو مما يـدل على نقص الإنسـان، حيث كـان الأصل فيه الجهـل؛ قـال تعـالى: {والله أخـرجكم من بطـون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً} [النحل: 78] ؛ ثم قـال عـزّ وجـلّ: {وجعل لكم

---

[1] أخرجه البخاري ص27، كتاب الحيض، باب 20: لا تقضي الحائض الصلاة، حديث رقم 321، وأخرجه مسلم ص733، كتاب الحيض، باب 15: وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث رقم 763 [69] 335.

السمع والأبصار والأفئدة} [النحل: 78] ؛ فبين طرق العلم: {السمع والبصر}؛ وبهما الإدراك؛ و {الأفئدة} ؛ وبها الوعي، والحفظ.
13 ــــ ومنها: فضل الله عزّ وجلّ، حيث علمنا ما لم نكن نعلم؛ لقوله تعالى: { ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون }؛ وهذا عام في كل ما نحتاج إلى العلم به من أمور الدنيا، والآخرة.
إذا قال قائل: «اضربوا لنا مثلاً» فماذا نقول؟
فالجواب: أن كل الشريعة مثال؛ فإننا لا نعرف كيف نصلي إلا بتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولا كيف نتوضأ، ولا مقدار الواجب في الأموال من الزكاة، ولا مَن تُصرف إليهم الزكاة، ولا غير ذلك من أمور الشريعة إلا بتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهناك أحكام قدرية لا نعرفها أيضاً علمنا الله سبحانه وتعالى إياها، كابتداء الكون، ونهايته: كخلق السموات، والأرض؛ واليوم الآخر؛ إذاً فعلومنا الشرعية، والقدرية متلقاة من الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وليس لنا علم بها قبل تعليم النبي صلى الله عليه وسلم.

القــــرآن

{)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ) (البقرة:152)

التفسير:

{ 152 } قوله تعالى: { فاذكروني أذكركم }؛ «اذكروني» فعل أمر؛ فيه نون الوقاية؛ والياء مفعول به؛ والواو فاعل؛ وجواب فعل الأمر: { أذكركم }.
فقوله تعالى: { فاذكروني أذكركم } عمل، وجزاء؛ العمل: ما أفاده قوله تعالى: { اذكروني }؛ والجزاء: ما أفاده قوله تعالى: { أذكركم }؛ وذِكر الله يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.
وقوله تعالى: { فاذكروني } فيها قراءة بفتح الياء؛ وقراءة بإسكانها؛ لأن ياء المتكلم من حيث اللغة العربية يجوز إسكانها، وفتحها، وحذفها تخفيفاً؛ لكنها في القرآن تتوقف على السماع.
قوله تعالى: { واشكروا لي }؛ { اشكروا } فعل أمر من «شكر»؛ أي قوموا بالشكر؛ واللام للاختصاص؛ و «الشكر» هو القيام بطاعة المنعم؛ وقد اختلف علماء العربية هل: { واشكروا لي } بمعنى «اشكروني»؛ أي أن الفعل يتعدى بنفسه تارة، وباللام أخرى؛ أو أن بينهما فرقاً؟ فقال بعضهم: هي بمعناها، فيقال: شكره؛ ويقال: شكر له؛ وقال بعضهم: إنها ليست بمعناها؛ وأن «شكر» تتعدى بنفسها دائماً، وأن المفعول هنا في نحو { واشكروا لي } محذوف؛ يعني: اشكروا لي ما أنعمت عليكم، أو نعمتي، أو ما أشبه ذلك؛ والخلاف في هذا قريب؛ لأن الجميع متفقون على أن المراد شكر الله عزّ وجلّ على نعمته.
قوله تعالى: { ولا تكفرون }؛ { لا } ناهية؛ والنون هنا نون الوقاية، وليست نون الإعراب؛ ومثله قوله تعالى: {فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون} [الذاريات: 59] ؛ ولهذا كانت مكسورة فيهما؛ و{ لا تكفرون } أي لا تجحدوني، أو تجحدوا نعمتي؛ بل قوموا بشكرها، وإعلانها، وإظهارها.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآية: وجوب ذكر الله؛ للأمر به؛ مطلق الذكر واجب: يجب على كل إنسان أن يذكر ربه؛ بل كل مجلس يجلسه الإنسان ولا يذكر الله فيه، ولا يصلي على النبي إلا كان عليه تـرة ـــــ أي خسـارة، وحسـرة يوم القيامة؛ فالعبد مأمور بذكر اللـه؛ لكن ذكر الله ينقسم إلى فريضة من فرائض الإسلام؛ وإلى واجب من واجباته؛ وإلى سنة من سـننه ـــــ بحسب ما تقتضيه الأدلة؛ إنما مطلق الذكر حكمه أن واجب.

2ــــ ومنها: أن مَنْ ذَكر الله ذكره الله؛ لقوله تعـالى: { أذكـركم }؛ وكـون الله يـذكرك أعظم من كونك تـذكره؛ ولهـذا قـال الله تعـالى في الحديث القدسي: «من ذكـرني في نفسه ذكرته في نفسـي؛ ومن ذكـرني في ملأ ذكرته في ملأ خـير منـه»[1]؛ وذكر الله يكـون بـالقلب، وباللسـان، وبالجوارح؛ فالأصل ذكر القلب كما قال (ص): «ألا وإن في الجسد مضـغة إذا صـلحت صـلح الجسد كلـه؛ وإذا فسـدت فسد الجسد كلـه؛ ألا وهي القلب»[2] فالمـــدار على ذكر القلب؛ لقوله تعـــالى: { ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه} [الكهف: 28؛ وذكر الله باللسان، أو بـالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جـداً، كجسد بلا روح؛ وصـفة الـذكر بـالقلب التفكر في آيات الله، ومحبته، وتعظيمه، والإنابة إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك من أعمـال القلـوب؛ وأما ذكر الله باللسـان فهو النطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: «لا إله إلا الله»؛ وأما ذكر الله بـالجوارح فبكل فعل يقرب إلى الله: القيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكـون طائعـاً للـه؛ وحينئـذٍ تكـون ذاكراً لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: {وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكر ولـذكر الله أكـبر} [العنكبـوت: 45] ؛ قـال بعض العلماء: أي لما تضمنته من ذكر الله أكبر؛ وهذا أحد القولين في هذه الآية.

3ــــ ومن فوائد الآية: فضـيلة الـذكر؛ لأن به يحصل ذكر الله للعبـد؛ وذكر الله للعبد أمر له شأن كبير عظيم؛ فليس الشـأن بـأن تـذكر اللـه، أو أن تحب الله؛ ولكن الشـأن أن يـذكرك الله عـزّ وجـلّ، وأن يحبك الله عـزّ وجلّ؛ ولهـذا قـال الله تعـالى: {قل إن كنتم تحبـون الله فـاتبعوني يحببكم الله} [آل عمران: 31] ؛ فقال تعالى: {يحببكم الله} لأن هـذا هو الغاية المطلوبة.

4ــــ ومنهـا: وجــوب الشــكر؛ لقوله تعــالى: { واشــكروا لي }؛ و«الشكر» يكون بـالقلب، وباللسـان، وبـالجوارح؛ ولا يكـون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب «الحمد»؛ ومتعلَّقه أعم من متعلق «الحمد»؛ فيختلفــان إذاً من حيث الســبب؛ ويختلفــان من حيث المتعلــق؛ ســبب «الحمد» كمال المحمود، وإنعام المحمود؛ فإذا كان سـببه إنعـام المحمـود كــان «الحمــد» من «الشــكر»؛ أما «الشــكر» فســببه واحــد؛ وهو نعمة المشــكور؛ وأما متعلق «الحمــد» فيكــون باللســان فقــط؛ وأما متعلق «الشكر» فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر:

---

(1) أخرجه البخاري ص616، كتاب التوحيد، باب 15: قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، حديث رقم 7405، وأخرجه مسلم ص1144، كتاب الذكر والدعوات...، باب 1: الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم 6805 [2] 2675.

(2) سبق تخريجه 2/25.

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا فـ«يـدي» هذا الشكر بالجوارح؛ و«لساني» هـذا الشـكر باللسـان ـــ يعـني القـول؛ و«الضمير المحجبا» يعني القلب.

والشكر بالقلب أن يعتقد الإنسان بقلبه أن هـذه النعمة من الله عـزّ وجــلّ وحــده؛ فيحب الله سـبحانه وتعـالى لهـذا الإنعـام؛ ولهـذا ورد في الحديث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمـه»[3]؛ فـإن الإنسـان إذا شـعر بـأن هـذه النعمة من الله أحب الله سـبحانه وتعـالى؛ لأن النفـوس مجبولة على محبة من يحسن إليها.

وأما الشـكر باللسـان فـأن يتحـدث الإنسـان بنعمه لا افتخـاراً؛ بل شكراً؛ قال الله تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث} [الضحى: 11]؛ وقـال رسول الله (ص): «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[1].

وأما الشكر بالجوارح فأن يقوم الإنسان بطاعة اللـه، ويصـرف هـذه النعمة لما جعلت له؛ فإن هذا من شكر النعمة.

5ـــ ومن فوائد الآيــة: وجــوب ملاحظة الإخلاص؛ لقوله تعــالى: { واشكروا لي } يعني مخلصين لله عزّ وجلّ؛ لأن الشكر طاعـة؛ والطاعة لا بد فيها من الإخلاص، كما قال تعالى: {فمن كان يرجو لقــاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً} [الكهف: 110] .

6ـــ ومنها: تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: { ولا تكفرون } ولهـذا إذا أنعم الله على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر نعمته عليـه؛ فـإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه:

أولاً: على سلوكه هو بنفسه بحيث يكون معروفاً بعلمه، وعمله به.

ثانياً: بنشر علمه ما اســتطاع، ســواء كــان ذلك على وجه العمــوم، أو الخصوص.

ثالثــاً: أن يــدعو إلى الله على بصــيرة بحيث إنه في كل مجــال يمكنه أن يتكلم في الـدعوة إلى الله بقـدر ما يسـتطيع حـتى في المجـالس الخاصة فيما إذا دعي إلى وليمة مثلاً، ورأى من المصلحة أن يتكلم فليتكلم؛ وبعض أهل العلم يكـون معه كتـاب، فيقـرأ الكتـاب على الحاضـرين، فيسـتفيد، ويفيـد؛ وهـذا طيب إذا علم من النـاس قبـول هـذا الشـيء بـأن يكـون قد عـوَّدهم على هـذا، فصـاروا يرقبونه منـه؛ أما إذا لم يعـوِّدهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده ـــ سؤالاً مثلاً ـــ حتى ينفتح المجال للناس، ويسـألون، وينتفعـون؛ لأن بعض طلبة العلم تـذهب مجالسـهم كمجـالس العامة لا ينتفع النـاس بهـا؛ وهـذا لا شك أنه حرمان ـــ وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يـأتوا بما يـوجب الإثم؛ فالـذي ينبغي لطالب العلم ـــ حتى وإن لم يُسأل ـــ أن يـورد هو سـؤالاً لأجل أن يفتح البـاب للحاضـرين، فيسـألوا؛ وقد جـاء جبريل إلى النـبي صـلى الله عليه وسلم يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتهـا؛ وقـال النبي صلى الله عليه وسلم: «هذا جبريل أتـاكم يعلمكم دينكم»[2]؛ مع أن

---

[3] أخرجه الترمذي ص2041، كتاب المناقب، باب 31، في مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 3789، وأخرجه الحاكم في مستدركه 3/150، كتاب الهجرة، ومن مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وقال الذهبي: "صحيح" (المرجع السابق).

[1] سبق تخريجه 1/118.

[2] سبق تخريجه 1/201.

الذي يجيب الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولكن جعله معلماً وهو يسـأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم.

القـــــــرآن

{)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الصَّـابِرِينَ) (البقرة:153)

التفسير:

{ 153 } قوله تعالى: { يا أيها الـذين آمنـوا }؛ سـبق أن الكلام إذا صـدَّر بالنداء فهو دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب التفات المخـاطب إلى مناديه؛ وسبق بيان فوائد تصدير الخطاب بوصف الإيمان[3].

قوله تعالى: { استعينوا بالصـبر والصـلاة } أي اجعلـوا الصـبر عونـاً لكم؛ وكذلك استعينوا بالصلاة؛ وسبق الكلام على نظير هذه الجملة[4].

قوله تعـالى: { إن الله مع الصـابرين }: هـذه بشـرى عظيمة لمن صـبر؛ وقال تعالى: { مع الصابرين } لوجوه **ثلاثة**:

الوجه الأول: أن الصلاة من الصبر؛ لأنها صبر على طاعة الله.

الوجه الثاني: أن الاستعانة بالصبر أشق من الصلاة؛ لأن الصبر مُرّ:
الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل فهو مرٌّ يكابـده الإنسان، ويعاني، ويصابر، ويتغير دمه حتى من يراه يقول: هذا مريض.

الوجه الثـالث: أنه إذا كـان مع الصـابرين فهو مع المصـلين من بـاب أولى بدليل أنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان المصلي ينـاجي ربه، وأن الله قِبل وجهه[1] - وهو على عرشه سبحانه وتعالى.

الفوائد:

1ــــ من فوائد الآيـة: فضـيلة الإيمـان، وأنه من أشـرف أوصـاف الإنسان؛ لقوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا... }.

2ــــ ومنها: الإرشاد إلى الاستعانة بالصلاة؛ لقوله تعالى: { استعينوا بالصبر والصلاة }.

3ــــ ومنها: بيان الآثار الحميدة للصـلاة، وأن من آثارها الحميـدة أنها تعين العبد في أموره.

4ــــ ومنها: جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيـه؛ لقوله تعالى: { واستعينوا بالصبر والصلاة وجـاء في الحـديث: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة»[2].

5ــــ ومنهـا: أن الاسـتعانة بالصـلاة من مقتضـيات الإيمـان؛ لقوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا استعينوا... } إلخ.

6ــــ ومنها: فضيلة الصبر؛ لأنه يعين على الأمور؛ والصـبر ثقيل جـداً على النفس؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق، أو بلاء ثقل عليه تحمله، فاحتـاج إلى الصبر؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي (ص): { تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصـبر إن العاقبة للمتقين

---

[3] 1/337.
[4] 1/160.
[1] راجع البخاري ص35، كتاب الصلاة، باب 33: حك البزاق باليد من المسجد، حديث رقم406، وراجع صحيح مسلم ص763، كتاب المساجد، باب 13: النهي عن البصاق في المسجد...، حديث رقم 1223] 50[547.
[2] سبق تخريجه 1/14.

} [هود: 49] ؛ فقال تعالى: { فاصبر } إشارة إلى أن هذا الـوحي الـذي نزل على الرسـول صـلى الله عليه وسـلم يحتـاج إلى صـبر، وتحمـل؛ لأنه سيجد من ينازع، ويضاد؛ ونظيره قوله تعالى: { إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً * فاصـبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثمـاً أو كفـوراً } [الإنسـان: 23، 24] ؛ إذاً الصبر شاق على النفـوس؛ لكن يجب على الإنسـان أن يصـبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثـير؛ والـذي يصـبر أيضـاً غالبـاً ينتظر الفرج لا سيما إذا صبر بإخلاص، وحسن نية؛ وانتظـار الفـرج عبـادة، وبـاب للفرج؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «واعلم أن النصر مع الصـبر؛ وأن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً»[3]؛ لأنه إذا كان منتظراً للفرج هــان عليه الصــبر؛ لأنه يؤمل أن الأمــور ســتزول، وأن دوام الحــال من المحال؛ فـإذا كـان يؤمل الأجر في الآخـرة، ويؤمل الفـرج في الـدنيا هـان عليه الصبر كثيراً؛ وهذه لا شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمـور تسـهل بالصـبر؛ مهما بلغتك الأمـور اصـبر، فتهـون؛ ولهذا جعل الله الصبر عوناً.

7 ــــ ومن فوائد الآية: أن في الصبر تنشيطاً على الأعمال، والثبــات عليها؛ لقوله تعالى: { إن الله مع الصابرين }؛ فإذا آمن الإنســان بــأن الله معه ازداد نشاطاً، وثباتاً؛ وكون الله سبحانه وتعالى مع الإنسان مسدداً له، ومؤيداً له، ومصبِّراً له، لا شك أن هــذه درجة عالية كل يريــدها؛ ولهــذا لما جاء النـبي صـلى الله عليه وسـلم إلى قـوم يتناضـلون قـال: «ارمـوا بـني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع بني فلان؛ قـال الآخـرون: يا رسـول الله، إذا كنت معهم فلا نناضل؛ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم»[4].

8 ــــ ومن فوائد الآية: إثبات معية الله سبحانه وتعالى؛ ومعيته تعالى نوعان:

النــوع الأول: عامة لجميع الخلــق، ومقتضــاها الإحاطة بهم علمــاً، وقــدرة، وسلطاناً، وسمعاً، وبصراً، وغير ذلك من معاني ربوبيتـه؛ لقوله تعـالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا} [المجادلة: 7] .

والنوع الثاني: خاصة؛ ومقتضاها مع الإحاطة: النصر، والتأييد؛ وهي نوعـان: مقيـــدة بوصف ، كقوله تعـــالى: {إن الله مع الـــذين اتقـــوا والـــذين هم محسـنون} [النحـل: 128] ؛ و مقيـدة بشـخص ، كقوله تعـالى لموسـى، وهارون: {إنـني معكما أسـمع وأرى} [طـه: 46] ، وقوله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {إذ يقول لصـاحبه لا تحـزن إن الله معنـا} [التوبـة: 40] .

القــــــرآن

{)وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ((البقرة:154)

التفسير:

{ 154 } قوله تعالى: { ولا تقولوا }؛ { لا } ناهية؛ ولهذا جزمت الفعـل؛ وعلامة جزمه حذف النون.

---

(3) سبق تخريجه 1/343.

(4) أخرجه البخاري ص233، كتاب الجهاد، باب 78: التحريض على الرمي...، حديث رقم 2899.

قوله تعالى: { لمن يقتل في سبيل الله } أي فيمن يقتل في سـبيل اللـه؛ وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.
قوله تعالى: { أموات } خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم أموات.
فإن قال قائل: كيف لا نقول أموات وقد ماتوا؟
فالجواب: أن المراد هنا: لا تقولوا: أموات موتاً مطلقاً - دون الموت الذي هو مفارقة الـروح للجسـد؛ فهـذا موجـود؛ ولـولا أن أرواحهم فـارقت أجسـادهم لما دفنـاهم، ولكـانوا بـاقين يـأكلون، ويشـربون؛ ولكن المـوت المطلق لم يقع منهم بدليل الإضراب الإبطالي في قوله تعالى: { بل أحياء } يعني: بل هم أحياء؛ فـ{ أحياء } خبر لمبتدأ محذوف؛ وهي جمع «حي»؛ والمراد: أحياء عند ربهم، كما في أية آل عمران؛ وهي حياة برزخية لا نعلم كيفيتها؛ ولا تحتاج إلى أكل، وشرب، وهـواء، يقـوم به الجسـد؛ ولهـذا قـال تعـالى: { ولكن لا تشـعرون } أي لا تشـعرون بحيـاتهم؛ لأنها حيـاة برزخية غيبية؛ ولولا أن الله عزّ وجلّ أخبرنا بها ما كنا نعلم بها.

الفوائد:

1- من فوائد الآية: النهي عن القول بأن الذين قتلـوا في سـبيل الله أموات؛ وهو يشمل القول بالقلب - وهو الاعتقـاد، والقـول باللسـان - وهو النطق.

2- ومنهـــا: التنبيه على الإخلاص في القتـــال؛ لقوله تعـــالى: { في سـبيل الله }؛ وقد سـئل النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ريـاءً أيّ ذلك في سـبيل اللـه؟ فقـال (ص): «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1]؛ وهذه مسألة مهمـة؛ لأن كثـيراً من النـاس قد يقصد أن هـذا جهـاد، فيخـرج؛ لأنه جهـاد وقتـال لأعـداء اللـه؛ لكن كونه يشـعر بـأن هـذا في سـبيل الله - أي في الطريق الموصل إلى الله أبلغ.

3- ومن فوائد الآية: إثبات حياة الشهداء؛ لكنها حياة برزخية لا تماثل حياة الدنيا؛ بل هي أجلّ، وأعظم، ولا تعلم كيفيتها.

4- ومنها: أن ثواب الله سبحانه وتعالى للعامل أجلُّ، وأعلى؛ وذلـك؛ لأن الشهيد عرض نفسه للموت ابتغاء ثـواب اللـه؛ فأثابه اللـه، حيث جعله حياً بعد موته حياة برزخية أكمل من حياة الـدنيا؛ لقوله تعـالى: {عند ربهم يرزقون} [آل عمران: 169] .

5- ومنها: إثبات الحيـاة البرزخيـة؛ لقوله تعـالى: { بل أحيـاء }؛ وقد ثبت عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه إذا دفن الإنسـان رد الله عليه روحه، وجاءه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه[2].

6ـــ ومنها: إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: { بل إحياء }.

7ـــ ومنها: أن أحـوال الـبرزخ، وعـالم الغيب غـير معلومة لنـا، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله.

---

(1) أخرجه البخاري ص251 – 252، كتاب فرض الخمس، باب 10: من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره، حديث رقم 3126، وأخرجه مسلم ص1018، كتاب الإمارة، باب 42: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم 4920 [150] 1904، واللفظ لمسلم.

(2) راجع مسند الإمام أحمد 4/295 – 296، حديث رقم 18815، وأبو داود ص1572، كتاب السنة، باب 23: المسألة في القبر وعذاب القبر، حديث رقم 4753، والترمذي مختصراً ص1968، كتاب تفسير القرآن، باب 14: ومن سورة إبراهيم، حديث رقم 3120، وقال الألباني في صحيح أبي داود 3/165 – 166، "صحيح". أهـ. وأصله في البخاري ومسلم.

القـــرآن

{)وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَـرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة:155)

التفسير:

{ 155 } قوله تعالى: { ولنبلونكم بشيء من الخـوف والجـوع... } هـذه مصائب خمس؛ والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والتقـدير: واللّهِ لنبلـونكم؛ والفعل هنا مع نـون التوكيد مبـني على الفتح؛ و «نبلو» بمعنى نختبر.

وقوله تعـالى: { بشـيء }: التنكـير هنا للتقليـل؛ ويحتمل أن يكـون للتكثير.

وقوله تعــالى: { من الخــوف } أي الــذُّعْر؛ وهو شــامل للخــوف العــام، والخوف الخاص؛ الخوف العـام: كـأن تكـون البلاد مهـددة بعـدو؛ والخـوف الخاص: كأن يكون الإنسان يبتلى بنفسه بمن يخيفه ويروعه.

وقوله تعالى: { والجـوع }: هو خلو البطن من الطعـام مع شـدة اشـتهائه؛ وهو ضد «الشِّــبع»؛ وله أســباب؛ الســبب الأول: قلة الطعــام؛ و الســبب الثـاني: قلة المـال الـذي يحصل به الطعـام؛ والسـبب الثـالث: أن يصـاب الإنســـان بمـــرض يمنعه من الطعـــام إما لقلة الشـــهية؛ وإما للعجز عن استساغه لسدَدٍ في الحلق، أو قروح في المعـدة، أو غـير ذلـك؛ والجـوع لا يدرك أثره إلا من جربه؛ بل كل المصائب لا يـدرك أثرها إلا من جربهـا؛ أما من لم يجـرب فإنه لا يشـعر بآثـار المصـائب؛ ولهـذا قيـل: وبضـدها تتـبين الأشياء.

قوله تعالى: { ونقص من الأموال }؛ { الأموال } جمع «مال»؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من نقود، ومتاع، وحيوان.

قوله تعــــالى: { والأنفس } جمع «نفس»؛ والمــــراد: الأرواح، كالأمراض الفتاكة التي تهلك بها أمم، مثل الطاعون، وغيره.

قوله تعالى: { والثمـرات } جمع «ثمـرة»؛ وهي ما ينتج من أشـجار النخيل، والأعنـاب، وغيرهمـا، بـأن تـأتي كـوارث تنقص بها هـذه الثمـار، أو تتلف.

قوله تعـالى: { وبشر الصـابرين } أي أخـبرهم بما يسـرهم؛ وسـبق معنى الصبر، وأقسامه[1].

{ 156 } قوله تعــالى: { الــذين إذا أصــابتهم مصــيبة }، أي من هــذه المصائب التي ذكرها في الآية الأولى.

قوله تعــالى: { قــالوا } أي بقلــوبهم، وألســنتهم { إنا لله }: اللام للملك؛ يعني إنا ملك لله يفعل بنا ما يشاء.

قوله تعــالى: { وإنا إليه راجعــون } أي صــائرون في جميع أمورنا دنيــا، وأخــرى؛ فــنرجو الــذي أصــابنا بهــذه المصــيبة عند رجوعنا إليه أن يجزينا بأفضل منها؛ فهم جمعوا هنا بين الإقـرار بالربوبية في قـولهم: { إنا للـه }، وبين الإقرار، والإيمان بالجزاء الذي يستلزم العمل الصالح؛ لأنهم يقولــون: { وإنا إليه راجعون }؛ فنحن نرجو ثوابه مع أنه فعل بنا ما هو ملكه، وبيده؛ وتقـديم المتعلق يفيد الحصرَ ـــ أي راجعـون إليه لا إلى غـيره، ومناسـبةَ رؤوس الآي.

---

[1] 1/161.

الفوائد:

1ـــ من فوائد الآيــتين: ابتلاء العبــاد بما ذكر الله من الخـــوف، والجــوع، ونقص الأمــوال، والأنفس، والثمــرات، وهو لمن وقع به ظـاهر؛ ولغيرهم يكـون الابتلاء بالاعتبـار، والخـوف أن يقع بهم مثل ما وقع بالـذين ابتلوا.

2ـــ ومنها: أن الناس ينقسمون عند المصائب إلى قسـمين: صـابر، وسـاخط؛ وقد جـاء في الحـديث: «من رضي فله الرضـا؛ ومن سـخط فله السخط»[2]؛ فالصبر على المصـائب واجب؛ وقد ذكر العلمـاء أن للإنسـان عند المصيبة أربعة مقامات:

المقام الأول: الصبر ـــ وهو واجب.

المقـام الثـاني: الرضا ـــ وهو سـنة على القـول الـراجح؛ والفـرق بينـه، والصبر، أن الصابر يتجرع مرارة الصبر، ويشق عليه ما وقــع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي: فإن المصيبة بـاردة على قلبه لم يتجـرع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالاً من الصابر.

المقام الثالث: الشكر: بأن يشكر الله على المصيبة.

فإن قيل: كيف يشكره على المصيبة؟

فالجواب: أن ذلك من وجوه:

منها: أن ينسبها إلى ما هو أعظم منهـا؛ فينسب مصـيبة الـدنيا إلى مصـيبة الدين؛ فتكون أهون؛ فيشكر الله أن لم يجعل المصيبة في الأشد.

ومنهـا: احتسـاب الأجر على المصـيبة بأنه كلما عظم المصـاب كـثر الثواب؛ ولهـذا ذكـروا عن بعض العابـدات أنها أصـيبت بمصـيبة، ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

المقام الرابع: السخط - وهو محرم - بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من ضرب الخـدود، وشق الجيـوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[1].

3- ومن فوائد الآيتين: البشرى للصابرين.

4- ومنها: أن من سمة الصابرين تفـويض أمـرهم إلى الله بقلـوبهم، وألسنتهم إذا أصابتهم المصائب؛ لقوله تعـالى: { وبشر الصـابرين * الـذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون }.

5- ومنها: مشروعية هذا القـول؛ وقد جـاءت السـنة بزيـادة: «اللهم أْجُرني في مصيبتي» - أي أثبـني عليها - «وأخلف لي» بقطع الهمـزة - أي اجعل لي خلفاً «خيراً منها»[2] والدليل على هذا قصة أم سـلمة رضي الله عنهـا: كـانت تحب زوجها ابن عمها أبا سـلمة محبة شـديدة؛ ولما مـات - وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حدثها بهـذا الحـديث - قـالت: «اللهم أجــرني في مصـيبتي وأخلف لي خـيراً منهـا»؛ فكـانت تفكر في نفسـها،

---

(2) أخرجه الترمذي ص1892، كتاب الزهد، باب 56: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم 2396، وأخرجه ابن ماجة ص2719، كتاب الفتن، باب 23: الصبر على البلاء، حديث رقم 4031، وفي الحديث سعد بن سنان مختلف فيه، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: "سنده حسن" 1/299، حديث رقم 146.

(1) أخرجه البخاري ص101، كتاب الجنائز، باب 38: ليس منا من ضرب الخدود، حديث رقم 1297؛ وأخرجه مسلم ص695، كتاب الإيما، باب 44: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب...، حديث رقم 285 [165] 103.

(2) أخرجه مسلم ص822، كتاب الجنائز، باب 2: ما يقال عند المصيبة، حديث رقم 2126 [3] 918.

وتقول: من يصير خيراً من أبي سلمة!!!وهي مؤمنة في نفسها أن ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم حق؛ لكن لا تدري من هو؛ وما كـان يجـول في فكرها أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون هو الخلـف؛ فـأخلف الله لها خـيراً من زوجهـا؛ فـإذا قالها الإنسـان مؤمنـاً محتسـباً أجـرَه الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها.

القـــــــرآن

)أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَـدُونَ) (البقـرة: 157)

التفسير:

{ 157 } قوله تعــالى: { أولئك عليهم صـــلوات من ربهم ورحمة }؛ الإشارة إلى {الذين إذا أصـابتهم مصـيبة قـالوا إنا للـه...} [البقـرة: 156] إلخ؛ وجـاءت بلفظ الإشـارة للبعيد للدلالة على علو مـرتبتهم، ومـنزلتهم، ومقامهم؛ و{ عليهم } خبر مقدم؛ و{ صلوات } مبتدأ مـؤخر؛ ولكنه مبتـدأ ثانٍ؛ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول: { أولئك }.

وقوله تعالى: { صلوات } اختلف العلمـاء في معناهـا؛ ولكن أصح الأقـوال فيها أن المــراد بها الثنــاء عليهم في الملأ الأعلى؛ والمعـنى أن الله يثـني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعاً لذكرهم، وإعلاءً لشأنهم.

وقوله تعالى: { ورحمة } عطفها على { الصلوات } من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة.

قوله تعـالى: { وأولئك هم المهتـدون }، «أولاء» اسم إشـارة تعـود إلى {الذين إذا أصـابتهم مصـيبة قـالوا إنا لله وإنا إليه راجعـون} [البقـرة: 156] ؛ وهي مفيدة للحصر؛ وطريقه: ضمير الفصل؛ و{ المهتـدون } أي الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الـذي يقولونه مع الصبر هو الهداية.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: بيان حكمة الله عزّ وجلّ فيما يبتلي به العباد.

2 ــــ ومنهــا: عظم ثــواب الصــبر؛ لقوله تعــالى: { أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة }.

3 ــــ ومنها: إثبات رحمة الله عزّ وجلّ؛ وهي صفة حقيقية ثابتة لله؛ بها يـرحم من يشـاء من عبـاده؛ ومن آثارها حصـول النعم، وانـدفاع النقم.

4 ــــ ومنها: الثناء على الصابرين بأنهم هم المهتـدون الـذين اهتـدوا إلى ما فيه رضا الله وثوابه.

القـــــــرآن

{)إِنَّ الصَّفَا وَالْمَـرْوَةَ مِنْ شَـعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَـرَ فَلا جُنَـاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) (البقرة:158)

التفسير:

{ 158 } قوله تعـالى: { إن الصـفا والمـروة }: جبلان معروفـان؛ يقـال للصـفا: جبل أبي قـبيس؛ وللمـروة: قُعَيقعـان؛ وهما شـرقي الكعبـة؛ وقد كانت أم إسماعيل رضي الله عنها تصعد عليهما لتتحسس هل حولها أحـد؛ وذلك بعد أن نفد منها التمـر، والمـاء، وتقلص لبنهـا، وجـاع ابنهـا؛ والقصة مطولة في صحيح البخاري.

قوله تعالى: { من شعائر الله }، { من } للتبعيض ـــ يعـني بعض شـعائر الله؛ و «الشعائر» جمع شعيرة؛ وهي التي تكـون عَلَمـاً في الـدين؛ يعـني: من معـالم الـدين الظـاهرة؛ لأن العبـادات منها خفيـة: بَيْنَ الإنسـان وربـه؛ ومنها أشياء عَلَم ظاهر بيِّن ـــ وهي الشعائر.

وقوله تعـالى: { من شـعائر الله } ليس المـراد أن نفس الجبل من الشعائر؛ بل المراد الطواف بهما من الشـعائر؛ ولهـذا قـال تعـالى: { فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما }؛ وأضيفت الـ{ شعائر} إلى { الله }؛ لأنه هو الذي شرعها، وأثبتها، وجعلها طريقاً موصلاً إليه.

قوله تعالى: { فمن حج البيت }؛ «حج» في اللغة بمعـنى قصـد؛ إذاً { حج البيت } أي قصده لأداء مناسك الحج؛ و{ البيت } هو بيت الله؛ أي الكعبة.

قوله تعـالى: { أو اعتمر }؛ { أو } للتنويـع؛ لأن قاصد الـبيت إما أن يكون حاجاً؛ وإما أن يكون معتمراً؛ و«العمرة» في اللغة: الزيارة؛ والمــراد بها زيارة البيت لأداء مناسك العمرة.

قوله تعـالى: { فلا جنـاح عليه }: «لا» نافية للجنس؛ و{ جنـاح } اسـمها؛ وخبرها { أنْ } وما دخلت عليــه؛ أي لا جنــاح عليه في التطـــوف بهمــا؛ والـ{ جناح } هو الإثم؛ يعني فلا إثم عليه في أن يتطـوف بهمـا؛ وإنما نفى الإثم؛ لأنهم كانوا يتحرجون من الطواف بهما.

قوله تعالى: { أن يطوَّف بهما }: { يطوَّف }أصـلها يتطـوف؛ ولكن قلبت التـاء طـاءً لعلة تصـريفية؛ فصـار { يطـوّف }؛ و{ بهما } المـراد: بينهما، كما تفسره سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله تعـالى: { ومن تطـوع خـيراً } أي ازداد خـيراً في الطاعـة؛ ويشـمل الواجب، والمسـتحب؛ وتخصـيص التطـوع بالمسـتحب اصـطلاح فقهي؛ أما في الشرع فإنه يشمل الواجب، والمستحب؛ و{ من } شرطية؛ و{ تطـوع } فعل الشرط؛ وجواب الشرط جملة: { فإن الله شاكر عليم }؛ و{ خيراً } يجوز في إعرابها وجهان؛ الوجه الأول: أن تكون منصوبة بنزع الخــافض؛ والتقدير: ومن تطوع بخير فإن الله شـاكر عليم؛ والوجه الثـاني: أن تكـون مفعولاً لأجله ـــ أي ومن تطوع لأجل الخير، وطلبه فإن الله شاكر عليم.

قوله تعــالى: { فــإن الله شــاكر } أي فالله يشــكر؛ وهو ســبحانه وتعالى شـاكر، وشـكور؛ وشـكره تعـالى أنه يـثيب العامل أكـثر من عملـه؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: { عليم } أي ذو علم؛ وعلمه تعـالى محيط بكل شـيء؛ لقوله تعـالى: { وأن الله قد أحـاط بكل شـيء علمـاً } [الطلاق: 12] ؛ وقـرن العلم بالشكر لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع فإنه معلـوم عند اللـه، ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا عَلم العامل أن الله تعـالى شـاكر، وأنه عليم، فإنه ســيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله ســبحانه وتعــالى سيجزيه على عمله بما وعده به، ويعطيه أكثر من عمله.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيـة: مشـروعية الطـواف بين الصـفا، والمـروة؛ ويؤخذ ذلك من كونه من شـــعائر اللـــه؛ وهل هو ركن، أو واجب، أو سنة؟ اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال ثلاثة؛ فقال بعضهم: إنه ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به؛ وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج يجبر بدم، ويصح الحج بدونه؛ وقـال آخـرون: إنه سـنة، وليس بواجب.

والقول بأنه سنة ضـعيف جـداً؛ لأن قوله تعـالى: { من شـعائر الله } يـدل على أنه أمر مهم؛ لأن الشــعيرة ليست هي الســنة فقــط؛ الشــعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدين.

بقي أن يكون مـترددا‌ً بين الـركن، والـواجب؛ والأظهر أنه ركن؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»[1]؛ وقــالت عائشــة: «واللــه! ما أتم الله حج امــرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة»[2].

فالأقرب أنه ركن؛ وليس بواجب؛ وإن كان الموفق ـــ رحمه الله ـــــ وهو من مشائخ مذهب الإمام أحمد ـــ اختار أنه واجب يجبر بدم.

2ـــ من فوائد الآيـــة: دفع ما توهمه بعض الصـــحابة من الإثم بالطواف بالصفا، والمروة؛ لقوله تعـالى: { فلا جنـاح عليه أن يطـوف بهما }؛ وعلى هذا فلا ينافي أن يكون الطـواف بينهما ركنـاً من أركـان الحج، أو واجباً من واجباته، أو مشروعاً من مشروعاته؛ وذلك أن أناساً من الأنصـار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية المذكورة في القـرآن؛ وهي في المشلّل ـــ مكـان قـرب مكة ــــ فكـانوا يتحرجـون من الطـواف بالصـفا والمروة وقد أهلوا لمناة؛ فلما جـاء الإسـلام سـألوا النـبي صـلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله سبحانه وتعالى هـذه الآيـة: { فلا جنـاح عليه أن يطوف بهما }؛ فعلى هـذا يكـون النفي هنا لـدفع ما وقع في نفوسـهم من التحرج؛ لأنها من شعائر الله؛ وليس لبيان أصل الحكم.

وفيه سـبب آخر لتحـرج النـاس من الطـواف بهمـا: وهو أنهم كـانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، فكانوا يطوفون بهما كما كانوا يطوفـون بـالبيت أيضاً، فـذكر الله عـزّ وجـلّ الطـواف بـالبيت، ولم يـذكر الطـواف بالصـفا، والمروة؛ فقالوا: لو كان ذلك جائزاً لذكره الله عـزّ وجـلّ، فهـذا دليل على أنه ليس بمشروع؛ لأنه من أعمال الجاهليـة؛ فلا نطـوف؛ فـأنزل الله هـذه الآية.

وفيه أيضاً سبب ثالث؛ وهو أنه يقال: إنه كان فيهما صنمان: إساف، ونائلة؛ وقيل: إنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في جوف الكعبة؛ فمسـخهما الله سبحانه وتعالى حجـارة؛ فكـان من جهل العـرب أن قـالوا: «هـذان مسـخا حجـــارة؛ إذاً لا بد أن هنـــاك ســـراً، وســـبباً، فـــاخرجوا بهما عن الكعبـــة، واجعلوهما على الجبلين ـــ الصفا، والمروة نطوف بهمـا، ونتمسح بهمـا»؛ وقد كان؛ وعلى هذا يقول أبو طالب:

---

(1) أخرجه أحمد 6/421 – 422، حديث رقم 27911، وأخرجه ابن خزيمة 4/232 – 233، حديث رقم 2764، 2765، وأخرجه الشافعي في مسنده 1/351 – 352، حديث رقم 907، وقال الألباني الحديث "صحيح" (الإرواء: 4/269 – 270).

(2) أخرجه البخاري ص140، كتاب العمرة، باب 10: يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج حديث رقم 1790، وأخرجه مسلم ص899، كتاب الحج، باب 43: بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن...، حديث رقم 3079 [259] 1277.

وحيث يُنيخ الأشعرون ركابهم بمفضى السيول من إسـافٍ ونائل و«مفضى السيول» مجرى الوادي المعروف الذي بين الصفا، والمـروة؛ فالحاصل أن هذه ثلاثة أسباب في نزول الآيـة؛ وأظهرها السـبب الأول؛ على أنه لا مـانع من تعدد الأسباب.
3ــــ ومن فوائد الآية: أن الطواف بالصـفا والمـروة من طاعة اللـه؛ لقوله تعالى: { ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم }.
4ــــ ومنها: أن الطاعة خير؛ لقوله تعالى: { ومن تطوع خيراً }؛ ولا ريب أن طاعة الله سبحانه وتعالى خير للإنسان في حاله ومآله.
5ــــ ومنها: إثبات اسم «الشاكر» لله؛ لقوله تعالى: { شاكر }.
6ــــ ومنها: إثبات «العليم» اسماً للـه؛ لقوله تعـالى: { شـاكر عليم }.
7ــــ ومنها: إثبات صفة الشكر، والعلم؛ لقوله تعالى: { شـاكر عليم }؛ لأنهما اسـمان دالان على الصـفة؛ وعلى الحكم إن كـان متعـدياً، فقوله تعالى: { عليم } يدل على العلم ــــ وهذه هي الصـفة؛ ويـدل على الحكم بأنه يعلم كل شيء.

القـــرآن

{)إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُـدَى مِنْ بَعْـدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) (البقرة:159)

التفسير:

{ 159 } قوله تعـالى: { إن الـذين يكتمـون } أي يخفـون؛ لكنه لا يكـون كتمــاً إلا حيث دعت الحاجة إلى البيــان إما بلســان الحــال؛ وإما بلســان المقال.
قوله تعالى: { ما أنزلنا من البينات }؛ { البينـات } جمع بينـة؛ وهي صـفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: من الآيات البينات.
قوله تعالى: { والهدى }: أي العلم النافع الذي يهتدي به الخلق إلى الله عزّ وجلّ.
قوله تعالى: { من بعد ما بيناه } أي أظهرناه؛ { للناس } أي للناس عموماً ــــ المؤمن، والكافر؛ فإن الله تعالى بين الحق لعمـوم النـاس، كما قال تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاسـتحبوا العمى على الهـدى} [فصـلت: 17] ؛ فكل الناس قد بين الله لهم الحق؛ لكن منهم من اهتدى؛ ومنهم من بقي على ضلاله.
قوله تعالى: { في الكتاب }: المراد به جميع الكتب؛ فهو للجنس؛ فما من نبي أرسله الله إلا ومعه كتاب، كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان} [الحديد: 25] ، وكما قـال تعـالى: {كـان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: 213] .
قوله تعـــــالى: { أولئك يلعنهم الله }؛ { أولئك } مبتـــــدأ؛ وجملة { يلعنهم الله } خبره؛ والمبتدأ الثاني، وخـبره خـبر «إن» ؛ و{ يلعنهم الله } أي يطــردهم، ويبعــدهم عن رحمتــه؛ لأن «اللعن» في اللغــة: الطــرد، والإبعاد.

قوله تعـالى: { ويلعنهم اللاعنـون } أي يسـألون لهم اللعنـة؛ وهم أيضـاً بأنفسهم يبغضونهم، ويعادونهم، ويبتعدون عنهم.

الفوائد:

1- من فوائد الآية: أن كتم العلم من كبائر الذنوب؛ يؤخذ من تـرتيب اللعنة على فاعله؛ والذي يرتب عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب.

2- ومنهـا: الـرد على الجبريـة؛ لقوله تعـالى: { يكتمـون }؛ والكـاتم مريد للكتم.

3- ومنها: أن ما أنزل الله من الوحي فهو بيِّن لا غموض فيه؛ وهـدًى لا ضلالة فيه؛ لقوله تعـالى: { من البينـات والهـدى من بعد ما بيَّنَّاه للنـاس في الكتاب }؛ والبيـان ينقسم إلى قسـمين: بيـان مفصـل؛ وبيـان مجمـل؛ فالمجمل هي القواعد العامة في الشـــريعة؛ والمفصل هو أن يـــبين الله سبحانه وتعالى قضية معينة مفصلة مثل آيات الفرائض في الأحكـام؛ فإنها مفصلة مبيّنة لا يشذ عنها إلا مسائل قليلة؛ وهناك آيات مجملة عامة مثـل: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} [المائـدة: 1] : فهو بيـان عـام؛ وكـذلك بعض القصص يذكرها الله سـبحانه وتعـالى مفصـلة، وأحيانـاً مجملـة؛ وكل هذا يعتبر بياناً.

4ـــ ومن فوائد الآيــة: الــرد على أهل التحريف الــذين يســمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بيانـاً للنـاس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القــرآن صــفات ذاتيــة، وفعليــة؛ فــإذا صــرفت عن ظاهرها صـار القـرآن غـير بيـان؛ يكـون الله سـبحانه وتعـالى ذكر شـيئاً لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيسـتفاد من هـذه الآية الـرد على أهل التأويـل؛ والحقيقة أنهم ـــ كما قال شيخ الإسلام ـــ أهل التحريف لا أهل التأويـل؛ لأن التأويل منه حق، ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.

5ـــ ومن فوائد الآيـة: الـرد على أهل التفـويض الـذين يقولـون: إن آيات الصـفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناهـا؛ وقد ذكر شـيخ الإسـلام ابن تيمية أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

6ـــ ومنهــا: بيــان فضل الله عــزّ وجــلّ على عبــاده بما أنزله من البينات، والهدى؛ لأن النـاس محتـاجون إلى هـذا؛ ولـولا بيـان الله سـبحانه وتعالى وهدايته ما عرف الناس كيف يتوضؤون، ولا كيف يصــلون، ولا كيف يصـومون، ولا كيف يحجـون؛ ولكن من فضل الله أن الله سـبحانه وتعـالى بيّن ذلك.

7ـــ ومنها: إثبات علو الله؛ لقوله تعالى: { ما أنزلنا }؛ والنزول إنما يكون من أعلى؛ وعلو الله بذاته ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقـل، والفطرة.

8ـــ ومنها: قبح هذ الكتمان الذي سلكه هؤلاء؛ لأنه كتمان بعد بيان؛ ليس لهم أن يقولوا: «ما تكلمنا؛ لأنّ الأمر مشتبه علينا»؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشـتباه الأمر عليه قد يعـذر؛ لكن الـذي لا يتكلم مع أن الله بينه للناس يكون هذا أعظم قبحاً ـــ والعياذ بالله.

9ـــ ومنها: وجوب نشر العلم عند الحاجة إليه سواء ظهرت الحاجة بلسان الحال، أو بلسان المقال، ولسان الحال: أن ترى إنساناً يعمل عملاً ليس على الوجه المرضي؛ فهذا لسـان حاله يـدعو إلى أن تـبين له الحـق؛ ولسـان المقـال: أن يسـألك سـائل عن علم وأن تتعلمـه؛ فيجب عليك أن

تبلغه ما دمت تعلم؛ أما إذا كنت لا تعلم فإنه يجب أن تقول: «لا أدري»، أو «لا أعلم»؛ كـذلك لو رأيت النـاس عمّ فيهم الجهل في مسـألة من أمـور الدين؛ فهنا الحاجة داعية إلى البيان؛ فيجب أن تبين.

10ــــ ومن فوائد الآيـة: أن الكتب السـماوية كلها بيـان للنـاس، لأن قوله تعالى: { في الكتـاب } المـراد به الجنس لا العهـد؛ فالله تعـالى بين الحق في كل كتاب أنزلـه؛ لم يـترك الحق غامضـاً؛ بل بينه لأجل أن تقـوم الحجة على الخلـق؛ لأنه لو كـان الأمر غامضـاً لكـان للنـاس حجة في أن يقولوا: ما تبين لنا الأمر.

11ــــ ومنها: أن الرجوع في بيان الحق إلى الكتب المنزلة.

12ــــ ومنهـا: أن هـؤلاء الكـاتمين ملعونـون؛ يلعنهم اللـه، ويلعنهم اللاعنون؛ لقوله تعالى: { أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون }.

13ــــ ومنها: إثبات الأفعـال الاختيارية لله عـزّ وجـلّ؛ وهي كل فعل يتعلق بمشـيئته، مثل الـنزول إلى السـماء الـدنيا، والمجيء للفصل بين عباده؛ والاستواء على العرش؛ والضحك؛ والكلام؛ والتعجب؛ وما إلى ذلـك؛ كل فعل يتعلق بمشيئة الله عزّ وجلّ فإنه من الأفعال الاختيارية؛ و«اللعن» منها؛ ويدل على أنه منها أن له سبباً؛ وما كان له سبب فإنه يوجَد بالسبب، ويعدم بعدمه؛ إذاً فاللعن من الأفعال الاختيارية.

14ــــ ومنهـا: جـواز الـدعاء باللعنة على كـاتم العلم؛ لقوله تعـالى: { يلعنهم اللاعنـون }؛ لأن من معـنى { يلعنهم اللاعنـون } الـدعاء عليهم باللعنـة؛ تقـول: اللهم العنهم؛ ولا يلعن الشـخص المعين؛ بل على سـبيل التعميم؛ لأن الصـحيح أن لعن المعين لا يجـوز - ولو كـان من المسـتحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرى ماذا يمـوت عليـه؛ قد يهديه اللـه، كما قـال تعـالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {ليس لك من الأمر شـيء أو يتـوب عليهم} [آل عمران: 128] ؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: «لا تسـبوا الأمـوات فـإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[1]؛ وهـذا عـام؛ ثم إنه قد يثـير ضـغائن، وأحقـاد من أقاربه، وأصحابه، وأصدقائه؛ فيكـون في ذلك مفسـدة؛ ثم إن النـبي صـلى الله عليه وسلم قـال: «من كـان يـؤمن بالله واليـوم الآخر فليقل خـيراً أو ليصمت»[2]؛ وأيّ خير في كونك تلعن واحداً كـافراً قد مـات؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها، والقدح فيها، وذمها؛ أما هو شخصياً فإنه لا يظهر لنا جـواز لعنه - وإن كـان المعـروف عند جمهـور أهل العلم أنه يجـوز لعنه إذا مات على الكفر.

15ــــ ومن فوائد الآيــة: عظم كتم العلم، حيث كـان من الكبـائر؛ وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلى بيانه إما بلسـان الحـال؛ وإما بلسـان المقال؛ فإن من سُئل عن علم فكتمه ألجم يـوم القيامة بلجـام من نـار إلا أن يكون السائل متعنتاً، أو يريد الإيقاع بالمسـؤول، أو ضـرب آراء العلمـاء بعضها ببعض، أو يترتب على إجابته مفسـدة، فلا يجـاب حينئـذ؛ وليس هـذا من كتم العلم؛ بل هو من مراعاة المصالح، ودرء المفاسد.

---

(1) سبق تخريجه 1/294.
(2) سبق تخريجه 1/255.

مـســـألـــة:

دفع الفتوى ـــ وهو أن يحوِّل المستفتي إلى غيره، فيقول: اسأل فلاناً، أو اسأل العلماء - اختلف فيها أهل العلم: هل يجوز، أو لا يجوز؟ والصحيح أنه لا يجوز؛ إلا عند الاشتباه فيجب؛ أما إذا كان الأمر واضحاً فإنه لا يجوز؛ لأنه يضيع الناس لا سيما إذا كان الإنسان يرى أنه إذا دفعها استُفتي أناس جهال يضلون الناس؛ فإنه هنا تتعين عليه الفتوى؛ ويستعين الله عزّ وجلّ، ويسأل الله الصواب والتوفيق.

16ـــ ومن فوائد الآية: استحقاق الكاتمين للعنة الله، ولعنة اللاعنين.

قد يقول قائل: هذا تحصيل حاصل، لأنه كقول القائل: قام القائمون، أو يقوم القائمون، ويدخل الداخلون.

فالجواب: لا، لأنه ليس كل من نسب إليه الوصف يكون قائماً به على الوجه الأكمل؛ قد تقول: «قام القائمون» بمعنى أنهم أتوا بالقيام على وجهه؛ فمعنى { يلعنهم اللاعنون } أي الذين يعرفون من يستحق اللعنة، ويوجهونها إلى أهلها؛ فهم ذوو علم بالمستحِق، وذوي حكمة في توجيه اللعنة إليه؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله...} [النساء: 136] الآية؛ فناداهم باسم الإيمان، وأمرهم به؛ أي بتحقيقه، والثبات عليه.

إذاً هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات، والهدى مع ظهوره، وبيانه يستحقون - والعياذ بالله - هذا الجزاء الوخيم من الله، ومن عباد الله؛ وعكس ذلك الذين يبينون الحق - نسأل الله أن يجعلنا منهم؛ فهؤلاء يكون لهم المودة، والمحبة من الله، ومن أولياء الله؛ وقد ورد في حديث أبي الدرداء الطويل أن العالم يستغفر له أهل السموات والأرض حتى الحيتان في الماء[1]؛ لأن الذي يبين شريعة الله يُلقي الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده مودته، ومحبته، والقبول له حتى في السماء؛ ونحن نعلم ذلك - وإن لم يرد به نص خاص - عن طريق القياس الجلي: فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعاقب الكاتمين بهذه العقوبة الواقعة منه، ومن عباده؛ وهو الذي سبقت رحمته غضبه، فالذين يبينون البينات، والهدى يستحقون أن يثني الله سبحانه وتعالى عليهم بدلاً من اللعنة، ويقربهم بدلاً من البعد.

17ـــ ومن فوائد الآية: أنه يجب على من قال قولاً باطلاً، ثم تبين له بطلانه أن يبينه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب.

---

(1) أخرجه أحمد ص1602، حديث رقم 22058؛ والترمذي ص1922، كتاب العلم، باب 19 ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم 2682؛ وأبو داود ص1493، أول كتاب العلم، باب 1: في فضل العلم، حديث رقم 3641؛ وابن ماجة ص2491، كتاب السنة، باب 17: فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم 223؛ والدارمي 1/110، المقدمة، باب 32: في فضل العلم والعالم، حديث رقم 342؛ ومدار هذهالأسانيد على داود بن جميل عن كثير بن قيس (ويقال: قيس بن كثير؛ والأول أصوب – قاله الحافظ في التقريب -)؛ وكل من داود، وكثير ضعيف؛ وقال الألباني: "لكن أخرجه أبو داود من طريق أخرى عن أبي الدرداء بسند حسن" (راجع صحيح الترغيب والترهيب، الطبعة الثانية، حاشية 3 ص33)؛ لكن في سنده شبيب بن شيبة، قال الحافظ في التقريب: مجهول؛ وقال عمرو بن عثمان: "عن شعيب بن رزيق" بدلاً عن شبيب بن شيبة؛ وقال: "وهو أشبه بالصواب" (راجع تهذيب التهذيب 4/271)؛ وشعيب بن رزيق الشامي قال الحافظ في التقريب: "صدوق يخطئ"؛ وقيل: صدوق حسن الحديث (تحرير تقريب التهذيب 2/117)؛ وعليه فالإسناد حسن.

القـــــــرآن

{)إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:160)

التفسير:

{ 160 } قوله تعـالى: { إلا الـذين تـابوا }: الاسـتثناء هنا متصـل؛ لأنه استثناء من الكاتمين؛ يعني إلا إذا تابوا؛ و«التوبة» في اللغة الرجــوع؛ وفي الشرع: الرجـوع من معصية الله إلى طاعتـه؛ والمـراد بالتوبة هنا الرجـوع عن كتمان ما أنزل الله إلى بيانه، ونشره.

قوله تعالى: { وأصلحوا } أي أصلحوا عملهم { وبينوا } أي وضحوا للناس ما كتموا من العلم ببيانه، وبيان معانيه؛ لأنه لا يتم البيان إلا ببيـان المعـنى؛ { فأولئك } يعني الذين تابوا، وأصـلحوا، وبينـوا { أتـوب عليهم } أي أقبل منهم التوبــة؛ لأن توبة الله على العبد لها معنيــان؛ أحـــدهما: توفيق العبد للتوبة؛ الثـاني: قبـول هـذه التوبـة، كما قـال الله تعـالى: { ثم تـاب عليهم ليتوبوا }.

قوله تعـالى: { وأنا التـواب } صـيغة مبالغـة، ونسـبة؛ لأن «فعـال» تـأتي للمبالغـة، وتـأتي للنسـبة: فـإن قيـدت بمعمـول فهي للمبالغـة؛ وإن أطلقت فهي للنسبة؛ أو نقول: هي للمبالغة، والنسبة بكل حـال إلا أن يمنع من ذلك مانع، كقوله تعالى: { وما ربك بظلام للعبيد } فـإن هـذه للنسـبة؛ ولا تصح للمبالغة لفساد المعنى بذلك؛ لأنها لو كانت للمبالغة لكـان المنفي عن الله كثرة الظلم مع أنه جل وعلا {لا يظلم مثقـال ذرة وإن تك حسـنة يضـاعفها ويـؤت من لدنه أجـراً عظيمـاً} [النسـاء: 40] ؛ وقوله تعـالى: { التواب } تصلح للأمرين جميعاً؛ فهو سبحانه وتعـالى موصـوف بـالتواب؛ وهو ذو توبة على جميع العبــاد؛ وكــذلك موصــوف بكــثرة توبته ســبحانه وتعـالى، وكــثرة من يتــوب عليهم: كم يفعل الإنســان من ذنب، ويتــوب، فيتوب الله عليه! وكم من أناس أذنبوا، فتابوا، فتاب الله عليهم! فلهذا جاء بلفظ: { التواب }.

وقوله تعــالى: { الــرحيم } ســبق الكلام عليــه؛ وجمع بين التوبة والرحمة؛ لأن بالرحمة يكون الإحسان؛ وبالتوبة يكون زوال العقوبـة؛ فجمع الله بينهمـا؛ فهو يتـوب؛ وإذا تـاب سـبحانه وتعـالى رحم التـائب، ويسَّـره لليسرى، وسهل له أمور الخير؛ فحصل على الخير العظيم.

وفي هـذه الآية التفـات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعـالى: {إن الذين يكتمـون ما أنزلنا من البينـات والهـدى...} [البقـرة: 159] ، وقوله تعــالى: {أولئك يلعنهم اللــه} [البقــرة: 159] ؛ ولم يقــل: «نلعنهم»؛ وللالتفات فائدتان:

الأولى: تنبيه المخــاطب؛ لأنه إذا تغــير نسق الكلام أوجب أن ينتبه المخاطب لما حصل من التغيير.

والفائـدة الثانيـة: تكـون بحسب السـياق: ففي هـذه الآيـة: {أولئك يلعنهم اللــه} الفائــدة: التعظيم؛ لأن قولــه: {يلعنهم اللــه} أبلغ في التعظيم من «أولئك نلعنهم»؛ لأن المتكلم إذا تحدث عن نفسه بصيغة الغائب صار أشد هيبة، مثل قـول الملـك: إن الملك يـأمركم بكـذا، وكـذا؛ وأمر الملك بكـذا، وكذا ـــ ويعني نفسه.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: أن توبة الكاتمين للعلم لا تكون إلا بالبيان، والإصلاح؛ لقوله تعالى: { إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا }: ثلاثة شروط:
الأول: التوبة؛ وهي الرجوع عما حصل من الكتمان.
الثاني: الإصلاح لما فسد بكتمانهم؛ لأن كتمانهم الحق حصل به فساد.
الثالث: بيان الحق غاية البيان.
وبهذا تبدل سيئاتهم حسنات.
2 ـــ ومن فوائد الآية: أن كل ذنب ـــ وإن عظم ـــ إذا تاب الإنسـان منه فإن الله سبحانه وتعالى يتوب عليه.
3 ـــ ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهما { التـواب }، و{ الرحيم }؛ { التواب } على من أذنب؛ { الرحيم } على من أخلص، وعمل؛ فالرحمة تجلب الخير؛ والتوبة تدفع الشر.
4 ـــ ومنها: إثبات صفتين من صفات الله؛ وهما التوبة، والرحمة.
5 ـــ ومنهـا: إثبـات حكمين من هـذين الاسـمين: أن الله يتـوب، ويـرحم؛ ولهذا قال تعالى: { فأولئك أتوب عليهم }.
6 ـــ ومنها: توكيد الحكم بما يوجبه؛ لقوله تعالى: { وأنا التواب الرحيم }.
7 ـــ ومنهـا: كـثرة توبة اللـه، وكـثرة من يتـوب عليهم؛ لقوله تعـالى: { التواب }.
والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعتـه؛ فـيرجع من الشـرك إلى التوحيد؛ ومن الزنى إلى العفاف؛ ومن الاستكبار إلى الذل، والخضوع؛ ومن كل معصـية إلى ما يقابلها من الطاعـة؛ وشـروطها خمسـة: الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ والنـدم على الـذنب؛ والإقلاع عنه في الحـال؛ والعـزم على أن لا يعود؛ وأن تكون التوبة في وقت تقبل فيه.
الشـرط الأول: الإخلاص لله بـأن يكـون قصـده بالتوبة رضا اللـه، وثواب الآخرة، وألا يحمله على التوبة خـوف مخلـوق، أو رجـاء مخلـوق، أو علو مرتبة، أو ما أشبه ذلك.
الشرط الثاني: النـدم على ما جـرى منه من الـذنب؛ ومعـنى «النـدم» أن يتحسر الإنسان أن وقع منه هذا الذنب.
الشرط الثـالث: الإقلاع عن المعصـية؛ وهـذا يـدخل فيه أداء حقـوق العبـاد إليهم؛ لأن من لم يـؤد الحق إلى العبـاد فإنه لم يقلـع؛ فهو ليس شـرطاً مستقلاً ـــ كما قاله بعض العلمـاء؛ ولكنه شـرط داخل في الإقلاع؛ إذ إن من لم يؤد الحق إلى أهله لم يقلع عن المعصية.
الشرط الرابع: أن يعزم ألا يعود؛ فإن لم يعـزم فلا توبـة، وليس من الشـرط ألا يعـود فـإذا صـحت التوبـة، ثم عـاد إلى الـذنب لم تبطل توبته الأولى؛ لكنه يحتاج إلى تجديد التوبة.
الشرط الخامس: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه؛ يعني أن تكون في وقت قبـول التوبـة؛ وذلك بـأن تكـون قبل حضـور المـوت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ فـإذا كـان بعد حضـور المـوت لم تقبـل؛ لقوله تعـالى: {وليست التوبة للـذين يعملـون السـيئات حـتى إذا حضر أحـدهم الموت قال إني تبت الآن} [النساء: 18] ؛ وإذا كانت بعد طلوع الشـمس من مغربها لم تقبل؛ لقوله تعالى: {يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسـاً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً} [الأنعام: 158] ؛

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تنقطع الهجـرة حـتى تنقطع التوبـة؛ ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غـيره؟ للعلمـاء في هـذا ثلاثة أقوال؛ الأول: أنها تصـح؛ و الثـاني: أنها تصح إن كـان الـذنب من غـير الجنس؛ و الثـالث: لا تصـح؛ والصـحيح أنها تصح من ذنب مع الإصـرار على غيره؛ لكن لا يستحق اسم التائبين على سبيل الإطلاق؛ فلا يسـتحق وصف التائب، ولا يدخل في مدح التائبين؛ لأن توبته مقيدة من هذا الذنب المعين؛ ومثال ذلك: إذا تاب رجل من الزنى لكنه يتتبع النساء بالنظر المحـرم فـإن توبته من الـزنى تصح على القـول الـراجح؛ لكن لا يسـتحق وصف التـائب على سـبيل الإطلاق؛ وعلى القـول بأنها تصح إذا كـانت من غـير الجنس فإنها لا تصـح؛ وإذا تـاب من الـزنى مع الإصـرار على الربا فإنها تصـح؛ لأن الربا ليس من جنسـه؛ إلا على القـول الثـالث الـذي يقـول لا تصح إلا مع الإقلاع عن جميع الذنوب.

8 ــــ ومن فوائد الآية: عظم الكتمان؛ لأن الله ذكر لنجاتهم من هذه اللعنة ثلاثة شروط: التوبة، والإصـلاح، والبيـان؛ لأن كتمهم لِما أنـزل الله يتضـمن إفساداً في الأرض، وإضلالاً للخلق؛ فتوبتهم منه لا تكفي حـتى يصـلحوا ما فسد بسبب كتمانهم، مثال ذلك: قـوم كتمـوا صـفة النـبي صـلى الله عليه وسلم، وقالوا: «ليس هو بالرسول الذي سيبعث»؛ فسيضل من الناس بناءً على قولهم عالَم؛ فلا يكفي أن يتوبـوا، وينـدموا، ويقلعـوا، ويُسْـلِموا، حـتى يصلحوا ما أفسدوا من الآثار التي ترتبت على كتمانهم الحـق؛ وإلا لم تصح التوبة.

9 ــــ ومن فوائد الآيـة: عظم العلم، وأنه حمل ثقيـل، وعبء عظيم على من حمَّله الله سـبحانه وتعـالى إيـاه، وأن الإنسـان على خطر إذا لم يقم بواجبه من البيان؛ وسـبق أن البيـان حين يحتـاج النـاس إليه ويسـألون، إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

القــــرآن

{)إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَمَـاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَـةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (البقرة:161)

)خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) (البقرة:162)

التفسير:

الآيتـان قبلها في العلمـاء الـذين كتمـوا الحـق؛ وهـذه في الكفـار الـذين استكبروا عن الحق.

{161 } قوله تعـالى: { إن الـذين كفـروا }: «الكَفْـر» في اللغة بمعـنى الستر؛ ومنها كُفُرَّى النخل ــــ أي وعاء طلعه ــــ لسـتره الطلـع؛ والمـراد بالكُفر في القرآن والسنة: جحد ما يجب لله سبحانه وتعـالى من الطاعـة، والانقياد؛ وهو نوعان: إما تكذيب؛ وإما استكبار.

---

[1] أخرجه أحمد 4/99، حديث رقم 17030، وأخرجه أبو داود ص1406، كتاب الجهاد، باب 2: الهجرة قد انقطعت، حديث رقم 2479، وأخرجه الدارمي ج2/312، كتاب السير، باب 70: الهجرة لا تنقطع، حديث رقم 2613؛ وفي سنده أبو هند البجلي قال الذهبي في الميزان 4/853: "لا يصرف؛ لكن احتج به النسائي على قاعدته"؛ قال عبد القادر في تخريج جامع الأصول لابن الأثير 11/606 حاشية رقم (2): رواه أحمد في المسند 1/192 من طريق آخر وإسناده حسن. أهـ (باختصار).

قوله تعـالى: { ومـاتوا وهم كفـار } معطوفة على { كفـروا } فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها معطوفة على صلة الموصول الـتي لا محل لها من الإعراب؛ وجملة { وهم كفار } حالية من الفاعل في { ماتوا }؛ يعـني أنهم ـــ والعيـاذ بالله ـــ اسـتمروا على كفـرهم إلى المـوت، فلم يزالـوا على الكفـر، ولم يتوبـوا، ولم يرجعـوا؛ وخـبر { إن } جملة { أولئك عليهم لعنة الله }: { أولئك } مبتدأ ثانٍ؛ و{ عليهم } جار ومجرور خبر مقدم لـ{ لعنة }؛ و{ لعنة } مبتـدأ ثـالث؛ والجملة من المبتـدأ الثـالث، وخـبره خـبر المبتدأ الثاني: { أولئك}؛ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر { إن }.

وقوله تعـــالى: { لعنة الله } أي طـــرده، وإبعـــاده عن رحمتـــه؛ { والملائكة } أي ولعنة الملائكة؛ والملائكة عالم غيبي خُلِقوا من نور؛ وهم محجوبون عن الإنس؛ وربما يـرونهم إما على الصـورة الـتي خلقـوا عليهـا، كما رأى النبي صلى الله عليه وسـلم جبريل على صـورته الـتي خلِق عليها له ستمائة جناح[1] قد سد الأفق[2]؛ وإما على صورة أخرى، كما رأى النـبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورة دحية الكلبي[3]؛ وهم عباد لله عزّ وجلّ لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسـرون؛ يسـبحون الليل والنهـار لا يفترون؛ لا يأكلون، ولا يشربون؛ صُمْدٌ - أي لا أجواف لهم؛ والملائكة عليهم السلام لهم وظائف، وأعمال خصهم الله سـبحانه وتعـالى بهـا؛ فإسـرافيل، وميكائيل، وجبريل موكلون بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وســـلم يســـتفتح صـــلاة الليل بقولـــه: «اللهم رب جَبرائيل وميكائيل وإسرافيل...»[4] الحديث؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكلون بما فيه الحيـاة؛ والبعث من النوم حياة؛ ولهذا ناسب أن يكـون هـذا الاسـتفتاح في أول عمل يعمله الإنسان بعد أن توفاه الله عزّ وجلّ بالنوم؛ وهؤلاء الثلاثة أحدهم مكلف بما فيه حيـــاة القلـــوب - وهو جبريل - والثـــاني بما فيه حيـــاة الأبـــدان - وهو إسرافيل - والثالث بما فيه حياة النبات - وهو ميكائيل - وأفضـلهم جبريل - ولهذا امتدحه الله عـزّ وجـلّ بقوله تعـالى: {إنه لقـول رسـول كـريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين} [التكوير: 19، 20] ، وبقوله تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً} [مـريم: 17] ؛ فجبريل أفضل الملائكة على الإطلاق.

قوله تعـالى: { والنــاس أجمعين } أي عليهم لعنة النــاس أجمعين؛ يلعنهم الناس ـــ والعياذ بالله، ويمقتونهم ولا سيما في يـوم القيامـة؛ فـإن هؤلاء يكونون مبغضين عند جميع الخلق؛ فهم أعداء الله سبحانه وتعالى.

{ 162 } قوله تعـالى: { خالـدين فيها } أي في هـذه اللعنة ـــ والعيـاذ بالله؛ والمراد فيما يترتب عليها؛ فإنهم خالدون في النار التي تكون بسـبب اللعنة.

قوله تعـالى: { لا يخفف عنهم العـذاب }؛ أي لا يخففه الله سـبحانه وتعالى؛ وحذف الفاعل للعلم به.

---

[1] راجع البخاري ص262، كتاب بدء الخلق، باب 7: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم 3232؛ ومسلماً ص708، كتاب الإيمان، باب 77: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)...، حديث رقم 432 [280] 174.

[2] راجع البخاري ص262، كتاب بدء الخلق، باب 7: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء...، حديث رقم 3235؛ ومسلماً ص709، كتاب الإيمان، باب 77: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)...، حديثرقم 442 [290] 177.

[3] راجع مسلماً ص707، كتاب الإيمان، باب 74: الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم 423 [271] 167.

[4] سبق تخريجه 1/315.

قوله تعالى: { ولا هم ينظرون } أي لا يمهلون؛ بل يؤخـذون بالعقـاب؛ من حين ما يموتون وهم في العذاب؛ ويحتمل أن المراد لا ينظرون بالعين؛ فلا ينظرون نظر رحمة، وعناية بهم؛ وهذا قد يؤيَّد بقوله تعالى: {قال اخسـئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: 108] ؛ فإن هذا من احتقـارهم، وازدرائهم أنهم يوبخون بهذا القول.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآيتين: أن الكافر مستحق للعنة اللـه، والملائكـة، والنـاس أجمعين.

2 ــــ ومنها: أنه تشترط لثبـوت هـذا أن يمـوت على الكفـر؛ لقوله تعـالى: { إن الذين كفروا وماتوا وهم كفـار }؛ فلو رجعـوا عن الكفر إلى الإسـلام ارتفعت عنهم هذه العقوبة.

3 ــــ ومنها: إثبات الملائكة.

4 ــــ ومنها: أن الكـافر يلعنه الكـافر؛ لقوله تعـالى: { والنـاس أجمعين }؛ وقد أخبر الله تعـالى عن أهل النـار أنه كلما دخلت أمة لعنت أختهـا، وقـال تعالى: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب} [البقرة: 166] إلخ؛ فالكافر ــــ والعياذ بالله ــــ ملعون حتى ممن شاركه في كفره.

5 ــــ ومنها: أن الذين يموتون وهم كفار مخلـدون في لعنة اللـه، وطـرده، وإبعاده عن رحمته.

6 ــــ ومنها: أن العذاب لا يخفف عنهم، ولا يومـاً واحـداً؛ ولهـذا يقـول اللهِ عزّ وجلّ: {وقال الذين في النـار لخزنة جهنم ادعـوا ربكم يخفف عنا يومـاً من العذاب} [غـافر: 49] ؛ لم يسـألوا أن يرفع العـذاب؛ ولم يسـألوا أن يخفف دائمـاً؛ بل يخفف ولو يومـاً واحـداً من أبد الآبـدين؛ يتمنـون هـذا؛ يتوسـلون بالملائكة إلى الله عـزّ وجـلّ أن يخفف عنهم يومـاً واحـداً من العـذاب؛ ولكن يوبخـون إذا سـألوا هـذا: {قـالوا أو لم تك تـأتيكم رسـلكم بالبينات قالوا بلى} [غافر: 50] ؛ فما يستطيع أحد أن يتصور كيف تكـون حسرتهم حينئذٍ؛ يقولون: ليتنا فعلنا؛ ليتنا صدقنا؛ ليتنا اتبعنا الرسول؛ ولهـذا يقولون: {بلى} ؛ لا يسـتطيعون أن ينكـروا أبـداً؛ {قـالوا فـادعوا} [غـافر: 50] أي أنتم؛ ولكن دعاء لا يقبل، كما قال تعالى: {وما دعـاء الكـافرين إلا في ضلال} [غافر: 50] أي في ضـياع ــــ والعيـاذ باللـه؛ والمقصـود أنه لا يخفف عنهم العذاب.

7 ــــ من فوائد الآيتين: أنهم لا ينظرون؛ إما أنه من النظر؛ أو من الإنظار؛ فهم لا يمهلون ولا ساعة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: {حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها} [الزمر: 71] ؛ فمن يوم يجيئونها تفتح؛ أما أهل الجنة فإذا جاءوها لم تفتح فور مجيئهم، كما قـال تعـالى: {حـتى إذا جاءوها وفتحت أبوابهـا} [الزمر: 71] ؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بالشفاعة، وبعد أن يقتص من بعضـهم لبعض؛ فإذا جاءوها هذبوا، ونقوا، ثم شفع النبي صلى الله عليه وسـلم في دخول الجنة؛ وحينئذ تفتح أبوابها.

القــــــــرآن

{)وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (البقرة:163)

التفسير:

{ 163 } قوله تعـالى: { وإلهكم } الخطـاب للبشر كلهم؛ أي أيها النـاس معبودكم الحق الذي تكون عبادته حقاً؛ و{ إله } بمعنى مألوه؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و«المألوه» معناه المعبود حباً، وتعظيماً ـــ وهو إله واحـد؛ و{ إلهكم } مبتـدأ؛ و{ إله } خـبر؛ و{ واحد } صـفة لــ{ إله }؛ وجملة { إلهكم إله واحد } طرفها الأول معرفة؛ والثـاني نكـرة موصـوفة، ومؤكد بالوحدانية يعــني أن إله الخلق إله واحــد؛ ووحدانيته بالألوهية متضــمنة لوحدانيته بالربوبية؛ إذ لا يُعبد إلا من يُعلم أنه رب.

ثم أكد هذه الجملة الاسـمية بجملة تفيد الحصـر، فقـال: { لا إله إلا هو }؛ وهـذه الجملة توكيد لما قبلها في المعـنى؛ فإنه لما أثبت أنه إله واحد نفى أن يكون معه إله.

وقوله تعـالى: { لا إله إلا هو } أي لا معبـود حق إلا هـو؛ وعلى هـذا تكـون { لا } نافية للجنس؛ وخبرها محـذوف؛ والتقـدير: لا إله حق إلا هـو؛ وإنما قدرنا «حق»؛ لقوله تعـالى: {ذلك بـأن الله هو الحق وأن ما يـدعون من دونه هو الباطل} [الحج: 62] ؛ ولهذا قال الله تعالى عن هذه الآلهة: {إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبـاؤكم ما أنـزل الله بها من سـلطان} [النجم: 23] ؛ وقد زعم بعضـهم أن تقـدير الخـبر «موجـود»؛ وهـذا غلط واضح؛ لأنه يختل به المعنى اختلالاً كبيراً من وجهين:

الوجه الأول: أن هنـاك آلهة موجـودة سـوى اللـه؛ لكنها باطلـة، كما قـال تعــالى: {ذلك بــأن الله هو الحق وأن ما يــدعون من دونه هو الباطــل} [الحج: 62] ، وكما قال تعالى: {فما أغنت عنهم آلهتهم التي يـدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك} [هود: 101] ، وكما قال تعالى: {فلا تدع مع الله إلهاً آخر} [الشعراء: 213] .

الوجه الثــاني: أنه يقتضي أن الآلهة المعبــودة من دون الله هي اللــه، ولا يخفى فســاد هــذا؛ وعليه فيتعين أن يكــون التقــدير: «لا إله حــق»، كما فسرناه.

قوله تعـالى: { الـرحمن الـرحيم } خـبر ثـالث، ورابع لقوله تعـالى: { إلهكم }؛ ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محـذوف؛ والتقـدير: هو الـرحمن الرحيم؛ فألوهيته مبنية على الرحمة؛ وهذه الآية تشبه قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم} [الفاتحـة: 2، 3] ؛ فـإن ذكر هـذين الاسمين بعد الربوبية يدل على أن ربوبيته مبنية على الرحمة.

وقوله تعالى: { الرحمن الرحيم } اسمان من أسماء اللـه؛ أحـدهما يـدل على سـعة رحمته ـــ وهو { الـرحمن }؛ والثـاني يـدل على إيصـال الرحمة ـــ وهو { الرحيم }؛ وأسماء الله سبحانه وتعالى لها ثلاث دلالات: دلالة مطابقــة؛ ودلالة تضــمن؛ ودلالة الــتزام؛ فدلالة الاسم على الــذات، والصفة دلالة مطابقة؛ ودلالته على الـذات وحـدها، أو الصـفة وحـدها دلالة تضمن؛ ودلالته على ما يستلزمه من الصـفات الأخـرى دلالة الـتزام؛ مثـال ذلك «الخـالق»: فهو دال على ذات متصـفة بـالخلق؛ وعلى صـفة الخلـق؛ فدلالتها على الأمرين دلالة مطابقة؛ وعلى أحدهما دلالة تضمن؛ وهي تــدل على صفة العلم، والقدرة دلالة التزام؛ إذ لا خلق إلا بعلم وقدرة.

و«الرحمــة» تنقسم إلى عامــة، وخاصــة؛ فالعامة هي الــتي تشــمل جميع الخلق؛ والخاصة تختص بالمؤمنين.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أن إله الخلق إله واحد ــــ وهو الله عزّ وجــلّ؛ لقوله تعالى: { وإلهكم إله واحد }.
2 ــــ ومنها: إثبات اسم «الإله» ، و «الواحد» لله عزّ وجــلّ؛ لقوله تعـالى: { وإلهكم إله واحد }؛ وقد جــاء في قوله تعــالى: {لله الواحد القهــار} [إبراهيم: 48] : فأثبت اسم «الواحد» سبحانه وتعالى.
3 ــــ ومنها: اختصاص الألوهية بالله عزّ وجلّ؛ لقوله تعـالى: { لا إله إلا هو }.
فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهــذه الآلهــة، فيـدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛ فما هو الجواب؟
فالجواب: عن هذا أن هذه الأصنام لم توجِد ما دعوا به قطعاً؛ لقوله تعالى: {ومن أضل ممن يـدعو من دون الله من لا يسـتجيب له إلي يــوم القيامة وهم من دعــائهم غــافلون * وإذا حشر النــاس كــانوا لهم أعــداءً وكــانوا بعبــادتهم كـافرين} [الأحقـاف: 5، 6] ، ولقوله تعـالى: {إن تـدعوهم لا يســمعوا دعــاءكم ولو ســمعوا ما اســتجابوا لكم ويــوم القيامة يكفــرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير} [فاطر: 14] ؛ فيكون حصول ما دعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من الناس؛ والذي أوجدها هو الله عزّ وجــلّ؛ لكن قد يُمتحَن الإنسان بتيسير أسـباب المعصـية ابتلاءً من الله عــزّ وجــلّ؛ فيكون هذا الشيء حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به.
4 ــــ ومنها: كفر النصارى القائلين بتعدد الآلهة؛ لأن قولهم تكذيب للقرآن؛ بل وللتوراة، والإنجيـل؛ بل ولجميع الرسـل؛ وقد صح عن النـبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: «والـذي نفس محمد بيـده لا يسـمع بي أحد من هـذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسـلت به إلا كـان من أصحاب النار»[1].
5 ــــ ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما { الرحمن الرحيم }.
6 ــــ ومنها: إثبات ما تضمنه هــذان الاســمان من الصـفة ــــ وهو الرحمة ــــ والحكم: أنه يرحم بهذه الرحمة.
7 ــــ ومنها: أنه قد يكون للاسم من أسماء الله معنًى إذا انفرد؛ ومعنًى إذا انضم إلى غيره؛ لأن { الرحمن } لو انفرد لدل على الصـفة، والحكم؛ وإذا جمع مع { الرحيم } جُعل { الرحمن } للوصف؛ و{ الرحيم} للفعل.

القــــرآن

{)إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْـرِيفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:164)

التفسير:

{ 164 } قوله تعالى: { إن في خلق السموات والأرض }؛ { السموات } جمع سماء، وتقدم أنها سبع؛ و{ الأرض } مفـرد يـراد به الجنس؛ فيشـمل السبع؛ و{ خلق السموات والأرض } أي إيجادهما من عـدم؛ ويشـمل ذلك بقاءهمـا، وكيفيتهمـا، وكل ما يتعلق بهما من الشـيء الـدال على علم الله سبحانه وتعالى، وقدرته، وحكمته، ورحمته.

---

(1) سبق تخريجه 1/367.

وقوله تعـالى: { والأرض } يشـمل ما أودع الله فيها من المنـافع، حيث جعلها متضمنة، ومشتملة على جميع ما يحتاج الخلق إليه في حياتهم، وبعد مماتهم، كما قـال تعـالى: {ألم نجعل الأرض كفاتـاً * أحيـاءً وأمواتـاً} [المرسـلات: 25، 26] إلى آخر الآيـات؛ ما ظنك لو جعل الله هـذه الأرض شـفافة كالزجـاج، فـدفن فيها الأمـوات ينظر الأحيـاء إلى الأمـوات ـــ فلا تكون كفاتاً لهم! وما ظنك لو جعل الله هذه الأرض صلبة كالحديـد، أو أشد فلا يسهل علينا أن تكـون كفاتـاً لأمواتنـا، ولا لنا أيضـاً في حياتنـا! ثم هـذه الأرض أودع الله فيها من المصالح، والمعادن شيئاً لم نستطع الوصول إليه حتى الآن.

قوله تعالى: { واختلاف الليل والنهار } يعني في الإضاءة، والظلمة؛ في الحـر، والـبرد؛ في النصـر، والخـذلان؛ في كل شـيء يتعلق بالليـل، والنهار؛ هذه الليالي، والأيام التي تـدور على العـالم كم فَنِي فيها من حي! كم فيها من حي! كم عز فيها من ذليـل! كم ذل فيها من عزيـز! كم حصل فيها من حوادث لا يعلمها إلا الله! هـذا الاختلاف كله آيـات تـدل على تمـام سلطان الله عزّ وجلّ، وعلى تفرده بالوحدانية سبحانه وتعالى.
واختلاف الليل، والنهار أيضاً في الطول، والقصر، كما قـال تعـالى: {يـولج الليل في النهـار ويـولج النهـار في الليـل} [الحج: 61] على وجه خفي لا يشـعر النـاس بـه: يـزداد شـيئاً فشـيئاً، وينقص شـيئاً فشـيئاً ـــ ليست الشمس تطلع فجأة من مدار السـرطان، وفي اليـوم التـالي مباشـرة من مـدار الجـدي! ولكنها تنتقل بينهما شـيئاً فشـيئاً حـتى يحصل الالتئـام، والتوازن، وعدم الكوارث؛ فلو انتقلت فجأة من مدار السـرطان إلى مـدار الجدي لهلك الناس من حر شديد إلى برد شديد؛ والعكس بـالعكس؛ ولكن الله ـــ جل وعلا ـــ بحكمتـه، ورحمته جعلها تنتقل حـتى يختلف الليل والنهار على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

قوله تعـالى: { والفلك الـتي تجـري في البحر بما ينفع النـاس }؛ { الفلك } هي السـفينة؛ وتطلق على المفـرد، كما في هـذه الآيـة؛ وعلى الجمـع، كما في قوله تعـالى: {حـتى إذا كنتم في الفلك وجـرين بهم} [يونس: 22] و{ تجـري } أي تسـير؛ { في البحر } أي في جـوف البحـر: فالغواصات تجري في البحر بما ينفع الناس وهي في جوفـه؛ لأنه يقاتل بها الأعداء، وتحمى بها البلاد؛ وهذا مما ينفع الناس؛ ويجـوز أن تكـون { في } بمعنى «على» أي على سطح البحر، كقوله تعالى: {ومن آياته الجـوار في البحر كالأعلام} [الشورى: 32] ؛ وهذه أيضاً من آيات الله؛ سفن محملة بـالآدميين، والأمتعـة، والأرزاق، تجـري على سـطح المـاء بـدون تقلب، أو إزعاج غالباً! هذا من آيات الله؛ وقد حدث في عصرنا هذا ما هو أعظم آية، وأكـبر منـه؛ وهو الفلك الـذي يجـري في الهـواء؛ فـإذا أشـار الله سـبحانه وتعـالى إلى شـيء من آياته في أمر فما هو أعظم منه يكـون أقـوى دلالة على ذلـك؛ وها هو الطـير مسـخراً في جو السـماء لا يمسـكه إلا الله من آيات الله، كما قال تعالى: {ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السـماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} [النحل: 79] ؛ هذه الطيور لا تحمل إلا نفسـها، فجعلها الله سـبحانه وتعـالى آيـة؛ فكيف بهـذه الطائرات! تكون أعظم، وأعظم.

وقوله تعـالى: { بما ينفع النـاس }: البـاء هنا للمصـاحبة ـــ أي مصـحوبة بما ينفع النـاس من الأرزاق، والبضـائع، والأنفس، والـذخائر، وغيرها؛ لأن { ما } اسم موصـول يفيد العمـوم؛ فالفلك آية من آيـات الله عـزّ وجـلّ الدالة على كمـال قدرتـه، وكمـال رحمتـه، وتسـخيره، كما قـال تعالى في أخرى: {وسخر لكم الفلك لتجـري في البحر بـأمره وسـخر لكم الأنهار} [إبراهيم: 32] .

ومن حكمة الله عزّ وجلّ أنه قدر في الأرض أقواتها ـــ يعـني جعل قدْراً هنا، وقدْراً هنا؛ لأجل أن ينتفع الناس؛ فهناك ناس لا تكـثر عندهم البقول، والخضروات، وما أشبه ذلك؛ يأتيهم من أرض أخرى؛ وهناك نـاس يكـثر عنـدهم نـوع من النخيل لا يوجد في مكـان آخـر، فينقل إلى المكان الآخر، فيتبـادل النـاس الأرزاق، وينتفع النـاس، ويتحركـون ـــ كل فيما قدر له.

قوله تعـالى: { وما أنـزل الله من السـماء من مـاء } يعـني: وفيما أنزل الله سبحانه وتعالى من السماء من ماء آيات لقوم يعقلـون؛ والمـراد بـ{ السـماء } هنا العلـو؛ لأن المطر يـنزل من السـحاب المسـخر بين السماء، والأرض؛ وليس من السماء نفسها.

وقوله تعـالى: { من مـاء } بيـان لـ{ ما } في قوله تعـالى: { وما أنـزل الله }؛ والمـراد به المطر الـذي أنزله الله من السـماء؛ وفيه آيـات عظيمة؛ منها كونه ينزل من السماء؛ فإن الـذي حمله إلى السـماء هو الله عزّ وجلّ؛ كذلك كونه ينزل رذاذاً هذا من آيات الله الدالة على رحمته؛ لأنه لو كـان يـنزل صـباً لأهلك العـالم؛ وكونه يـنزل من السـماء لا يجـري من الأرض هذا أيضاً من آيات اللـه؛ لأجل أن ينتفع به سـهول الأرض، وجبالهـا؛ ولو كان يجري من الأرض لغـرق الأسـفل قبل أن يصل إلى الأعلى؛ كـذلك من آيات الله كونه ينزل لا حاراً، ولا بارداً؛ البردَ ذكره الله تعالى في سياق يدل على أنه نوع من الانتقام، فقال تعالى: {وينزل من السـماء من جبـال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار} [النـور: 43] ؛ وإن كـان الله قد يجعله رحمـة؛ لكن الغـالب أنه انتقام.

قوله تعالى: { فأحيا به الأرض }: الذي يحـيى هو النبـات الـذي فيها ـــ وليس الأرض؛ و{ بعد موتها } أي بعد أن كـانت يابسة هامـدة لا نبـات فيهـا؛ ولهـذا قـال الله سـبحانه وتعـالى في آية أخـرى: {فتصـبح الأرض مخضرة} [الحج: 63] ؛ وفي إحيـاء النبـات آيـات كثـيرة: آيـات دالة على الرحمة؛ وآيات دالة على الحكمة؛ وآيات دالة على القدرة.

آيات دالة على الرحمـة: لما في هـذا الإحيـاء من المنـافع العظيمـة؛ لقوله تعالى: {أخـرج منها ماءها ومرعاها * والجبـال أرسـاها * متاعـاً لكم ولأنعامكم} [النازعات: 31، 33] ، وقوله تعـالى: {فلينظر الإنسـان إلى طعامه * أنا صـببنا المـاء صـباً...} [عبس: 24] إلى قوله تعـالى: { متاعـاً لكم ولأنعـامكم} ؛ فكم من نعم كثـيرة في هـذه الـزروع الـتي أحياها الله سبحانه وتعالى بالمطر لنا، ولأنعامنا قوتاً، ودواءً، وغير ذلك.

وآيات دالة على الحكمـة: وهو أن حيـاة الأرض جـاءت بسـبب - وهو المـاء الـذي نـزل؛ فمنه نأخذ أن الله - جل وعلا - يخلق بحكمـة، ويقـدّر بحكمـة؛ الله - جل وعلا - قادر على أن يقول للأرض: «أنبـتي الـزرع» فتنبت بـدون

مـاء؛ لكن كل شـيء مقـرون بسـبب؛ فكونه جلا وعلا ربط إحيـاء الأرض بنزول الماء يدل على الحكمة، وأن كل شيء له نظام خاص لا يتعـداه منذ خُلق إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

وآيات دالة على القدرة: وهي أنك ترى الأرض خاشعة هامدة سوداء شهباء ما فيها شيء؛ فإذا أنزل الله عليها المطر؛ تـأتي إليها بعد نحو شـهر تجدها تهتز أزهاراً، وأوراقاً، وأشجاراً: قال تعـالى: {فـإذا أنزلنا عليها المـاء اهـتزت وربت إن الـذي أحياها لمحـيي المـوتى إنه على كل شـيء قـدير} [فصـلت: 39] ؛ وهـذه قـدرة عظيمـة؛ واللّهِ! لو أن البشر من أولهم إلى آخرهم اجتمعوا على أن يخرجوا ورقة واحدة من حبة لما استطاعوا؛ وحبة تنبت سـبع سـنابل في كل سـنبلة مائة حبـة؛ أليس هـذا دليلاً على القـدرة العظيمة!!!

قوله تعــالى: { وبث فيها } أي نشــر، وفــرق؛ وهي معطوفة على قوله تعـالى: { أنـزل } أي: وفيما بث في الأرض من كل دابة آيـات لقـوم يعقلــون؛ و{ من كل دابة } أي من كل ما يــدب على الأرض من صــغير، وكبـير، وعاقـل، وبهيم؛ وأتى بــ{ كل } لإفـادة العمـوم الشـامل لجميع الأجنــاس، والأنــواع، والأفــراد؛ ففي الأرض دواب لا يَعلَم بأنواعهــا، ولا أجناسـها - فضـلاً عن أفرادها - إلا الـذي خلقها سـبحانه وتعـالى يعلم هـذه الأجناس، وأنواعهـا، وأفرادهـا، وأحوالهـا، وكل ما يصـلحها؛ ففيها من آيـات الله الدالة على كمـال قدرتـه، ورحمتـه، وعلمـه، وحكمته ما يبهر العقـول؛ تجد هذه الدواب المختلفة المتنوعة، والحشرات الصـغيرة كيف هـداها الله لما خلقت له؛ قال تعـالى: {أعطى كل شـيء خلقه ثم هـدى} [طـه: 50] حتى إنك لترى المـاء يـدخل في جحر النمـل، فـترى النملة تخـرج من هـذا الجحر حاملة أولادهـــا! مــــاذا ترجو من هــــذه الأولاد؟! لكن رحمة أرحم الـراحمين أن جعل في قلب هـذه النملة رحمة لتحمل أولادها عن الغـرق؛ كذلك أيضاً السباع الضارية التي تأكل ما دون أولادها من الحيـوان: تجـدها تحنو على ولدها، وتربيه؛ حتى إذا استقل بنفسه صار عدواً لهـا، أو صـارت عدوة له؛ فالهرة تربي أولادها؛ فإذا استغنوا عنها طردتهم، وصـارت عـدوة لأولادها؛ فهذا من آيات الله عزّ وجلّ؛ ترى بعض الدواب تدب على الأرض؛ ولكن لا تكاد تـدرك جسـمها صـغراً فضـلاً عن أعضـائها، وعما في جوفهـا؛ ومع ذلك فهي عايشة، وتعرف مصالحها، وتعرف جحرها تـأوي إليـه؛ فهـذه من آيات الله عـزّ وجـلّ؛ ومن درس في علم الأحيـاء وجد من هـذا ما يبهر العقول؛ فما بث الله سبحانه وتعالى في الأرض من الـدواب من أجناسـها، وأنواعها، وأفرادها فيه من آيـات الله ما لا يحصـى؛ لأن في كل شـيء منه آية؛ وهو لا يحصى أنواعاً، أو أجناساً فضلاً عن أفرادٍ؛ وهذه الدواب تنقسم باعتبار مصالح الخلق إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة.

الثاني: ما فيه مضرة خالصة، أو راجحة؛ لكن مضرتها لها حِكَم كثـيرة ليس هذا موضع ذكرها.

الثــالث: ما لا مضــرة فيــه، ولا مصــلحة؛ ولكن فيه دلالة على كمــال الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: { وتصريف الريـاح } أي تنويعها في اتجاههـا، وشـدتها، ومنافعهـا؛ و{ الريـاح } جمع ريح؛ وهي الهـواء؛ وفي قـراءة: { الــريح }

بالإفراد؛ والمراد به الجنس؛ والتصريف يشمل تصـريفها من حيث الاتجـاه؛ تصريفها من حيث الشـدة، وعـدمها؛ تصـريفها من حيث المنـافع، وعـدمها؛ فمن حيث الاتجاه جعلها الله سبحانه وتعالى متجهة جنوباً، وشمالاً، وغربـاً، وشرقاً؛ وهذه هي أصول الجهات؛ وهناك جهات أخرى تكون بينها؛ وتسـمى النكبة؛ لأنها ليست في الاسـتقامة في الشـرق، أو الغـرب، أو الشـمال، أو الجنوب؛ فهي نكباء - ناكبة عن الاتجاه الأصلي.

وفي تصـريف هـذه الريـاح آيـات: لو بقيت الـريح في اتجـاه واحد لأضرت بالعالم؛ لكنها تتقابل، فيكسر بعضها حدةَ بعض، ويذهب بعضـها بما جـاء به البعض الآخر من الأذى، والجـراثيم، وغيرهـا؛ كـذلك أيضـاً في تصريفها آيات بالنسبة للسـحاب فبعضـها يجمع السـحاب؛ وبعضـها يفرقـه؛ وبعضها يلقحه؛ وبعضه يدره، فيمطـر، كما قـال تعـالى: {الله الـذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء} [الروم: 48] ، وقال تعالى: {وأرسلنا الريـاح لـواقح فأنزلنا من السـماء مـاءً فأسـقيناكموه وما أنتم له بخازنين} [الحجر: 22] ؛ قال المفسرون: تلقح في السحاب؛ وفي تصريف الرياح أيضاً آيـات للسـفن الشـراعية؛ وفيه أيضـاً آيـات في إهلاك الناس، وإنجاء آخـرين: أهلك الله به عـاداً، وطـرد به الأحـزاب عن رسـول الله (ص)؛ وأنجى الله رسول الله (ص) بهذه الريح من شر الأحزاب؛ ومن تدبر هذا عـرف ما فيها من قـدرة اللـه، ورحمتـه، وعزتـه، وحكمتـه؛ لو أن جميع مكـائن الـدنيا كلها اجتمعت، وصـارت على أقـوى ما يكـون من نَفْث هـواء لا يمكن أن تحـرك سـاكناً إلا فيما حولها فقـط؛ لكن أن تصل من أقصى الشـمال إلى الجنـوب، أو بـالعكس فلا؛ والله - جل وعلا - يقـول للشـيء إذا أراده: {كن فيكـون} [البقـرة: 117] ؛ فتجد الريـاح شـديدة شـمالية؛ وفي لحظة تنعكس، وتكـون جنوبية شـديدة؛ هـذه تمـام القـدرة العظيمة، حيث يدبر الله هذه الرياح بأمر لا يسـتطيعه البشـر؛ ولهـذا صـار تصـريف الريـاح آية من آيـات الله العظيمة الدالة على قدرتـه؛ ثم إن في تصريفها أيضاً مصالح للسفن الجويـة؛ لأن لها تـأثيراً على الطـائرات - كما يقولون؛ وكذلك بالنسبة للسيارات لها تأثير.

قوله تعالى: { والسـحاب المسـخر بين السـماء والأرض } أي وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلـون؛ و{ السـحاب } هو هذا الغمـام، والمـزن؛ وسـمي سـحاباً؛ لأنه ينسـحب انسـحاباً في الجو بإذن الله؛ و{ المسخر } أي المذلل بأمر الله لمصالح الخلق؛ ومن الآيـات فيه أنه دال على القدرة، والرحمة، والحكمة:

أما دلالته على القـدرة: فلأنه لا يسـتطيع أحد أن يفرقه إلا اللـه؛ ولا يستطيع أحد أن يوجهه إلى أي جهة إلا الله؛ ثم من يسـتطيع أن يجعل هـذا السحاب أحياناً متراكماً حتى يكون مثل الجبـال السـود يـوحش من يـراه؛ وأحياناً يكون خفيفاً؛ وأحياناً يكون سريعاً؛ وأحيانـاً يكـون بطيئـاً؛ وأحيانـاً لا يتحرك؛ لأنه يسير بأمر الله.

وأما دلالته على الحكمة: فلأنه يأتي من فوق الرؤوس حـتى يكـون شـاملاً لما ارتفع من الأرض، وما انهبط منها؛ ويأتي قطرات حتى لا ينهدم البنيـان، ولا تشقق الأرض.

وأما دلالته على الرحمـة: فلما يحصل من آثـاره من نبـات الأرض المختلف الذي يعيش عليه الإنسان، والبهائم.

وقوله تعــالى: { بين السـماء والأرض }؛ المــراد بـــ{ الســماء } الســقف المرفــوع؛ و{ الأرض }: أرضــنا هــذه؛ وهــذه البينية لا تقتضي الملاصـقة، ولا المماسة - كما هو ظـاهر؛ وبهـذا يعـرف الـرد على الـذين أنكـروا قـول الرسـول صـلى الله عليه وسـلم: «إن قلـوب بـني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»[1]، وقالوا: «لو كان هذا حقيقة للزم أن تكون أصابع الرحمن داخل أجوافنا؛ وهذا مستحيل؛ فيكون ظاهر الخبر مستحيلاً، ويصرف إلى معنى أن الله يقلب القلوب دون أن تكـون بين أصـابعه»؛ ولا شك أن هـذا تحريف للكلم عن مواضـعه؛ وقد تـبين بهـذه الآية الكريمة أن البينية لا تسـتلزم الملاصـقة، والمماسـة؛ وعليه فلا يكـون من لازم كـون القلوب بين أصابع الرحمن أن تكـون أصـابعه داخل أجوافنـا؛ ويقـال أيضـاً: بدر بين مكة والمدينة - هذا في المكان، وبينهما مسافة واضحة.

قوله تعالى: { لآيات } اللام للتوكيد؛ و «آيات» اسم { إنّ } مــؤخر منصوب بها؛ و «آيات» جمع آيـة؛ وهي العلامة المعيِّنة لمعلومهـا؛ وصـارت تلك آيـات؛ لأنها دالة على كمـال علم اللـه، وقدرتـه، ورحمتـه، وحكمتـه، وسلطانه، وغير ذلك من مقتضى ربوبيته.

قوله تعـالى: { لقـوم يعقلـون } أي لهم عقـول؛ والمـراد هنا عقل الرشد الحامل لمن اتصف به على الانتفاع بالعقـل؛ فالإنسـان العاقل حقـاً إذا تأمل هــذه الأشــياء وجد أن فيها آيــات تــدل على خالقها - جل وعلا -، وموجدها، وعلى ما تضمنته من صفات كماله؛ أما الإنسان المعــرض - وإن كان ذكاؤه قوياً - فإنه لا ينتفع بها - ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بـأنهم لا يعقلـون مع أنهم في العقل الإدراكي - يـدركون به ما ينفعهم، وما يضــرهم - عقلاء؛ لكن نفـاه الله عنهم لعـدم انتفـاعهم بـه، وعـدم عقلهم الرشدي الذي يرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيــة: عظم خلق الســموات، والأرض؛ لقوله تعــالى: { لآيات }؛ فلولا أنه عظيم ما كان آيات.

2 ـــ ومنها: أن السموات متعددة؛ لقوله تعالى: { إن في خلق الســموات }.

3 ـــ ومنهـا: أن السـموات مخلوقـة؛ فهي إذاً كـانت معدومة من قبـل؛ فليست أزلية.

ويتفرع على هذه الفائدة الرد على الفلاسفة الـذين يقولـون بقـدم الأفلاك ـــ يعنون أنها غير مخلوقة، وأنها أزلية أبدية؛ ولهـذا أنكـروا انشـقاق القمر في عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وقـالوا: إن الأفلاك العلوية لا تقبل التغيير، ولا العدم؛ وفسروا قوله تعالى: {اقتربت السـاعة وانشق القمـر} [القمر: 1] بأن المراد ظهور العلم، والنـور برسـالة النـبي صـلى الله عليه وسلم؛ ولا شك أن هذا تحريف باطل مخالف للأحاديث المتواترة الصحيحة في انشقاق القمر انشقاقاً حسياً.

4 ـــ ومن فوائد الآيـة: أنه ينبغي للإنسـان أن يتأمل في هـذه السـموات والأرض ليصل إلى الآيات التي فيها؛ فيكون من الموقنين.

5 ـــ ومنها: أن الآيات في خلق السموات، والأرض متنوعة بحسب ما تدل عليه من القدرة، والحكمة، والرحمة، وما إلى ذلك.

---

(1) أخرجه مسلم ص1140، كتاب القدر، باب 33: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، حديث رقم 6750 [17] 2654.

6 ـــ ومنها: ما في اختلاف الليل، والنهار من الآيات، والعبر التي سبق بيان شيء منها؛ لقوله تعالى: { واختلاف الليل والنهار }.
7 ـــ ومنها: أن اختلاف الليل، والنهار من رحمة الله، وحكمته.
8 ـــ ومنها: ما في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس من آيات الله، ونعمه؛ وسبق تفصيل ذلك.
9 ـــ ومنها: ما تضمنه إنزال المطر من السماء؛ ففيه آيات عظيمة سبقت الإشارة إليها.
10 ـــ ومنها: ما تضمنه قوله تعالى: { فأحيا به الأرض بعد موتها } من الآيات؛ وسبق الكلام عليها؛ وهي آيات عظيمة دالة على كمال القدرة، والرحمة، والعظمة، وعلى إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى.
11 ـــ ومنها: ما تضمنه قوله تعالى: { وبث فيها من كل دابة } من الآيات التي سبق بيان شيء منها.
12 ـــ ومنها: ما في تصريف الرياح من الآيات التي سبق ذكر شيء منها.
13 ـــ ومنها: ما في السحاب المسخر بين السماء، والأرض من الآيات العظيمة؛ وسبق ذكر شيء منها.
14 ـــ ومنها: مدح العقل، وأنه به يستظهر الإنسان الآيات التي تزيده إيماناً، ويقيناً؛ لقوله تعالى: { لقوم يعقلون
15 ـــ ومنها: أن الناس ينقسمون في هذه الآيات إلى قسمين: قسم يعقل ما فيها من الآيات، ويستدل به على ما لله سبحانه وتعالى فيها من كمال الصفات؛ وقسم لا يعقلون ذلك، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: { إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا } [الفرقان: 44] .

القرآن

{)وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (البقرة:165)

التفسير:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى: { وإلهكم إله واحد... }، واستدل على ألوهيته بما في خلق السموات، والأرض، وما ذكر من الآيات، بيّن بعد ذلك أن من الناس ـــ مع هذه الآيات الواضحة ـــ من يتخذ من دون الله أنداداً.

{ 165 } قوله تعالى: { ومن الناس }؛ { مِن } بمعنى بعض؛ { مَن يتخذ }؛ { مَن }: اسم موصول مبتدأ مؤخر؛ وعند بعض النحويين أن { مِن } مبتدأ؛ وأن { مَن } خبره؛ لكن المشهور ما قلناه أولاً.

وقوله تعالى: { من يتخذ من دون الله أنداداً } أي من يجعل من دون الله آلهة أنداداً؛ و{ أنداداً } جمع ندّ؛ وهو الشبيه النظير؛ لأنه من: نادّه ينادّه إذا كان نظيراً له مكافئاً له.

قوله تعالى: { يحبونهم كحب الله } أي يحبون تلك الأنداد؛ وجاء الضمير جمعاً للعاقل دون أن يأتي بضمير المؤنث - مع أن الأكثر من هذه الأنداد أنها لا تعقل؛ وغير العاقل يكون ضميره مؤنثاً - باعتبار عقيدة عابديها؛ لأنهم يعتقدون أنها تنفع وتضر.

وجملة: { يحبونهم } صفة لأنداد؛ ويحتمل أن تكون استئنافية لبيـان معـنى اتخاذهم أنداداً.

وقوله تعالى: { كحب الله } أي كحبهم لله؛ أو كحب المؤمنين للــه؛ والأول أظهر؛ ولهذا جعلوهم أنداداً - أي هؤلاء جعلوا هذه الأصنام مســاوية لله في المحبة فيحبونهم كحب الله -؛ فهم يحبون هذه الأصنام، ويعتقــدون أنها تنفع، وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتخذ محبوباً إلى الله عز وجــل، أو غير محبـوب إليـه؛ فمن اتخذ النـبي صـلى الله عليه وسـلم نـداً لله في المحبة، والتعظيم، كمن اتخذ صـنماً من شـجر، أو حجـر؛ لأن النـبي صـلى الله عليه وسلم، وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون نـداً لله عز وجـل؛ ولهــذا لما نــزلت: {إنكم وما تعبــدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} [الأنبياء: 98]، وكان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبـدوا من دون الله، استثناهم الله سبحانه وتعالى في قوله: {إن الـذين سـبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} [الأنبياء: 101] - ولو عُبِدوا من دون الله -؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل قال له: «ما شاء الله وشـئت»: «أجعلتني لله نداً!!! بل ما شاء الله وحـده»[1]؛ فـأنكر عليه أن يجعله نـداً لله.

قوله تعـالى: { والـذين آمنـوا أشد حبـاً لله }؛ { الـذين }: مبتـدأ؛ و{ أشد }: خـبره؛ و{ حبـاً }: تميـيز؛ لأنها بعد أفعل تفضـيل؛ و{ أشد } اسم تفضيل يقتضي مفضلاً، ومفضـلاً عليـه؛ فالمفضـل: حب الـذين آمنـوا لله؛ والمفضل عليه: إما حب هؤلاء لأصـنامهم؛ فيكـون المعـنى: أن الـذين آمنوا أشد حباً لله من هـؤلاء لأصـنامهم؛ وإما أن المفضل عليه حب هـؤلاء للـه؛ فيكـون المعـنى: أن الـذين آمنـوا أشد حبـاً لله من هـؤلاء للـه؛ وكلا الاحتمـالين صـحيح؛ أما الأول فلأن حب المؤمـنين لله يكـون في السـراء، والضراء؛ وحب هؤلاء لأصنامهم في السـراء فقـط؛ وعند الضـراء يلجـؤون إلى الله عز وجل؛ فإذاً ليس حبهم الأصـنام كحب المؤمـنين لله عز وجـل؛ ثم إن بعضـهم يصـرح، فيقـول: «ما نعبـدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»؛ وأما الاحتمال الثاني في الآية فوجه التفضيل ظاهر؛ لأن حب المؤمـنين لله خالص لا يشوبه شيء؛ وحب هؤلاء لله مشترك: يحبون الله، ويجعلون معه الأصنام نداً.

قوله تعـالى: { ولو يـرى الـذين ظلمـوا إذ يـرون العـذاب } فيها قراءات؛ أولاً: { ولو يرى الذين ظلموا إذ يَرون العذاب } بيـاء الغيبة في { يرى }، وبفتح الياء في { يَرون }؛ ثانياً: { ولو ترى الذين ظلمـوا إذ يـرون العذاب } بتاء الخطاب في { ترى }، وبفتح الياء في { يَرون }؛ وبضـمها: { يُرون }؛ فالقراءات إذاً ثلاث.

قوله تعـالى: { الـذين ظلمـوا }؛ الظلم في الأصل هو النقص؛ ومنه قوله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً} [الكهـف: 33] أي لم تنقص؛ ولكنه يختلف بحسب السياق؛ فقوله تعالى: { الذين ظلموا } هنــا: أي الذين نقصوا الله حقه، حيث جعلوا له أنداداً؛ وهم أيضاً ظلموا أنفسـهم - أي نقصوها حقها -؛ لأن النفس أمانة عندك يجب أن ترعاها حق رعايتهـا؛ ولهذا قال تعالى: {قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسـاها} [الشـمس: 9، 10] ؛ فالنفس أمانة عندك؛ فإذا عصيت ربك فإنك ظالم لنفسك.

---

[1] سبق تخريجه 1/217.

قوله تعالى: { إذ يرون العذاب }؛ { إذ } ظرف بمعنى «حين»؛ أي حين يرون العذاب؛ وقال بعض المعربين: { إذ } هنا بمعـنى «إذا»؛ وتـأتي «إذ» بمعــنى «إذا»؛ لأنها إذا تعلقت بمضــارع لا تكــون للماضــي؛ إذ إن الماضي للماضي؛ والمضارع للمستقبل؛ فهنا الآية للمستقبل؛ فتكون «إذ» بمعنى «إذا»؛ ونظيرها قوله تعالى: {إذ الأغلال في أعناقهم} [غـافر: 71] أي إذا الأغلال في أعنــــاقهم؛ فكلمة { إذ } إذا كــــان العامل فيها فعلاً مضارعاً فهي للمستقبل بمعنى «إذا»؛ والحكمة في كونها جــاءت للماضي - وهي في الحقيقة للمستقبل - بيان تحقق وقوعه؛ فصـار المسـتقبل كأنه أمر مــــاض؛ ونظــــيره في «الفعــــل» قوله تعــــالى: {أتى أمر الله فلا تسـتعجلوه} [النحـل: 1]ـ ؛ {أتى} بمعـنى المسـتقبل؛ لأنه قـال: {فلا تستعجلوه}ـ ؛ ولو كان قد أتى لم يصح أن يقال: {فلا تستعجلوه} .

قوله تعالى: { إذ يرون العذاب }؛ على قراءة { يَـرون } بفتح اليـاء الرؤية هنا بصرية؛ ولهـذا لم تنصب إلا مفعـولاً واحـداً؛ وكـذلك على قـراءة { يُرون } بضم الياء هي بصرية؛ لكنها تعدت إلى مفعـولين بـالهمزة؛ فهي رباعية؛ لأنها من: أراه يريه؛ فـ{ يُرون } أي يُجعلون يَرون؛ وأصل «أراه»: «أرآه» لكن حــذفت الهمــزة تخفيفــاً؛ والحاصل أن { يُــرون } هي رؤية بصرية - أي يريهم الله عز وجل العـذاب -؛ و{ العـذاب } معنـاه العقوبة - والعياذ بالله - التي تحصل لهم على أفعالهم.

قوله تعالى: { أن القـوة لله جميعـاً }؛ اللام هنا للاختصـاص - يعـني أن المختص بالقوة الكاملة من جميع الوجوه هو الله -؛ و{ جميعـاً } حـال من { القوة }؛ أي حال كونها جميعـاً؛ فلا يشذ منها شـيء؛ فكل القـوة لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: { وأن الله شديد العـذاب } معطوفة على قوله تعـالى: { أن القوة لله جميعاً }؛ و{ شديد العذاب } أي قوي العقوبة.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: أن بعض الناس يجعل لله نداً في المحبة يحبه كحب الله؛ لقوله تعالى: { يحبونهم كحب الله

2 ـــ ومنها: أن محبة الله من العبادة؛ لأن الله جعل من سـوّى غـيره فيها مشركاً متخـذاً لله نـداً؛ فالمحبة من العبـادة؛ بل هي أسـاس العبـادة؛ لأن أســاس العبــادة مبــني على الحب، والتعظيم؛ فبــالحب يفعل المــأمور؛ وبالتعظيم يجتنب المحظـور؛ هـذا إذا اجتمعـا؛ وإن انفـرد أحـدهما اسـتلزم الآخر.

3 ـــ ومنهـا: أن من جعل لله نـداً في المحبة فهو ظـالم؛ لقوله تعـالى: { ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب }.

4 ـــ ومنها: إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: { إذ يرون العذاب }.

5 ـــ ومنها: إثبات القوة لله؛ لقوله تعالى: { أن القوة لله جميعـاً }؛ فـإن قيل: كيف يتفق قوله تعالى: { جميعاً } مع أن للمخلوق قوة؟

فالجواب: أن قوة المخلـوق ليست بشـيء عند قـوة الخـالق؛ وهـذا كقوله تعالى: {فإن العـزة لله جميعـاً} [النسـاء: 139 مع أن الله أثبت للمخلـوق عزة؛ وهكذا نقول في بقية الصفات الـتي يشـترك فيها الخـالق والمخلـوق في أصل الصفة.

6 ــــ ومنهــا: أن المــؤمن محب لله عز وجل أكــثر من محبة هــؤلاء لأصنامهم؛ لقوله تعالى: { والذين آمنوا أشد حباً }.
7 ــــ ومنهـا: أنه كلما ازداد إيمـان العبد ازدادت محبته للـه؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى رتب شدة المحبة على الإيمان؛ وقد عُلم أن الحكم إذا عُلِّق على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، وينقص بنقصه؛ فكلما ازداد الإنسان إيماناً بالله عز وجل ازداد حباً له.
8 ــــ ومنهـا: شـدة عـذاب الله عز وجل لهـؤلاء الظـالمين؛ لقوله تعـالى: { وأن الله شـديد العـذاب }؛ فـإن قيـل: كيف يكـون الله عز وجل شـديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟
فالجواب: أن هذا من كمـال عـزه، وسـلطانه، وعدلـه، وحكمتـه؛ لأنه أنـذر مستحق العذاب، وأعـذر منهم بإرسـال الرسـل؛ فلم يبق لهم حجة تـوجب تخفيف العــذاب عنهم؛ فلو رحم هــؤلاء الكــافرين به لكــان لا فــرق بينهم والمؤمنين به.
وشـدة عـذاب الله لهـؤلاء مـذكور في القـرآن، والسـنة: قـال الله تعالى: {وإن يستغيثوا} [الكهـف: 29] أي أهل النـار {يغـاثوا بمـاء كالمهل يشوي الوجوه} [الكهف: 29] ؛ فما بالك لو وصلت إلى الأمعاء؟!!؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: {وسـقوا مـاءً حميمـاً فقطع أمعـاءهم} [محمـد: 15] ؛ ومع ذلك تتقطع، وتلتئم بسرعة كما قال تعالى في جلودهم: {كلما نضجت جلودهم بـدلناهم جلـوداً غيرهـا} [النسـاء: 56] ؛ و {كلمـا} تفيد التكرار؛ وجوابها يفيد الفورية؛ والحكمة: {ليذوقوا العذاب} [النساء: 56] ؛ وقــال تعــالى: {إن شــجرة الزقــوم * طعــام الأثيم * كالمهل يغلي في البطـون * كغلي الحميم * خـذوه فـاعتلوه إلى سـواء الجحيم * ثم صـبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم} [الـدخان: 43 ــــ 48] ؛ ويقـال له أيضـاً: تبكيتـاً، وتوبيخـاً، وتنـديماً، وتلويمـاً، { ذق }؛ ويـذكّر أيضـاً بحاله في الـدنيا فيقـال لـه: { إنك أنت العزيز الكـريم }؛ فحينئذ يتقطع ألمـاً، وحسـرة؛ ولا شك أن المؤمنين يسرون بعذاب أعداء الله؛ فعذابهم رحمة للمؤمنين، كما قـال تعـالى: { فـاليوم الـذين آمنـوا من الكفـار يضـحكون * على الأرائك ينظرون }.

القرآن

{)إِذْ تَبَــرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُــوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُــوا وَرَأَوُا الْعَــذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) (البقرة:166)

التفسير:

{ 166 } قوله تعـالى: { إذ تـبرأ الـذين اتبعـوا }؛ { إذ } ظـرف عامله محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ تبرأ؛ والمراد بالذكر هنا: الـذكر للغـير، والتـذكر أيضاً؛ فالله سبحانه وتعالى يُذكِّرنا، ويأمرنا أيضاً أن نذكر لغيرنا؛ و{ تـبرأ } أي تخلى، وبعُد { الـذين اتُّبِعـوا }: وهم الرؤسـاء، والسـادة يتـبرءون من { الـذين اتَّبعـوا }: وهم الأتبـاع، والضـعفاء، وما أشـبههم؛ فمن ذلك مثلاً: رؤساء الكفر يدعون الناس إلى الكفر، مثل فرعـون: فقد دعا إلى الكفـر؛ فهو متَّبَع؛ وقومه متَّبِعون؛ وكذلك غيره من رؤساء الكفر، والضـلال، فـإنهم أيضاً متَّبَعـون؛ ومن تبعهم فهو متّبِـع، فهـؤلاء يتـبرأ بعضـهم من بعض؛ وقد

ذكر الله سبحانه وتعالى مناقشة بعضهم لبعض، ومحاجة بعضهم بعضاً في عدة آيات.

ولا يشمل قوله تعالى: { إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا } من اتبع أئمة الهدى؛ فالمتبعون للرسل لا يتبرأ منهم الرسل؛ والمتبعون لأئمة الهدى لا يتبرأ منهم أئمة الهدى؛ لقوله تعالى: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} [الزخرف: 67] ؛ فالأخلاء، والأحبة يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض إلا المتقين.

قوله تعالى: { ورأوا العذاب }؛ أمامنا الآن فعل ماض في { تبرأ }، وفعل ماض في { رأوا } ــــ مع أن هذا الأمر مستقبل ــــ؛ لكن لتحقق وقوعه عبر عنه بالماضي؛ وهذا كثير في القرآن.

وقوله تعالى: { ورأوا العذاب } أي رأوه بأعينهم، كما قال تعالى: {ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً} [الكهف: 53] ؛ و{ العذاب } هو العقوبة التي يعاقب الله بها من يستحقها.

قوله تعالى: { وتقطعت بهم الأسباب }؛ الباء هنا إما أن تكون بمعنى «عن»؛ أو تكون صلة بمعنى أنهم متشبثون بها الآن، ثم تنقطع بهم كما ينقطع الحبل بمن تمسك به للنجاة من الغرق؛ و{ الأسباب } جمع سبب؛ وهو ما يتوصل به إلى غيره؛ والمراد بها هنا كل سبب يؤملون به الانتفاع من هؤلاء المتبوعين، مثل قولهم: {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم} [العنكبوت: 12] ، وقول فرعون لقومه: {ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} [غافر: 29] ؛ فهذه الأسباب التي سلكها المتبعون ظناً منهم أنها تنقذهم من العذاب إذا كان يوم القيامة تقطعت بهم؛ ولا يجدون سبيلاً إلى الوصول إلى غاياتهم؛ وفسر ابن عباس رضي الله عنهما { الأسباب } هنا بالمودة؛ أي تقطعت بهم المودة؛ وهذا التفسير على سبيل التمثيل؛ والآية أعم من ذلك؛ ووجه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية في سياق محبة هؤلاء المشركين لأصنامهم.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أن المتبوعين بالباطل لا ينفعون أتباعهم؛ لقوله تعالى: { إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا }؛ ولو كانوا ينفعونهم لم يتبرؤوا منهم.

2 ــــ ومنها: أن الأمر لا يقتصر على عدم النفع؛ بل يتعداه إلى البراءة منهم، والتباعد عنهم؛ وهذا يكون أشد حسرة على الأتباع مما لو كان موقفهم سلبياً.

3 ــــ ومنها: ثبوت العقاب؛ لقوله تعالى: { ورأوا العذاب }.

ويتفرع عليه ثبوت البعث.

4 ــــ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يجمع يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين توبيخاً، وتنديماً لهم؛ ويتبرأ بعضهم من بعض؛ لأن هذا ــــ لا شك ــــ أعظم حسرة إذا صار متبوعه الذي كان يعظمه في الدنيا يتبرأ منه وجهاً لوجه.

5 ــــ ومنها: أن جميع الأسباب الباطلة التي لا تُرضي الله ورسوله، تتقطع بأصحابها يوم القيامة، وتزول، ولا تنفعهم.

6 ــــ ومنهـا: أن من اسـتغاث بالرسـل، أو غـيرهم من المخلوقـات فيما لا يقـدر عليه إلا اللـه، فقد ضل في دينـه، وسـفه في عقلـه، وأتى الشـرك الأكبر.

القرآن

{)وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُـرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (البقرة:167)

التفسير:

{ 167 } قوله تعالى: { وقال الذين اتبعوا }: هم الأتباع.

قوله تعـــالى: { لو أن لنا كـــرة فنتـــبرأ منهم }؛ { لو } هنا ليست شــرطية؛ ولكنها للتمــني؛ يعــني: ليت لنا كــرة فنتــبرأ؛ والــدليل على أنها للتمني أن الفعل نصب بعـدها؛ وهو منصـوب بــ«أنْ» المضـمرة بعد الفـاء السـببية؛ و«لـو» تـأتي في اللغة العربية على ثلاثة أوجـه: تكـون شـرطية؛ وتكـون للتمـني؛ وتكـون مصـدرية؛ فــ{ لو } في قوله تعـالى: {وودوا لو تكفرون} [الممتحنة: 2] مصدرية؛ و{ لو } في قوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتلـوا} [البقـرة: 253] شـرطية؛ { لو } في قوله تعـالى: { لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم } للتمني؛ ومثلها قوله تعالى: {فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين} [الشعراء: 102] .

و«الكـرة» الرجـوع إلى الشـيء؛ والمـراد هنـا: الرجـوع إلى الـدنيا؛ فنتبرأ منهم في الـدنيا إذا رجعنا كما تـبرءوا منا هنا في الآخـرة؛ فنجـازيهم بما جازونا به؛ لكن أنى لهم ذلك!!! فهذا التمني لا ينفعهم؛ ولذلك قال الله سـبحانه وتعـالى: { كـذلك يـريهم الله أعمـالهم حسـرات عليهم وما هم بخـارجين من النـار }؛ و{ كـذلك }: الكـاف: اسم بمعـنى «مثـل»؛ وهي مفعول مطلق عامله الفعل بعده؛ وهذا كثـيراً ما يـأتي في القـرآن، كقوله تعالى: {وكذلك يفعلون} [النمل: 3] ، وقوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً} [البقرة: 143] .

وقوله تعالى: { يريهم } من: أرى يُري؛ فزيادة الهمـزة جعلتها تنصب ثلاثة مفاعيل؛ الأول: الضمير، والثاني: { أعمالهم }؛ والثالث: { حسرات }؛ و{ حسرات } جمع حسرة؛ وهي الندم مع الانكماش، والحزن؛ فهـؤلاء الأتبـاع شـعورهم بالنـدم، والخيبـة، والخسـران لا يتصـور؛ فالأعمـال الـتي عملوها لهؤلاء المتبوعين صارت - والعياذ بالله - خسارة عليهم، وندماً؛ ضــاعت بها دنياهم، وآخرتهم؛ وهذا أعظم ما يكون من الحسرة.

قوله تعالى: { وما هم بخارجين من النار }، أي أنهم خالدون فيها.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أن هؤلاء الأتباع يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليتبرءوا من متبوعيهم كما تبرأ هؤلاء منهم في الآخرة؛ وهو غير ممكن؛ وما يزيدهم هذا إلا حسرة؛ ولهذا قال الله تعالى: { كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم }.

2 ــــ ومنهـا: تحسر هـؤلاء، وأمثـالهم الـذين فـاتهم في هـذه الـدنيا العمل الصالح؛ فإنهم يتحسرون في الآخرة تحسراً لا نظير له لا يدور في خيــالهم اليوم، ولا في خيال غيرهم؛ لأنه ندم لا يمكن العتبى منه.

3 ـــ ومنهـا: إثبـات نكـال الله بهم؛ لقوله تعـالى: { كـذلك يـريهم الله أعمالهم حسرات عليهم }.
4 ـــ ومنهـا: أن المشـركين مخلـدون في النـار لا يخرجـون منهـا؛ لقوله تعالى: { وما هم بخارجين من النار }؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الخلود الأبـدي في النـار في ثلاثة مواضع من القـرآن: في سـورة النسـاء؛ وفي سـورة الأحـزاب؛ وفي سـورة الجن؛ وبه يبطل قـول من ادعى أن النـار تفنى؛ لأن خلود الماكث الأبدي يدل على خلود مكانه.
5 ـــ ومنها: إثبات النار، وأنها حق.

القرآن

{)يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة:168)

التفسير:

{ 168 } هذه الآية جاءت في سورة البقرة؛ وسورة البقـرة مدنيـة؛ وقد سـبق أنه جـاء أيضـاً مثلهـا: {يا أيها النـاس اعبـدوا ربكم الـذي خلقكم} [البقرة: 21] ؛ وقد ذكر كثير من المؤلفين في أصول التفسير أن الغالب في السور المدنية أن يكون الخطاب فيها بـ {يا أيها الذين آمنوا} [البقـرة: 104] ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما هـاجر إلى المدينة صـارت المدينة بلاد إسـلام؛ وهي أول بلد إسـلامي يحكمه المسـلمون في هـذه الرسـالة؛ فصـار التوجه إليها بالخطـاب بــ{ يا أيها الـذين آمنـوا }؛ لكنها ليست قاعـدة؛ ولكنها ضـابط يخـرج منه بعض المسـائل؛ لأن من السـور المدنية فيها { يا أيها الناس }، كسورة النساء، وسورة الحجرات.

قوله تعالى: { يا أيها الناس }؛ { الناس } أصلها: الأناس؛ وحذفت الهمزة منها تخفيفاً؛ والمراد بـ{ الناس } بنو آدم.

قوله تعالى: { كلوا مما في الأرض }؛ «مِن» يحتمل أن تكون لبيـان الجنس؛ ويحتمل أن تكــــون للتبعيض؛ لكن كونها لبيــــان الجنس أولى؛ ويرجحه قوله تعالى: {هو الـذي خلق لكم ما في الأرض جميعـاً} [البقـرة: 29] ؛ أي كلوا من هذا ما شـئتم؛ ويشـمل كل ما في الأرض من أشـجار، وزروع، وبقول، وغيرها؛ ومن حيوان أيضاً؛ لأنه في الأرض.

قوله تعـالى: { حلالًا }: منصـوبة على الحـال من «مـا» ؛ أي كلـوه حال كونه حلالاً - أي محللاً -؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و{ طيباً } حـال أخرى - يعني: حال كون طيبـاً - مؤكد لقوله تعـالى: { حلالًا }؛ ويحتمل أن يكون المراد بــ «الحلال» ما كـان حلالاً في كسـبه؛ وبــ «الطيب» ما كـان طيبـاً في ذاتـه؛ لقـول الله سـبحانه وتعـالى: {وأحل الله الـبيع} [البقـرة: 275] ، وقوله تعالى في الميتـة، ولحم الخـنزير: {فإنه رجس} [الأنعـام: 145] ؛ وهـذا أولى؛ لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد.

قوله تعالى: { ولا تتبعوا خطوات الشيطان }؛ { لا } ناهية؛ و «اتباع الخطوات» معناه: أن يتابع الإنسان غيره في عملـه، كمتبع الأثر الـذي يتبع أثر البعـير، وأثر الدابـة، وما أشـبهها؛ و{ خطـوات الشـيطان } أي أعماله التي يعملها، ويخطو إليهـا؛ وهو شـامل للشـرك فما دونـه؛ فـإن الشـيطان يأمر بالفحشاء، والمنكر؛ قال تعالى: {إنما يأمركم بالسـوء والفحشـاء وأن تقولـوا على ما لا تعلمـون} [البقـرة: 169] ، وقـال تعـالى: {ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر} [النور: 21] ؛ فكل شيء حرمه الله فهو من خطوات الشيطان سواء كان عن اسـتكبار، أو تكـذيب، أو استهزاء، أو غير ذلك؛ لأنه يأمر به، وينادي به، ويدعو إليه؛ و{ الشـيطان } من: شـطن؛ فـالنون أصـلية؛ وليس من «شـاط»؛ لأنه مصـروف في القرآن؛ قال تعالى: {وما هو بقـول شـيطان رجيم} [التكـوير: 25] ؛ ولو كان من «شاط» لكانت النـون زائـدة، والألف زائـدة؛ فيكـون ممنوعـاً من الصرف؛ إلا أنه قد يقال: لا يمنع من الصرف؛ لأن مؤنثـه: شـيطانة؛ والـذي يمنع من الصــرف إذا كـان مؤنثه «فعلى»، كــ«سـكران»، و«سـكرى»؛

ومعنى «شـطن» بعُـد؛ فسـمي الشـيطان بـذلك لبعـده عن رحمة الله عز وجل.

قوله تعـالى: { إنه لكم عـدو مـبين }؛ محل هـذه الجملة اسـتئنافية تعليل لما قبلها؛ والعـدو ضد الصـديق؛ وإن شـئت فقـل: ضد الـولي؛ لقوله تعالى: { لا تتخذوا عـدوي وعـدوكم أوليـاء }؛ وقد حـده الفقهـاء - رحمهم الله - بقولهم: من سـره مسـاءة شـخص؛ أو غمه فرحه فهو عـدو؛ فالعـدو من يحزن لفرحك، ويُسَرّ لحزنك.

وقوله تعالى: { مبين } أي ظاهر العداوة؛ وقد كـان عـدواً لأبينا آدم (ص)؛ فما زالت عداوته إلى قيـام السـاعة؛ وقـال تعـالى عنـه: {لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضـاً * ولأضـلنَّهم ولأمـنينَّهم ولآمـرنَّهم فليبتكنَّ آذان الأنعام ولآمرنَّهم فليغيرنَّ خلق الله} [النساء: 118، 119] ، ثم قال تعالى: {ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسـراناً مبيناً} [النساء: 119] .

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: إظهـار منة الله على عبـاده، حيث أبـاح لهم جميع ما في الأرض من حلال طيب؛ لقوله تعــالى: { يا أيها النــاس كلــوا مما في الأرض حلالاً طيباً }.

2 ـــ ومنهـا: أن الأصل فيما في الأرض الحل والطيب حـتى يتـبين أنه حرام.

3 ـــ ومنها: أن الكفار مخاطبون بفـروع الشـريعة؛ لقوله تعـالى: { يا أيها الناس }؛ وهم داخلون في هذا الخطاب؛ ومخـاطبتهم بفـروع الشـريعة هو القول الصحيح؛ ولكن ليس معـنى خطـابهم بها أنهم ملزمـون بها في حـال الكفر؛ لأننا نـدعوهم أولاً إلى الإسـلام، ثم نـلزمهم بأحكامـه؛ وليس معـنى كونهم مخاطبين بها أنهم يؤمرون بقضائها؛ والدليل على الأول قوله تعالى: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} [التوبة: 54] ؛ فكيف نلزمهم بـأمر لا ينفعهم؛ هـذا عبث، وظلم؛ وأما الـدليل على الثاني فقوله تعالى: {قل لـلذين كفـروا إن ينتهـوا يغفر لهم ما قد سـلف} [الأنفال: 38] ؛ ولهذا لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أحداً ممن أسلم بقضاء ما فاته من الواجبات حال كفره؛ والفائدة من قولنا: إنهم مخاطبون بها – كما قال أهل العلم – زيادة عقوبتهم في الآخرة؛ وهذا يدل عليه قوله تعـالى: (إلا أصـحاب اليمين* في جنـات يتسـاءلون* عن المجـرمين* ما سـلككم في سـقر، قـالوا لم نك من المصـلين* ولم نك نطعم المسـكين، وكنا نخـوض مع الخائضـين* وكنا نكـذب بيـوم الـدين * حـتى أتانا اليقين} [المدثر: 39 ـــ 47] .

4 ـــ ومن فوائد الآية: تحريم اتباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعـالى: { ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عـدو مـبين }؛ ومن ذلك الأكل بالشـمال، والشرب بالشـمال؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «لا يأكل أحـدكم بشــماله، ولا يشــرب بشــماله؛ فــإن الشــيطان يأكل بشــماله، ويشــرب بشماله»[1]؛ ومن اتباع خطـوات الشـيطان القيـاس الفاسـد؛ لأن أول من قاس قياساً فاسداً هو إبليس؛ لأن الله لما أمره بالسجود لآدم عارض هـذا الأمر بقياس فاسد: قال: {أنا خير منه خلقتـني من نـار وخلقته من طين}

[1] أخرجه مسلم ص1039، كتاب الأشربة، باب 13: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم 5265 [105] 2020.

[ص~: 38] ؛ يعني: فكان الأولى هو الذي يسجد؛ فهذا قيـاس في مقابلة النص؛ فاسد الاعتبـار؛ ومن اتبـاع خطـوات الشـيطان أيضـاً الحسـد؛ لأن الشيطان إنما قال ذلك حسداً لآدم؛ وهو أيضاً دأب اليهود، كما قال تعالى: {ود كثير من أهل الكتـاب لو يـردونكم من بعد إيمـانكم كفـاراً حسـداً من عند أنفسهم} [البقـرة: 109] ؛ وكل خُلق ذميم، أو عمل سـوء، فإنه من خطوات الشيطان.

5 ـــ ومن فوائد الآية: تأكيد عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: { إنه لكم عدو مبين }؛ فإن الجملة مؤكدة بـ «إن» .

6 ـــ ومنهـا: ظهـور بلاغة القـرآن؛ وذلك لقـرن الحُكم بعلتـه؛ فـإن قـرن الحكم بعلته له فوائد؛ منها معرفة الحكمة؛ ومنها زيادة طمأنينة المخاطب؛ ومنها تقوية الحكم؛ ومنها عموم الحكم بعموم العلة ـــ يعني القيـاس ـــ؛ مثاله قوله تعالى: {قل لا أجد فيما أوحي إلي محرمـاً على طـاعم يطعمه إلا أن يكـون ميتة أو دمـاً مسـفوحاً أو لحم خـنزير فإنه رجس} [الأنعـام: 145] ؛ فإن مقتضى هذا التعليل أن كل ما كان نجساً فهو محرم.

7 ـــ ومنها: التحذير الشـديد من اتبـاع خطـوات الشـيطان؛ لقوله تعـالى: { إنه لكم عدو مبين }؛ وما أظن أحداً عاقلاً يؤمن بعداوة أحد ويتبعه أبداً.

القرآن

{)إِنَّمَا يَـأْمُرُكُمْ بِالسُّـوءِ وَالْفَحْشَـاءِ وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُـونَ) (البقرة:169)

التفسير:

{ 169 } قوله تعالى: { إنما يأمركم بالسوء والفحشـاء }؛ { إنما } أداة حصـر؛ و«الحصـر» إثبـات الحكم في المـذكور، ونفيه عما سـواه، كما لو قلت: «إنما القائم زيـد»؛ أثبتَّ القيـام لزيـد، ونفيته عمن سـواه؛ يعـني ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء... إلخ.

وقوله تعـالى: { يـأمركم } أي الشـيطان؛ والخطـاب للنـاس جميعـاً؛ لأن الآيات كلها سياقها للناس.

وقوله تعالى: { بالسوء } أي كل ما يسـوء من المعاصي الصـغيرة؛ أي السيئات؛ و{ الفحشاء } أي المعاصي الكبيرة، كالزنـا؛ فهو يـأمر بهـذا، وبهذا؛ مع أن المعاصي الصـغار تقع مكفّـرة بالأعمـال الصـالحة إذا اجتنبت الكبائر؛ لكنه يأمر بها؛ لأنه إذا فعلها الإنسـان مـرة بعد أخـرى فإنه يفسـق، ويقسو قلبه؛ ثم لا ندري أتقوى هذه الأعمال الصالحة على تكفير السيئات، أم يكون فيها خلل، ونقص يمنع من تكفيرها السيئات.

قوله تعـالى: { وأن تقولـوا على الله ما لا تعلمـون } معطـوف على قوله تعالى: { بالسـوء } يعـني أن الشـيطان يـأمركم أن تقولـوا على الله ما لا تعلمون ـــ أي تنسـبوا إليه القـول من غـير علم ـــ؛ وعطف { أن تقولـوا على الله ما لا تعلمــون } على { الســوء والفحشــاء } من بــاب عطف الخاص على العام؛ فإنه داخل إما في السوء، أو الفحشـاء؛ وهو أيضـاً إلى الفحشاء أقرب.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيـة: أن للشـيطان إرادة، وأمـراً؛ لقوله تعـالى: { إنما يأمركم }.

2 ــــ ومنهـا: أن الشـيطان لا يـأمر بـالخير؛ لقوله تعـالى: { إنما يـأمركم بالسـوء والفحشـاء }؛ وهـذا حصر بــ{ إنما }؛ وهو يـوازن: ما يـأمركم إلا بالسوء والفحشاء.
3 ــــ ومنهـا: أن الإنسـان إذا وقع في قلبه همّ بالسـيئة أو الفاحشة فليعلم أنها من أوامر الشـيطان، فليسـتعذ بالله منـه؛ لقوله تعـالى: {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم} [الأعراف: 200] .
4 ــــ ومنها: أن القول على الله بلا علم من أوامر الشيطان؛ لقوله تعالى: { وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون }؛ والقـول على الله سـبحانه وتعـالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: أن يقـول على الله ما يعلم أن الله قالـه؛ هـذا جـائز؛ ويصل إلى حد الوجوب إذا دعت الحاجة إليه.
القسم الثاني: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه؛ فهـذا حـرام؛ وهذا أشد الأقسام لما فيه من محادة الله.
القسم الثالث: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله؛ وهذا حرام أيضاً.
فصار القول على الله حراماً في حالين؛ إحداهما: أن يقـول على الله ما لا يعلم أن الله قاله، أم لم يقله؛ والثانية: أن يقــول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه.
وقوله تعالى: { وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } يشــمل القــول على الله في ذاته ، كالقائلين أنه سبحانه وتعـالى ليس بـداخل العـالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا فوق العالم، ولا تحت؛ هؤلاء قـالوا على الله بلا علم؛ بل بما يُعلم أن الأمر بخلافه.
ويشمل القول على الله في أسمائه ، مثل أن يقول: إن أسـماء الله سبحانه وتعـالى أعلام مجـردة لا تحمل معـاني، ولا صـفات: فهو سـميع بلا سمع؛ وبصير بلا بصر؛ وعليم بلا علم؛ فهو عليم بذاته ــــ لا يعلم هو وصفه
ويشــمل أيضــاً من قــال في صـفات الله ما لا يعلم، مثل أن يثبتــوا بعض الصـفات دون بعض، فيقولـون فيما نفـوه: أراد به كـذا، ولم يـرد به كـذا؛ فقالوا على الله بلا علم من وجهين:
الوجه الأول: أنهم نفوا ما أراد الله بلا علم.
والثــاني: أثبتــوا ما لم يعلمــوا أن الله أراده؛ فقــالوا مثلاً: { اســتوى على العرش } [الأعراف: 54] بمعنى استولى عليه؛ قالوا على الله بلا علم من وجهين؛ الوجه الأول: نفيهم حقيقة الاسـتواء بلا علم؛ والثـاني: إثبـاتهم أنها بمعنى الاستيلاء بلا علم.
كــذلك يشــمل القــول على الله بلا علم في أفعاله ، مثل أن يثبتــوا أسباباً لم يجعلها الله أسباباً، كمثل المنجمين، والخرَّاصين، وشبههم؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم في أفعاله، ومخلوقاته؛ فيقولون: سـبب وجـود هـذا وهذا كذا؛ وهو لا يُعلم أنه سبب له كوناً، ولا شرعاً.
ويشمل أيضــاً القـول على الله بلا علم في أحكامه ؛ مثل أن يقـول: «هـذا حرام» وهو لا يعلم أن الله حرمه؛ أو «واجب» وهو لا يعلم أن الله أوجبــه؛ وهم كـثيرون جـداً؛ ومنهم العامـة، ومنهم أدعيـاء العلم الـذي يظنـون أنهم علماء وليس عندهم علم؛ ومن الأشياء التي مرت عليّ قريباً، وهي غريبـة: أن رجلاً ذهب إلى إمام مسجد ليكتب له الطلاق؛ فقال لـه: «طلق امرأتك طلقـــتين؛ أنا لا أكتب طلقة واحـــدة؛ لأن الله يقـــول: {الطلاق مرتــان}

[البقرة: 229] »؛ فقال له الرجـل: «اكتب أني طلقت امـرأتي مـرتين»؛ وهذا جهل مركب منافٍ لمعنى الآية؛ لأن معناها أن الطلاق الذي يملك فيه الرجعة هو الطلقة الأولى، والطلقة الثانيـة؛ فـإن طلقها الثالثة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.

فـالقول على الله بلا علم في ذاتـه، أو أسـمائه، أو صـفاته، أو أفعالـه، أو أحكامـه، كل ذلك من أوامر الشـيطان؛ والغـالب أنه لا يحمل على ذلك إلا محبة الشرف، والسـيادة، والجـاه؛ وإلا لو كـان عند الإنسـان تقـوى لالـتزم الأدب مع الله عز وجل، ولم يتقدم بين يـدي الله ورسـوله، وصـار لا يقـول على الله إلا ما يعلم.

فإذا قال قائل: ألستم تبيحون الفتوى بالظن عند تعذر اليقين؟

فالجواب: بلى؛ بشرط أن يكون لهذا الظن أسـاس شـرعي ــــ من اجتهاد، أو تقليد لمن هو أهل لذلك ـــ يبنى عليه؛ فإذا أفتينا بـالظن لتعـذر اليقين فقد أفتينا بما أذن الله لنا فيـــه؛ لقوله تعـــالى: {فـــاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: 16] ، وقوله تعالى: {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها} [البقرة: 286] ؛ ومعلوم أن القول بغلبة الظن خير من التوقف؛ وكثير من مسائل الفقه التي تكلم فيها الفقهاء، واختلفوا فيها من هذا البـاب؛ لأنها لو كــانت يقينية لم يحصل فيها اختلاف؛ ثم إن الشــيء قد يكــون يقينــاً عند شخص لإيمانـه، وكـثرة علمـه، وقـوة فهمـه؛ ومظنونـاً عند آخر لنقصه في ذلك.

5 ـــ ومنها: تحريم الفتوى بلا علم؛ فإن المفتي يقول على الله، ويعبر عن شـرع اللـه؛ وقد جـاء ذلك صـريحاً في قوله تعـالى: {قل إنما حـرم ربي الفــواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغــير الحق وأن تشــركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33] .

6 ـــ ومنها: ضلال أهل التأويل في أسماء الله، وصـفاته؛ لأنهم قـالوا على الله بلا علم.

7 ـــ ومنها: وجوب تعظيم الله عز وجل؛ لأنه تعـالى حـرم القـول عليه بلا علم تعظيماً له، وتأدباً معه؛ وقد قال الله عز وجل: {يا أيها الذين آمنــوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سـميع عليم} [الحجـرات: 1] .

القرآن

{)وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِـعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَا أَوَلَـوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) (البقرة:170)

التفسير:

{ 170 } قوله تعالى: { وإذا قيل لهم }؛ { قيل } مبني أصـلها «قُـوِل»؛ لكن صار فيها إعلال؛ وهي أن الـواو مكسـورة فقلبت يـاءً، فكُسر ما قبلها للمناسبة؛ و{ لهم } أي للكفار.

قوله تعالى: { اتبعـوا ما أنـزل الله } عقيـدةً، وقـولاً، وفعلاً؛ و{ ما } اسم موصـول يفيد العمـوم فتشـمل جميع ما أنـزل الله على رسـوله (ص) من الكتـاب، والحكمـة؛ وقد قـال كثـير من أهل العلم: «الحكمـة» هي السـنة؛ فإذا قيل لهم هذا القول لا يلينون، ولا يُقبلون؛ بل يكابرون.

قوله تعــالى: { قــالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا }؛ { بل } هــذه للإضراب الإبطالي؛ يعني: قـالوا مبطلين هـذا القـول الـذي قيل لهم: { بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا }؛ { ما } اسم موصول؛ { ألفينا } أي وجدنا، كما قال تعالى في آية أخرى: {بل نتبع ما وجـدنا عليه آباءنـا} [لقمـان: 21] ؛ والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وقوله تعالى: { ما ألفينا عليه آباءنا } يعني ما وجـدناهم عليه من العقيـدة والعمــل، حقـاً كـان أو بـاطلاً؛ و{ آباءنـا} يشـمل الأدنى منهم، والأبعـد؛ وجوابهم هذا باطل خطـأ؛ ولهـذا أبطله الله تعـالى في قولـه: { أو لو كـان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتـدون }؛ والمعـنى: أيتبعـون آبـاءهم ولو كـان آباؤهم في هذه الحـال الـتي لا يسـتحقون أن يُتَّبعـوا فيها لا يعقلـون شـيئاً؛ والمراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لا عقل الإدراك؛ فآباؤهم أذكياء، ويـدركون ما ينفعهم، وما يضرهم؛ لكن ليس عنـدهم عقل رشد - وهو حسن تصـرف -.

وقوله تعالى: { شيئاً } نكرة في سـياق النفي؛ والنكـرة في سـياق النفي للعموم؛ فإذا قال قائل: إذا كانت للعموم فمعنى ذلك أنهم لا يعقلون شيئاً حتى من أمور الدنيا مع أنهم في أمور الدنيا يحسـنون التصـرف: فهم يـبيعون، ويشـترون، ويتحـرون الأفضـل، والأحسن لهم؟ فيقـال: هـذا ليس بشيء بالنسبة إلى ما يتعلق بأمور الآخرة؛ أو يقال: إن المراد بهذا العمـوم الخصوص؛ أي لا يعقلون شيئاً من أمور دينهم لأن المقام هنا مقام منهــاج، وعمل، وليس مقام دنيا، وبيع، وشراء؛ فيكون المراد بقوله تعالى: { شـيئاً } شيئاً من أمور الآخرة؛ وكلا الاحتمالين يرجع إلى معنى واحد.

قوله تعـالى: { ولا يهتـدون } أي لا يعملـون عمل العـالم المهتـدي؛ وبهــذا انتفى عنهم الرشد في العمــل؛ والعلم في طريق لا يسـتحقون أن يتبعـوا؛ ولهـذا جـاءت همـزة الإنكـار في قوله تعـالى(أو لو كـان آبـاؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)؛ وأقرب شبه لهؤلاء الآية التي بعدها.

الفوائد:

1- من فوائد الآية: ذم التعصب بغير هدى؛ لقوله تعالى: { بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا }؛ مع أن آباءهم لا عقل عندهم، ولا هدى.

2 ـــ ومنهــا: أن من تعصب لمــذهب مع مخالفة الــدليل ففيه شــبه من هـؤلاء؛ والـواجب أن الإنسـان إذا قيل لـه: «اتبع ما أنـزل اللـه» أن يقـول: «سمعنا، وأطعنا».

3 ـــ ومنها: أنه لا يجب الانقياد إلا لما أنزل الله ـــ وهو الكتـاب، والحكمة ـــ.

4 ـــ ومنها: بيان عناد هؤلاء المسـتكبرين الـذين إذا قيل لهم: { اتبعـوا ما أنزل الله } قـالوا: { بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا } دون أن يقيمـوا برهانـاً على صحته.

5 ـــ ومنها: أن كل من خالف الحـق، وما أنـزل الله فليس بعاقـل، وليس عنده هدًى؛ لقوله تعالى: { لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون }.

القرآن

{)وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (البقرة:171)

التفسير:

{ 171 } قوله تعالى: { ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق } يعني كمثل الراعي الذي ينادي.

قوله تعالى: { بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً } وهم البهائم؛ فهؤلاء مثلهم كمثل إنسان يدعو بهائم لا تفهم إلا الصوت دعاءً، ونداءً؛ و «الدعاء» إذا كان يدعو شيئاً معيناً باسمه؛ و «النداء» يكون للعموم؛ هناك بهائم يسميها الإنسان باسمها بحيث إذا ناداها بهذا الاسم أقبلت إليه؛ والنداء العام لجميع البهائم هذا لا يختص به واحدة دون أخرى؛ فتقبل الإبل جميعاً؛ لكن مع ذلك لا تقبل على أساس أنها تعقل، وتفهم، وتهتدي؛ ربما يناديها لأجل أن ينحرها؛ هؤلاء الكفار مثلهم ــــ في كونهم يتبعون آباءهم بدون أن يفهموا هذه الحال التي عليها آباؤهم ــــ كمثل هذا الناعق بالماشية التي لا تسمع إلا دعاءً، ونداءً.

قوله تعالى: { صم } جمع أصم؛ وهو الذي لا يسمع؛ وهي خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هم صم؛ و{ بكم } جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ و{ عمي } جمع أعمى؛ وهو الذي لا يبصر؛ أي فهم صم عن سماع الحق؛ ولكن سماع غيره لا فائدة منه؛ فهو كالعدم؛ وهم بُكم لا ينطقون بالحق؛ ونطقهم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ وهم كذلك عُمي لا يبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به.

قوله تعالى: { فهم لا يعقلون } أي لكونهم صماً بكماً عمياً فهم لا يعقلون عقل رشد ــــ وإن كان عندهم عقل إدراك ــــ؛ فلعدم انتفاعهم بعقولهم نفى الله عنهم العقل؛ ورتب الله انتفاء العقل عنهم على كونهم صماً بكماً عمياً؛ لأن هذه الحواس وسيلة العقل والإدراك.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أن هؤلاء في اتباع آبائهم مثل البهائم التي تستجيب للناعق وهي لا تسمع إلا صوتاً دعاءً، ونداءً؛ لا تسمع شيئاً تعقله، وتعرف فائدته، ومضرة مخالفته.

2 ــــ ومنها: أن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فلا يسمعون ما يدعون إليه من حق، ولا يقولون به؛ فهُمْ: { صم بكم عمي فهم لا يعقلون }.

3 ــــ ومنها: أن لهؤلاء أمثالاً يدعون بدعوى الجاهلية، كأولئك الذين يدعون إلى القومية: فإن مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً، ونداءً؛ وهذه الدعوى لا يفكر الدعاة لها فيما يترتب عليها من تفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وكونهم يجعلون الرابطة هي اللغة، أو القومية، فيدخل فيها غير المسلم ممن تشملهم القومية، ويخرج بها مسلمون كثيرون ممن لا تشملهم القومية؛ لكن الرابطة الدينية التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: {إنما المؤمنون إخوة} [الحجرات: 10] ؛ هذه تدخل جميع المؤمنين ــــ ولو من غير العرب ــــ؛ وتخرج من ليس بمؤمن ــــ ولو كان عربياً ــــ؛ فهذا إبراهيم عليه السلام قال الله عز وجل عنه: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم} [التوبة: 114] ؛ وقد حثنا الله عز وجل على

التأسي بإبراهيم عليه السلام، حيث قال سبحانه وتعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده} [الممتحنة: 4] ، ولما قال نوح عليه السلام: {رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق} [هود: 45] قال الله عز وجل له: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح} [هود: 45] ؛ فكون الناس انجرفوا في هذه الدعوى الباطلة ــــ دعوى القومية ــــ هو داخل في هذه الآية: أنهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

القرآن

{)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة:172)

التفسير:

{ 172 } قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا } سبق الكلام على ذكر فوائد تصدير الخطاب بالنداء، وبوصف الإيمان للمنادى؛ وتصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادى.

قوله تعالى: { كلوا من طيبات ما رزقناكم }: الأمر هنا للامتنان، والإباحة؛ و{ مِن } هنا الظاهر أنها لبيان الجنس؛ لا للتبعيض؛ والمراد بـ «الطيب» : الحلال في عينه، وكسبه؛ وقيل: المراد بـ «الطيب» : المستلذ، والمستطاب.

قوله تعالى: { واشكروا لله }؛ «الشكر» في اللغة: الثناء؛ وفي الشرع: القيام بطاعة المنعم؛ وإنما فسرناها بذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً}، وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله }»[1]؛ فالشكر الذي أمر به المؤمنون بإزاء العمل الصالح الذي أمر به المرسلون؛ والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

قوله تعالى: { إن كنتم إياه تعبدون }؛ { إن } شرطية؛ وفعل الشرط: { كنتم }؛ و{ إياه } مفعول لـ{ تعبدون } مقدم؛ وجملة: { تعبدون } خبر كان؛ وجواب الشرط: قيل: إنه لا يحتاج في مثل هذا التعبير إلى جواب؛ وهو الصحيح؛ وقيل: إن جوابها محذوف يفسره ما قبله؛ والتقدير: إن كنتم إياه تعبدون فاشكروا له؛ و «العبادة» هي التذلل لله عز وجل بالطاعة؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ مأخوذة من قولهم: طريق معبَّد ــــ يعني مذللاً للسالكين ــــ؛ يعني: إن كنتم تعبدونه حقاً فكلوا من رزقه، واشكروا له.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: فضيلة الإيمان، حيث وجَّه الله الخطاب إلى المؤمنين، فهم أهل لتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا }.

---

[1] أخرجه مسلم ص838، كتاب الزكاة، باب 19: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم 2346 [65] 1015.

2 ــــ ومنها: الأمر بالأكل من طيبات ما رزق الله؛ لقوله تعالى: { كلوا من طيبات ما رزقناكم }؛ وهو للوجوب إن كان الهلاك، أو الضرر بترك الأكل.
3 ــــ ومنهـا: أن الخبـائث لا يؤكل منهـا؛ لقوله تعـالى: { من طيبـات ما رزقناكم }؛ والخبائث محرمة؛ لقوله تعالى: { ويحرم عليهم الخبائث }.
4 ــــ ومنها: أن ما يحصل عليه المرء من مأكول فإنه من رزق الله؛ وليس للإنسان فيه إلا السبب فقط؛ لقوله تعالى: {ما رزقناكم} [البقرة: 57] .
5 ــــ ومنها: توجيه المرء إلى طلب الرزق من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: { ما رزقناكم }؛ فإذا كان هذا الرزق من الله سبحانه وتعـالى فلنطلبه منه مع فعل الأسباب التي أمرنا بها.
6 ــــ ومنها: وجوب الشكر لله؛ لقوله تعالى: { واشكروا لله }.
7 ــــ ومنهـا: وجـوب الإخلاص لله في ذلـك؛ يؤخذ ذلك من اللام في قوله تعالى: { لله }.
8 ــــ ومنها: أن الشـكر من تحقيق العبـادة؛ لقوله تعـالى: { إن كنتم إيـاه تعبدون }.
9 ــــ ومنهـــا: وجـــوب الإخلاص لله في العبـــادة؛ يؤخذ ذلك من تقـــديم المعمول في قوله تعالى: { إياه تعبدون }.
10 ــــ ومنها: إثبات رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده من وجهين:
أولاً: من أمره إياهم بالأكل من الطيبات؛ لأن بذلك حفظاً لصحتهم.
ثانياً: من قوله تعالى: { ما رزقناكم }؛ فإن الرزق بلا شك من رحمة الله.
11 ــــ ومنها: الرد على الجبرية من قوله تعالى: { كلوا }، و{ اشكروا }، و{ تعبدون }؛ كل هـذه أضـيفت إلى فعل العبـد؛ فـدل على أن للعبد فعلاً يوجه إليه الخطاب بإيجاده؛ ولو كان ليس للعبد فعل لكـان توجيه الخطـاب إليه بإيجاده من تكليف ما لا يطاق.
12 ــــ ومنهـا: التنديد بمن حرمـوا الطيبـات، كأهل الجاهلية الـذين حرمـوا السائبة، والوصيلة، والحام.

القرآن

{)إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْـرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:173)

التفسير:

مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه لما أمر بالأكل من الطيبات بين ما حرم علينا من الخبائث.
{ 173 } قوله تعـالى: { إنما حـرم عليكم الميتة }؛ { إنما } أداة حصـر؛ و«الحصر» إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه؛ فالتحريم محصـــور في هـذه الأشـياء؛ والمعـنى: ما حــرم عليكم إلا الميتـة...؛ و «التحـريم» بمعنى المنع؛ ومعنى { حرم عليكم } أي منعكم ــــ أي حـرم عليكم أكلها ــــ؛ والدليل أنه حرم أكلها الآية التي قبلهـا: {يا أيها الـذين آمنـوا كلـوا من طيبات ما رزقناكم} [البقرة: 172] ؛ ثم قال تعـالى: { إنما حـرم عليكم الميتة }؛ فكأنه قال: «كلوا» ثم استثنى فقال: { إنما حرم عليكم الميتة... } أي فلا تأكلوها؛ و{ الميتة } في اللغة ما مات حتف أنفه ــــ يعـني بغـير فعل من الإنسـان ــــ؛ أما في الشـرع: فهي ما مـات بغـير ذكـاة شـرعية،

كالذي مات حتف أنفه؛ أو ذبح على غير اسم الله؛ أو ذبح ولم ينهر الدم؛ أو ذكاه من لا تحل تذكيته، كالمجوسي، والمرتد.

قوله تعـالى: { والــدم } يعــني: وحــرم عليكم الــدم؛ و «الــدم» معــروف؛ والمــراد به هنا الــدم المســفوح دون الــذي يبقى في اللحم، والعــروق، ودم الكبــد، والقلب؛ لقوله تعــالى: {قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس} [الأنعام: 145] .

قوله تعـالى: { ولحم الخـنزير } أي: وحـرم عليكم لحم الخـنزير؛ و «الخنزير» حيوان معروف قذر؛ قيل: إنه يأكل العذرات.

قوله تعالى: { وما أهلَّ به لغير الله } يعني: وحرم عليكم ما أهلَّ به لغير الله؛ و«الإهلال» هو رفع الصوت؛ ومنه الحديث: «إذا استهل المولــود ورث»[1]؛ والمــراد به هنا ما ذكر عليه اسم غــير الله عند ذبحه مثل أن يقول: «باسم المسيح»، أو «باسم محمد»، أو «باسم جبريــل»، أو «باسم اللات»، ونحو ذلك.

قوله تعـالى: { فمن اضـطر }: فيها قراءتـان: بكسر النـون؛ وضـمها؛ فأما الكسر فعلى القاعــدة من أنه إذا التقى ســاكنان كسر الأول منهمــا؛ وأما الضم فمن أجل الإتباع لضمة الطـاء؛ و{ مَن } هنا شـرطية؛ و{ اضـطر } فعل ماضٍ مبني لما لم يسم فاعله؛ أي ألجأته الضرورة للأكل؛ والضــرورة فوق الحاجة؛ فالحاجة كمال؛ والضرورة ضرورية يكون الضرر منها.

قوله تعالى: { غـير بـاغٍ ولا عـادٍ } بنصب { غـير } على الحـال من نـائب الفاعل في { اضطر }؛ و «الباغي» الطالب لأكل الميتة من غير ضـرورة؛ و «العـادي» المتجـاوز لقـدر الضـرورة؛ هـذا هو الـراجح في تفسـيرهما؛ ويؤيده قوله تعالى: {فمن اضطر في مخمصة غير متجـانف لإثم فـإن الله غفـور رحيم} [المائـدة: 3]؛ والله سـبحانه وتعـالى أبـاح لنا الميتة بثلاثة شروط:

1- الضرورة.

2- أن لا يكون مبتغياً – أي طاباً لها -.

3- أن لا يكون متجاوزاً للحد الذي تندفع به الضرورة.

وبنـاءً على هـذا ليس له أن يأكل حـتى يشـبع إلا إذا كـان يغلب على ظنه أنه لا يجد سواها عن قرب؛ وهذا هو الصحيح؛ ولو قيـل: بأنه في هـذه الحال يأكل ما يسد رمقه، ويأخذ شيئاً منها يحمله معه ـــــ إن اضـطر إليه أكل، وإلا تركه ــــ لكان قولاً جيداً.

قوله تعـالى: { فلا إثم عليه }: هـذا جـواب { مَن }؛ وقـرن بالفـاء؛ لأن الجملة اســمية؛ وإذا كــان جــواب الشــرط جملة اســمية وجب قرنها بالفاء؛ وقوله تعالى: { فلا إثم عليه } أي فلا عقوبة عليه، أو فلا جناح.

قوله تعـالى: { إن الله غفــور رحيم }؛ هـذا تعليل للحكم؛ فـالحكم انتفاء الإثم؛ والعلة: { إن الله غفـور رحيم }؛ { غفـور } يحتمل أن تكـون صـيغة مبالغة - وقد ورد أن من صـيغ المبالغة «فعــول» - لكـثرة مغفرته

---

[1] أخرجه أبو داود ص1441، كتاب الفرائض، باب 18: في المولود يستهل ثم يموت، حديث رقم 2920، وأخرجه بطريق آخر ابن ماجة ص2642، كتاب الفرائض، باب 17: إذا استهل لمولود ورث، حديث رقم 2751؛ وقال الألباني في الإرواء: سنده صحيح (6/149)؛ فالحديث صحيح بشواهده [راجع الإرواء 6/147 – 150، حديث رقم 1207 والسلسلة الصحيحة للألباني 1/233 – 235، أحاديث رقم 151، 152، 153].

سبحانه وتعالى، وكـثرة من يغفر لهم؛ فـالكثرة هنا واقعة في الفعـل، وفي المحل؛ في الفعل: كثرة غفرانه لذنوب عباده؛ وفي المحل: كثرة المغفـور لهم؛ ويحتمل أن تكون صفة مشـبهة؛ و «الغفـور» مـأخوذ من الغَفْـر؛ وهو الستر مع الوقاية؛ وليس الستر فقط؛ ومنه سمي «المغفـر» الـذي يغطى به الـرأس عند الحـرب؛ لأنه يتضـمن السـتر، والوقايـة؛ ويـدل لـذلك قوله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامـة، وحاسـبه: «قد سـترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وقوله تعالى: «الرحيم » صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمـة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبـار أصل ثبوتها لله صـفة ذاتيـة؛ وباعتبـار تجـدد من يرحمه الله صـفة فعليـة؛ ولهذا علقها الله سـبحانه وتعـالى بالمشـيئة في قوله تعـالى: { يعـذب من يشاء ويرحم من يشـاء } [العنكبـوت: 21] فهي صـفة حقيقية ثابتة لله عز وجل؛ وأهل التأويل ـــ والأصح أن نسميهم أهل التحريف ـــــ يقولـون: إن الرحمة غـير حقيقيـة؛ وأن المـراد برحمة الله إحسـانه؛ أو إرادة الإحسـان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهـذا لا شك أنه خطـأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقـة، ولين؛ والرقـة، واللين لا تناسـبان عظمة الخـالق سـبحانه وتعـالى؛ فنقـول لهم: إن هـذه الرحمة رحمة المخلـوق؛ أما رحمة الخــالق فإنها تليق به سـبحانه وتعــالى؛ ولا تتضــمن نقصــاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وهنا **مسائل تتعلق بالآية:**

1 ـــ نجاسةُ الميتة حسيةٌ.

2 ـــ الذي يعيش في البر والبحر يعطى حكم البر تغليباً لجانب الحظر.

3 ـــ بالنسـبة لميتة الآدمي ــــ إذا اضـطر إليها الإنسـان ـــــ اختلف فيها أهل العلم ـــ؛ فالمشهور عند الحنابلة أنه لا يجوز أن يأكلها ــــ ولو اضطر ـــ؛ وقـالت الشـافعية: «إنه يجـوز أكلها عند الضـرورة» ـــــ وهو الصـحيح ـــ.

4 ـــ كل المحرمـات إذا اضـطر إليهـا، وزالت بها الضـرورة كـانت مباحـة؛ قلنا: «وزالت بها الضرورة» احــترازاً مما لا تـزول به الضـرورة، كما إذا ما اضطر الإنسـان إلى أكل سـمّ ــــ فلا يجـوز أن يأكل ـــ؛ لأنه لا تـزول بها ضرورته؛ بل يموت به؛ ولو اضطر إلى شرب خمر لعطش لم يحل له؛ لأنه لا تزول به ضرورته؛ ولذلك لو احتاج إلى شربه لدفع لقمة غص بها حلّ له؛ لأنه تزول به ضرورته.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله.

2 ـــ ومنهـا: أن التحـريم والتحليل إلى اللـه؛ لقوله تعـالى: { إنما حـرم عليكم }.

3 ـــ ومنهـا: حصر المحرمـات في هـذه الأشـياء الأربعـة: الميتـة، والـدم، ولحم الخــنزير، وما أهل به لغــير اللــه؛ لقوله تعــالى: { إنما }؛ لأنها أداة حصر؛ لكن هذا الحصر قد بُين أنه غير مقصود؛ لأن الله حرم في آية أخرى غـير هـذه الأشـياء: حـرم ما ذبح على النصب - وليس من هـذه الأشـياء -؛

---

[1] سبق تخريجه 1/200.

وحرم النـبي صـلى الله عليه وسـلم كل ذي نـاب من السـباع[1]، وكل ذي مخلب من الطير[2] - وليس داخلاً في هـذه الأشـياء -؛ وحـرم النـبي صـلى الله عليه وسلم الحمر الأهلية[3] - وليس داخلاً في هذه الأشـياء -؛ فيكـون هذا الحصر غير مقصود بدلالة القرآن، والسنة.

4 ــــ ومن فوائد الآية: تحريم جميع الميتات؛ لقوله تعـالى: { والميتة }؛ و «أل» هذه للعموم إلا أنه يستثنى من ذلك السمك، والجراد ــــ يعـني ميتة البحر، والجـراد ــــ؛ للأحـاديث الـواردة في ذلـك؛ والمحـرم هنا هو الأكـل؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الميتة: «إنما حرم أكلها»[4]؛ ويؤيده أن الله سبحانه وتعالى قال هنا: {كلوا من طيبـات ما رزقنـاكم} [البقـرة: 57] ، ثم قال تعالى: { إنما حرم عليكم الميتة }؛ لأن السياق في الأكل؛ ويدخل في تحريم أكل الميتة جميع أجزائها.

5 ــــ ومن فوائد الآية: تحريم الدم المسفوح؛ لقوله تعالى: { والدم }.

6 ــــ ومنهـا: تحـريم لحم الخـنزير؛ لقوله تعـالى: { ولحم الخـنزير }؛ وهو شامل لشحمه، وجميع أجزائه؛ لأن اللحم المضـاف للحيـوان يشـمل جميع أجزائه؛ لا يختص به جزء دون جزء؛ اللهم إلا إذا قُرن بغيره، مثل أن يقـال: «اللحم، والكبد»، أو «اللحم، والأمعاء»، فيخرج منه ما خصص.

7 ــــ ومنها: تحريم ما ذكر اسم غير الله عليه؛ لقوله تعالى: { وما أهل به لغير الله }.

8 ــــ ومنها: تحـريم ما ذبح لغيـر الله ــــ ولو ذكر اسم الله عليه ــــ، مثل أن يقـول: «بسم الله والله أكـبر؛ اللهم هـذا للصـنم الفلاني»؛ لأنه أهل به لغير الله.

9 ــــ ومنها: أن الشرك قد يؤثر الخبثَ في الأعيان ــــ وإن كـانت نجاسـته معنوية ــــ؛ هذه البهيمة التي أهل لغير الله بها نجسة خبيثة محرمة؛ والتي ذكر اسم الله عليها طيبة حلال؛ تأمل خطر الشـــــرك، وأنه يتعـــــدى من المعاني إلى المحسوسات؛ وهو جدير بأن يكون كـذلك؛ لهـذا قـال الله عز وجل: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هـذا} [التوبة: 28] مع أن بدن المشـرك ليس بنجس؛ لكن لقـوة خبثه المعنـوي، وفساد عقيدته وطويته صار مؤثراً حتى في الأمور المحسوسة.

10 ــــ ومن فوائد الآية: فضيلة الإخلاص لله.

11 ــــ ومنها: أن الضـرورة تـبيح المحظـور؛ لقوله تعـالى: { فمن اضـطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه}؛ ولكن هذه الضرورة تبيح المحرم بشرطين:

الشرط الأول: صدق الضرورة بحيث لا يندفع الضرر إلا بتناول المحرم.

الشرط الثاني: زوال الضرورة به حيث يندفع الضرر.

فإن كان يمكن دفع الضـرورة بغيـره لم يكن حلالاً، كما لو كـان عنـده ميتة ومذكاة، فإن الميتة لا تحل حينئـذ؛ لأن الضـرورة تـزول بأكل المـذكاة؛ ولو

---

(1) راجع البخاري ص476، كتاب الذبائح والصيد، باب 29: أكل كل ذي ناب من السباع، حديث رقم 5530؛ ومسلماً ص1023، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب 3: باب تحريم اكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، حديث رقم 4988 [12] 1932.

(2) راجع مسلماً ص1023، كتاب الصيد والذبائح...، باب 3: تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، حديث رقم 4996 [16] 1934.

(3) راجع البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب 28: لحوم الحمر الإنسية، حديث رقم 5521، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل لحمه من الحيوان، باب 5: تحريم أكل لحم الإنسية، حديث رقم 5005.

(4) أخرجه البخاري ص475، كتاب الذبائح والصيد، باب 28: لحوم الحمر الإنسية، حديث رقم 5527؛ ومسلم ص1024، كتاب الصيد والذبائح...، باب 5: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، حديث رقم 5007 [23] 1936.

كـان عطشـان، وعنـده كـأس من خمر لم يحل له شـربها؛ لأن ضـرورته لا تـزول بـذلك؛ إذا لا يزيـده شـرب الخمر إلا عطشـاً؛ ولهـذا لو غص بلقمـة، وليس عنده ما يدفعها به إلا كأس خمر كان شربها لدفع اللقمة حلالاً.

12 ـــ ومن فوائد الآية: إثبات رحمة الله عز وجـل؛ لأن من رحمة الله أن أباح المحَرَّمَ للعبد لدفع ضرورته.

13 ـــ ومنهـا: أن الأعيـان الخبيثة تنقلب طيبة حين يحكم الشـرع بإباحتها على أحد الاحتمالين؛ فإن حل الميتة للمضطر يحتمل حالين:

الأولى: أن نقول: إن الله على كل شـيء قـدير؛ فالـذي جعلها خبيثة بالموت بعد أن كانت طيبة حال الحياة قـادر على أن يجعلها عند الضـرورة إليها طيبـة، مثل ما كـانت الحمـير طيبة تؤكل حـال حلهـا، ثم أصـبحت بعد تحريمها خبيثة لا تؤكـل؛ فالله سـبحانه وتعـالى هو خـالق الأشـياء، وخـالق صفاتها، ومغيرها كيف يشاء؛ فهو قادر على أن يجعلها إذا اضطر عبده إليها طيبة.

الحال الثانية: أنها ما زالت على كونها خبيثة؛ لكنه عند الضرورة إليها يباح هذا الخـبيث للضـرورة؛ وتكـون الضـرورة واقية من مضـرتها؛ فتناولها للضرورة مباح؛ وضررها المتوقع تكون الضرورة واقية منه.

والحـالان بينهما فـرق؛ لأنه على الحـال الأولى انقلبت من الـرجس إلى الطهـارة؛ وعلى الحـال الثانية هي على رجسـيتها لكن هنـاك ما يقي مضرتها - وهو الضرورة -؛ وهذه الحـال أقـرب؛ لأنه لو كـان عند الضـرورة يزول خبثها لكانت طيبة تحل للمضطر، وغيره؛ ويؤيده الحس: فـإن النفس كلما كـانت أشد طلبـاً للشـيء كـان هضـمه سـريعاً، بحيث لا يتضـرر به الجسم؛ وانظر إلى نفسك إذا أكلت طعاماً على طعـام يتـأخر هضم الأول، والثاني - مع ما يحصل فيه من الضرر -؛ لكن إذا أكلت طعامـاً وأنت جـائع فإنه ينهضم بسرعة؛ ويشهد لهذا ما يروى عن صهيب الرومي أنه كـان في عينيه رمد؛ فجيء إلى النبي صلى الله عليه وسـلم بتمر وهو حاضـر؛ فأكل منه النبي صلى الله عليه وسلم، فأراد صهيب أن يأكل منه، فقال له النبي صلى الله عليه وسـلم: «تأكل تمـراً وبك رمـد» ــ لأن المعـروف أن التمر يزيد في وجع العين - فقال: «إني أمضَغ من ناحية أخـرى»[1] أي إذا كـانت اليمـنى هي المريضة بالرمد أمضـغه على الجـانب الأيسـر؛ فضـحك النـبي صلى الله عليه وسلم، ومكنه من أكله؛ قـال ابن القيم - رحمه الله -: «إن الحكمة في أن الرسـول مكنه - مع أن العـادة أن هـذا ضـرر -؛ لأن قـوة طلب نفسه له يـزول بها الضـرر: ينهضم سـريعاً، ويتفاعل مع الجسـم، ويذهب ضرره».

14 ـــ ومن فوائد الآية: أن من تناول المحـرم بـدون عـذر فهو آثم؛ لقوله تعالى: { فلا إثم عليه }؛ فعُلم منها أن من كان غير مضطر فعليه إثم.

15 ـــ ومن فوائد الآية عند بعض أهل العلم: أن العاصي بسـفره لا يـترخص؛ لقوله تعـالى: { غـير بـاغ ولا عـاد فـإنهم قـالوا: إن المـراد بـ«البـاغي» الخـارج عن الإمـام؛ و«العـادي» العاصي بسـفره؛ وقـالوا: إن العاصي بسـفره؛ أو البـاغي على الإمـام لا يـترخص بـأي رخصة من رخص السفر: فلا يقصر الصـلاة، ولا يمسح الخف ثلاثة أيـام، ولا يأكل الميتـة، ولا

---

[1] أخرجه ابن ماجة ص2684، كتاب الطب، باب 3: الحمية، حديث رقم 3443، وقال الألباني في صحيح ابن ماجة 2/353، حديث رقم 2776: "حسن".

يفطر في رمضـان؛ وهـذه المسـألة فيها خلاف بين أهل العلم تفصـيله في كتب الفقه.

تـــنــبــيـــه:

قد يقال إنه يستفاد من إباحة المحرم عند الضرورة: وجـوب تناولـه؛ لأن المحرم لا ينتهك إلا بـواجب؛ وهـذه قاعـدة ذهب إليها بعض أهل العلم: قال: إن المحرم إذا انتهك فهو دليل على الوجوب، مثلما قالوا في وجــوب الختان: فقد أخذ بعض العلماء الوجوب من هذه القاعدة، قــالوا: إن الأصل أن قطع الإنسان شـيئاً من بدنه حـرام؛ والختـان قطع شـيء من بدنـه؛ ولا ينتهك المحرم إلا لشيء واجب؛ فقرروا وجوب الختـان من هـذه القاعـدة؛ ولكنها غير مطردة؛ ولهـذا يجـوز للمسـافر أن يفطر في رمضـان؛ والفطر انتهاك محرم مع أن الفطر ليس بواجب.

17 ــــ ومن فوائد الآية: إثبات اسمين من أسـماء اللـه؛ وهما «الغفـور» و «الرحيم» ، وما تضمناه من صفة.

18 ــــ ومنهـا: إثبـات ما ذكـره أهل السـنة والجماعة من أن أسـماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يسـتفاد منها ثبـوت تلك الأحكـام المـأخوذة منهـا؛ فالأســماء المتعدية تتضــمن الاســم، والصــفة، والأثر - الــذي هو الحكم المـترتب عليه -؛ والعلمـاء يأخـذون من مثل هـذه الآية ثبـوت الأثر - وهو الحكم -؛ لأنه لكونه غفـوراً رحيمـاً غفر لمن تنـاول هـذه الميتة لضـرورته، ورحمه بحلهـا؛ فيكـون في هـذا دليل واضح على أن أسـماء الله عز وجل تدل على «الذات» الـذي هو المسـمى؛ و«الصـفة»؛ و«الحكم»، كما قـال بذلك أهل العلم - رحمهم الله -.

تــنــبــيــه:
ما أهل به لغير الله أنواع:
النـوع الأول: أن يهل بها لغيـر الله فقـط، مثل أن يقـول: باسم جبريـل، أو محمد، أو غيرهما؛ فالذبيحة حرام بنص القرآن ــــ ولو ذبحها لله ــــ.
النـوع الثـاني: أن يهل بها للـه، ولغـيره، مثل أن يقـول: «باسم الله واسم محمـد»؛ فالذبيحة حـرام أيضـاً؛ لأنه اجتمع مـبيح، وحـاظر؛ فغلب جـانب الحظر.
النوع الثالث: أن يهل بها باسم اللـه، وينـوي به التقـرب، والتعظيم لغـيره؛ فالذبيحة حرام أيضاً؛ لأنه شرك.
وهل يكون ذبح الذبيحة للضيف إهلالاً بها لغير الله؟
الجواب: إن قصد بها إكرام الضيف فلا يـدخل بلا شـك، كما لو ذبح الذبيحة لأولاده ليأكلوهـا، وإن قصد بـذلك التقـرب إليــه، وتعظيمه تعظيم عبادة فإنه شـرك، كالمـذبوح على النصب تمامـاً، فلا يحل أكلهـا؛ وقد كـان بعض الناس ــــ والعياذ بالله ــــ إذا قدم رئيسـهم أو كبـيرهم يـذبحون بين يديه القرابين تعظيماً له ــــ لا ليأكلها، ثم تترك للناس ــــ؛ وهـذا يكـون قد ذبح على النصب؛ فلا يحل أكله ــــ ولو ذكر اسم الله عليه ــــ.
النـوع الرابـع: أن لا يهل لأحد ــــ أي لم يـذكر عليها اسم اللـه، ولا غـيره؛ فالذبيحة حــرام أيضــاً؛ لقوله تعــالى: {ولا تــأكلوا مما لم يــذكر اسم الله عليه} [الأنعام: 121] ، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا»[1].

القرآن

{)إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة:174)

التفسير:
{ 174 } قوله تعالى: { إن الذين يكتمون... }: جملة مكونة من { إن } الدالة على التوكيد؛ و{ الـذين } اسـمها؛ و{ أولئك }: «أولاء» مبتـدأ ثـانٍ؛ وجملة: { ما يأكلون } خبر المبتدأ الثاني؛ والجملة من المبتدأ، والخبر خبر { إن }.
وقوله تعالى: { يكتمون ما أنزل الله } أي يخفون؛ { من الكتاب }: «أل» إما أن تكون للعهـد؛ أو للجنس؛ فـإن قلنـا: «للعهـد» فـالمراد بها التـوراة؛ ويكـون المـراد بــ{ الـذين يكتمـون } اليهـود؛ لأنهم كتمـوا ما علمـوه من صـفات النـبي صـلى الله عليه وسـلم؛ وإن قلنـا: إن «أل» للجنس، شـمل جميع الكتب: التوراة، والإنجيل، وغيرها؛ ويكون { الذين يكتمـون } يشـمل اليهود، والنصارى، وغيرهما؛ وهذا أرجح لعمومه.
وقوله تعــالى: { ما أنــزل الله من الكتــاب } أي على رســله؛ فــإن الله سبحانه وتعالى يقول: {لقد أرسلنا رسـلنا بالبينـات وأنزلنا معهم الكتـاب} [الحديـد: 25] ؛ فكل رسـول فـإن معه كتابـاً من الله عز وجل يهـدي به الناس.

---

[1] أخرجه البخاري ص197، كتاب الشركة، باب 16: من عدل عشرة من الغنم بجزور في القسم، حديث رقم 2507، وأخرجه مسلم ص1029، كتاب الأضاحي، باب 4: جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائل العظام، حديث رقم 5092 [20] 1968.

قوله تعالى: { ويشترون به } يعني يأخذون بما أنزل الله؛ ويجوز أن يكون الضمير عائداً على الكتم؛ يعني يأخذون بهذا الكتم.
قوله تعالى: { ثمناً قليلاً }: هذا الثمن إما المال؛ وإما الجاه، والرياسة؛ وكلاهما قليل بالنسبة لما في الآخرة.
قوله تعالى: { أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار }: الاستثناء هنا مفرغ؛ والإشارة للبعيد لبعد مرتبتهم، وانحطاطها، والتنفير منها.
قوله تعالى: { ولا يكلمهم الله يوم القيامة } يعني لا يكلمهم تكليم رضا؛ فالنفي هنا ليس نفياً لمطلق الكلام؛ ولكنه للكلام المطلق ـــ الذي هو كلام الرضا؛ { ولا يزكيهم } أي لا يثني عليهم بخير.
قوله تعالى: { ولهم عذاب أليم }؛ «فعيل» هنا بمعنى مفعِل؛ و«مؤلم» أي موجع؛ والعذاب هو النكال، والعقوبة.
الفوائد:
1 ـــ من فوائد الآية: وجوب نشر العلم؛ لقوله تعالى: { إن الذين يكتمون }؛ ويتأكد وجوب نشره إذا دعت الحاجة إليه بالسؤال عنه؛ إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.
2 ـــ ومنها: أن الكتب منزلة من عند الله؛ لقوله تعالى: { ما أنزل الله من الكتاب }.
3 ـــ ومنها: علو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: { ما أنزل الله }؛ فإن لازم النزول من عنده أن يكون سبحانه وتعالى عالياً.
4 ـــ ومنها: أن هذا الوعيد على من جمع بين الأمرين: { يكتمون }، و{ يشترون }؛ فأما من كتم بدون اشتراء؛ أو اشترى بدون كتم فإن الحكم فيه يختلف؛ إذا كتم بدون اشتراء فقد قال الله سبحانه وتعالى: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون} [البقرة: 159] ؛ وهذا يدل على أن كتمان ما أنزل الله من كبائر الذنوب؛ ولكن لا يستحق ما ذُكر في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وأما الذين يشترون بما أنزل الله من الكتاب ثمناً قليلاً بدون كتمان فقد قال الله تعالى: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون} [هود: 15، 16] .
فالناس في كتمان ما أنزل الله ثلاثة أقسام:
القسم الأول: من يكتم العلم بخلاً به، ومنعاً لانتفاع الناس به.
والقسم الثاني: من يكتم العلم، ولا يبينه إلا لغرض دنيوي من مال، أو جاه، أو رئاسة، أو غير ذلك.
والقسم الثالث: من يكتم العلم بخلاً به، ولا يبينه إلا لغرض دنيوي؛ فيجمع بين الأمرين؛ وهذا شر الأقسام؛ وهو المذكور في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وقد تبين عقوبة كل واحد من هذه الأقسام فيما سبق.
أما من أظهر العلم لله، وتعلم لله، فهذا هو خير الأقسام؛ وهو القسم الرابع الذي يبين بلسانه، وحاله، وقلمه، ما أنزل الله عز وجل؛ والذي يكتم خوفاً إذا كان سيبين في موضع آخر فلا بأس؛ أما الذي يكتم مطلقاً فهذا لا يجوز؛ فيجب أن يبين ولو قُتل ـــ إذا كان يتوقف بيان الحق على ذلك ـــ،

كما جــرى لبعض أهل الســنة الــذين صــبروا على القتل في بيانها لتعينه عليهم.
5 ـــ ومن فوائد الآية: أن متاع الدنيا قليل ـــ ولو كـثر ـــ؛ لقوله تعـالى: { ويشترون به ثمناً قليلاً }.
6 ـــ ومنهــا: إطلاق المســبَّب على الســبب؛ لقوله تعــالى: { أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار } هم لا يأكلون النار؛ ولكن يأكلون المال؛ لكنه مال سبب للنار.
7 ـــ ومنها: إقامة العدل في الجزاء؛ لقوله تعالى: { أولئك ما يـأكلون في بطونهم إلا النار }؛ فجعل عقوبتهم من النار بقدر ما أكلوه من الدنيا الــذي أخذوه عوضاً عن العلم.
8 ـــ ومنها: إثبات كلام الله عز وجـل؛ لقوله تعـالى: { ولا يكلمهم الله }؛ لأنه لو كان لا يتكلم لا معهم، ولا مع غيرهم، لم يكن في نفي تكليمه إيـاهم فائــدة؛ فنفيه لتكليمه هــؤلاء يــدل على أنه يكلم غــيرهم؛ وقد اســتدل الشافعي ـــ رحمه الله ـــ بقوله تعـالى: {كلا إنهم} [المطففين: 15] أي الفجـار {عن ربهم يومئذ لمحجوبـون} [المطففين: 15] برؤية الأبـرار لـه؛ لأنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا لرؤية الأبرار في حال الرضا؛ إذ لو كان لا يُرى مطلقاً لم يكن لـذكر حجب الفجـار فائـدة؛ وكلام الله عز وجل هو الحرف، والمعنى؛ فالله سبحانه وتعـالى يتكلم بكلام بحـروف، وصـوت؛ وأدلة هذا، وتفصيله مذكور في كتب العقائد.
9 ـــ ومن فوائد الآيـــة: أن الكلام من صـــفات الله الفعلية المتعلقة بمشــيئته؛ لقوله تعــالى: { ولا يكلمهم الله يــوم القيامة }؛ لأن تخصيصه بيوم القيامة يدل على أنه يتعلق بمشيئته؛ وهذه هي الصفات الفعلية؛ لكن أصل الكلام صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً.
10 ـــ ومنها: إثبات يوم القيامة.
11 ـــ ومنهـا: أن يـوم القيامة يُـزَكى فيه الإنسـان؛ وذلك بالثنـاء القـولي، والفعلي؛ فإن الله يقول لعبده المؤمن حين يقرره بذنوبـه: «سـترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1]؛ وأما الفعلي فإن علامة الثناء أنه يعطى كتابه بيمينه، ويَشـهد النـاسُ كلهم على أنه من المؤمـنين؛ وهـذه تزكية بلا شك.
12 ـــ ومنها: غلظ عقوبة هؤلاء بأن الله تعالى لا يكلمهم يوم القيامـة، ولا يزكيهم؛ والمراد كلام الرضـا؛ وأما كلام الغضب فـإن الله تعـالى يكلم أهل النار، كما قال تعالى: { اخسئوا فيها ولا تكلمون }.
13 ـــ ومنها: إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: { ولهم عذاب أليم }.
14 ـــ ومنها: أن عذاب هؤلاء الكافرين عـذاب مـؤلم ألمـاً نفسـياً، وألمـاً جسـمانياً؛ فأما الألم النفسي فدليله قوله تعـالى: { قـال اخسـئوا فيها ولا تكلمون }؛ فهذا من أبلغ ما يكون من الإذلال الـذي به الألم النفسـي؛ وأما الألم البدني فدليله قول الله تعالى: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلــوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيمـاً} [النسـاء: 56] ، وقوله تعالى: {وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم} [محمد: 15] ، وقوله تعالى: {يصب من فـوق رؤوسـهم الحميم * يصـهر به ما في بطـونهم والجلـود *

(1) سبق تخريجه 1/200.

ولهم مقــامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجــوا منها من غم أعيــدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق} [الحجر: 21، 22] .

القرآن

{)أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّـلالَةَ بِالْهُـدَى وَالْعَـذَابَ بِـالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْـبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) (البقرة:175)

التفسير:

} 175 { قوله تعالى: { أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهـدى }: المشـار إليهم: {الذين يكتمـون ما أنـزل الله من الكتـاب ويشـترون به ثمنـاً قليلاً} [البقـرة: 174]ـ ؛ و{ اشــتروا } بمعـنى اختـاروا؛ ولكنه عــبر بهـذا؛ لأن المشـتري طـالب راغب في السـلعة؛ فكـأن هـؤلاء ـــــ والعيـاذ بالله ــــــ طـالبون راغبـون في الضـلالة بمنزلة المشـتري؛ و{ الضـلالة } هنا كتمـان العلم؛ فإنه ضلال؛ وأما «الهدى» فهو بيان العلم ونشره.

وقوله تعالى: { بالهدى }: الباء هنا للعـوض؛ ويقـول الفقهـاء: إن ما دخلت عليه الباء هو الثمن؛ سواء كان نقـداً، أم عينـاً غـير نقـد؛ فـإذا قلت: اشتريت منك ديناراً بثوب، فـالثمن الثـوب؛ وقـال بعض الفقهـاء: الثمن هو النقد مطلقـاً؛ والصـحيح الأول؛ والثمن الـذي دفعه هـؤلاء هو الهـدى؛ فهم دفعوا الهدى - والعياذ بالله - لأخذ الضلالة.

قوله تعـالى: { والعـذاب بـالمغفرة }؛ فهم أيضـاً اشـتروا العـذاب بالمغفرة؛ ولو أنهم بينوا، وأظهروا العلم لَجُوزوا بـالمغفرة؛ ولكنهم كتمـوا، فجُوزوا بالعذاب.

قوله تعالى: { فما أصبرهم على النار }؛ «ما» تعجبية مبتدأ؛ وجملة { أصبرهم } خبرها؛ والمعنى: شيء عظيم أصـبرهم؛ أو ما أعظم صـبرهم على النار؛ وهذا التعجب يتوجه عليه سؤالان:

السؤال الأول: أهو تعجب من الله أم تعجيب منه؛ بمعنى: أيرشـدنا إلى أن نتعجب ـــــ وليس هو موصوفاً بالعجب؛ أو أنه من الله ـــــ؟

الســؤال الثــاني: أن قولــه: { فما أصــبرهم } يقتضي أنهم يصــبرون، ويتحملون مع أنهم لا يتحملـون، ولا يطيقـون؛ ولهـذا يقولـون لخزنة جهنم: {ادعـوا ربكم يخفف عنا يوماً من العـذاب} [غـافر: 49]ـ ؛ وينـادون: {يا مالك ليقض علينا ربك} [الزخرف: 77] أي ليهلكنا؛ ومن قال هكـذا فليس بصابر؟

والجــواب عن الســؤال الأول: ـــــــ وهو أهو تعجب، أو تعجيب ــــــــ: فقد اختلف فيه المفســرون؛ فمنهم من رأى أنه تعجب من الله عز وجــل؛ لأنه المتكلم به هو اللــه؛ والكلام ينسب إلى من تكلم بــه؛ ولا مــانع من ذلك لا عقلاً، ولا سمعاً ــــــ أي لا مانع يمنع من أن الله سبحانه وتعالى يعجب؛ وقد ثبت لله العجب بالكتاب، والسنة؛ فقال الله تعالى في القرآن: {بل عجبتُ ويسخرون} [الصـافات: 12] بضم التـاء؛ وهـذه القـراءة سـبعية ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسـلم؛ والتـاء فاعل يعـود على الله سـبحانه وتعـالى المتكلم؛ وأما السنة ففي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه»[2]؛ وعلى هذا فالعجب

---

(2) أخرجه أحمد 4/11، حديث رقم 16288، وابن ماجة ص2488، كتاب السنة، باب 13: فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم 181، وكلاهما بلفظ (ضحك ربنا...)؛ وأما لفظ (عجب ربنا) فقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية وقال: حديث حسن، وكذلك ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى في

لله ثابت بالكتـاب، والسـنة؛ فلا مـانع من أن الله يعجب من صـبرهم؛ فـإذا قـال قائـل: العجب يـدل على أن المتعجب مبـاغَت بما تعجب منـه؛ وهـذا يستلزم أن لا يكون عالماً بالأمر من قبل ـــ وهو محال على الله ـــ؟

فالجواب: أن سـبب العجب لا يختص بما ذكـر؛ بل ربما يكـون سـببه الإنكار على الفاعل، حيث خرج عن نظـائره، كما تقـول: «عجبت من قـوم جحدوا بآيات الله مع بيانها، وظهورها»؛ وهو بهذا المعنى قـريب من معـنى التوبيخ، واللـوم؛ ومن المفسـرين من قـال: إن المـراد بـالعجب: التعجيب؛ كأنه قال: اعجب أيها المخاطب من صبرهم على النـار؛ وهـذا وإن كـان له وجه لكنه خلاف ظاهر الآية.

وأما الجـــواب عن الســـؤال الثـــاني:- وهو كيف يتعجب من صبرهم مع أنهم لم يصبروا على النـار – فقـال أهل العلم: إنهم لما صـبروا على ما كان سبباً لها من كتمـان العلم صـاروا كـأنهم صـبروا عليهـا، مثلما يقال للرجل الذي يفعل أشياء ينتقد فيها: ما أصـبرك على لـوم النـاس لك مع أنه ربما لم يلوموه أصلاً؛ لكن فعل ما يقتضي اللوم؛ يصير معـنى: { ما أصـبرهم على النـار } أنهم لما كـانوا يفعلـون هـذه الأفعـال الموجبة للنـار صاروا كأنهم يصبرون على النار؛ لأن الجـزاء من جنس العمـل، كما تفيـده الآيات الكثيرة، فيعبر بالعمل عن الجزاء؛ لأنه سببه المترتب عليه؛ و{ النار } هي الدار الـتي أعـدها الله سـبحانه وتعـالى للكـافرين والظـالمين؛ لكن الظلم إن كان ظلم الكفر فهم مخلـدون فيهـا؛ وإن كـان ظلمـاً دون الكفر فإنهم مستحقون للعذاب بحسب حالهم.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: أن سبب ضلال هؤلاء وكتمانهم الحق أنهم لم يريـدوا الهـدى؛ وإنما أرادوا الضـلال والفسـاد ـــ والعيـاذ بالله ـــ؛ لقوله تعـالى: { أولئك الذين اشتروا... } إلخ.

2 ـــ ومنها: الرد على الجبرية؛ لإضافة الفعل إلى الفاعل.

3 ـــ ومنها: أن كتمان العلم أو بيانه لغرض من الدنيا من الضـلال؛ وذلـك؛ لأنه جاهل بما يجب على العـالم في علمه من النشـر، والتبليـغ، ولأنه جهل على نفسـه، حيث منعها هـذا الخـير العظيم في نشر العلم؛ لأن من أفضل الأعمال نشر العلم؛ فإنه ـــ أعـني العلم ـــ ليس كالمـال؛ المـال يفـنى؛ والعلم يبقى؛ أرأيت الآن في الصـحابة رضي الله عنهم أنـاس أغنيـاء أكـثر غنًى من أبي هريـرة رضي الله عنه وذِكر أبي هريـرة بين الخـاص والعـام الآن أكثر، والثـواب الـذي يأتيه مما روى عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم من أحاديث أكثر وأعظم؛ ثم أرأيت منزلة الإمام أحمد بن حنبل، ونحوه من الأئمة مع من في عهـــدهم من الخلفـــاء، والـــوزراء، والأغنيـــاء، هل بقي ذكرهم، كما بقي ذكر هؤلاء الأئمة؟!! فكتمـان العلم لا شك أنه ضـلالة في الإنسان، وجهالة.

4 ـــ ومن فوائد الآية: أن عقوبة الله لهم ليست ظلماً منه؛ بل هم الـذين تسببوا لها، حيث اشتروا الضلالة بالهدى؛ والله عز وجل ليس بظلام للعبيد.

5 ـــ ومنهـا: أن نشر العلم، وإظهـاره، وبيانه من أسـباب المغفـرة؛ لأنه جعل لهم العذاب في مقابلة الكتمـان، واختيـارهم العـذاب على المغفـرة، والضـلالة على الهـدى؛ فـدل ذلك على أن نشر العلم من أسـباب مغفـرة

سورة البقرة: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة...).

الـذنوب؛ كما أن الـذنوب أيضاً تحـول بين الإنسـان، والعلم، فكـذلك كتم العلم يحول بين الإنسان، والمغفرة؛ وقد استدل بعض العلماء بأن الـذنوب تحـول بين الإنسـان، والعلم بقوله تعـالى: {إنا أنزلنا إليك الكتـاب بـالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخـائنين خصـيماً * واسـتغفر الله إن الله كـان غفـوراً رحيمـاً} [النسـاء: 105، 106] ؛ فقـال تعـالى: {لتحكم} ، ثم قال تعالى: {واستغفر الله} ؛ فدل هـذا على أن الاسـتغفار من أسـباب فتح العلم ـــ وهو ظـاهر ـــ؛ وبقوله تعـالى: {فبما نقضـهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفـون الكلم عن مواضـعه ونسـوا حظاً مما ذكروا به} [المائدة: 13] ؛ لأن الذنوب ـــ والعياذ بالله ـــ رين على القلوب، كما قال تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} [المطففين: 14] ؛ فإذا كانت ريناً عليها فإن الاستغفار يمحو هـذا الـرين، وتبقى القلوب نيرة مدركة واعية.

6 ـــ ومن فوائد الآيـة: إثبـات العجب لله سـبحانه وتعـالى؛ لقوله تعـالى: { فما أصبرهم على النار } ـــ على أحد الاحتمالين ـــ؛ وهو من الصـفات الفعليـة؛ لأنه يتعلق بمشـيئته؛ وكل صـفة من صـفات الله تتعلق بمشـيئته فهي من الصفات الفعلية.

فإذا قال قائل: ما دليلكم على أن العجب يتعلق بمشيئته؟

فالجواب: أن له سـبباً؛ وكل ما له سـبب فإنه متعلق بالمشـيئة؛ لأن وقوع السبب بمشيئة الله؛ فيكون ما يتفرع عنه كذلك بمشيئة الله.

7 ـــ ومنها: توبيخ هؤلاء الذين يكتمون ما أنـزل اللـه؛ لقوله تعـالى: { فما أصبرهم على النار }؛ وكان الأجدر بهم أن يتخذوا وقاية من النار لا وسـيلة إليها.

8 ـــ ومنهـا: الإشـارة إلى شـدة عـذابهم، كما يقـال في شـخص أصـيب بمرض عظيم: «ما أصبره على هذا المـرض»، أي أنه مـرض عظيم يـؤدي إلى التعجب من صبر المريض عليه.

القرآن

{)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) (البقرة:176)

التفسير:

{ 176 } قوله تعالى: { ذلك بأن الله نزل الكتاب }: المشار إليه ما ذكر من جزائهم؛ أي ذلك الجزاء الذي يجازون به؛ { بـأن }: البـاء هنا للسـببية؛ والرابط هنا بين السـبب، والمسـبَّب واضح جـداً؛ لأنه ما دام الكتـاب نـازلاً بالحق فمن اللائق بهـذا الكتـاب المـنزل بـالحق أن لا يُكتم؛ الحق يجب أن يبين؛ فلما أخفاه هؤلاء استحقوا هذا العذاب؛ ومعنى: { نزل الكتاب بالحق } أن ما نزل به حق، وأنه نازل من عند الله حقـاً؛ و{ الكتـاب } المـراد به الجنس: القرآن، والتوراة، والإنجيل، وغيرها من الكتب التي أنزلها الله.

قوله تعـالى: { وإن الـذين اختلفـوا في الكتـاب } بكسر همـزة { إن } لوقـوع اللام في خبرهـا؛ أي اختلفـوا في الكتـاب الـذي نزله الله عز وجل بحـق؛ وهـذا الاختلاف يشـمل الاختلاف في أصـله: فمنهم من آمن؛ ومنهم من كفـــر، والاختلافَ فيما بينهم أي فيما بين أحد الطـــرفين: فمنهم من

استقام في تأويله؛ ومنهم من حرف في تأويله على غير مراد الله سـبحانه وتعالى.

قوله تعـالى: { لفي شـقاق بعيد } أي: لفي جـانب بعيد عن الحـق؛ وهذا البعد يختلف: فمنهم من يكون بعيداً جداً؛ ومنهم من يكون دون ذلك.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: { ذلك بـأن }؛ والبـاء للسـببية؛ وقد ذكر بعض أهل العلم أن في القـرآن أكـثر من مائة موضع كلها تفيد إثبات العلة؛ خلافـاً للجبرية ــــ الـذين يقولـون: «إن فعل الله عز وجل ليس لحكمة؛ بل لمجرد المشيئة».

2 ــــ ومنها: الثناء على كتب الله عز وجل؛ لقوله تعـالى: { بـأن الله نـزَّل الكتاب بالحق }.

3 ــــ ومنهـا: ثبـوت العلو لله عـزّ وجل ؛ لقوله تعـالى: { بـأن الله نـزَّل الكتاب }.

4 ــــ ومنهــا: أن المختلفين في كتب الله لا يزالــون في شــقاق بعيد لا تتقارب أقوالهم ــــ وإن تقاربت أبدانهم.

5 ــــ ومنها: أن الاختلاف ليس رحمة؛ بل إنه شـقاق، وبلاء؛ وبه نعـرف أن ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اختلاف أمتي رحمة»[1] لا صـحة لـه؛ وليس الاختلاف برحمـة؛ بل قـال الله سـبحانه وتعـالى: { ولا يزالــون مختلفين * إلا من رحم ربك } [هــود: 118] أي فــإنهم ليســوا مختلفين؛ نعم؛ الاختلاف رحمة بمعـنى: أن من خــالف الحق لاجتهـاد فإنه مرحوم بعفو الله عنه؛ فالمجتهد من هذه الأمة إن أصـاب فله أجـران؛ وإن أخطأ فله أجر واحد؛ والخطأ معفو عنه؛ وأما أن يقـال هكـذا على الإطلاق: «إن الاختلاف رحمة» فهذا مقتضاه أن نسعى إلى الاختلاف؛ لأنه هو سـبب الرحمة على مقتضى زعم هذا المروي!!! فالصواب أن الاختلاف شر.

القرآن

)لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّـبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَـابِ وَأَقَـامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَـدُوا وَالصَّـابِرِينَ فِي الْبَأْسَـاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَـأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُـونَ) (البقـرة: 177)

التفسير:

{ 177 } قوله تعــالى: { ليس الــبر أن تولــوا وجــوهكم قبل المشــرق والمغـرب }: في هـذه الآية قراءتـان: { ليس البِـرَّ }بفتح الـراء؛ و{ ليس البِرُّ } بضم الراء؛ فأما على قراءة الرفع فإن { البِرُّ } تكـون اسم { ليس }، و{ أن تولـوا } خبرهـا؛ وأما على قـراءة النصب فتكـون { الـبرَّ } خـبر { ليس }، و{ أن تولـوا } اسـمها مـؤخراً؛ يعـني تقـدير الكلام على الأول: ليس البرُّ توليتَكم وجوهكم؛ والتقـدير على الثـاني: ليس الـبرَّ تـوليتُكم ــــ بالرفع.

---

[1] قال الألباني في السلسلة الضعيفة: لا أصل له، ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند، فلم يوفقوا (1/76 حديث رقم 57).

و «البر» في الأصل الخير الكثير؛ ومنه سمي «البَرّ» لسعته، واتساعه؛ ومنه «البَرّ» اسم من أسماء الله، كما قال تعالى: { إنّا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم } [الطور: 28] ؛ ومعنى الآية: ليس الخير، أو كثرة الخير، والبركة أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق ـــ أي جهة المشرق؛ أي جهة المغرب.

وهذه الآية نزلت توطئة لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ فبين الله عز وجل أنه ليس البر أن يتوجه الإنسان إلى هذا، أو هذا؛ ليس هذا هو الشأن؛ الشأن إنما هو في الإيمان بالله... إلخ؛ أما الاتجاه فإنه لا يكون خيراً إلا إذا كان بأمر الله؛ ولا يكون شراً إلا إذا كان مخالفاً لأمر الله؛ فأيّ جهة توجهتم إليها بأمر الله فهو البر؛ وجاءت الآية بذكر المشرق، والمغرب؛ لأن أظهر، وأبين الجهات هي جهة المشرق، والمغرب.

قوله تعالى: { ولكن البر }: فيها قراءاتان؛ الأولى: { ولكنِ البرُّ } بالرفع؛ وعلى هذا تكون { لكن } مهملة غير عاملة؛ والقراءة الثانية التي في المصحف: { ولكنَّ البرَّ } بتشديد نون { لكنَّ }، فتكون عاملة.

قوله تعالى: { ولكن البر من آمن بالله... }: { البر } عمل؛ و{ من آمن } عامل؛ فكيف يصح أن يكون العامل خبراً عن العمل؟ في هذا أوجه:

الوجه الأول: أن الآية على تقدير مضاف؛ والتقدير: ولكن البر بر من آمن بالله... إلخ.

الوجه الثاني: أن الآية على سبيل المبالغة؛ وليس فيها تقدير مضاف، كأنه جعل المؤمن هو نفس البر، مثلما يقال: «رجل عدل» بمعنى أنه عادل.

الوجه الثالث: أن نجعل { البر } بمعنى البارّ؛ فيكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البارَّ حقيقة القائمَ بالبر من آمن بالله...

وقوله تعالى: { من آمن بالله }؛ تقدم أن «الإيمان» في اللغة بمعنى التصديق؛ لكنه إذا قرن بالباء صار تصديقاً متضمناً للطمأنية، والثبات، والقرار؛ فليس مجرد تصديق؛ ولو كان تصديقاً مطلقاً لكان يقال: آمنه - أي صدقه؛ لكن «آمن به» مضمنة معنى الطمأنينة، والاستقرار لهذا الشيء؛ وإذا عديت باللام - مثل: {فآمن له لوط} [العنكبوت: 26] - فمعناه أنها تضمنت معنى الاستسلام والانقياد.

قوله تعالى: { واليوم الآخر }: هو يوم القيامة؛ وسمي آخراً؛ لأنه ليس بعده يوم.

قوله تعالى: { والملائكة } جمع ملَك؛ وهم عالَم غيبي خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور، وذللهم لعبادته، وهم لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم أجسام ذوو عقول؛ لقوله تعالى: {جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة} [البقرة: 30] ؛ ولقوله تعالى في وصف جبريل: {إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين} [التكوير: 19 ـــ 21] .

قوله تعالى: { والكتاب }؛ المراد به الجنس؛ فيشمل كل كتاب أنزله الله عز وجل على كل رسول.

قوله تعالى: { والنبيين } يدخل فيهم الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي، ولا عكس: قال الله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء: 163] .

قوله تعـالى: { وآتى } بالمـد؛ بمعـنى أعطى؛ إذاً هي تنصب مفعـولين؛ المفعول الأول: { المال }؛ والمفعول الثاني: قوله تعـالى: { ذوي القـربى }، وما عطف عليه؛ و(المال): كل عين مباحة النفع سواء كان هـذا المـال نقداً، أو ثياباً، و طعاماً، أو عقاراً، أو أي شيء.

قوله تعالى: (على حبه) حال من فاعل (آتى)، يعني حال كونه محبـاً له لحاجته إليه، كالجائع؛ أو لتعلق نفسه بـه، مثلأن يعجبه جمالـه، أو قوتـه، أو ما أشبه ذلك.

قوله تعـالى: { ذوي القـربى } أي أصـحاب القرابـة؛ والمـراد قرابة المعطي؛ وبدأ بهم قبل كل الأصناف؛ لأن حقهم آكد؛ وقد ذكروا أن القرابة ما جمع بينك وبينهم الجد الرابع.

قوله تعالى: { واليتامى } جمع يتيم؛ وهو من مـات أبـوه قبل بلوغه من ذكر، أو أنـثى؛ فأما من مـاتت أمه فليس بيـتيم؛ ومن بلغ فليس بيـتيم؛ وسمي يتيماً من اليتم؛ وهو الانفراد؛ ولهذا إذا صـارت القصـيدة جميلـة، أو قوية يقولون: هذه الدرة اليتيمة - يعني أنها منفردة ليس لها نظير.

قوله تعالى: { والمساكين } جمع مسكين؛ وهو الفقير؛ سمي بـذلك لأن الفقر أسكنه، وأذلـه؛ والفقر - أعاذنا الله منه - لا يجعل الإنسـان يتكلم بطلاقـة؛ هـذا في الغـالب؛ لأنه يـرى نفسه أنه ليس على المسـتوى الـذي يمكنه من التكلم؛ ويـرى نفسه أنه لا كلمة لـه، كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[1].

واعلم أن الفقير بمعنى المسكين؛ والمسكين بمعـنى الفقـير؛ إلا إذا اجتمعا صار لكل واحد منهما معنى غير الآخر؛ فالفقير أشد حاجـة، كما في آية الصدقة: {إنما الصدقات للفقـراء والمسـاكين...} [التوبـة: 60] ؛ لأن الله بدأ بـه؛ ويُبـدأ بـالأحق فـالأحق، والأحـوج فـالأحوج في مقـام الإعطـاء؛ ويجمعهما - أعني الفقـير، والمسـكين - أن كلاً منهما ليس عنـده ما يكفيه وعائلته من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسكن، ومنكح، ومركوب.

قوله تعالى: { وابن السبيل }؛ «السبيل» بمعنى الطريـق؛ والمـراد بـ { ابن السبيل } الملازم للطريـق؛ وهو المسـافر؛ والمسـافر يكـون في حاجة غالبـاً، فيحتـاج إلى من يعطيه المـال؛ ولهـذا جعل الله له حظـاً من الزكـاة؛ فـابن السـبيل هو المسـافر؛ وزاد العلمـاء قيـداً؛ قـالوا: المسـافر المنقطع به السـفر ـــ أي انقطع به السـفر؛ فليس معه ما يوصـله إلى بلده؛ لأنه إذا كان معه ما يوصله إلى بلده فليس بحاجة؛ فهو والمقيم على حدٍّ سواء؛ فلا تتحقق حاجته إلا إذا انقطع به السفر.

قوله تعـالى: { والسـائلين } جمع سـائل؛ وهو المسـتجدي الـذي يطلب أن تعطيه مالاً؛ وإنما كان إعطاؤه من البر؛ لأن معطيه يتصف بصفة الكرماء؛ ولذلك كـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم لا يُسـأل على الإسـلام شيئاً إلا أعطاه؛ والسائل نوعان؛ سـائل بلسـان المقـال: وهو الـذي يقـول للمسؤول: أعطني كذا؛ وسائل بلسان الحال: وهو الذي يُعَـرِّض بالسـؤال، ولا يصرح به، مثل أن يأتي على حال تستدعي إعطاءه.

قوله تعالى: { وفي الرقاب } أي في إعتاق الرقاب، أو فكاكها من الأسر.

قوله تعالى: { وأقام الصلاة } هذه معطوفة على { آمن } التي هي صـلة الموصـول؛ فيكـون التقـدير: ومن أقـام الصـلاة؛ و{ الصـلاة } المـراد بها

[1] أخرجه مسلم ص1135، كتاب البر والصلة، باب 40: فضل الضعفاء والخاملين، حديث رقم 6682 [138] 2622.

الفرض، والنفل؛ وإقامتها الإتيان بها مستقيمة؛ لأن أقام الشيء يعني جعله قائماً مستقيماً؛ وليس المراد بإقامة الصلاة الإعلام بالقيام إليها؛ واعلم أن «الصلاة» من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فمعناها في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: {وصلّ عليهم} [التوبة: 103] أي ادْعُ لهم بالصلاة، فقل: صلى الله عليكم؛ ولكنها في الشرع: عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم.

قوله تعالى: { وآتى الزكاة } أي أعطى الزكاة مستحقها؛ و«الزكاة» أيضاً من الكلمات التي نقلها الشرع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فالزكاة في اللغة من زكا يزكو - أي نما، وزاد؛ وبمعنى الصلاح؛ ومنه قوله تعالى: {قد أفلح من زكاها} [الشمس: 9] أي أصلحها، وقومها؛ لكن في الشرع «الزكاة» هي التعبد ببذل مال واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة؛ وسميت زكاة؛ لأنها تنمي الخُلق وتنمي المال، وتنمي الثواب؛ تنمي الخُلق بأن يكون الإنسان بها كريماً من أهل البذل، والجود، والإحسان؛ وهذا لا شك من أفضل الأخلاق شرعاً، وعادة؛ وتنمي المال بالبركة، والحماية، والحفظ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما نقصت صدقة من مال»[1]؛ وتزكي الثواب ، كما قال تعالى: { مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم } [البقرة: 261] ؛ وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله تعالى يأخذها بيمينه، فيربيها، كما يربي الإنسان فلوه حتى تكون مثل الجبل»[2].

قوله تعالى: { والموفون بعهدهم إذا عاهدوا }؛ { إذا } هنا مجردة من الشرطية؛ فهي ظرفية محضة - يعني: الموفون بعهدهم وقت العهد؛ أي في الحال التي يعاهدون فيها؛ فإذا عاهدوا وفوا.

قوله تعالى: { والصابرين }: فيه إشكال من حيث الإعراب؛ لأن الذي قبله مرفوع؛ وهو غير مرفوع؛ يقول بعض العلماء؛ إنه منصوب بفعل محذوف، والتقدير: وأخص الصابرين؛ والبلاغة من هذا أنه إذا تغير أسلوب الكلام كان ذلك أدعى للانتباه؛ فإن الإنسان إذا قرأ الكلام على نسق واحد لم يحصل له انتباه، كما يحصل عند تغير السياق.

و «الصبر» ليس بذل شيء؛ ولكنه تحمل شيء؛ وما سبق كله بذل شيء؛ فهو مختلف من حيث النوع: { من آمن... وأقام... وآتى... } كل هذه أفعال؛ لكن { الصابرين } ليس فعلاً؛ ولكنه تحمُّل.

و«الصبر» في اللغة الحبس؛ ومنه قولهم: فلان قُتل صبراً ـــ أي حبساً؛ وأما في الشرع فإنه حبس النفس على طاعة الله، أو عن معصيته، أو على أقداره المؤلمة.

---

(1) أخرجه مسلم ص1130، كتاب البر والصلة، باب 19: استحباب العفو والتواضع، حديث رقم 6592 [69] 2588.

(2) أخرجه البخاري ص111، كتاب الزكاة، باب 8: الصدقة من كسب طيب...، حديث رقم 1410، وأخرجه مسلم ص838، كتاب الزكاة، باب 19: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم 2343 [64] 1014.

قوله تعـالى: { في البأسـاء والضـراء وحين البـأس }: { البأسـاء } شدة الفقر؛ ومنه «البؤس» يعـني الفقـر؛ و{الضـراء }: المـرض؛ و{ حين البأس }: شـدة القتـل؛ فهم صـابرون في أمـور لهم فيها طاقـة، وأمـور لا طاقة لهم بها؛ { في البأساء } يعـني: في حـال الفقـر؛ لا يحملهم فقـرهم على الطمع في أموال الناس، ولا يشكون أمـرهم لغـير اللـه؛ بل يصـبرون عن المعصـية: لا يسـرقون، ولا يخونـون، ولا يكـذبون، ولا يغشـون؛ ولا تحملهم الضراء - المرض، وما يضر أبدانهم - على أن يتسخطوا من قضـاء الله وقـدره؛ بل هم دائمـاً يقولـون بألسـنتهم وقلـوبهم: رضـينا بالله ربـاً، وبالإسـلام دينـاً، وبمحمد رسـولاً؛ كـذلك حين البـأس يصـبرون، ولا يولـون الأدبـار - وهـذا صـبر على الطاعـة؛ فتضـمنت هـذه الآيـة: { الصـابرين في البأساء والضراء وحين البأس } الصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر عن المعصية؛ وعلى الأقدار المؤلمة؛ وعلى الطاعة؛ والـترتيب فيها للانتقـال من الأسـهل إلى الأشد.

قوله تعالى: { أولئك الذين صدقوا }؛ هذه شهادة من الله عز وجل؛ وهي أعلى شهادة؛ لأنها شهادة من أعظم شاهد سبحانه وتعالى؛ والمشـار إليهم كل من اتصف بهـذه الصـفات؛ والإشـارة بالبعيد لما هو قـريب لأجل علو مرتبتهم.

وقوله تعـالى: { الـذين صـدقوا } أي صـدقوا اللـه، وصـدقوا عبـاده بوفـائهم بالعهـد، وإيتـاء الزكـاة، وغـير ذلـك؛ والصـدق هو مطابقة الشـيء للواقع؛ فالمخبر بشيء إذا كان خبره موافقـاً للواقع صـار صـادقاً؛ والعامل الذي يعمل بالطاعة إذا كانت صادرة عن إخلاص، واتباع صار عمله صـادقاً؛ لأنه ينبئ عما في قلبه إنباءً صادقاً.

قوله تعــالى: { وأولئك هم المتقــون } أي القــائمون بــالتقوى؛ و «التقــوى» هي اتخــاذ الوقاية من عــذاب الله عز وجل بفعل أوامــره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في تعريف التقوى؛ وتأمل كيف جـاءت هذه الجملة بالجملة الاسمية المؤكدة؛ الجملة اسمية لدلالتها على الثبوت، والاستمرار؛ لأن الجملة الاسمية تدل على أنها صـفة ملازمة للمتصف بهـا؛ وهذه الجملة مؤكدة بضـمير الفصـل: { هم }؛ لأن ضـمير الفصل له ثلاث فوائد سبق ذكرها[1].

وقوله تعـالى: { وأولئك هم المتقـون }: هـؤلاء جمعـوا بين الـبر والتقوى؛ البر: بالصدق؛ والتقـوى: بهـذا الوصـف: { أولئك هم المتقـون }؛ وإنما قلنـا: إن الصـدق بـر؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر؛ وإن البر يهدي إلى الجنة»[1]؛ فجمعوا بين البر والتقوى؛ فهذا ما أمر الله به في قوله تعالى: {وتعاونوا على الـبر والتقوى} [المائدة: 2] ؛ وكرر الإشارة مرة ثانية من باب التأكيد، والمدح، والثناء كأن كل جملة من هاتين الجملتين مستقلة.

الفوائد:

(1) انظر 1/32.

(1) أخرجه البخاري ص514 – 515، كتاب الأدب، باب 69، قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، وما ينهى عن الكذب، حديث رقم 6094؛ وأخرجه مسلم ص1133، كتاب البر والصلة، باب 29: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث رقم 6639 [105] واللفظ لمسلم.

1 ــــ من فوائد الآية: أن البر حقيقة هو الإيمان بالله... إلخ؛ والإيمـان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيتـه؛ والإيمـان بألوهيتـه؛ والإيمان بأسمائه، وصفاته:

أما الإيمان بوجوده: فإنه دل عليه الشرع، والحس، والعقل، والفطرة:

أ ــــ دلالة الشرع على وجوده سبحانه وتعالى واضحة من إرسال الرسـل، وإنزال الكتب.

ب ــــ دلالة الحس: فـإن الله سـبحانه وتعـالى يـدعى، ويجيب؛ وهـذا دليل حسي على وجوده ــــ تبـارك وتعـالى، كما في سـورة الأنبيـاء، وغيرها من إجابة دعوة الرسل فور دعـائهم، كقوله تعـالى: {ونوحـاً إذا نـادى من قبل فاسـتجبنا لـه} [الأنبيـاء: 76] ، وقوله تعـالى: {وأيـوب إذ نـادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له} [الأنبياء: 83، 84] .

ج ــــ دلالة العقل: أنّ ما من حادث إلا وله محدث، كما قال عز وجل: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} [الطور: 35] ؛ هذا الكون العظيم بما فيه من النظام، والتغيرات، والأحـداث لا بد أن يكـون له موجِد مُحـدِث يحدث هذه الأشياء ــــ وهو الله عز وجـل؛ إذ لا يمكن أن تَحـدث بنفسـها؛ لأنها قبل الوجود عدم؛ والعدم ــــ كاسمه لا وجود له؛ ولا يمكن أن يحـدثها مخلوق لِما فيها من العظم والعبر.

د ــــ دلالة الفطـرة: فـإن الإنسـان لو تـرك وفطرته لكـان مؤمنـاً باللـه؛ والدليل على هـذا قوله تعـالى: {تسـبح له السـموات السـبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} [الإسراء: 44] ؛ حتى غير الإنسان مفطور على معرفة الرب عز وجل.

وأما الإيمان بربوبيته: فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهـذا الكـون المالك له المـدبر لـه؛ وقد دل عليه ما سـبق من الأدلة على وجـوده؛ وقد أقر بـذلك المشـركون، كما في قوله تعـالى: { قل من رب السـموات السـبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله }؛ إلى غيرها من الآيات الكثيرة.

وأما الإيمان بألوهيته: فهو الإيمان بأنه لا إله في الوجـود حق إلا الله عز وجل وكل ما سواه من الآلهة باطلة، كما قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يـدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبـير} [الحج: 62] ، فالله سبحانه وتعالى هو الإله الحق.

وأما الإيمـان بأسـمائه، وصـفاته: فهو الإيمـان بما أثبته الله سـبحانه وتعالى لنفسه، أو أثبتته له رسـله من الأسـماء والصـفات إثباتـاً بلا تمثيـل، وتنزيهـاً بلا تعطيل على حد قوله تعـالى: {ليس كمثله شـيء وهو السـميع البصير} [الشورى: 11] ؛ ودليل ذلك قوله تعالى: { ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها } [الأعراف: 180] ؛ وقوله تعالى: { ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم } [النحل: 60] ووجه الدلالة: تقديم الخـبر في الآيـتين؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

2 ــــ ومن فوائد الآية: أن طاعة الله عز وجل من البر.

3 ــــ ومنها: أن الإيمان باليوم الآخر من البر؛ ويشمل كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر، ونعيمه، وعذابـه، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والصراط، والمـيزان، والكتب بـاليمين، أو الشمال، والجنة، وما ذُكر من نعيمها، والنار، وما ذكر من عـذابها، وغـير

ذلك مما جاء في الكتاب، والسنة عن هـذه الأمـور مفصـلاً أحيانـاً، ومجملاً أحياناً.

والإيمان بـاليوم الآخر يسـتلزم الاسـتعداد له بالعمل الصـالح، ولهـذا يقرن الله سبحانه وتعالى الإيمان أن يقـوم العبد بطاعته سـبحانه وتعـالى؛ فالذي يقول: إنه مؤمن باليوم الآخرة، ولكن لا يسـتعد له فـدعواه ناقصـة؛ ومقدار نقصها بمقدار ما خالف في الاستعداد؛ كما أنه لو قيل مثلاً لإنسـان عنده حَبٌّ: إنه سينزل اليوم مطر، فظلَّل الحَبّ؛ معلـوم أن الـذي لا يـؤمن بهـذا الكلام لن يغطيـه؛ كـذلك لو قيـل: سـيأتي اليـوم عـدو، فشـدد في الحراسة؛ إذا آمن بأنه سيأتي عدو شدَّد في الحراسة بجميع ما يمكن؛ فإذا لم يشدد في الحراسة علمنا أنه لم يؤمن به.

4 ـــ ومن فوائد الآيـة: أن الإيمـان بالملائكة من الـبر؛ ويشـمل الإيمـان بذواتهم، وصـفاتهم، وأعمـالهم إجمـالاً فيما علمنـاه إجمـالاً، وتفصـيلاً فيما علمناه تفصيلاً؛ واعلم أن الملائكة - عليهم الصـلاة السـلام - منهم من عُين لنـــا، وعرفنـــاه باســـمه؛ ومنهم من لم يعين؛ فمن عين لنا وجب علينا أن نؤمن باسـمه كما عين، مثل «جبريـل» عليه السـلام؛ وإسـرافيل؛ ومالك - خـازن النـار -؛ ومنكر ونكـير إن صح الحـديث بهـذا اللفظ[1] - ففيه نظر -؛ وميكائيـل؛ وملك المـوت - ولكننا لا نعـرف اسـمه؛ بعض النـاس يقولـون: عزرائيل؛ ولكن لم يصح هذا؛ وهاروت، ومـاروت؛ ثم كـذلك أعمـالهم منهم من علمنا أعمالـــه؛ ومنهم من لم نعلم؛ لكن علينا أن نـــؤمن على ســـبيل الإطلاق بأنهم عباد مكرمون، وممتثلون لأمر الله عز وجل، لهم نصـيب من تدبير الخلق بإذن الله؛ منهم الموكل بالقطر، والبنات؛ والموكل بـالنفخ في الصور؛ وفيهم ملائكة موكلة بالأجنة؛ وملائكة موكلة بكتابة أعمال بـني آدم؛ وملائكة موكلة بحفظ بني آدم؛ كما قال تعـالى: {له معقبـات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} [الرعد: 11] ؛ لكن كل هـذا بـأمر الله عز وجل وبإذنه؛ وليس لهم منازعة لله عز وجـل، ولا معاونة في أي شـيء من الكــون؛ قــال الله تعــالى: {قل ادعــوا الــذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السـموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شـرك وما له منهم من ظهـير * ولا تنفع الشـفاعة عنـده إلا لمن أذن لـه} [سـبأ: 22، 23فنفى جميع ما يتعلق به المشـــركون: {لا يملكـــون مثقـــال ذرة} [سبأ: 22] انفراداً؛ {وما لهم فيهما من شرك} [سبأ: 22] مشـاركة؛ {وما له منهم من ظهير} [سبأ: 22] معاونـة؛ {ولا تنفع الشـفاعة عنـده إلا لمن أذن له} [سبأ: 23] : فنفى الشفاعة، والوساطة إلا بإذنه، ثم قـال تعـالى: {حتى إذا فزع عن قلوبهم} [سـبأ: 23] : وهم الملائكة إذا سـمعوا الـوحي صعقوا؛ فليس لهم أي شيء في التصرف في الكـون؛ لكنهم يمتثلـون أمر الله عز وجل.

5 ـــ ومن فوائد الآية: أن الإيمان بالكتب من الـبر؛ وكيفيته أن نـؤمن بـأن كل كتاب أنزله الله على أحد من رسله فهو حق: صدق في الأخبار، وعـدل

---

[1] راجع الترمذي ص1754، كتاب الجنائز، باب 70: ماجاء في عذاب القبر، حديث رقم 1071؛ وصحيح ابن حبان 5/48، فصل في أحوال الميت في قبره، ذكر الأخبار عن اسم الملكين اللذين يسألان الناس في قبورهم...، حديث رقم 3107؛ وكتاب السنة لابن أبي عاصم 2/402 – 403، باب 171: في القبر وعذاب القبر، حديث رقم 864، ومدار الحديث على عبد الرحمن بن إسحاق المدني؛ قال الحافظ في التقريب: "صدوق رمي بالقدرط؛ والحديث قال الألباني في صحيح الترمذي: "حسن" (1/311، حديث رقم 856 – 1083)؛ وقال في السلسلة الصحيحة: "إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لا يضر" (المجلد الثالث، ص380، حديث رقم 1391).

في الأحكـام؛ ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جـاءت شـريعتنا بخلافـه؛ واعلم أنه ما من رســـول إلا معه كتـــاب؛ ودليل ذلك قوله تعـــالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان} [الحديد: 25] أي مع هؤلاء الرسـل، وقوله تعـالى: {كـان النـاس أمة واحـدة فبعث الله النبـيين مبشــرين ومنــذرين وأنــزل معهم الكتــاب بــالحق ليحكم بين النــاس فيما اختلفـوا فيـه} [البقـرة: 213] ؛ فما من رسـول إلا معه كتـاب؛ والكتب المعروفة لدينا هي التوراة، والإنجيل، والزبـور، وصـحف إبـراهيم، وصـحف موسى، والقـرآن الكـريم؛ وصـحف موسى اختلف العلمـاء أهي التـوراة أو غيرهـا، فمنهم من قـال: إنها غيرهـا؛ ومنهم من قـال: إنها هي؛ وأما ما لم نعلم به فنؤمن به إجمالاً؛ فتقـول بقلبـك، ولسـانك: آمنت بكل كتـاب أنزله الله على كل رسـول؛ ثم إن المـراد أن نـؤمن بـأن الله أنـزل على موسى كتاباً يسمى التوراة؛ وعلى عيسى كتاباً يسـمى الإنجيـل؛ وعلى داود كتابـاً يسمى الزبور؛ أما أن تؤمن بـالموجود منها الآن فليس بـواجب عليـك؛ لأنه محرف، ومغير، ومبدل؛ لكن تؤمن بأن له أصلاً نزل على هؤلاء الرسل.

6 ـــ ومن فوائد الآية: أن الإيمان بالنبيين من البر؛ فنؤمن بكل نـبي أوحى الله إليـه؛ فمن علمنا منهم نـؤمن به بعينـه؛ والبـاقي إجمـالاً؛ وقد ورد في حديث صححه ابن حبان أن عدة الرسل ثلاثمائة وبضـعة عشر رسـولاً؛ وأن عـدة الأنبيـاء مائة وأربعة وعشـرون ألفـاً[2]؛ فـإن صح الحـديث فهو خـبر معصوم يجب علينا الإيمان به؛ وإن لم يصح فإن الله تعـالى يقـول: { ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك } [غافر: 78] ؛ ونحن لا نكلف الإيمان إلا بما بلغنا؛ فالـذين علمنـاهم من الرسل يجب علينا أن نـؤمن بهم بأعيـانهم؛ والـذين لم نعلمهم نـؤمن بهم إجمالاً، كما قال تعالى: { كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسـله } [البقـرة: 285] ؛ وقد ذكر في القـرآن أربعة وعشـرون رسـولاً؛ قـال تعـالى: {ووهبنا لـه} [الأنعـام: 84] أي إبـراهيم: {إسـحاق ويعقوب كلًّا هدينا ونوحـاً هـدينا من قبل ومن ذريته داود وسـليمان وأيـوب ويوسف وموسى وهــارون وكــذلك نجــزي المحســنين * وزكريا ويحــيى وعيسى وإليـاس كل من الصـالحين * وإسـماعيل واليسع ويـونس ولوطـاً وكلًّا فضـلنا على العـالمين} [الأنعـام: 84 ـــ 86]؛ فهـؤلاء ثمانية عشـر؛ ويبقى شعيب، وصالح، وهود، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد صلى الله عليه وسلم.

---

(2) راجع صحيح ابن حبان 1/287 – 289، باب : ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الاستحباب للمرء ان يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها، حديث رقم 362؛ وفي سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال فيه أبو حاتم: "أظنه لم يطلب العلم، وهو كذاب"؛ وقال علي بن الحسين بن الجنيد: "صدق أبو حاتم، ينبغي أن لا يحدث عنه" (كتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم 2/142 – 143)؛ وقال الذهبي: "والصواب: إبراهيم بن هشام أحد المتروكين الذين مشاهم ابن حبان، فلم يصب" (ميزان الاعتدال 4/378)؛ وأخرجه الحاكم من (المستدرك 2/597، كتاب التاريخ)؛ ففي سنده يحيى بن سعيد القرشي البصري – وقيل: الكوفي - ؛ قال ابن حبان فيه: "شيخ يروي عن ابن جريج المقلوبات، وعن غيره من الثقات الملزقات، لا يحل= = الاحتجاج به إذا انفرد" (كتاب المجروحين 3/129)؛ وقال ابن عدي: "وهذا حديث منكر من هذا الطريق" (الكامل في الضعفاء 9/106)؛ لكن بالنسبة لعدد الرسل فقد أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي أمامه رضي الله عنه، ثم قال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه"؛ وأقره الذهبي (المستدرك على الصحيحين 2/262، كتاب التفسير، بسم الله الرحمن الرحيم، من سورة البقرة)؛ وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة المجلد السادس، القسم الأول ص358 – 359، حديث رقم 2668؛ وأما بالنسبة لعدد الأنبياء، فقد جاء من عدة طرق كلها فيها مقال؛ وقال الألباني: "فهو صحيح لغيره" (المجلد السادس، القسم الأول، ص363).

7 ـــ ومن فوائد الآية: أن إعطاء المال على حبه من البر؛ وكـان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به وقـال: إن الله يقـول: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} [آل عمران: 92] ؛ وعندما سـمع أبو طلحة هذه الآية تصدق ببسـتانه الـذي هو أحب شـيء إليه من مالـه؛ لا لأنه بستانه فقط؛ ولكن لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأتي إليـه، ويشرب فيه من ماء طيب، وكان قريباً من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولما نزلت الآية: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: «يا رسـول اللـه، إن الله أنـزل هـذه الآيـة: {لن تنـالوا الـبر حـتى تنفقـوا مما تحبـون}؛ وإن أحب مـالي إليّ «بيرُحاء»؛ وإني أضـعها صـدقة إلى الله ورسـوله؛ فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: بخ! بخ! ذاك مـال رابح! ذاك مـال رابح! أرى أن تجعله في الأقربين»[1].

8 ـــ ومن فوائد الآية: أن إعطـاء ذوي القـربى أولى من إعطـاء اليتـامى، والمساكين؛ لأن الله بـدأ بهم، فقـال تعـالي: { وآتى المـال على حبه ذوي القـربى }؛ فلو سـأل سـائل: هل الأفضل أن أعطي القرابـة، أو اليتـامى؟ لقلنا: أعـطِ القرابـة؛ اللهم إلا إن يكـون هنـاك ضـرورة في اليتـامى تـرجح إعطاءهم؛ وقد ثبت عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم تقـديم صـلة الـرحم على العتق[2]؛ واعلم أن الحكم إذا علق بوصف تختلف أفـراده فيه قـوة وضعفاً، فإنه يزداد قوة بقوة ذلك الوصـف؛ فـإذا كـان معلقـاً بالقرابة فكل من كان أقرب فهو أولى؛ وأقرب الناس إليك، وأحقهم بالبر: أمك، وأبوك.

9 ـــ ومن فوائد الآية: أن لليتامى حقـاً؛ لأن الله امتـدح من آتـاهم المـال؛ لقوله تعالى: { واليتامى } سواء كانوا فقراء، أم أغنياء.

10 ـــ ومنهـا: إثبـات رحمة الله عز وجـل، حيث نـدب إلى إتيـان المـال لليتامى، والمساكين؛ لأن هذا لا شك من الرحمة بهم.

11 ـــ ومنها: أن لابن السبيل حقاً - ولو كان غنياً في بلده.

12 ـــ ومنهـا: أن إعطـاء السـائل من الـبر - وإن كـان غنيـاً؛ لعمـوم قوله تعالى: { والسائلين }.

فإذا قال قائل: إذا كان مؤتي المـال للسـائلين من أهل الـبر فكيف يتفـق، والتحذير من سؤال الناس؟

فالجواب: أنه لا معارضة؛ لأن الجهة منفكة؛ فالممدوح: المعطي؛ والمحذَّر: السـائل المعطى؛ فـإذا انفكت الجهة فلا تعـارض؛ فلو رأيت مبتلى بهـذه المهنة - وهي مهنة سؤال الناس - فأعطه إذا سـألك، ثم انصـحه، وحـذره؛ لتكون مؤتياً للمال، وناصحاً للسائل؛ لأن بعض الناس - والعياذ بالله - نعلم علم اليقين - أو يغلب على الظن المؤكد - أنه غـني؛ وإنما سـأل النـاس تكـثراً؛ وقد ثبت عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن: «من سـأل النـاس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً؛ فليستقل، أو ليستكثر»[1]؛ وأن «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم»[2].

---

(1) أخرجه البخاري ص115، كتاب الزكاة، باب 44: الزكاة على الأقارب، حديث رقم 1461، وأخرجه مسلم ص836، كتاب الزكاة، باب 14: فضل النفقة والصدقة على الأقربين...، حديث رقم 2315 [42] 998.

(2) انظر 2/308.

(1) أخرجه مسلم ص841، كتاب الزكاة، باب 35: كراهة المسألة للناس، حديث رقم 2399 [105] 1014.

13 ـــ ومن فوائد الآية: أن إعتاق الرقـاب من الـبر؛ لقوله تعـالى: { وفي الرقاب }؛ والمال المبذول في الرقاب لا يعطى الرقبة؛ وإنما يعطى مالك الرقبة؛ فلهذا أتى بـ { في } الدالة على الظرفية؛ والرقاب ذكر أهل العلم أنها **ثلاثة أنواع:**

أ ـــ عبد مملوك تشتريه، وتعتقه.

ب ـــ مكاتب اشترى نفسه من سيده، فأعنته في كتابته.

ج ـــ أسير مسلم عند الكفار، فافتديته؛ وكـذلك لو أسر عند غـير الكفـار، مثل الـذين يختطفـون الآن ـــ والعيـاذ باللـه؛ إذا طلب المختطفـون فدية فإنه يفك من الزكاة؛ لأن فيها فك رقبة من القتل.

14 ـــ ومنها: أن إقامة الصلاة من البر؛ لقوله تعالى: { وأقام الصلاة }.

15 ـــ ومنها: أن إيتاء الزكاة للمستحقين لها من البر.

16 ـــ ومنها: الثناء على الموفين بالعهـد، وأن الوفـاء به في الـبر؛ والعهد عهدان: عهد مع الله عز وجل؛ وعهد مع الخلق.

فالعهد الـذي مع الله بينه بقوله تعـالى: {وإذ أخذ ربك من بـني آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشـهدهم على أنفسـهم ألست بـربكم قـالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هـذا غـافلين} [الأعـراف: 172] ، وقوله تعالى: {ولقد أخذ الله ميثـاق بـني إسـرائيل وبعثنا منهم اثـني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصـلاة وآتيتم الزكـاة وآمنتم برسـلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفـرن عنكم سـيئاتكم ولأدخلنكم جنـات تجـري من تحتها الأنهـار} [المائـدة: 12] ، وقوله تعـالى: {يا بـني إسرائيل اذكروا نعمتي الـتي أنعمت عليكم وأوفـوا بعهـدي أوف بعهـدكم} [البقـرة: 40] ؛ فالعهد الـذي عهد الله به إلينا أن نـؤمن به ربـاً، فنرضى بشريعته؛ بل بأحكامه الكونية، والشرعية؛ هذا العهد الذي بيننا، وبين ربنا.

أما العهد الذي بيننا، وبين الناس فأنواعه كثيرة جداً غـير محصـورة؛ منها العقـود، مثل عقد الـبيع، وعقد الإجـارة، وعقد الـرهن، وعقد النكـاح، وغير ذلك؛ لأنك إذا عقدت مع إنسـان الـتزمت بما يقتضـيه ذلك العقـد؛ إذاً فكل عقد فهو عهد؛ ولهذا قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أوفـوا بـالعقود} [المائـدة: 1] ، وقـال تعـالى: {وأوفـوا بالعهد إن العهد كـان مسـؤولاً} [الإسراء: 34] ؛ ومن العهـود بين الخلـق؛ ما يجـري بين المسـلمين وبين الكفار؛ وهو ثلاثة أنواع: مؤبد؛ ومقيـد؛ ومطلـق؛ فأما المؤبد فلا يجـوز؛ لأنه يؤدي إلى إبطال الجهاد؛ وأما المقيد فبحسب الحاجة ـــ وإن طالت المدة على القول الراجح ـــ لأنه عهد دعت إليه الحاجة؛ فيتقيد بقدرها؛ وقيل: لا تجـوز الزيـادة فيه على عشـرة سـنوات؛ لأن الأصل وجـوب قتـال الكفـار، وأبيح العهد في عشر سنوات تأسياً برسول الله (ص) في صـلح الحديبيـة؛ والصـحيح الأول؛ ويجـاب عن عهد الحديبية بـأن الحادثة لا تقتضي الزيـادة؛ وأما المطلق فهو الذي لم يؤبد، ولم يحدد؛ وهو جـائز على القـول الـراجح عند الحاجة إليـه؛ فمـتى وجد المسـلمون الحاجة إليه عقـدوه؛ وإذا زالت الحاجة عاملوا الكفار بما تقتضيه الحال؛ ولا حجة للكفار فيه؛ لأنه مطلق.

والمعاهدون من الكفار لهم ثلاث حالات؛ الحال الأولى: أن يستقيموا لنا؛ الحالة الثانية: أن يخونوا؛ الحال الثالثـة: أن نخـاف منهم الخيانـة؛ فـإن اسـتقاموا لنا وجب علينا أن نسـتقيم لهم؛ ولا يمكن أن نخـون أبـداً؛ لقوله

---

(2) أخرجه البخاري ص116، كتاب الزكاة، باب 52: من سأل الناس تكثراً، حديث رقم 1474، وأخرجه مسلم ص841، كتاب الزكاة، باب 35: كراهة المسألة للناس، حديث رقم 2398 [104] 1040.

تعـالى (فما اسـتقاموا لكم فاسـتقيموا لهم إن الله يحب المتقين) [التوبـة: 7]؛ وإن خـانوا انقض عهـدهم، ووجب قتـالهم؛ لقوله تعـالى: (وإن نكثـوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم) [التوبة: 12]؛ وإن خفنا منهم الخيانة وجب أن ننبذ إليهم عهدهم على سواء؛ لقوله تعالى: {وإما تخـافن من قـوم خيانة فانبذ إليهم على سـواء} [الأنفـال: 58] : نخـبرهم أن لا عهد بيننا ليكونـوا على بصـيرة؛ ومن العهد أيضـاً ما يقع بين الإنسـان وبين غـيره من الالتزامـات غـير العقـود، مثل الوعـد؛ فـإن الوعد من العهـد؛ ولهـذا اختلف أهل العلم هل يجب الوفـاء بالوعد، أو لا يجب؛ والصحيح الذي اختاره شيخ الإسـلام ابن تيمية أنه يجب الوفاء بالوعد؛ لأنه داخل في العهد، ولأن إخلاف الوعد من علامات النفاق؛ وإذا كان كذلك فلا يجوز للمؤمن أن يتحلى بأخلاق المنافقين.

17 ــــ ومن فوائد الآية: أن الصبر من البر؛ وهو ثلاثة أنواع:

الأول: الصـبر على طاعة الله ، بـأن يتحمل الصـبر على الطاعة من غـير ضجر، ولا كراهة.

الثاني: الصـبر عن معصـية الله ، بـأن يحمل نفسه على الكف عن معصـية الله إذا دعته نفسه إليها.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة التي لا تلائم الطبيعة بأن لا يتسـخط من المقـدور، ولا يتضـجر؛ بل يحبس نفسه عن ذلـك: قـال الله تعـالى: {وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صـلوات من ربهم ورحمه وأولئك هم المهتـدون} [البقـرة: 155 ــــ 157] .

وأعلى هـذه الأنـواع: الصـبر على طاعة اللـه؛ لأن فيه تحملاً، ونوعـاً من التعب بفعل الطاعـة؛ ثم الصـبر عن المعصـية؛ لأن فيه تحملاً، وكفـاً عن المعصية؛ والكف أهون من الفعل؛ ثم الصبر على أقدار الله المؤلمـة، لأنه على شيء لا اختيار للعبد فيه، ولهذا قيل: «إمّا أن تصبر صبر الكـرام، وإمّا أن تسلوَ سلوّ البهائم».

18 ــــ ومن فوائد الآية: أن ما ذُكر هو حقيقة الصدق مع الله، ومع الخلق؛ لقوله تعالى: { أولئك الذين صدقوا }؛ فصدقهم مع الله، حيث قاموا بهـذه الاعتقـادات النافعـة: الإيمـان باللـه، واليـوم الآخـر، والملائكـة، والكتـاب، والنبـيين؛ وأنهم أقـاموا الصـلاة، وآتـوا الزكـاة، وبـذلوا المحبـوب في هـذه الجهـات؛ وأما صـدقهم مع الخلق يـدخل في قوله تعـالى: { والموفــون بعهدهم إذا عاهدوا }؛ وهذا من علامات الصدق؛ ولهذا قال تعالى: { أولئك الـذين صـدقوا }؛ فصـدقوا في اعتقـاداتهم، وفي معـاملاتهم مع اللـه، ومع الخلق.

19 ــــ ومن فوائد الآية أن ما ذكر من تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: { وأولئك هم المتقون }؛ وسبق أنها إذا جمعت مع البر صـارت التقـوى تـرك المحرمات، وصار البر فعل المأمورات؛ وإذا افترقا دخل أحدهما في الآخر؛ وفي هذه الآية قال تعالى: { وأولئك هم المتقون } مع أنهم قائمون بـالبر؛ فدل هذا على أن القيام بالبر من التقوى؛ لأن حقيقة الأمر أن القائم بــالبر يرجو ثواب الله، ويخشى عقاب الله.

20 ــــ ومنها: أن هؤلاء فقط هم المتقون؛ ونفهم ذلك من الحصر وطريقه هنا أمران:

أ ـــ تعريف طرفي الجملة.
ب ـــ ضمير الفصل.
تـــنـــبـــيـــه:
ظاهر الآية الكريمة العموم في إتيـان المـال لهـؤلاء المـذكورين في الآيــة: القرابــة، واليتــامى، والمســاكين، وابن الســبيل، والســائلين، وفي الرقاب؛ فظاهر الآية العمـوم للمسـلمين، والكـافرين؛ لكنه غـير مـراد؛ بل هي خاصة بالمسلم؛ وأما الكافر فلا بأس من بـره، والإحسـان إليه بشـرط أن يكون ممن لا يقاتلوننا في ديننـا، ولم يخرجونا من ديارنـا؛ لقوله تعـالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تـبروهم وتقسـطوا إليهم إن الله يحب المقسـطين} [الممتحنـة: 8] ؛ وعلى هـذا فـإذا كـان الكـافر يقاتلنا بنفسه بـأن يكـون هـذا الرجل المعين مقــاتلاً، أو يقاتلنا حكمــاً، مثل أن يكــون من دولة تقاتل المســلمين فإنه لا يجوز بره، ولا إعطـاؤه المـال؛ لأنه مسـتعد حكمـاً للقتـال: إذا أمرته دولته بقتـال فإنه يلـبي؛ وما دام حربـاً للمسـلمين فإنه يريد إعـدام المسـلمين، وليس أهلاً للإحسان إليه.

القرآن

{)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة: 178)

التفسير:

{ 178 } قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا } سبق الكلام على ذكر فوائد تصدير الخطاب بالنداء بوصف الإيمان للمنادى.

قوله تعالى: { كتب عليكم }؛ أي فُرض، كقوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام }؛ وسمي الفرض مكتوباً؛ لأن الكتابة تثَبِّت الشيء، وتوثقه؛ قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه} [البقرة: 282].

قوله تعالى: { القصاص } هذه نائب فاعل؛ والقصاص يشمل إزهاق النفس، وما دونها؛ قال الله تعالى في سورة المائدة: {والجروح قصاص} [المائدة: 45] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في كسر الربيع سن جارية من الأنصار: «كتاب الله القصاص»[1]؛ ولكنه تعالى هنا قال: { في القتلى }؛ وفي سورة المائدة: في القتل، وفيما دونه: {أن النفس بالنفس والعين بالعين...} [المائدة: 45] إلخ.

و «قتلى» جمع قتيل، مثل «جرحى» جمع جريح؛ و«أسرى» جمع أسير؛ وقوله تعالى: { في القتلى } أي في شأن القتلى؛ وليس في القتلى أنفسهم؛ لأن القتيل مقتول؛ فلا قصاص؛ لكن في شأنهم؛ والذي يُقتص منه هو القاتل.

وبعد العموم في قوله تعالى: { القصاص في القتلى } بدأ بالتفصيل فقال تعالى: { الحر بالحر }؛ { الحر مبتدأ؛ و{ بالحر } خبر؛ يعني الحر يقتل بالحر؛ والباء هنا إما للبدلية؛ وإما للعوض؛ يعني الحر بدل الحر؛ أو الحر عوض الحر؛ و{ الحر } هو الذي ليس بمملوك.

قوله تعالى: { والعبد بالعبد } أي العبد يقتل بالعبد؛ و{ العبد } هو المملوك.

قوله تعالى: { والأنثى بالأنثى } أي الأنثى تقتل بالأنثى.

قوله تعالى: { فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف }؛ «مَن» هذه شرطية؛ والفاء عاطفة ومفرِّعة أيضاً، تفيد أن ما بعدها مفرَّع على ما قبلها.

وقوله تعالى: { فمن عفي له }: المعفو عنه القاتل؛ و{ من أخيه } المراد به المقتول ـــ أي من دم أخيه فأيّ قاتل عفي له من دم أخيه شيء سقط القصاص؛ وحينئذ على العافي اتباع بالمعروف عند قبض الدية، بحيث لا يتبع عفوه منًّا، ولا أذًى؛ و{ شيء } نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل شيء قليلاً كان، أو كثيراً.

---

[1] أخرجه البخاري ص215، كتاب الصلح، باب 8: الصلح في الدية، حديث رقم 2703، وأخرجه مسلم ص974، كتاب القسامة، باب 5: إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، حديث رقم 4374 [24] 1675؛ واللفظ للبخاري.

وقوله تعالى: { فاتباع } خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب اتباع بالمعروف؛ والاتباع بالمعروف يكون على ورثة المقتول؛ يعني إذا عفوا فعليهم أن يَتَّبعوا القاتل بالمعروف.
قوله تعالى: { وأداء إليه } أي على القاتل إيصال إلى العافي عن القصاص؛ وهي معطوفة على «اتباع» ؛ والضمير في { إليه } يعود إلى العافي بإحسان؛ والمؤدَّى: ما وقع الاتفاق عليه.
قوله تعالى: { بإحسان } أي يكون الأداء بإحسان وافياً بدون مماطلة؛ والباء للمصاحبة - يعني أداءً مصحوباً بالإحسان - وإنما نص على «الإحسان» هنا؛ و «المعروف» هناك؛ لأن القاتل المعتدي لا يكفّر عنه إلا الإحسان ليكون في مقابلة إساءته؛ أما أولئك العافون فإنهم لم يجنوا؛ بل أحسنوا حين عدلوا عن القتل إلى الدية.
قوله تعالى: [ذلك تخفيف من ربكم ورحمة }: المشار إليه كل ما سبق من وجوب القصاص، ومن جواز العفو؛ تخفيف من الله في مقابل وجوب القصاص؛ وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن بني إسرائيل فرض الله عليهم القصاص فرضاً؛ وهذه الأمة خفف عنها؛ فلم يجب عليها القصاص؛ لأن الإنسان قد يكون لديه رحمة بالقاتل؛ وقد يكون القاتل من أقاربه؛ وقد يكون اعتبارات أخرى فلا يتمكن من تنفيذ القصاص في حقه؛ فخفف على هذه الأمة - ولله الحمد.
وقوله تعالى: { من ربكم }: «الرب» معناه الخالق المالك المدبر لخلقه كما يشاء على ما تقتضيه حكمته.
وقوله تعالى: [ورحمة } أي بالجميع: بالقاتل - حيث سقط عنه القتل، وبأولياء المقتول - حيث أبيح لهم أن يأخذوا العوض؛ لأن من الجائز أن يكون الواجب إما القصاص؛ أو العفو مجاناً؛ لكن من رحمة الله أنه أباح هذا، وهذا؛ فهو رحمة بالجميع.
قوله تعالى: { فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم }: { من } اسم شرط؛ وفعل الشرط: { اعتدى }؛ وجوابه: { فله عذاب أليم }؛ المشار إليه في قوله تعالى: { بعد ذلك }: التنازل عن القصاص بأخذ الدية، أو قبولها؛ و{ عذاب } بمعنى عقوبة؛ و{ أليم } بمعنى مؤلم - يعني: موجع؛ والمعنى: أن من اعتدى من أولياء المقتول بعد العفو فله عذاب أليم - ويحتمل أن يكون المراد: من اعتدى من أولياء المقتول، ومن القاتل.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أهمية القصاص؛ لأن الله وجه الخطاب به إلى المؤمنين؛ وصدره بالنداء المستلزم للتنبيه؛ وتصدير الخطاب بالنداء فائدته التنبيه، وأهمية الأمر.
2 ــــ ومنها: أن تنفيذ القصاص من مقتضى الإيمان؛ لأن الخطاب موجه للمؤمنين.
3 ــــ ومنها: أن ترك تنفيذه نقص في الإيمان؛ فما كان من مقتضى الإيمان تنفيذه فإنه يقتضي نقص الإيمان بتركه.
4 ــــ ومنها: وجوب التمكين من القصاص؛ لقوله تعالى: { كتب عليكم القصاص }.

5 ـــ ومنها: مراعاة التماثل بين القاتـل، والمقتـول؛ لقوله تعـالى: { الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى }.
6 ـــ ومنهـا: أن الحر يقتل بـالحر - ولو اختلفت صـفاتهما، كرجل عـالم عاقل غني جواد شجاع قتل رجلاً فقيراً أعمى أصم أبكم زمِناً جباناً جـاهلاً فإنه يقتل به؛ لعموم قوله تعالى: { الحر بالحر }.
7 ـــ ومنها: أن العبد يقتل بالحر؛ لأنه إذا قُتل الحر بـالحر فمن بـاب أولى أن يقتل العبد بالحر.
8 ـــ ومنهـا: أن العبد يقتل بالعبد - ولو اختلفت قيمتهمـا؛ لعمـوم قوله تعالى: { والعبد بالعبد }؛ فلو قتل عبد يساوي مائة ألف عبداً لا يساوي إلا عشرة دراهم فإنه يقتل به؛ لعموم قوله تعالى: { والعبد بالعبد }.
9 ـــ ومنهـا: أن العبد إذا قتل وكـان قاتله حـراً فإنه لا يقتل بـه؛ لمفهـوم قوله تعـالى: { الحر بـالحر }؛ وهـذه المسـألة فيها خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من قـال: إن الحر يقتل بالعبـد؛ لعمـوم قوله تعـالى: {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بـالنفس} [المائـدة: 45] ، وقـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسـلم إلا بإحـدى ثلاث: الـثيب الـزاني، والنفس بـالنفس...»[1]؛ وهـذا القـول هو الصـواب؛ والقـول الثـاني: أن الحر يقتل بالعبد إذا كان مالكاً له؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه»[2] ؛ وفي الاستدلال بهـذا الحـديث نظـر: «أولاً» : للاختلاف فيه؛ و «ثانياً» : أن يقال: إذا كان السيد يقتل بعبده وهو مالكه فمن باب أولى أن يقتل به من ليس بسيد له؛ وأما حـديث: «لا يقتل حر بعبد»[3] فضعيف.
10 ـــ ومنها: أن الأنثى تقتل بالأنثى - ولو اختلفت صفاتهما - لعمـوم قوله تعالى: {والأنثى بالأنثى }.
11 ـــ ومنها: أن الأنثى تقتل بالرجل؛ لأنها إذا قتلت بالأنثى فإنها من بـاب أولى تقتل بالرجل؛ ودلالة الآية عليه من باب مفهوم الأولوية.
12 ـــ ومنها: أن الرجل لا يقتل بالمرأة؛ لأنه أعلى منها؛ هذا مفهوم الآيـة؛ والصواب أنه يقتل بها؛ لأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قتل يهوديـاً كـان قتل جارية على أوضاح لها – رض رأسها بين حجرين[1]؛ فرض النبي صلى

---

[1] أخرجه البخاري ص573، كتاب الديات، باب 6: قول الله تعالىك 0ان النفس بالنفس والعين بالعين)، حديث رقم 6878، وأخرجه مسلم ص974، كتاب القسامة، باب 6: ما يباح به دم المسلم، حديث رقم 4375 [25] 1676.
[2] أخرجه أحمد 5/10 حديث رقم 20364، وأخرجه أبو داود ص1554، كتاب الديات، باب 7: من قتل عبده...، حديث رقم 4515، وأخرجه الترمذي ص1794، كتاب الديات، باب 17: ما جاء في الرجل يقتل عبده، حديث رقم 1414، وأخرجه النسائي ص2395، كتاب القسامة والقود والديات، باب 11: القود من السيد للمولى، حديث رقم 4742؛ واخرجه ابن ماجة ص2637، كتاب الديات، باب 23: هل يقتل الحر بالعبد، حديث رقم 2663، وأخرجه الدارمي 2/250، من كتاب الديات، باب 7: القود بين العبد وبين سيده، حديث رقم 2358، وفي سنده "الحسن عن سمرة"؛ وسماع الحسن من سمرة مختلف فيه، ففي صحيح البخاري سماع منه لحديث العقيقة، وعند علي بن المديني أن نسخة الحسن عن سمرة كلها سماع؛ وكذا حكى الترمذي عن البخاري، وقال القطان هي كتاب، فلا يقتي الانقطاع (تهذيب التهذيب).
[3] أخرجه الدارقطني 3/133، حديث رقم 158، وفيه جويبر، وقال الدارقطني، والنسائي وغيرهما متروك الحديث (ميزان الاعتدال (1/427)، وراجع: التلخيص الحبير (ج4/20) حديث رقم 7، والإرواء 7/267، حديث رقم 2211.
[1] أخرجه البخاري ص189، كتاب الخصومات، باب 1: ما يذكر في الأشخاص، والخصومة بين المسلم واليهود، حديث رقم 2413؛ وأخرجه مسلم ص973، كتاب القسامة...، باب 3: ثبوت القصاص في القتل بحجر...، حديث رقم 4361 [15] 1672.

الله عليه وسلم رأسه بين حجرين؛ وهذا يدل أن قتله كان قصاصاً؛ لا لنقض العهد – كما قيل به.
13- **ومنها:** جواز العفو عن القصاص إلى الدية؛ لقوله تعالى: (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف...) إلخ؛ وهل له أن يعفو مجاناً؟
الجواب: نعم؛ له ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى ندب إلى العفو فقال: {وأن تعفوا أقرب للتقوى} [البقرة: 237] ، وقال تعالى: {وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم} [التغابن: 14] ، وقال في وصف أهل الجنة: {الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس} [آل عمران: 134] ؛ لكن العفو المندوب إليه ما كان فيه إصلاح؛ لقوله تعالى: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله} [الشورى: 40] ؛ فإذا كان في العفو إصلاح، مثل أن يكون القاتل معروفاً بالصلاح؛ ولكن بدرت منه هذه البادرة النادرة؛ ونعلم، أو يغلب على ظننا أنا إذا عفونا عنه استقام، وصلحت حاله، فالعفو أفضل لا سيما إن كان له ذرية ضعفاء، ونحو ذلك؛ وإذا علمنا أن القاتل معروف بالشر، والفساد، وإن عفونا عنه لا يزيده إلا فساداً، وإفساداً فترك العفو عنه أولى؛ بل قد يجب ترك العفو عنه.
14 ــــ ومن فوائد الآية: أنه إذا عفا بعض الأولياء عن القصاص سقط القصاص في حق الجميع؛ لقوله تعالى: { فمن عفي له من أخيه شيء }؛ وهي نكرة تعم القليل، والكثير؛ لأنها في سياق الشرط؛ وعلى هذا فلو كان لأحد ورثة المقتول جزء من ألف جزء من التركة، ثم عفا عن القصاص انسحب العفو على الجميع؛ لأن الجزء الذي عفا عنه لا قصاص فيه؛ والقصاص لا يتبعض؛ إذ لا يمكن قتل القاتل إلا جزءاً من ألف جزء منه.
15 ــــ ومنها: أن دية العمد على القاتل؛ لقوله تعالى: { فمن عفي له من أخيه شيء }؛ ولا شك أن المعفو عنه هو القاتل؛ وقد أمر بالأداء.
16 ــــ ومنها: أن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان؛ لقوله تعالى: { فمن عفي له من أخيه شيء }؛ فجعل الله المقتول أخاً للقاتل؛ ولو خرج من الإيمان لم يكن أخاً له.
17 ــــ ومنها: الرد على طائفتين مبتدعتين؛ وهما الخوارج، والمعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان؛ لكن الخوارج يصرحون بكفره؛ والمعتزلة يقولون: إنه في منزلة بين المنزلتين: الإيمان، والكفر ــــ فلا هو كافر؛ ولا هو بمؤمن؛ لكن اتفق الجميع على أنه مخلد في النار.
18 ــــ ومنها: أنه يجب الاتباع بالمعروف ــــ يعني يجب على أولياء المقتول إذا عفوا إلى الدية ألا يتسلطوا على القاتل؛ بل يتبعونه بالمعروف بدون أذية، وبدون منة؛ لقوله تعالى: { فاتباع بالمعروف }؛ والخطاب لأولياء المقتول.
19 ــــ ومنها: وجوب الأداء على القاتل بالإحسان، لقوله تعالى: { وأداء إليه بإحسان }.
20 ــــ ومنها: أن الله خفف عن هذه الأمة بجواز العفو، ورحمهم بجواز أخذ العوض؛ لقوله تعالى: { ذلك تخفيف من ربكم ورحمة }: تخفيف على القاتل؛ ورحمة بأولياء المقتول، حيث أذن لهم أن يأخذوا عوضاً؛ وإلا لقيل لهم: إما أن تعفوا مجاناً؛ وإما أن تأخذوا بالقصاص.

21 ـــ ومنهـا: إثبـات الرحمة للـه؛ وهي رحمة حقيقية تسـتلزم حصـول النعم، وانـدفاع النقم؛ وأهل التعطيل يفسـرونها بـــ «الإنعـام» الـذي هو مفعول الرب؛ أو بـ «إرادة الإنعـام»؛ وينكـرون حقيقة الرحمـة؛ وقد ضـلوا في ذلك: فإن الإنعام، أو إرادته من آثار الرحمة، وليسا إياها.

22 ـــ ومنهـا: أن المعتـدي بعد انتهـاء القصـاص، أو أخذ الدية متوعد بالعذاب الأليم سواء كان من أولياء المقتول، أو من القاتـل؛ لقوله تعـالى: { فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم }.

القرآن

{)وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:179)

التفسير:

{ 179 } قوله تعالى: { ولكم في القصاص حياة }؛ { لكم } خبر مقدم؛ و{ حياة } مبتدأ مؤخر؛ و{ القصـاص هو قتل القاتل بمن قتلـه؛ فـــ «أل» فيه للعهد؛ و{ حياة } نكرة للتعظيم؛ والمعنى: حياة كبرى، أو عظمى.

قوله تعـالى: { يا أولي الألبـاب } أي يا أصـحاب العقـول؛ وإنما خـاطبهم بذلك؛ لأن الحكم يحتاج إلى تعقل، وتدبر حتى يتبين مطابقته للعقل.

قوله تعـالى: { لعلكم تتقـون }؛ «لعـل» للتعليـل؛ والمعلّل ثبـوت القصاص؛ يعني: أوجبنا القصاص، وكتبناه عليكم من أجل أن تتقوا العـدوان بالقتل؛ فإن الإنسان إذا علم أنه مقتول بالقتل سيتقي القتل بلا شك.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: الحكمة العظمى في القصاص؛ وهي الحياة الكاملـة؛ لقوله تعالى: { ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب }.

فـإن قيـل: كيف يكـون لنا في القصـاص حيـاة مع أننا قتلنا القاتـل؛ فزدنا إزهاق نفس أخرى؟.

فـالجواب: نعم؛ يكـون لنا في القصـاص حيـاة بـأن القتلة إذا علمـوا أنه سيقتص منهم امتنعوا عن القتل؛ فكان في ذلك تقليل للقتل، وحياة للأمـة؛ ولهذا جاءت منكرة للدلالة على عظم هذه الحياة؛ فالتنكير هنا للتعظيم ـــ يعني حيـاة عظيمة شـاملة للمجتمع كلـه؛ أما بالنسـبة للقاتل فيقتـل؛ لكن قتل القاتل حياة للجميع.

2 ـــ ومن فوائد الآية: أن يُفعل بالجاني كما فَعل؛ لأن بذلك يتم القصاص؛ فـإذا قتل بسـكين قُتل بمثلهـا؛ أو بحجر قُتل بمثلـه؛ أو بسـمّ قُتل بمثلـه؛ وهكذا.

3 ـــ ومنها: أن كون القصاص حياة يحتاج إلى تأمل وعقـل، لقوله تعـالى: { يا أولي الألباب }.

4 ـــ ومنها: أنه يجب على الإنسان أن يؤمن بأحكـام الشـريعة دون تـردد؛ وإذا رأى ما يسـتبعده في بـادئ الأمر فليتأمل وليتعقل حـتى يتـبين له أنه عين الحكمـة، والمصـلحة؛ ولهـذا قـال تعـالى: { يا أولي الألبـاب }؛ فـأتى بالنداء المقتضي للانتباه.

5 ـــ ومنها: أن من فوائد القصـاص أن يتقي الجنـاة القتـل؛ لقوله تعـالى: {لعلكم تتقون} [البقرة: 21] ؛ واتقاؤهم للقتل من تقوى الله.

تــنــبــيــه:

اعلم بـأن للقصـاص شـروطاً لثبوتـه؛ وشـروطاً لاسـتيفائه مـذكورة على التفصيل في كتب الفقه؛ فليرجع إليها.

القرآن

{)كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَـرَ أَحَـدَكُمُ الْمَـوْتُ إِنْ تَـرَكَ خَيْـراً الْوَصِـيَّةُ لِلْوَالِـدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ) (البقرة:180)

التفسير:

{ 180 } قوله تعـالى: { كتب } أي فُـرض؛ فهو فعل مبـني لما لم يسم فاعله؛ وفاعله معلـوم ـــ وهو الله عز وجـل؛ ونـائب الفاعل قوله تعـالى: { الوصية }؛ إنما لم يؤنث الفعل لكون نـائب الفاعل مؤنثـاً تأنيثـاً مجازيـاً؛ وللفصل بينه وبين عامله.

قوله تعالى: { إذا حضر أحـدكم المـوت } يريد بـذلك - والله أعلم - إذا مُرض الإنسان مرض الموت؛ أما إذا حضره بمعـنى أنه كـان في سـياق الموت فإن في ذلك تفصيلاً يأتي - إن شاء الله - في الفوائد.

قوله تعالى: { إن ترك خيراً }: قال العلماء: أي مالاً كثـيراً؛ و{ الوصـية } هي العهد إلى غـيره بشـيء هـام؛ {للوالـدين } يعـني بـذلك الأم، والأب؛ و{ الأقربين }: من سـواهما من القرابـة؛ والمـراد بهم الأدنـون، كـالإخوة، والأعمـام، ونحـوهم؛ { بـالمعروف } أي بما عرفه الشـرع، وأقـره؛ وهو الثلث فأقل؛ { حقاً } أي مؤكداً؛ وهو مصدر حذف عاملـه؛ والتقـدير: أحق ذلك حقاً؛ { على المتقين } أي المتصفين بالتقوى؛ و «التقوى» هي اتخـاذ ما يقي من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: وجـوب الوصـية للوالـدين والأقـربين لمن تـرك مـالاً كثيراً؛ لقوله تعالى: { كتب عليكم }؛ واختلف العلماء ـــ رحمهم الله ـــ هل هذا منسوخ بآيات المواريث؛ أم هو محكم، وآيات المواريث خصصـت؟ على قولين؛ فأكثر العلماء على أنه منسوخ؛ ولكن القـول الـراجح أنه ليس بمنسوخ؛ لإمكان التخصيص؛ فيقال: إن قوله تعالى: { للوالـدين والأقـربين } مخصـوص بما إذا كـانوا وارثين؛ بمعـنى أنهم إذا كـانوا وارثين فلا وصـية لهم اكتفـــاءً لما فرضه الله لهم من المـــواريث؛ وتبقى الآية على عمومها فيمن سوى الوارث.

2 ـــ ومن فوائد الآيـة: جـواز الوصـية للصـحيح، والمـريض، ومن حضـره المــوت؛ ولكن النصــوص تــدل على أن من حضــره المــوت ينقسم إلى قسمين:

الأول: من بقي معه عقله ووعيه، فوصيته نافذة حسب الشروط الشرعية.

الثاني: من فقد وعيه وعقله، فلا تصح وصيته.

3 ـــ ومنها: جواز الوصية بما شاء من المال؛ لكن هذا مقيد بحـديث سـعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال للنبي (ص): «أتصـدق بثلـثي مـالي؟ قـال: لا؛ قـال: فالشـطر؟ قـال: لا؛ قـال: فـالثلث؟ قـال: الثلث؛ والثلث كثـير»[1]؛ وعلى هـذا فلا يـزاد في الوصـية على ثلث المـال؛ فتكـون الآية مقيدة بالحديث.

---

(1) أخرجه البخاري ص101، كتاب الجنائز، باب 36: رثاء النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن خولة، حديث رقم 1295، وأخرجه مسلم ص962، كتاب الوصية، باب 1: الوصية بالثلث، حديث رقم 4209 [5] 1628.

4 ـــ ومنها: أن الوصـية الواجبة إنما تكـون فيمن خلّف مـالاً كثـيراً؛ لقوله تعالى: { إن ترك خـيراً }؛ فأما من تـرك مـالاً قليلاً فالأفضل أن لا يوصي إذا كان له ورثة؛ لقول النبي صـلى الله عليه وسـلم لسـعد بن أبي وقـاص رضي الله عنــه: «إنك أن تــذر ورثتك أغنيــاء خــير من أن تــذرهم عالة يتكففون الناس»[2].

5 ـــ ومنهـا: أن الوصـية ليست مقيـدة بجـزء معين من المـال؛ بل هي بالمعروف.

6 ـــ ومنهـا: أهمية صــلة الــرحم، حيث أوجب الله الوصــية للوالــدين والأقـربين بعد المـوت؛ لأن صـلة الـرحم من أفضل الأعمـال المقربة إلى الله؛ فهذه إحدى أمهات المؤمنين أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم: أنها أعتقت جارية لهـــا؛ فقـــال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كـــان أعظم لأجرك»[3]؛ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم صلة الرحم أعظم أجراً من العتق.

7 ـــ ومنها: تأكيد وجوب الوصية على من ترك مالاً كثـيراً لمن ذُكـر؛ وجه التوكيد قوله تعالى: { حقاً على المتقين }.

8 ـــ ومنهـا: أن المتقين هم الـذين يراعـون فـرائض اللـه؛ ولـذلك وجه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: { حقاً على المتقين }.

مـســألـــة:

إذا قال قائل: كيف يكون الوالدان غير وارثين؟.

فــالجواب: أن ذلك ممكن، مثل أن يكــون الأب، أو الأم مخالفة في الدين؛ فإنه لا يرث فتوصي له.

كذلك بالنسبة للأقربين فإنهم قد لا يرثون لحجبهم بمن هو أولى منهم.

مـســألـــة ثانية:

فإن قـال قائـل: إن الله فـرض للأب السـدس مثلاً؛ وللأم السـدس؛ وللزوجة الربع؛ وللزوج النصف؛ وما أشبه ذلك؛ وهذا يقتضي أن يكـون لهم فرضهم كاملاً؛ ومع تنفيذ الوصية ينقص من فرضهم بقدر الوصية؟.

فــالجواب: أن الله بين أن حق الورثة من بعد وصــية يوصى بهــا، أو دين؛ وعلى هذا فلا إشكال في الآية في تقـدير أنصـباء الورثـة؛ وهـذا القـول هو الذي تجتمع به الأدلة.

---

(2) المرجع السابق.

(3) أخرجه البخاري ص204، كتاب الهبة، باب 15: هبة المرأة لغير زوجها...، حديث رقم 2592، واخرجه مسلم ص836 كتاب الزكاة، باب 14: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج...، حديث رقم 2317 [44] 999.

القرآن

{)فَمَنْ بَدَّلَـهُ بَعْـدَ مَا سَـمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُـهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَـهُ إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:181)

التفسير:

{ 181 } قوله تعالى: { فمن بدله }؛ الفاء عاطفة؛ و «مَن» شرطية؛ و «بدل» فعل ماضٍ مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط؛ وجملة: { فإنما إثمه } جوابُ الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية.

قوله تعالى: { فمن بدله } أي بدّل «الإيصـاء» المفهـوم من { الوصـية }؛ أي غيّره بنقص، أو زيادة، أو منعٍ؛ إن نقص فالضرر على الموصى لــه؛ وإن زاد فعلى الورثة؛ وإن منع فعلىً الموصى له؛ كل هذه الصور الثلاث تـدخل في قوله تعالى: { فمن بدله }.

قوله تعـالى: { بعد ما سـمعه }: قـال أهل العلم: عـبر بالسـمع عن العلم؛ لأن السـمع من الحـواس الظـاهرة؛ والعلم من الإدراكـات الباطنة - أي فمن بدله بعد أن يعلمه علم اليقين، كما لو سمعه بنفسـه؛ ومعلـوم أن العلم بالوصــية لا يتوقف على الســماع؛ قد يكــون بالكتابــة؛ وقد يكــون بالمشافهة، والسماع؛ وقد يكون بشهادة الشهود؛ وما إلى ذلك.

قوله تعالى: { فإنما إثمه } الضمير يعود على التبديل.

قوله تعالى: { على الـذين يبدلونه } أي يغيرونـه؛ يعـني: فهـذا الإثم يعــود على المبــدل؛ لا على الموصــي؛ والموصى إليه من المخالفــة؛ وقد سبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين، وما تضمناه من الصفات.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيـة: أن من فعل الخـير، ثم غُيِّر بعـده كُتب له ما أراد؛ لقوله تعالى: { فإنما إثمه على الذين يبدلونه }.

2 ـــ ومنها: أن من بدل الوصية جهلاً فلا إثم عليه؛ لقوله تعـالى: { بعد ما سـمعه }؛ ويؤخذ من هـذا ـــــ بل من بـاب أولى ـــــ أنه لو تصـرف في الوصية تصرفاً خطـأً وهو معتقد أنه على صـواب فإنه لا ضـمان عليـه؛ لأنه مُوَلَّى على التصرف فيها؛ فإذا أخطأ فلا ضمان إذا لم يكن هناك تفريط، أو تعدٍّ.

3 ـــ ومنها: تحريم تغيـير الوصـية؛ لقوله تعـالى: { فإنما إثمه على الـذين يبدلونه }؛ فيجب العمل بوصية الموصي على حسب ما أوصى إلا أن يكون جنفاً أو إثماً.

4 ـــ ومنها: إثبات اسمين من أسماء اللـه؛ وهما «السـميع» و «العليم» ؛ وما تضمناه من الصـفة؛ والحكم الـذي هو الأثـر؛ فالسـميع اسـم؛ والسـمع صفة؛ وكونه يسمع هو الأثر ـــ أو الحكم؛ والعليم كذلك.

5 ـــ ومنهـا: إحاطة الله عز وجل بكل أعمـال الخلـق؛ لأن قوله تعـالى: { ســميع عليم } ذكر عقب التهديد في قوله تعـــالى: { فمن بدله بعد ما سـمعه فإنما إثمه على الـذين يبدلونه }؛ وهـذا يـدل على أن الله يسـمع، ويعلم ما يبدله الوصي.

6 ـــ ومنهـا: الـرد على الجبريـة، وعلى القدريـة؛ فالجبرية يقولـون: إن الإنسـان مجـبر على عملـه، ولا قـدرة لـه، ولا اختيـار؛ فـأنكروا حكمة الله تعـــالى؛ لأنه إذا قيل بهـــذا القـــول الباطل انتفت حكمة الأمـــر، والنهي، والثـواب، والعقـاب؛ وصـار من فعل ما أمر بـه، أو تـرك ما نُهي عنه ليس

أهلاً للمدح؛ لأنه كالآلة ليس عنده قدرة، ولا اختيـار؛ وكـذلك أبطلـوا حكمة الله في الجزاء؛ لأنه ـــ على أصلهم ـــ يجزي المحسن وهو غير محســن؛ ويعاقب العاصي وهو غير عاصٍ؛ والرد عليهم في قوله تعالى: { فمن بدله }؛ فأضاف التبديل إلى الإنسان.

وأما القدرية فيقولـون: «إن الإنســان مســتقل بعملــه، ولا تتعلق به إرادة الله، ولا قدرته، ولا خلقه»؛ وغلاتهم ينكرون العلم والكتابة، يقولــون: «إن أفعال العبادة غير معلومة للـه، ولا مكتوبة عنـده»؛ وقـالوا: «إن الأمر أُنُف أي مستأنف ـــــ لم يكن الله يعلم شـيئاً مما نفعلـه؛ إلا إذا وقع علمه بعد رؤيته، أو سمعه»؛ وجه الرد عليهم إثبات العلم لله.

قال الشافعي، وغيره من السلف: ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أقروا به خُصـموا؛ وإن أنكـروه كفـروا؛ فإما إذا قـالوا: إن الله لا يعلم فكفـرهم واضح لتكذيبهم القرآن؛ وأما إذا قالوا: إنه يعلم لكن لا يقدرها، ولا يخلقهـا، قيل لهم: هل وقعت على وفق معلومه، أو على خلاف معلومه؟ سيقولون: «على وفق معلومه»؛ وإذا كان على وفق معلومه لزم أن تكون مرادةً له؛ وإلا لما وقعت.

فالحاصل أن في الآية رداً على القدريــة، والجبريــة؛ وكل منهم غلا في جانب من جوانب القـدر؛ فالجبرية غلو في إثبـات القـدر، وفرطـوا في أفعال العبـاد؛ والقدرية غلو في إثبـات فعل العبـد، وفرطـوا في علم اللـه، وإرادتــه؛ والوسط هو الخــير؛ فأهل الســنة، والجماعة يثبتــون لله العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلـق؛ كما يثبتـون للإنسـان إرادة، وقـدرة ـــــ لكن ذلك تابع لإرادة الله؛ وخلقه ــــ؛ وتفاصيل ذلك مبسوط في علم العقائد.

القرآن

{)فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:182)

التفسير:

{ 182 } قوله تعـالى: { فمن خـاف }: { من } شـرطية؛ و{ خـاف } فعل الشرط؛ وقوله تعالى: { فلا إثم عليه } جواب الشرط.

وقوله تعالى: { فمن خاف من موص } أي من توقع، أو اطلع.

قوله تعالى: { جنفاً أو إثماً }: «الجنـف» الميل عن غـير قصـد؛ و «الإثم» الميل عن قصد.

قوله تعالى: { فأصلـح بينهم } أي فعَل صـالحاً؛ أي حـول الأمر إلى شـيء صالح؛ وليس المعنى: أصلح الشـقاق؛ لأنه قد لا يكـون هنـاك شـقاق؛ هـذا القول وإن كان له وجهة نظر؛ لكن كلمـة: { بينهم } تـدل على أن المـراد إصــلاح الشــقاق؛ إذ إن البينية لا تكــون إلا بين شـيئين؛ فعلى الوجه الأول يكون المراد بالإصلاح إزالة الفساد؛ وعلى الوجه الثاني يكون الإصـلاح فيها إزالة الشــقاق؛ لأن الغــالب إذا أراد الوصي أن يغـير الوصـية بعد مــوت الموصي أن يحصل شقاق بينه، وبين الورثة؛ أو بينه، وبين الموصى له.

قوله تعـالى: { فلا إثم عليه } أي فلا عقوبـة؛ وهـذا كالمسـتثنى من قوله تعالى: { فمن بدله بعد ما سمعه و{ لا } نافية للجنس تعم القليــل، والكثير.

قوله تعالى: { إن الله غفور رحيم } جملة تعليلية للحكم؛ وقد سبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أن من خاف جوراً أو معصية من موص فإنه يصلح؛ وهذا يشمل ما إذا كان قبل موت الموصي، أو بعده؛ مثاله قبل موت الموصي: أن يستشهد الموصي، أو يستكتب شخصاً لوصيته، فيجد فيها جوراً، أو معصية، فيصلح ذلك؛ ومثاله بعد موته: أن يُطَّلع على وصية له تتضمن ما ذُكر فتُصْلح؛ مثال ذلك أن يوصي لوارث، فيُطَّلع على ذلك بعد موته، فتُصْلح الوصية إما باستحلال الوارث الرشيد؛ وإما بإلغائها إذا لم يمكن.

2 ــــ ومن فوائد الآية: رفع الإثم عن الوصي إذا أصلح لخوفه جنفاً، أو إثماً.

3 ــــ ومنها: فضيلة الإصلاح؛ لقوله تعالى: { فأصلح بينهم }؛ فإن في الإصلاح درء الإثم عن الموصي، وإزالة العداوة، والشحناء بين الموصى إليهم والورثة.

4 ــــ ومنها: أنه قد يعبر بنفي الإثم، أو نفي الجناح دفعاً عن توهمه؛ وعليه فلا ينافي المشروعية، كما في قوله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما} [البقرة: 158ولما كان تبديل الوصية إثماً نفى الله الإثم عمن أصلح؛ ثم تعود المسألة إلى القواعد العامة التي مقتضاها وجوب الإصلاح، ورفع الجنف، والإثم.

5 ــــ ومنها: أن تغيير الوصية لدفع الإثم جائز؛ بل هو واجب بدليل آخر؛ وأما تغيير الوصية لما هو أفضل ففيه خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من قال: إنه لا يجوز؛ لعموم قوله تعالى: {فمن بدله بعد ما سمعه} [البقرة: 181]ـ ؛ ولم يستثن إلا ما وقع في إثم فيبقى الأمر على ما هو عليه لا يغير؛ ومنهم من قال: بل يجوز تغييرها إلى ما هو أفضل؛ لأن الغرض من الوصية التقرب إلى الله عز وجل، ونفع الموصى له، فكلما كان أقرب إلى الله، وأنفع للموصى له كان أولى أيضاً؛ والموصي بشر قد يخفى عليه ما هو الأفضل؛ وقد يكون الأفضل في وقت ما غير الأفضل في وقت آخر؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز تحويل النذر إلى ما هو أفضل مع وجوب الوفاء به؛ فالرجل الذي جاء إليه، وقال: إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس؛ فقال (ص): «صلِّ ها هنا» فأعاد عليه فقال: « صل ها هنا » فأعاد الثالثة فقال (ص): «شأنك إذاً»[1]؛ والذي أرى في هذه المسألة أنه إذا كانت الوصية لمعين فإنه لا يجوز تغييرها، كما لو كانت الوصية لزيد فقط؛ أو وقف وقفاً على زيد فإنه لا يجوز أن يغير لتعلق حق الغير المعين به؛ أما إذا كانت لغير معين - كما لو كانت لمساجد، أو لفقراء - فلا حرج أن يصرفها لما هو أفضل.

6 ــــ ومن فوائد الآية: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «الغفور» و «الرحيم» ؛ وما تضمناه من وصف، وحكم.

---

(1) أخرجه أحمد 3/363، حديث رقم 14981، وأخرجه أبو داود ص1470، كتاب الإيمان والنذور، باب 20: من نذر أن يصلي في بيت المقدس، حديث رقم 3305، وقال الألباني في صحيح أبي داود: "صحيح" 2/326.

القرآن

{)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:183)

التفسير:

{ 183 } قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا } سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: { كتب عليكم الصيام } أي فُرض؛ والذي فَرضه هو الله سبحانه وتعالى؛ و{ الصيام } نائب فاعل مرفوع؛ وهو في اللغة الإمساك؛ ومنه قوله تعالى: {إني نذرت للرحمن صوماً} [مريم: 26] يعني إمساكاً عن الكلام بدليل قولها: {فلن أكلم اليوم إنسياً} [مريم: 26] ؛ وأما في الشرع فإنه التعبد لله بترك المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

قوله تعالى: { كما كتب }؛ «ما» مصدرية؛ والكاف حرف جر؛ وتفيد التشبيه؛ وهو تشبيه للكتابة بالكتابة، وليس المكتوب بالمكتوب؛ والتشبيه بالفعل دون المفعول أمر مطرد، كما في قوله (ص): «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[2]: التشبيه هنا للرؤية بالرؤية؛ لا للمرئي بالمرئي؛ لأن الكاف دخلت على الفعل الذي يؤول إلى مصدر.

قوله تعالى: { على الذين من قبلكم } ـــ أي من الأمم السابقة ـــ يعم اليهود، والنصارى، ومن قبلهم؛ كلهم كتب عليهم الصيام؛ ولكنه لا يلزم أن يكون كصيامنا في الوقت، والمدة.

وهذا التشبيه فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: التسلية لهذه الأمة حتى لا يقال: كلفنا بهذا العمل الشاق دون غيرنا؛ لقوله تعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} [الزخرف: 39] يعني لن يخفف عنكم العذابَ اشتراكُكم فيه - كما هي الحال في الدنيا: فإن الإنسان إذا شاركه غيره في أمر شاق هان عليه؛ ولهذا قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي الفائدة الثانية: استكمال هذه الأمة للفضائل التي سبقت إليها الأمم السابقة؛ ولا ريب أن الصيام من أعظم الفضائل؛ فالإنسان يصبر عن طعامه، وشرابه، وشهوته لله عز وجل؛ ومن أجل هذا اختصه الله لنفسه، فقال تعالى: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي»[3].

قوله تعالى: { لعلكم تتقون }؛ «لعل» للتعليل؛ ففيها بيان الحكمة من فرض الصوم؛ أي تتقون الله عز وجل؛ هذه هي الحكمة الشرعية التعبدية للصوم؛ وما جاء سوى ذلك من مصالح بدنية، أو مصالح اجتماعية، فإنها تبع.

---

(2) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ص1908، كتاب صفة الجنة، باب 17: منه تفسير قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة...)، حديث رقم 2554، وأخرجه ابن ماجة ص2488، كتاب السنة، باب 13: فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم 178، واللفظ للترمذي؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي: "صحيح" 2/315، حديث رقم 2069، والحديث له طرق أخرى في البخاري ومسلم لكن اللفظ يختلف.

(3) أخرجه البخاري ص503، كتاب اللباس، باب 78: ما يذكر في المسك، حديث رقم 5927؛ وأخرجه مسلم بتمامه ص862، باب 30: فضل الصيام، حديث رقم 2707 [164] (...).

الفوائد:
1 ــــ من فوائد الآية: أهمية الصيام؛ لأن الله تعالى صدره بالنداء؛ وأنه من مقتضــيات الإيمــان؛ لأنه وجه الخطــاب إلى المؤمــنين؛ وأنّ تركه مخل بالإيمان.
2 ــــ ومنها: فرضية الصيام؛ لقوله تعالى: { كتب }.
3 ــــ ومنهـا: فـرض الصـيام على من قبلنا من الأمم؛ لقوله تعـالى: { كما كتب على الذين من قبلكم }.
4 ــــ ومنها: تسلية الإنسان بما ألزم به غيره ليهون عليه القيام بــه؛ لقوله تعالى: { كما كتب على الذين من قبلكم
5 ــــ ومنها: استكمال هذه الأمة لفضائل من سـبقها، حيث كتب الله عليها ما كتب على من قبلها لتـــترقى إلى درجة الكمـــال كما تـــرقى إليها من سبقها.
6 ــــ ومنهـا: الحكمة في إيجـاب الصـيام؛ وهي تقـوى اللـه؛ لقوله تعـالى: { لعلكم تتقون }.
7 ــــ ومنها: فضل التقوى، وأنه ينبغي سلوك الأسباب الموصـلة إليهـا؛ لأن الله أوجب الصـيام لهـذه الغايـة؛ إذاً هـذه الغاية غاية عظيمـة؛ ويـدل على عظمها أنها وصية الله للأولين، والآخرين؛ لقوله تعالى: {ولقد وصينا الـذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله} [النساء: 131] .
ويتفرع على هذه الفائدة اعتبـار الـذرائع؛ يعـني ما كـان ذريعة إلى الشـيء فإن له حكم ذلك الشيء؛ فلما كانت التقوى واجبة كـانت وسـائلها واجبـة؛ ولهذا يجب على الإنسـان أن يبتعد عن مـواطن الفتن: لا ينظر إلى المـرأة الأجنبيـة؛ ولا يكلمها كلامـاً يتمتع به معهـا؛ لأنه يـؤدي إلى الفتنـة، ويكـون ذريعة إلى الفاحشة؛ فيجب اتقاء ذلـك؛ حـتى إن الرسـول صـلى الله عليه وسلم أمر من سمع بالدجال أن يبتعد عنه حتى لا يقع في فتنته[1].
8- **ومن فوائد الآية:** حكمة الله سبحانه وتعالى بتنويع العبادات؛ لأننا إذا تدبرنا العبادات وجدنا أن العبادات متنوعـة؛ منها ما هو مـالي محض؛ ومنها ما هو بدني محض؛ ومنها ما هو مركب منهمـا: بـدني، ومـالي؛ ومنها ما هو كفّ ــــ ليتم اختبار المكلف؛ لأن من النـاس من يهـون عليه العمل البـدني دون بذل المال؛ ومنهم من يكون بالعكس؛ ومن الناس من يهون عليه بذل المحبوب؛ ويشق عليه الكف عن المحبوب ومنهم من يكون بالعكس؛ فمن ثَم نوَّع الله سبحانه وتعالى بحكمته العبـادات؛ فالصـوم كف عن المحبـوب قد يكـون عند بعض النـاس أشق من بـذل المحبـوب؛ ومن العجـائب في زمننا هذا أن من النـاس من يصـبر على الصـيام، ويعظمـه؛ ولكن لا يصـبر على الصلاة، ولا يكـون في قلبه من تعظيم الصـلاة ما في قلبه من تعظيم الصـيام؛ تجـده يصـوم رمضـان لكن الصـلاة لا يصـلي إلا من رمضـان إلى رمضــان ـــــ إن صـلى في رمضـان؛ وهـذا لا شك خطأ في التفكـير؛ لكن الصلاة حيث إنها تتكرر كل يوم صار هيناً على هذا الإنسان تركها؛ والصـوم يكون عنده تركه صعباً؛ ولهذا إذا أرادوا ذم إنسـان قـالوا: إنه لا يصـوم، ولا يصلي ــــ يبدؤون بالصوم.

---

(1) راجع أحمد ص1457، حديث رقم 20116؛ وأبا داود ص1537، كتاب الملاحم، باب 14: خروج الدجال، حديث رقم 4319؛ ومستدرك الحاكم 4/531، كتاب الفتن والملاحم، وقال الحاكم: "حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه"، وأقره الذهبي (المرجع نفسه)؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: "صحيح" (3/30، حديث رقم 4319).

القرآن

{)أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:184)

التفسير:

{ 184 } قوله تعالى: { أياماً } مفعول لقوله تعالى: {الصيام} [البقرة: 183] ؛ لأن الصيام مصدر يعمل عمل فعله ـــ أي كتب عليكم أن تصوموا أياماً معدودات؛ و{ أياماً }: نكرة؛ والنكرة تفيد القلة، وتفيد الكثرة، وتفيد العظمة، وتفيد الهون ـــ بحسب السياق؛ لما قرنت هنا بقوله تعالى: { معدودات } أفادت القلة؛ يعني: هذا الصيام ليس أشهراً؛ ليس سنوات؛ ليس أسابيع؛ ولكنه أيام معدودات قليلة؛ و{ معدودات } من صيغ جمع القلة؛ لأن جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم من صيغ جمع القلة؛ يعني: فهي أيام قليلة.

قوله تعالى: { فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر } كالاستثناء من قوله تعالى: {كتب عليكم} [البقرة: 183] ؛ لأن قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم} [البقرة: 183] يشمل المريض، والمسافر، والقادر، والعاجز.

و{ من } شرطية؛ و{ كان } فعل الشرط؛ وجملة: { فعدة من أيام أخر } جواب الشرط؛ و «عدة» مبتدأ، والخبر محذوف؛ والتقدير: فعليه عدة؛ ويجوز أن تكون «عدة» خبراً، والمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب عدة؛ أو فالمكتوب عدة.

وقوله تعالى: { فمن كان منكم مريضاً } يعني مرضاً يشق به الصوم؛ أو يتأخر به البرء؛ أو يفوت به العلاج، كما لو قال له الطبيب: خذ حبوباً كل أربع ساعات، وما أشبه ذلك؛ ودليل التخصيص بمرض يشق به الصوم ما يُفهم من العلة.

وقوله تعالى: { أو على سفر } أي السفر المبيح للفطر؛ والحكمة في التعبير بقوله: { على سفر } - والله أعلم أن المسافر قد يقيم في بلد أثناء سفره عدة أيام، ويباح له الفطر؛ لأنه على سفر، وليست نيته الإقامة، كما حصل للرسول (ص) في غزوة الفتح فإنه أقام في مكة تسعة عشر يوماً وهو يقصر الصلاة[1]، وأفطر حتى انسلخ الشهر[2].

وقوله تعالى: { فعدة من أيام أخر } أي أيام مغايرة.

قوله تعالى: { وعلى الذين يطيقونه } أي يستطيعونه، وقال بعض أهل العلم: { يطيقونه } أي يطوَّقونــه؛ أي يتكلفونــه، ويبلغ الطاقة منهم حتى يصبح شاقاً عليهم؛ وقال آخرون: إن في الآية حذفاً؛ والتقدير: وعلى الذين لا يطيقونه فدية؛ وكلاهما ضعيف؛ والثاني أضعف؛ لأن هذا القول يقتضي تفسير المثبت بالمنفي؛ وتفسير الشيء بضده لا يستقيم؛ وأما القول الأول منهما فله وجه؛ لكن ما ثبت في الصحيحين من حديث سلمة

---

(1) راجع البخاري ص85، أبواب التقصير: 18، باب 1: ما جاء في التقصير، وكم يقيم حتى يقصر، حديث رقم 1080.

(2) راجع البخاري ص152، كتاب الصوم، باب 38: من أفطر في السفر ليراه الناس، حديث رقم 1948؛ ومسلماً ص856، كتاب الصيام، باب 15: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر...، حديث رقم 2608 [88] 1113.

بن الأكوع يدل على ضعفه: «أنه أول ما كتب الصيام كان الإنسان مخيراً بين أن يصوم؛ أو يفطر، ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن...}»[3]؛ وكذلك ظاهر الآية يدل على ضعفه؛ لأن قوله بآخرها: { وأن تصوموا خير لكم } يدل على أنهم يستطيعون الصيام، وأنه خوطب به من يستطيع فيكون ظاهر الآية مطابقاً لحديث سلمة؛ وهذا هو القول الراجح أن معنى { يطيقونه}: يستطيعونه.

قوله تعالى: { فدية } مبتدأ مؤخر خبره: { على الذين يطيقونه }؛ و{ فدية } أي فداء يفتدي به عن الصوم؛ والأصل أن الصوم لازم لك، وأنك مكلف به، فتفدي نفسك من هذا التكليف والإلزام بإطعام مسكين.

قوله تعالى: { طعام مسكين } عطف بيان لقوله تعالى: { فدية } أي عليهم لكل يوم طعام مسكين؛ وليس المعنى طعام مسكين لكل شهر؛ بل لكل يوم؛ ويدل لذلك القراءة الثانية في الآية: { طعام مساكين } بالجمع؛ فكما أن الأيام التي عليه جمع، فكذلك المساكين الذين يطعَمون لا بد أن يكونوا جمعاً.

وفي قوله تعالى: { فدية طعام مساكين } ثلاث قراءات؛ الأولى: { فديةُ طعامِ مساكينَ } بحذف التنوين في {فديةُ }؛ وبجر الميم في { طعام }؛ و{ مساكينَ } بالجمع، وفتح النون بلا تنوين؛ الثانية: { فديةٌ طعامُ مسكينٍ}؛ بتنوين { فديةٌ } مع الرفع؛ و{ طعامُ } بالرفع؛ و{ مسكينٍ } بالإفراد، وكسر النون المنونة؛ الثالثة: { فديةٌ طعامُ مساكينَ }؛ بتنوين { فديةٌ } مع الرفع؛ و{ طعامُ } بالرفع؛ و{ مساكينَ } بالجمع، وفتح النون بلا تنوين.

وقوله تعالى: { طعام مسكين }؛ المراد بالمسكين من لا يجد شيئاً يكفيه لمدة سنة؛ فيدخل في هذا التعريف الفقير؛ فإذا مر بك المسكين فهو شامل للفقير؛ وإذا مر بك الفقير فإنه شامل للمسكين؛ أما إذا جمعا فقد قال أهل العلم: إن بينهما فرقاً: فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ الفقير هو الذي لا يجد نصف كفاية سنة؛ وأما المسكين فيجد النصف فأكثر دون الكفاية لمدة سنة.

وقوله تعالى: { فمن تطوع خيراً }؛ { تطوع } فعل الشرط؛ وجوابه جملة: { فهو خير له }؛ وقوله تعالى: { خيراً } منصوب على أنه مفعول مطلق؛ والتقدير: فمن تطوع تطوعاً خيراً؛ أي فمن فعل الطاعة على وجه خير فهو خير له؛ ويحتمل أن تكون { خيراً } مفعولاً لأجله؛ والمعنى: فمن تطوع يريد خيراً؛ والمراد على كلا التقديرين واحد؛ يعني: فمن فعل الطاعة يقصد بها الخير فهو خير له؛ ومعلوم أن الفعل لا يكون طاعة إلا إذا كان موافقاً لمرضاة الله عز وجل بأن يكون خالصاً لوجهه موافقاً لشريعته؛ فإن لم يكن خالصاً لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ وإن كان خالصاً على غير الشريعة لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ لأن الأول شرك؛ والثاني بدعة.

قوله تعالى: { فهو خير له }: اختلف في { خير } هل نقول: هي للتفضيل؛ أي خير له من سواه؛ أو نقول: إن { خير } اسم دال على مجرد

---

[3] أخرجه البخاري ص370، كتاب تفسير القرآن، باب 26: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه)، حديث رقم 4507؛ وأخرجه مسلم ص861، كتاب الصيام، باب 25: بيان نسخ قول الله تعالى: (وعلى الذين يطيقون فدية طعام مسكين) بقوله تعالى: (فمن شهد منكم الشخر فليصمه)، حديث رقم 2685 [149] 1145.

الخيرية بدون مفضل، ومفضل عليه - وهذا هو الأقرب - ويكـون المـراد أن من تطوع بالفدية فهو خير له؛ ومطابقة هذا المعنى لظاهر الآية واضح.

قوله تعالى: { وأن تصوموا خير لكم }: المراد بالخير هنا التفضـيل؛ يعـني أن تصـوموا خـير لكم من الفديـة؛ وهـذا يمثل به النحويـون للمبتـدأ المؤول: فإن قوله تعالى: { أن تصوموا } فعل مضـارع مسـبوك مع { أن المصدرية بمصدر؛ والتقدير: صومكم خير لكم - يعني من الفدية.

قوله تعالى: { إن كنتم تعلمون }؛ هذه جملة مستأنفة؛ والمعنى: إن كنتم من ذوي العلم فـافهموا؛ و{ إن} ليست شـرطية فيما قبلها - يعـني ليست وصلية - كما يقولون؛ لأنه ليس المعنى: خيراً لنا إن علمنا؛ فـإن لم نعلم فليس خـيراً لنـا؛ بل هو مسـتأنف؛ ولهـذا ينبغي أن نقف على قوله تعالى: { خير لكم }.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيــة: أن الصــوم أيامه قليلــة؛ لقوله تعــالى: { أيامــاً معدودات].

2 ـــ ومنها: التعبير بكلمات يكـون بها تهـوين الأمر على المخـاطب؛ لقوله تعالى: { أياماً معدودات }.

3 ـــ ومنهـا: رحمة الله عز وجل بعبـاده؛ لقلة الأيـام الـتي فـرض عليهم صيامها.

4 ـــ ومنها: أن المشـقة تجلب التيسـير؛ لقوله تعـالى: { فمن كـان منكم مريضـاً أو على سـفر فعـدة من أيـام أخر }؛ لأن المـرض، والسـفر مظنة المشقة.

5 ـــ ومنها: جواز الفطر للمرض؛ ولكن هل المـراد مطلق المـرض - وإن لم يكن في الصوم مشقة عليه؛ أو المراد المرض الذي يشق معه الصـوم، أو يتأخر معه البرء؟ الظاهر الثاني؛ وهو مذهب الجمهور؛ لأنه لا وجه لإباحة الفطر بمرض لا يشق معه الصـوم، أو لا يتـأخر معه الـبرء؛ هـذا وللمـريض حالات:

الأولى: أن لا يضره الصوم، ولا يشق عليه؛ فلا رخصة له في الفطر.

الثانية: أن يشق عليـه، ولا يضـره؛ فالصـوم في حقه مكـروه؛ لأنه لا ينبغي العدول عن رخصة الله.

الثالثـة: أن يضـره الصـوم؛ فالصـوم في حقه محـرم؛ لقوله تعـالى: { ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً } [النساء: 29] .

6 ـــ ومن فوائد الآيـة: جـواز الفطر في السـفر؛ لقوله تعـالى: { أو على سفر فعدة من أيـام أخر }؛ وللمسـافر باعتبـار صـومه في سـفره حـالات ثلاث:

الأولى: أن لا يكون فيه مشقة إطلاقـاً؛ يعـني: ليس فيه مشـقة تزيد على صوم الحضر؛ ففي هـذه الحـال الصـوم أفضـل؛ وإن أفطر فلا حـرج؛ ودليله أن الرسول صلى الله عليه وسلم كـان يصـوم في السـفر، كما في حديث أبي الـدرداء رضي الله عنه قـال: «خرجنا مع رسـول الله (ص) في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرّ؛ وما فينا صائم إلا ما كان من النبي صلى الله عليه وسـلم وابن رواحـة»[1]؛ ولأن الصوم في السفر أسرع في إبراء ذمته؛ ولأنه أسهل عليه غالباً لكون

[1] أخرجه البخاري ص152، كتاب الصوم، باب 35: حديث رقم 1945، وأخرجه مسلم ص858، كتاب الصيام، باب 17: التخيير في الصوم والفطر في السفر (2630 [108] 1122).

الناس مشاركين له، وثقلِ القضاء غالباً؛ ولأنه يصادف شهر الصوم - وهو رمضان.

الحال الثانية: أن يشق عليه الصوم مشقة غير شديدة؛ فهنا الأفضل الفطر؛ والدليل عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر، فرأى زحاماً، ورجلاً قد ظُلل عليه، فسأل عنه، فقالوا: صائم؛ فقال (ص): «ليس من البر الصيام في السفر»[1]؛ فنفى النبي صلى الله عليه وسلم البر عن الصوم في السفر.

فإن قيل: إن من المتقرر في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ وهذا يقتضي نفي البر عن الصوم في السفر مطلقاً؟.

فالجواب: أن معنى قولنا: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» يعني أن الحكم لا يختص بعين الذي ورد من أجله؛ وإنما يعم من كان مثل حاله؛ وقد نص على هذه القاعدة ابن دقيق العيد في شرح الحديث في العمدة؛ وهو واضح.

الحال الثالثة: أن يشق الصوم على المسافر مشقة شديدة؛ فهنا يتعين الفطر؛ ودليله: ما ثبت في الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في سفر، فشُكي إليه أن الناس قد شق عليهم الصيام وإنهم ينتظرون ما يفعل؛ فدعا بماء بعد العصر، فشربه، والناس ينظرون؛ ثم جيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل له: إن بعض الناس قد صام فقال (ص): «أولئك العصاة! أولئك العصاة!»[2]؛ والمعصية لا تكون إلا في فعل محرم؛ أو ترك واجب.

7 ـــ ومن فوائد الآية: أن السفر الذي يباح فيه الفطر غير مقيد بزمن، ولا مسافة؛ لإطلاق السفر في الآية؛ وعلى هذا يرجع فيه إلى العرف: فما عده الناس سفراً فهو سفر؛ وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن تحديده بزمن، أو مسافة يحتاج إلى دليل.

8 ـــ ومنها: أن المتهيئ للسفر كالخارج فيه ـــ وإن كان في بلده؛ فإنه يجوز أن يفطر؛ وكان أنس بن مالك يفعل ذلك، ويقول: «السنة»[3]؛ لكن هذا الحديث فيه مقال؛ على ذلك.

9 ـــ ومن فوائد الآية: أن الظاهرية استدلوا بها على أن من صام في السفر لم يجزئه؛ لقوله تعالى: { فعدة من أيام أخر }، فأوجب الله سبحانه وتعالى على المريض، والمسافر عدة من أيام أخر؛ فمن صام وهو مريض، أو مسافر صار كمن صام قبل دخول رمضان، وقالوا: «إن الآية ليست فيها شيء محذوف»؛ وهذا القول لولا أن السنة بينت جواز الصوم

---

(1) أخرجه البخاري ص152، كتاب الصوم، باب 36: قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظلل عليه واشتد الحر: "ليس من البر الصيام في السفر، حديث رقم 1946، أخرجه مسلم 856 – 857، كتاب الصيام، باب 15: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية...، حديث رقم 2612 [92] 1115.

(2) أخرجه ص856، كتاب الصيام، باب 15: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، حديث رقم 2610 [90] 1114؛ 2610 [91] 1114.

(3) أخرجه الترمذي ص1726، كتاب الصوم، باب 76: ما جاء فيمن أكل ثم خرج يريد سفراً، حديث رقم 799، 800، وفي الحديث الأول عبد الله بن جعفر بن نجيح المديني البصري؛ قال الحافظ في التقريب: "ضعيف"؛ لكن تابعه محمد بن جعفر بن أبي كثير في الحديث الثاني؛ قال الترمذي: "وهو مديني ثقة" (جامع الترمذي ص1726، كتاب الصوم، باب 76: ما جاء فيمن أكل...، حديث رقم 800)؛ وفي الحديثين زيد بن أسلم؛ قال الحافظ في التقريب: "ثقة عالم كان يرسل"، ولكنه صرح بالتحديث في حديث رقم 800؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي في حديث رقم 799: "صحيح" (1/240، حديث رقم 641 – 803)؛ وذكر الحديث الثاني في صحيح الترمذي، ولم يعلق عليه (المرجع السابق، حديث رقم 642 – 804)؛ وقال عبد القادر الأرناؤوط: "إسناده حسن" (جامع الأصول 6/412، حاشية رقم 1).

لكان له وجه قوي؛ لأن الأصل عدم الحذف؛ لكن أجاب الجمهور عن هذا بأن الحذف متعين، وتقدير الكلام: فمن كان مريضاً، أو على سفر فأفطر فعليه عدة من أيام أخر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم صام في رمضان في السفر والصحابة معه منهم الصائم، ومنهم المفطر، ولم يعب أحد على أحد[4]؛ ولو كان الصوم حراماً ما صامه النبي صلى الله عليه وسلم، ولأنكر المفطر على الصائم.

10 ـــ ومن فوائد الآية: أنه لو صام عن أيام الصيف أيام الشتاء فإنه يجزئ؛ لقوله تعالى: { فعدة من أيام أخر وجهه: أن { أيام } نكرة.

11 ـــ ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى في التدرج بالتشريع، حيث كان الصيام أول الأمر يخير فيه الإنسان بين أن يصوم، ويطعم؛ ثم تعين الصيام كما يدل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

12 ـــ ومنها: أن من عجز عن الصيام عجزاً لا يرجى زواله فإنه يطعم عن كل يوم مسكيناً؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى جعل الإطعام عديلاً للصيام حين التخيير بينهما؛ فإذا تعذر الصيام وجب عديله؛ ولهذا ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية في الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يطيقان الصيام، فيطعمان عن كل يوم مسكيناً[1].

13 ـــ ومنها: أنه يرجع في الإطعام في كيفيته ونوعه إلى العرف؛ لأن الله تعالى أطلق ذلك؛ والحكم المطلق إذا لم يكن له حقيقة شرعية يرجع فيه إلى العرف.

14 ـــ ومنها: أنه لا فرق بين أن يملّك الفقير ما يطعمه، أو يجعله غداءً، أو عشاءً؛ لأن الكل إطعام؛ وكان أنس بن مالك حين كبر يطعم أدُماً، وخبزاً[2].

15 ـــ ومنها: أن ظاهر الآية لا يشترط تمليك الفقير ما يطعم؛ وهو القول الراجح؛ وقال بعض أهل العلم: إنه يشترط تمليكه؛ فيعطى مداً من البر؛ أو نصف صاع من غيره؛ وقيل: يعطى نصف صاع من البر، وغيره؛ واستدل القائلون بالفرق بين البر وغيره بما قاله معاوية في زكاة الفطر: «أرى المد من هذه - يعني البر - يعدل مدين من الشعير»[3] فعدل به الناس، وجعلوا الفطرة من البر نصف صاع[4]؛ واستدل القائلون بوجوب نصف صاع من البر، وغيره بحديث كعب بن عجرة رضي الله عنه حين أذن له النبي صلى الله عليه وسلم بحلق رأسه وهو محرم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له مبيناً المجمل في قوله تعالى: {ففدية من صيام أو صدقة أو نسك} [البقرة: 196] ، فقال في الصدقة: «أطعم ستة مساكين

---

(4) راجع مسلماً ص856، كتاب الصيام، باب 15: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر...، حديث رقم 2618 [96] 1116.

(1) أخرجه البخاري ص369، كتاب التفسير، باب 24: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام...)، حديث رقم 4505.

(2) ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم ص369، كتاب التفسير، باب 26: قوله تعالى: (أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر...).

(3) راجع البخاري ص119، كتاب الزكاة، باب 75: صاع من زبيب، حديث رقم 1508؛ ومسلماً ص833، كتاب الزكاة، باب 4: زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، حديث رقم 2285 [19] 985، واللفظ للبخاري.

(4) راجع البخاري ص119، كتاب الزكاة، باب 74: صدقة الفطر صاعاً من تمر، حديث رقم 1507.

لكل مسكين نصف صاع»[5]؛ ولم يفرق النبي صلى الله عليه وسلم بين طعام وآخر.

16 ـــ ومن فوائد الآية: أن طاعة الله ـــ تبارك وتعالى ـــ كلها خير؛ لقوله تعالى: { فمن تطوع خيراً فهو خير له }.

17 ـــ ومنها: ثبوت تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: { وأن تصوموا خير لكم }؛ وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ فينبني على ذلك أن الناس يتفاضلون في الأعمال؛ وهو ما دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والواقع؛ قال الله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الـــذين أنفقـــوا من بعد وقـــاتلوا وكلًّا وعد الله الحسنى} [الحديد: 10] ، وقال تعالى: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلًّا وعد الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة} [النساء: 95، 96] ؛ والنصوص في هذا كثيرة.

18 ـــ ومن فوائد الآية: التنبيه على فضل العلم؛ لقوله تعالى: { إن كنتم تعلمون }.

القرآن

{)شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:185)

التفسير:

{ 185 } قوله تعالى: { شهر رمضان }؛ الشهر هو مدة ما بين الهلالين؛ وسمي بذلك لاشتهاره؛ ولهذا اختلف العلماء هل الهلال ما هلّ في الأفق - وإن لم يُرَ؛ أم الهلال ما رئي واشتهر؛ والصواب الثاني، وأن مجرد طلوعه في الأفق لا يترتب عليه حكم شرعي - حتى يرى، ويتبين، ويُشهد إلا أن يكون هناك مانع من غيم، أو نحوه؛ و{ شهر } مضاف؛ و{ رمضان } مضاف إليه ممنوع من الصرف بسبب العلمية وزيادة الألف، والنون؛ مأخوذ من الرَّمْض؛ واختلف لماذا سمي برمضان؛ فقيل: لأنه يرمض الذنوب - أي يحرقها؛ وقيل: لأنه أول ما سميت الشهور بأسمائها صادف أنه في وقت الحر والرمضاء؛ فسمي شهر رمضان؛ وهذا أقرب؛ لأن هذه التسمية كانت قبل الإسلام.

وقوله تعالى: { شهر رمضان } خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هي - أي الأيام المعدودات - شهر رمضان.

قوله تعالى: { الذي أنزل فيه القرآن }؛ { الذي } صفة لـ{ شهر }؛ فمحلها الرفع؛ و{ أنزل فيه القرآن } أي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه؛ ومعروف أن النزول يكون من فوق؛ لأن القرآن كلام الله عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى فوق السموات على العرش؛ و{ القرآن } مصدر مثل الغفران، والشكران؛ كلها مصادر؛ ولكن هل هو بمعنى اسم الفاعل؛ أو

[5] راجع البخاري ص142، كتاب الحج، باب 7: الإطعام في الفدية نصف صاع حديث رقم 1816؛ وأخرجه مسلم ص874، كتاب الحج، باب 10: جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى...، حديث رقم 2877 [80] 1201.

بمعنى اسم المفعول؟ قيل: إنه بمعنى اسم المفعول - أي المقروء؛ وقيل: بمعنى اسم الفاعل - أي القارئ؛ فالمعنى على الأول واضح؛ والمعنى على الثاني: أنه جامع لمعاني الكتب السابقة؛ أو جامع لخـيري الـدنيا، والآخـرة؛ ولا يمتنع أن نقول: إنه بمعنى اسم الفاعـل، واسم المفعـول؛ وهل المـراد بـ{ القرآن الجنس، فيشمل بعضـه؛ أو المـراد به العمـوم، فيشـمل كلـه؟ قـال بعض أهل العلم: إن «أل» للعمـوم فيشـمل كل القـرآن؛ وهـذا هو المشـهور عند كثـير من المفسـرين المتـأخرين؛ وعلى هـذا القـول يشـكل الواقـع؛ لأن الواقع أن القـرآن نـزل في رمضـان، وفي شـوال، وفي ذي القعـدة، وفي ذي الحجـة... في جميع الشـهور؛ ولكن أجـابوا عن ذلك بأنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القرآن نزل من اللـوح المحفـوظ إلى بيت العزة في رمضان، وصار جبريل يأخذه من هـذا الـبيت، فيـنزل به على رسول الله (ص)[1]؛ لكن هذا الأثر ضـعيف؛ ولهـذا الصـحيح أن «أل» هنا للجنس؛ وليست للعموم؛ وأن معنى: { أنـزل فيه القـرآن } أي ابتـدئ فيه إنزالـه، كقوله تعـالى: {إنا أنزلنـاه في ليلة مباركـة} [الـدخان: 3] ، وقوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر: 1] أي ابتدأنا إنزاله.

قوله تعالى: { هدًى للناس }؛ { هدًى }: مفعول من أجلـه؛ أو حـال من { القرآن }؛ فإذا كانت مفعولاً من أجله فالمعنى: أنزل لهداية النـاس؛ وإذا كانت حالاً فالمعنى: أنزل هادياً للناس ـــ وهذا أقرب؛ و{ هدًى } من الهداية؛ وهي الدلالة؛ فالقرآن دلالة للناس يستدلون به على ما ينفعهم في دينهم، ودنياهم؛ و{ للناس } أصلها الأناس؛ ومنه قول الشاعر:

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصـفر منها الأنامل لكن لكـثرة استعمالها حذفت الهمزة تخفيفاً، كما حـذفت من «خـير» و«شـر» اسـمي تفضيل؛ والمراد بهم البشر؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، ويسـتعين بـه؛ فقوله تعالى: { هدًى للناس } أي كل الناس يهتدون به ـــ المؤمن، والكافر ــــ الهداية العلميـــــة؛ أما الهداية العملية فإنه هـــــدًى للمتقين، كما في أول السـورة؛ فهو للمتقين هداية علميـة، وعمليـة؛ وللنـاس عمومـاً فهو هداية علمية.

قوله تعالى: { وبينات } صفة لموصوف محـذوف؛ والتقـدير: وآيـات بينات، كما قال تعالى: {بل هو آيات بينات في صـدور الـذين أوتـوا العلم} [العنكبوت: 49] ؛ والمعنى: أن القرآن اشـتمل على الآيـات البينـات - أي الواضحات؛ فهو جامع بين الهداية، والبراهين الدالة على صدق ما جـاء فيه من الأخبار، وعلى عدل ما جاء فيه من الأحكام.

قوله تعالى: { من الهدى } صفة لـ{ بينـات } يعـني أنها بينـات من الدلالة والإرشاد.

قوله تعالى: { والفرقان }: مصدر، أو اسم مصدر؛ والمـراد أنه يفـرق بين الحق، والباطل؛ وبين الخير، والشر؛ وبين النافع، والضار؛ وبين حزب اللـه، وحـرب اللـه؛ فرقـان في كل شـيء؛ ولهـذا من وفق لهداية القـرآن يجد الفـرق العظيم في الأمـور المشـتبهة؛ وأما من في قلبه زيغ فتشـتبه عليه الأمور؛ فلا يفرق بين الأشياء المفترقة الواضحة.

قوله تعالى: { فمن شهد منكم الشهر }؛ { شـهد } بمعـنى شـاهد؛ وقيـل: بمعـنى حضـر؛ فعلى القـول الأول يـرد إشـكال في قوله تعـالى:

---

[1] أخرجه الحاكم 2/ 530، والبيهقي في دلائل النبوة 7/31 والأسماء والصفات 303.

{ الشهر }؛ لأن الشهر مـدة ما بين الهلالين؛ والمـدة لا تشـاهد؛ والجـواب أن في الآية محـذوفاً؛ والتقـدير: فمن شـهد منكم هلال الشـهر فليصـمه؛ والقول الثاني أصح: أن المراد بـ{ شهد } حضر؛ ويرجح هـذا قوله تعـالى: { ومن كان مريضاً أو على سفر }؛ لأن قوله تعالى: { على سفر } يقابل الحضر.
قوله تعالى: { فليصمه } أي فليصم نهاره.
قوله تعالى: { ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيـام أخر }؛ هـذه الجملة سـبقت؛ لكن لما ذكر سـبحانه وتعـالى: { فمن شـهد منكم الشهر فليصـمه }، وكـانت هـذه الآية ناسـخة لما قبلها قد يظن الظـان أنه نسخ حتى فطر المريض والمسافر؛ فأعادها سـبحانه وتعـالى تأكيـداً لبيـان الرخصة، وأن الرخصة ـــ حـتى بعد أن تعين الصـيام ـــ باقيـة؛ وهـذا من بلاغة القرآن؛ وعليه فليست هذه الجملة من الآية تكراراً محضاً؛ بل تكـرار لفائدة؛ لأنه تعالى لو قال: { فمن شهد منكم الشهر فليصـمه } ولم يقـل: { ومن كان.... } إلخ، لكان ناسخاً عاماً.
وقوله تعالى: { ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر } تقدم الكلام عليها إعراباً، ومعنًى.
قوله تعـــــالى: { يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر } تعليل لقوله تعــالى: { ومن كـــان مريضـــاً أو على ســـفر} إلخ؛ و{ يريد } أي يحب؛ فالإرادة شرعية؛ والمعـنى: يحب لكم اليسـر؛ وليست الإرادة الكونيـة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد بنا اليسر كوناً ما تعسرت الأمور على أحد أبداً؛ فتعين أن يكون المراد بـالإرادة هنا الشـرعية؛ ولهـذا لا تجد - والحمد لله - في هذه الشريعة عسراً أبداً.
قوله تعالى: { ولتكملوا العدة }؛ الـواو عاطفـة؛ واللام لام التعليـل؛ لأنها مكسـورة؛ ويكـون العطف على قوله تعـالى: { اليسر }؛ يعـني يريد الله سبحانه وتعالى بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر؛ ويريد لتكملوا العــدة؛ و«أراد» إذا تعدت باللام فإن اللام تكون زائـدة من حيث المعـنى؛ لكن لها فائدة؛ وذلك؛ لأن الفعل «أراد» يتعـدى بنفسـه، كقوله تعـالى: {والله يريد أن يتـوب عليكم} [النسـاء: 27] ؛ وهنـا: { لتكملـوا العـدة } يعـني: وأن تكملوا العدة؛ أي: ويريد الله منا شرعاً أن نكمل العدة.
وقوله تعالى: { لتكملـوا } فيها قراءتـان؛ بتخفيف الميم؛ وتشـديدها؛ وهما بمعنى واحد.
قوله تعــالى: { ولتكـــبروا الله }؛ الـــواو للعطـــف؛ و{ لتكـــبروا } معطوفة على { لتكملـوا } بإعـادة حـرف الجـر؛ أي: ولتقولـوا: الله أكـبر؛ والتكبير يتضمن: الكِبَـرَ بالعظمـة،والكبريـاءِ، والأمـورِ المعنويـة؛ والكِبَر في الأمور الذاتية؛ فإن السموات السبع، والأرض في كف الرحمن كحبة خردل في كف أحدنا؛ والله أكبر من كل شيء.
قوله تعـالى: { على ما هـداكم }؛ { على }: قيـل: إنها للتعليـل؛ وليست للاستعلاء؛ أي تكبروه لهدايتكم؛ وعبر بـ{ على } دون اللام إشـارة - والله أعلم - إلى أن التكبير يكون في آخر الشهر؛ لأن أعلى كل شيء آخره؛ و{ ما } هنا مصـدرية تسـبك هي، وما بعـدها بمصـدر؛ فيكـون التقـدير: على هدايتكم؛ وهذه الهداية تشمل: هداية العلم؛ وهداية العمل؛ وهي التي يعـبر

عنها أحياناً بهداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فالإنسان إذا صام رمضان وأكمله، فقد منّ الله عليه بهدايتين: هداية العلم، وهداية العمل.

قوله تعالى: { ولعلكم تشكرون } أي تقومون بشكر الله عز وجل؛ و «لعل» هنا للتعليل؛ و{ تشكرون } على أمور أربعة؛ إرادة الله بنا اليسر؛ عدم إرادته العسر؛ إكمال العدة؛ التكبير على ما هدانا؛ هذه الأمور كلها نِعَم تحتاج منا أن نشكر الله عز وجل عليها؛ ولهذا قال تعالى: { ولعلكم تشكرون }؛ و «الشكر» هو القيام بطاعة المنعم بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: بيان الأيام المعدودات التي أبهمها الله عز وجل في الآيات السابقة؛ بأنها شهر رمضان.

2 ـــ ومنها: فضيلة هذا الشهر، حيث إن الله سبحانه وتعالى فرض على عباده صومه.

3 ـــ ومنها: أن الله تعالى أنزل القرآن في هذا الشهر؛ وقد سبق في التفسير هل هو ابتداء إنزاله؛ أو أنه نزل كاملاً؛ والظاهر أن المراد ابتداء إنزاله؛ لأن الله ـــ تبارك وتعالى ـــ يتكلم بالقرآن حين إنزاله؛ وقد أنزله جل وعلا مفرقاً؛ فيلزم من ذلك أن لا يكون القرآن كله نزل في هذا الشهر.

4 ـــ ومنها: أن القرآن كلام الله عز وجل؛ لأن الذي أنزله هو الله، كما في آيات كثيرة أضاف الله سبحانه وتعالى إنزال القرآن إلى نفسه؛ والقرآن كلام لا يمكن أن يكون إلا بمتكلم؛ وعليه يكون القرآن كلام الله عز وجل؛ وهو كلامه سبحانه وتعالى لفظه، ومعناه.

5 ـــ ومنها: ما تضمنه القرآن من الهداية لجميع الناس؛ لقوله تعالى: { هدًى للناس }.

6 ـــ ومنها: أن القرآن الكريم متضمن لآيات بينات واضحة لا تخفى على أحد إلا على من طمس الله قلبه فلا فائدة في الآيات، كما قال عز وجل: { وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون } [يونس: 101] .

7 ـــ ومنها: أن القرآن الكريم فرقان يفرق بين الحق، والباطل؛ وبين النافع، والضار؛ وبين أولياء الله، وأعداء الله؛ وغير ذلك من الفرقان فيما تقتضي حكمته التفريق فيه.

8 ـــ ومنها: وجوب الصوم متى ثبت دخول شهر رمضان؛ وشهر رمضان يثبت دخوله إما بإكمال شعبان ثلاثين يوماً، أو برؤية هلاله؛ وقد جاءت السنة بثبوت دخوله إذا رآه واحد يوثق بقوله[1].

9 ـــ ومنها: لا يجب الصوم قبل ثبوت دخول رمضان.

ويتفرع على هذا أنه لو كان في ليلة الثلاثين من شعبان غيم، أو قتر يمنع من رؤية الهلال فإنه لا يصام ذلك اليوم؛ لأنه لم يثبت دخول شهر رمضان؛ وهذا هو القول الراجح من أقوال أهل العلم؛ بل ظاهر حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما أن من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم (ص)[2]: أي أن صيامه إثم.

---

(1) راجع أبا داود ص1397، كتاب الصيام، باب 14: في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، حديث رقم 3342؛ والدارمي 2/9، كتاب الصوم، باب 6: الشهادة على رؤية هلال رمضان، حديث رقم 1691؛ قال الألباني في صحيح أبي داود: "صحيح" (2/55، حديث رقم 2342).

10 ــــ ومن فوائد الآيـة: التعبـير بــ { شـهر رمضـان }؛ قـال أهل العلم: «وهذا أولى»؛ ويجوز التعبير بـ «رمضان» - بإسقاط «شهر» ؛ لقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: «من صـام رمضـان إيمانـاً واحتسـاباً... ومن قـام رمضان إيماناً واحتساباً»[3]، وقوله (ص): «إذا جـاء رمضـان فتحت أبـواب الجنة»[4]؛ ولا عبرة بقول من كره ذلك.

11 ــــ ومن فوائد الآيـة: تيسـير الله - تبـارك وتعـالى - على عبـاده، حيث رخص للمـريض الـذي يشق عليه الصـوم، وللمسـافر مطلقـاً أن يفطـرا، ويقضيا أياماً أخر.

12 ــــ ومنهـا: إثبـات الإرادة لله عز وجـل؛ وإرادة الله تعـالى تنقسم إلى قسمين:

إرادة كونية: وهي الـتي بمعـنى المشـيئة؛ ويلـزم منها وقـوع المـراد سواء كان مما يحبه الله، أو مما لا يحبه الله؛ ومنها قوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضـله يجعل صـدره ضـيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء} [الأنعام: 125] ؛ وهذه الآية، كقوله تعالى: {من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم} [الأنعـام: 39] .

وإرادة شرعية: بمعنى المحبة؛ ولا يلزم منها وقوع المراد؛ ولا تتعلق إلا فيما يحبه الله عز وجل؛ ومنها قول الله تبـارك وتعـالى: {والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعـون الشـهوات أن تميلـوا ميلاً عظيمـاً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً} [النساء: 27، 28] .

13 ــــ ومن فوائد الآية: أن شريعة الله سبحانه وتعالى مبنية على اليسـر، والسـهولة؛ لأن ذلك مـراد الله عز وجل في قوله تعـالى: { يريد الله بكم اليسر }؛ وقد صح عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: «إن الـدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[1]؛ وكان (ص) يبعث البعـوث، ويقـول: «يسروا ولا تعسـروا؛ وبشـروا ولا تنفـروا»[2]؛ «فإنما بعثتم ميسـرين؛ ولم تبعثوا معسرين»[3].

14 ــــ ومنهـا: انتفـاء الحـرج والمشـقة والعسر في الشـريعة؛ لقوله عز وجل: { ولا يريد بكم العسر }.

---

(2) راجع أبا داود ص1396، كتاب الصيام، باب 10: كراهية صوم يوم الشك، حديث رقم 2334؛ والترمذي ص1714، أبواب الصوم، باب 3: ما جاء في كراهية صوم يوم الشك، حديث رقم 686؛ والنسائي ص2230، كتاب الصيام، باب 37: صيام يوم الشك، حديث رقم 2190؛ وابن ماجة ص2575، أبواب ما جاء في الصيام، باب 3: ما جاء في صيام يوم الشك، حديث رقم 1645؛ والدارمي 2/5 من كتاب الصوم، باب 1؛ في النهي عن صيام يوم الشك، حديث رقم 1682؛ قال الألباني في صحيح أبي داود: "صحيح" (2/52، حديث رقم 2334).

(3) أخرجه البخاري ص5، كتاب الإيمان، باب 28: صوم رمضان احتساباً من الإيمان، رقم 38؛ وأخرجه مسلم ص797، كتاب صلاة المسافرين، باب 25، الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، حديث رقم 1781 [175] 760.

(4) أخرجه البخاري ص148، كتاب الصوم، باب 5: هل يقال رمضان أو شهر رمضان...، حديث رقم 1898؛ وأخرجه مسلم ص850، كتاب الصيام، باب 1: فضل شهر رمضان، حديث رقم 2495 [1] 1079.

(1) سبق تخريجه 1/243.

(2) أخرجه البخاري ص8، كتاب العلم، باب 11: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة، حديث رقم 69، وأخرجه مسلم ص985، كتاب الجهاد والسير، باب 3: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث رقم 4528 [8] 1734، واللفظ للبخاري.

(3) أخرجه البخاري ص20، كتاب الوضوء، باب 58: صب الماء على البول في المسجد، حديث رقم 220.

15 ـــ ومنها: أنه إذا دار الأمر بين التحليل، والتحريم فيما ليس الأصل فيه التحريم فإنه يغلب جانب التحليل؛ لأنه الأيسر، والأحب إلى الله.
16 ـــ ومنها: الأمر بإكمال العدة؛ أي بالإتيان بعدة أيام الصيام كاملاً.
17 ـــ ومنهـا: مشـروعية التكبـير عند تكميل العـدة؛ لقوله الله تعـالى: { ولتكملـوا العـدة ولتكـبروا الله على ما هـداكم }؛ والمشـروع في هـذا التكبير أن يقول الإنسان: «الله أكبر، الله أكـبر، لا إله إلا اللـه، والله أكـبر، الله أكبر، ولله الحمد» ؛ وإن شـاء أوتر فقـال: «الله أكـبر، الله أكـبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد» ؛ وإن شاء أوتر باعتبار الجميع فقال: «الله أكـبر، الله أكـبر، الله أكـبر، لا إله إلا اللـه، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد» ؛ فالأمر في هذا واسع - ولله الحمد.
18 ـــ من فوائد الآية: أن الله يشرع الشرائع لحكمة، وغاية حميدة؛ لقوله تعالى: { لعلكم تشكرون }.
19 ـــ ومنها: الإشـارة إلى أن القيـام بطاعة الله من الشـكر؛ ويـدل لهـذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبـاً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله} ؛ وقال تعـالى: {يا أيها الرسل كلـوا من الطيبات واعملـوا صـالحاً}»[4]؛ وهـذا يـدل على أن الشـكر هو العمل الصالح.
20 ـــ ومنهـا: أن من عصى الله عز وجل فإنه لم يقم بالشـكر، ثم قد يكون الإخلال كبيراً؛ وقد يكون الإخلال صغيراً - حسب المعصية الـتي قـام بها العبد.

تـنـبـيـه:

استنبط بعض الناس أن من كانوا في الأماكن التي ليس عندهم فيها شهور، مثل الـذين في الـدوائر القطبيـة، يصـومون في وقت رمضـان عند غيرهم عدة شهر؛ لأن الشهر غير موجود؛ وقال: إن هذا من آيـات القـرآن؛ فقد جاء التعبير صالحاً حتى لهذه الحـال الـتي لم تكن معلومة عند النـاس حين نزول القرآن؛ لقوله تعالى: { ولتكملوا العدة }.

القـــــرآن

{)وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة:186)

التفسير:

{ 186 } قوله تعـالى: { وإذا سـألك }؛ الخطـاب للنـبي (ص)؛ والمـراد بقوله تعـالى: { عبـادي }: المؤمنـون؛ وقوله تعـالى: { عـني } أي عن قربي، وإجابتي بدليل الجواب: وهو قوله تعالى: { فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان }.

قوله تعالى: { فإني قريب }: بعضهـم قـال: إنه على تقـدير «قـل» أي إذا سألك عبادي عني فقل: إني قريب؛ فيكون جواب { إذا } محـذوفاً؛ و{ إني قريب } مقول القول المحذوف؛ ويحتمل أن يكون الجواب جملـة: { فإني قريب } لوضوح المعنى بـدون تقـدير؛ والضـمير في قوله تعـالى: { فإني قريب } يعود إلى الله.

---

[4] سبق تخريجه 2/247.

قوله تعالى: { فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعـان }؛ { قـريب } خبر «إن» ؛ و{ أجيب } خبر ثان لـ «إن» ؛ فيكـون خبرها الأول مفـرداً؛ وخبرها الثـاني جملـة؛ و «الـدعاء» بمعـنى الطلب؛ و{ الـداع } أصـلها «الـداعي» باليـاء، كـ«القاضـي» و«الهـادي»؛ لكن حـذفت اليـاء للتخفيف نظيرها قوله تعالى: {الكبير المتعال} ؛ وأصلها: «المتعـالي» ؛ فـإن قيـل: ما فائـدة قوله تعـالى: { إذا دعـان } بعد قوله تعـالى: { الـداع } - لأنه لا يوصف بأنه داع إلا إذا دعا؟ فالجواب أن المراد بقوله تعالى: { إذا دعان } أي إذا صـدق في دعائه إيـاي بـأن شُـعر بأنه في حاجة إلى اللـه، وأن الله قادر على إجابته، وأخلص الدعاء لله بحيث لا يتعلق قلبه بغيره.

وقوله تعالى: { دعان } أصلها دعاني - بالياء، فحذفت الياء تخفيفاً.

قوله تعـالى: {فليسـتجيبوا لي} أي فليجيبـوا لي؛ لأن «اسـتجاب» بمعـنى أجـاب، كما قـال الله تعـالى: {فاسـتجاب لهم ربهم} [آل عمـران: 195] أي أجاب، وكما قال الله تعـالى: {والـذين اسـتجابوا لـربهم} [الشـورى: 38].

وقوله تعالى: { فليستجيبوا } عدَّاها باللام؛ لأنه ضمن معنى الانقيـاد - أي فلينقادوا لي؛ وإلا لكانت «أجاب» تتعـدى بنفسـها؛ نظيرها قوله (ص) في حديث معـاذ رضي الله عنـه: «فـإن هم أجـابوا لك بـذلك»[1]؛ فضَـمَّن الإجابة معنى الانقياد.

قوله تعالى: { وليؤمنوا بي } أي وليؤمنوا بـأني قـريب أجيب دعـوة الـداع إذا دعـان؛ واللام في الفعلين: { فليسـتجيبوا }؛ و{ ليؤمنـوا } لام الأمر؛ ولهذا سكنت بعد حرف العطف.

قوله تعالى: { لعلهم يرشدون }؛ «لعل» للتعليل؛ وكلما جاءت «لعل» في كتـاب الله فإنها للتعليـل؛ إذ إن الـترجي لا يكـون إلا فيمن احتـاج، ويؤمل كشف ما نزل به عن قرب؛ أما الرب عز وجل فإنه يستحيل في حقه هذا.

و «الرشد» يطلق على معـانٍ؛ منهـا: حُسن التصـرف، كما في قوله تعـالى: {وابتلـوا اليتـامى حـتى إذا بلغـوا النكـاح فـإن آنسـتم منهم رشـداً فادفعوا إليهم أموالهم} [النساء: 6] ؛ ولا شك أن من آمن بالله، واستجاب له فإنه أحسن الناس تصرفاً، ويوفّـق، ويُهـدى، ويُيسر له الأمـور، كما قـال تعـالى: {ومن يتق الله يجعل له من أمـره يسـراً} [الطلاق: 4] ، وقـال تعالى: {فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسـرى} [الليل: 5 ــــ 7] .

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآيـة: أن الصـيام مظنة إجابة الـدعاء؛ لأن الله سـبحانه وتعالى ذكر هذه الآية في أثناء آيـات الصـيام؛ ولا سـيما أنه ذكرها في آخر الكلام على آيات الصيام.

وقال بعض أهل العلم: يستفاد منها فائدة أخرى: أنه ينبغي الـدعاء في آخر يوم الصيام ــــ أي عند الإفطار.

2 ــــ ومنها: رأفة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: { وإذا سألك عبادي }، حيث أضافهم إلى نفسه تشريفاً، وتعطفاً عليهم.

3 ــــ ومنها: إثبات قـرب الله سـبحانه وتعـالى؛ والمـراد قـرب نفسـه؛ لأن الضمائر في هذه الآية كلها ترجع إلى الله؛ وعليه فلا يصح أن يحمل القرب

---

(1) سبق تخريجه 1/148.

فيها على قــرب رحمتــه، أو ملائكتــه؛ لأنه خلاف ظــاهر اللفــظ، ويقتضي تشـتيت الضـمائر بـدون دليـل؛ ثم قـرب الله عز وجل هل هو خـاص بمن يعبده، أو يدعوه؛ أو هو عام؟ على قولين؛ والراجح أنه خاص بمن يعبده، أو يـدعوه؛ لأنه لم يَـرد وصف الله به على وجه مطلـق؛ وليس كالمعية الـتي تنقسم إلى عامة، وخاصة.

فإن قـال قائـل: ما الجـواب عن قوله تعـالى: {ولقد خلقنا الإنسـان ونعلم ما توســوس به نفسه ونحن أقــرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد} [ق~: 16، 17] ـــ وهذا عـام؟ فالجواب أن المراد بالقرب في هذا الآية قرب ملائكته بـدليل قوله تعـالى: {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيـد} [ق~: 17] ، ومثلها قوله تعالى: {فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون} [الواقعة: 83 ـــ 85] : فإن المراد بها قــرب الملائكة الذين يقبضون الروح.

فإن قال قائل: كيف الجمع بين قربه جل وعلا وعلوه؟

فالجواب: أن الله أثبت ذلك لنفسه ــــ أعـني القـرب، والعلـو؛ ولا يمكن أن يجمع الله لنفسه بين صــفتين متناقضــتين؛ ولأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فهو قريب في علوه عليٌّ في دنوه.

4 - ومن فوائد الآيـة: إثبـات سـمع اللـه؛ لقوله تعـالى: { أجيب }؛ لأنه لا يجاب إلا بعد أن يُسمعَ ما دعا به.

5 - ومنها: إثبات قدرة الله؛ لأن إجابة الداعي تحتاج إلى قدرة.

6 - ومنها: إثبات كرم الله؛ لقوله تعالى: { أجيب دعوة الداع إذا دعان }.

7 - ومنها: أن من شرط إجابة الدعاء أن يكون الداعي صـادق الـدعوة في دعوة الله عز وجل، بحيث يكون مخلصاً مشـعراً نفسه بالافتقـار إلى ربـه، ومشعراً نفسه بكرم الله، وجوده؛ لقوله تعالى: { إذا دعان }.

8 - ومنها: أن الله تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعـاه؛ ولا يلـزم من ذلك أن يجيب مسألته؛ لأنه تعالى قد يؤخر إجابة المسـألة لـيزداد الـداعي تضـرعاً إلى الله، وإلحاحاً في الدعاء؛ فيقوى بذلك إيمانه، ويزداد ثوابـه؛ أو يـدخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السوء ما هو أعظم فائـدة للـداعي؛ وهـذا هو السر - والله أعلم - في قوله تعالى: { أجيب دعوة الداع }.

9 - ومنهـا: أن الإنابة إلى الله عز وجـل، والقيـام بطاعته سـبب للرشـد؛ لقوله تعالى: { فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون }.

10- ومنها: أن الاستجابة لا بد أن يصحبها إيمان؛ لأن الله قرن بينهما؛ فمن تعبد لله سبحانه وتعالى وهو ضعيف الإيمان بأن يكون عنده تردد - والعيــاذ بالله - أو شك فإنه لا ينفعـه؛ أو يكـون عنـده إنكـار، كما يفعل المنـافقون: فـإنهم يتعبـدون إلى الله عز وجل ظـاهراً؛ لكنهم ليس عنـدهم إيمـان؛ فلا ينفعهم.

11 ـــ ومنهـا: إثبـات الأسـباب، والعلـل؛ ففيه رد على الجهميـة، وعلى الأشـاعرة؛ لأنهم لا يثبتـون الأسـباب إلا إثباتـاً صـورياً، حيث يقولـون: إن الأسباب لا تؤثر بنفسها لكن يكون الفعل عندها.

القرآن

{)أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (البقرة:187)

التفسير:

} 187 { قوله تعالى: { أحل لكم } أي أحل الله لكم؛ ونائب الفاعل فيه: { الرفث إلى نسائكم }؛ و{ الرفث } هو الجماع، والإفضاء؛ والمراد بـ{ ليلة الصيام } جميع ليالي رمضان؛ { هن لباس لكم وأنتم لباس لهن }: الجملة استئنافية للتعليل ـــ أي تعليل حل الرفث إلى النساء ليلة الصيام ـــ لأن الزوج لا يستغني عن زوجه فهو لها بمنزلة اللباس؛ وكذلك هي له بمنزلة اللباس؛ وعبر سبحانه باللباس لما فيه من ستر العورة، والحماية، والصيانة؛ وإلى هذا يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج»[1].

ثم بيَّن الله عز وجل حكمة أخرى موجبة لهذا الحل؛ وهي قوله تعالى: { علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم } أي تخادعونها بإتيانهن، بحيث لا تصبرون؛ والظاهر ـــ والله أعلم ـــ أن هذا الاختيان بكون الإنسان يفتي نفسه بأن هذا الأمر هين؛ أو بأنه صار في حال لا تحرم عليه زوجته؛ وما أشبه ذلك؛ وأصل هذا أنهم كانوا في أول الأمر إذا صلى أحدهم العشاء الآخرة، أو إذا نام قبل العشاء الآخرة فإنه يحرم عليه الاستمتاع بالمرأة والأكل والشرب إلى غروب الشمس من اليوم التالي؛ فشق عليهم ذلك مشقة عظيمة حتى إن بعضهم لم يصبر؛ فبين الله عز وجل حكمته، ورحمته بنا، حيث أحل لنا هذا الأمر؛ ولهذا قال تعالى: { علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم }.

قوله تعالى: { فتاب عليكم }: أي تاب عليكم بنسخ الحكم الأول الذي فيه مشقة؛ والنسخ إلى الأسهل توبة كما في قوله تعالى في سورة المزمل: {علم أن لن تحصوه فتاب عليكم} [المزمل: 20] ؛ فيعبر الله عز وجل عن النسخ بالتوبة إشارة إلى أنه لولا النسخ لكان الإنسان آثماً إما بفعل محرم؛ أو بترك واجب.

قوله تعالى: { وعفا عنكم } أي تجاوز عما وقع منكم من مخالفة.

قوله تعالى: {فالآن باشروهن}: الفاء حرف عطف تقتضي الترتيب - يعني فالآن بعد التحريم، وبعد تحقيق التوبة، والعفو باشروهن؛ وكلمة «الآن» اسم إشارة إلى الزمن الحاضر؛ وهي مبنية على الفتح في محل نصب؛ والمراد بالمباشرة الجماع؛ وسمي كذلك لالتقاء البشرتين فيه - بشرة المرأة، وبشرة الرجل -.

قوله تعالى: { وابتغوا ما كتب الله لكم } أي اطلبوا ما قدر الله لكم من الولد؛ وذلك بالجماع الذي يحصل به الإنزال.

---

(1) أخرجه البخاري ص438، كتاب النكاح، باب 3: من لم يستطع الباءة فليصم، حديث رقم 5066، وأخرجه مسلم ص910، كتاب النكاح، باب 1: استحباب النكاح لمن تقات نفسه إليه ووجد مؤنة...، حديث رقم 3398 [1] 1400.

قوله تعـالى: { وكلـوا واشـربوا } معطوفة على قوله تعـالى: { باشروهن } أي لكم الأكل، والشرب.
قوله تعالى: { حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود } أي حتى يظهر ظهوراً جلياً يتميز به { الخيط الأبيض } وهو بياض النهار { من الخيط الأسود } وهو سواد الليل.
قوله تعالى { من الفجر } بيان لمعنى { الخيط الأبيض }؛ ولم يذكر في الخيط الأسود «من الليل» اكتفاءً بالأول، كما في قوله تعالى: {وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر} [النحل: 81] يعني: والبرد؛ فهذا من باب الاكتفاء بذكر أحد المتقابلين عن المقابل الآخر.
قوله تعالى: { ثم أتموا الصيام } أي أكملوا الصيام على وجه التمام؛ { إلى الليل } أي إلى دخول الليل؛ وذلك بغروب الشمس؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أقبل الليل من هاهنا - وأدبر النهار من هاهنا - وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[1]؛ وبمجرد غروب الشمس - أي غروب قرصها - يكون الإفطار؛ وليس بشرط أن تزول الحمرة، كما يظن بعض العوام؛ إذاً الصوم محدود: من، وإلى؛ فلا يزاد فيه، ولا ينقص؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى - في الفوائد حكم الوصال.
قوله تعالى: { ولا تباشروهن } أي ولا تجامعوهن؛ وذكرها عقب قوله تعالى: { فالآن باشروهن } لئلا يظن أن المباشرة المأذون فيها شاملة حال الاعتكاف؛ والضمير «هن» يعود على النساء؛ وجملة: { وأنتم عاكفون في المساجد } حال من الواو في قوله تعالى: { لا تباشروهن }؛ و{ عاكفون } اسم فاعل من عكف يعكف؛ والعكوف على الشيء ملازمته، والمداومة عليه؛ ومنه قول إبراهيم عليه السلام لقومه: { ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون } [الأنبياء: 52] أي مديمون ملازمون؛ والاعتكاف في الشرع هو التعبد لله سبحانه وتعالى بلزوم المساجد لطاعة الله.
قوله تعالى: { تلك حدود الله }؛ «تي» اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ والكاف حرف خطاب؛ والمشار إليه ما ذُكر من أحكام الأكل، والشرب، والجماع في ليالي رمضان؛ و{ حدود } جمع حد؛ و«الحد» في اللغة المنع؛ ومنه حدود الدار؛ لأنها تمنع من دخول غيرها فيها؛ فمعنى { حدود الله } أي موانعه؛ واعلم أن حدود الله **نوعان:**
1 ــ حدود تمنع من كان خارجها من الدخول فيها؛ وهذه هي المحرمات؛ ويقال فيها: { فلا تقربوها }.
2 ــ وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها؛ وهذه هي الواجبات؛ ويقال فيها: { فلا تعتدوها }.
قوله تعالى: { فلا تقربوها } الفاء للتفريع؛ و «لا» ناهية؛ وإنما نهى عن قربانها حتى نبعد عن المحرم، وعن وسائل المحرم؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ وكم من إنسان حام حول الحمى فوقع فيه؛ ولهذا قال تعالى: { فلا تقربوها }؛ فالمحرمات ينبغي البعد عنها، وعدم قربها.

[1] أخرجه البخاري ص153، كتاب الصوم، باب 43: متى يحل فطر الصائم، حديث، رقم 1954، وأخرجه مسلم ص853، كتاب الصيام، باب 10 بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار، حديث رقم 2558 [51] 1100.

قوله تعـالى: { كـذلك يـبين الله }: هـذه الجملة تـرد في القـرآن كثـيراً؛ وإعرابها أن الكـــاف اسم بمعـــنى «مثـــل»؛ وهي في محل نصب على المفعولية المطلقة؛ أي مثلَ ذلك البيان يبين الله؛ وعاملها ما بعدها.
وقوله تعالى: { كذلك } المشار إليه ما سبق من البيان؛ والبيـان في هـذه الآية كثير؛ فبين الله سبحانه وتعالى حكم الأكل، والشرب في الليل، وحكم المباشرة للنساء، وحكم الاعتكـاف، وموضـعه، وما يحـرم فيه.. إلخ، المهم عدة أحكام بينها الله.
قوله تعـالى: { آياته للنـاس }؛ «آيـات» جمع آيــة؛ وهي في اللغة العلامة؛ والمراد بها في الشرع: العلامة المعينة لمدلولها.
قوله تعـالى: { لعلهم يتقـون }؛ «لعـل» للتعليـل؛ أي يتقـون الله عز وجل وتقـــوى الله ســبحانه وتعـــالى هي اتخـــاذ وقاية من عذابه بفعل أوامـــره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في «التقوى».
الفوائد:
1 ــــ من فوائد الآيــة: رحمة الله تعــالى بعبـاده؛ لنسخ الحكم الأول إلى التخفيف، حيث كانوا قبل ذلك إذا ناموا، أو صلّوا العشاء في ليالي رمضان حرمت عليهم النساء، والطعام، والشراب إلى غـروب الشـمس من اليـوم التالي؛ ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر.
2 ــــ ومنها: جواز الكلام بين الزوج وزوجته فيما يستحيا منه؛ لقوله تعالى: { الرفث إلى نسائكم }؛ لأنه مُضَمن معنى الإفضاء.
3 ــــ ومنهـا: جـواز اسـتمتاع الرجل بزوجته من حين العقـد؛ لقوله تعـالى: { إلى نسائكم } ما لم يخالف شرطاً بين الزوجين؛ وقد ظن بعض النــاس أنه لا يجــوز أن يسـتمتع بشــيء من زوجته حــتى يعلن النكــاح ـــــ وليس بصـحيح لكن هنا شـيء يخشى منـه؛ وهو الجمـاع؛ فإنه ربما يحصل حمـل؛ وإذا حصل حمل مع تـأخر الـدخول ربما يحصل في ذلك ريبــة؛ فـإذا خشي الإنسان هذا الأمر فليمنع نفسه لئلا يحصل ريبة عند العامة.
4 ــــ ومن فوائد الآية: أن الزوجة سـتر للـزوج؛ وهو سـتر لهـا؛ وأن بينهما من القرب كما بين الثياب، ولابسيها؛ ومن التحصين للفـروج ما هو ظـاهر؛ لقوله تعالى: { هن لباس لكم وأنتم لباس لهن }.
5 ــــ ومنها: إثبـات العلة في الأحكـام؛ لقوله تعـالى: { هن لبـاس لكم }؛ لأن هذه الجملة لتعليل التحليل.
6 ــــ ومنهــا: ثبـوت علم الله بما في النفـوس؛ لقوله تعـالى: { علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم }.
7 ــــ ومنها: أن الإنسان كما يخون غيره قد يخون نفســه؛ وذلك إذا أوقعها في معاصي الله، فإن هـذا خيانـة؛ وعلى هـذا فنفس الإنسـان أمانة عنـده؛ لقوله تعالى: { علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم }.
8 ــــ ومن فوائد الآية: إثبـات التوبة للـه؛ لقوله تعـالى: { فتـاب عليكم }؛ وهذه من الصفات الفعلية.
9 ــــ ومنها: إثبات عفو الله؛ لقوله تعالى: { وعفا عنكم }.
10 ــــ ومنها: ثبـوت النسخ خلافـاً لمن أنكـره؛ وهو في هـذه الآية صـريح؛ لقوله تعالى: { فالآن باشروهن } يعني: وقبل الآن لم يكن حلالاً.
11 ــــ ومنهــا: أن النسخ إلى الأخف نـــوع من التوبة إلا أن يـــراد بقوله تعالى: { تاب عليكم وعفا عنكم } ما حصل من اختيانهم أنفسهم.

12 ـــ ومنها: جـواز مباشـرة الزوجة على الإطلاق بـدون تقييـد؛ ويسـتثنى من ذلك الوطء في الدبر، والوطء حال الحيض، أو النفاس.
13 ـــ ومنها: أنه ينبغي أن يكون الإنسان قاصداً بوطئه طلب الولد؛ لقوله تعالى: { وابتغوا ما كتب الله لكم }؛ وذكروا عن عمر رضي الله عنه أنه لا يجامع إلا إذا اشتهى الولد؛ ولكن مع ذلك لا يمنع الإنسـان أن يفعل لمجـرد الشـهوة؛ فهـذا ليس فيه منـع؛ بل فيه أجـر؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: «وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شـهوته ويكـون له فيها أجـر؟ قـال: نعم؛ أرأيتم لو وضـعها في حـرام أيكـون عليه وزر؟ قالوا: نعم؛ قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].
14 ـــ من فوائد الآية: جواز الأكل، والشرب، والجمـاع في ليـالي الصـيام حتى يتبين الفجر؛ لقوله تعالى: { وكلوا واشربوا حتى يتبين }.
أخذ بعض أهل العلم من هـذا اسـتحباب السُّـحور، وتـأخيره؛ وهـذا الاستنباط له غور؛ لأنه يقـول: إنما أبيح الأكل والشـرب ليلة الصـيام رفقـاً بالمكلف؛ وكلما تأخر إلى قرب طلـوع الفجر كـان أرفق بـه؛ فما دام نسخ التحريم من أجل الرفق بـالمكلف فإنه يقتضي أن يكـون عند طلـوع الفجر أفضل منه قبل ذلك؛ لأنه أرفق؛ وهذا استنباط جيد تعضده الأحاديث - مثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «تسحروا فإن في السَّحور بركـة» -؛ ففيه بركة لكونه معيناً على طاعة الله؛ وفيه بركة لأنه امتثال لأمر رسـول الله (ص)؛ وفيه بركة لأنه اقتـداء برسـول الله (ص)؛ وفيه بركة لأنه يغـني عن عـدة أكلات، وشـرابات في النهـار؛ وفيه بركة لأنه فصل بين صـيامنا وصيام أهل الكتاب؛ فهذه خمسة أوجه من بركته.
15 ـــ ومن فوائد الآيـة: أن الإنسـان لو طلع عليه الفجر وهو يجـامع، ثم نزع في الحال فلا قضـاء عليـه، ولا كفـارة؛ لأن ابتـداء جماعه كـان مأذونـاً فيـه؛ ولكن اسـتدامته بعد أن تـبين الفجر حـرام، وعلى فاعله القضـاء والكفارة، إلا أن يكون جاهلاً؛ وقد قيـل: إنه إذا نـزع في هـذه الحـال فعليه كفارة؛ لأن النزع جماع؛ لكنه قول ضعيف؛ إذ كيف نلزمه بالقضاء والكفارة مع قيامه بما يجب عليه ـــ وهو النزع ـــ.
16 ـــ ومنها: جواز أن يصبح الصائم جنباً، لأن الله أباح الجماع حتى يتـبين الفجر، ولازم هذا أنه إذا أخر الجمـاع لم يغتسل إلا بعد طلـوع الفجـر؛ وقد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يصبح جنباً من جماع أهله، ثم يصوم[1].
17 ـــ ومنها: جواز الأكل، والشرب، والجماع مع الشك في طلوع الفجـر؛ لقوله تعالى: { حتى يتبين }؛ فإن تبين أن أكله، وشربه، وجماعه، كان بعد طلوع الفجر فلا شيء عليه.
18 ـــ ومنها: رد قول من قـال: إنه يجـوز أن يأكل الصـائم، ويشـرب إلى طلوع الشمس؛ لقوله تعالى: { حـتى يتـبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر }؛ وكذلك رد قول من قـال: إنه يجـوز أن يأكل ويشـرب إلى الغلس.

---

(1) أخرجه مسلم ص837، كتاب الزكاة، باب 16: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم 2329 [53] 1006.
(1) أخرجه البخاري ص151، كتاب الصوم، باب 25: اغتسال الصائم، حديث رقم 1931؛ وأخرجه مسلم ص855، كتاب الصيام، باب 13: صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، حديث رقم 2589 [75] 1109.

19 ــــ ومن فوائد الآية: بيان خطأ بعض جهال المؤذنين الذين يؤذنون قبل الفجر احتياطــاً - على زعمهم -؛ لأن الله تعــالى أبــاح الأكــل، والشــرب، والجماع، حتى يتبين الفجـر؛ ولأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: «إن بلالاً يؤذن بليل فكلـوا واشـربوا حـتى تسـمعوا أذان ابن أم مكتـوم؛ فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر»[2]؛ وهو أيضـاً مخـالف للاحتيـاط؛ لأنه يسـتلزم أن يمتنع الناس مما أحل الله لهم من الأكـل، والشـرب، والجمـاع، وأن يقـدِّم الناس صلاة الفجر قبل طلوع الفجر؛ وأيضاً فإنه يفتح باباً للمتهـاون، حيث يعلم أنه أذن قبل الفجر فلا يزال يأكل إلى أمد مجهـول، فيـؤدي إلى الأكل بعد طلوع الفجر من حيث لا يشعر؛ ثم اعلم أن الاحتيـاط الحقيقي إنما هو في اتباع ما جاء في الكتاب، والسنة - لا في التزام التضييق والتشديد -.

20 ــــ ومن فوائد الآيـة: أنه لو أكل الإنسـان يظن أن الفجر لم يطلـع، ثم تبين أنه طلع فصيامه صـحيح؛ لأنه قد أذن له بـذلك حـتى يتـبين له الفجـر؛ وما كــان مأذونــاً فيه فإنه لا يــرتب عليه إثم، ولا ضــمان، ولا شــيء؛ ومن القواعد الفقهية المعروفة: «ما تـرتب على المـأذون فهو غـير مضـمون»؛ وهذا هو ما تؤيده العمومات، مثل قوله تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} [البقرة: 286]؛ وقوله تعالى: {ليس عليكم جناح فيما أخطـأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم} [الأحزاب: 5]؛ وتؤيده أيضـاً نصـوص خاصة في هذه المسألة نفسها ــــ وهو فعل عدي بن حاتم رضي الله عنــه، حيث كان يضع عقالين تحت وسادته أحدهما أبيض، والآخر أسود ــــ؛ فيأكل وهو يتسحر حتى يتبين له العقال الأبيض من العقال الأسود، ثم يمسـك؛ فـأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وبين له النـبي صـلى الله عليه وسـلم المـراد في الآية، ولم يأمره بالقضاء[3].

21 ــــ ومن فوائد الآية: الإيماء إلى كراهة الوصـال؛ لقوله تعـالى: { كلـوا واشربوا حـتى يتـبين }؛ والوصـال معنـاه أن يقـرن الإنسـان صـوم يـومين جميعاً لا يأكل بينهما؛ وقد كان الوصال مباحاً، ثم نهاهم الرسول صـلى الله عليه وسـلم عنـه، وقـال: «أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السـحر»[4]؛ ورغب (ص) في تعجيل الفطـر، فقـال: «لا يـزال النـاس بخـير ما عجلـوا الفطر»[5]؛ وهذا من باب أن الشيء قد يكون مأذوناً فيه، وليس بمشروع؛ فالوصــال إلى السَّــحَر مــأذون فيــه، ولكن ليس بمشــروع؛ ومثــال آخــر: الصدقة عن الميت: فهذا أمر مأذون فيه، وليس بمشروع.

22 ــــ ومن فوائد الآية: أن الاعتبـار بـالفجر الصـادق الـذي يكـون كالخيط ممتـداً في الأفـق؛ وذكر أهل العلم أن بين الفجر الصـادق والفجر الكـاذب ثلاثة فروق:

الفــرق الأول: أن الصــادق مســتطير معــترض من الجنــوب إلى الشــمال؛ والكاذب مستطيل ممتد من الشرق إلى الغرب.

---

[2] أخرجه البخاري ص50، كتاب الأذان، باب 11، أذان الأعمى إذا كان له من يخبره، حديث رقم 617، وأخرجه مسلم ص852، كتاب الصيام، باب 8: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، حديث رقم 2536 [36] 1092.

[3] راجع البخاري ص149 – 150، كتاب الصوم، باب 16: قول الله تعالى: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل)، حديث رقم 1916؛ ومسلماً ص852، كتاب الصيام، باب 8: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر...، حديث رقم 2533 [33] 1090.

[4] أخرجه البخاري ص153، كتاب الصوم، باب 48: الوصال، حديث رقم 1963.

[5] اخرجه البخاري ص153، كتاب الصوم، باب 45: تعجيل الفطرن حديث رقم 1957، وأخرجه مسلم ص853، كتاب الصيام، باب 9: فضل السحور وتأكيد استحبابه، حديث رقم 2554 [48] 1098.

والفرق الثاني: أن الصادق متصل بالأفق؛ وذاك بينه، وبين الأفق ظلمة.
والفرق الثالث: أن الصادق يمتد نوره، ويزداد؛ والكاذب يزول نوره ويظلم.
23 ـــ ومن فوائد الآيــة: أن بيــاض النهــار، وســواد الليل يتعاقبــان، فلا يجتمعان؛ لقوله تعالى: { حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسـود }.
24 ـــ ومنها: أن الأفضل المبـادرة بـالفطر؛ لقوله تعـالى: { إلى الليل }؛ وقد جاءت السنة بذلك صريحاً، كما في قوله (ص): «لا يزال النـاس بخـير ما عجلوا الفطر» .
25 ـــ ومنها: أن الصيام الشرعي من طلوع الفجر إلى غـروب الشـمس؛ لقوله تعالى: { ثم أتموا الصيام إلى الليل }.
26 ـــ ومنها: أن الصيام الشرعي ينتهي بالليل؛ لقوله تعـالى: { إلى الليل }؛ وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله (ص): «إذا أقبل الليل من هاهنا ـــ، وأدبر النهــار من هاهنا ــــ وغــربت الشــمس فقد أفطر الصائم»[1].
27 ـــ ومنها: الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف؛ لأن الله أقره، ورتب عليه أحكامـاً، وقوله تعـالى: { في المســاجد } بيــان للواقــع؛ لأن الاعتكـاف المشروع لا يكون إلا في المساجد.
28 ـــ ومنها: أن الاعتكاف مشروع في كل مسجد؛ لعموم قوله تعـالى: { في المســاجد }؛ فلا يختص بالمســاجد الثلاثة - كما قيل به -؛ وأما حـديث حذيفة: «لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثـة»[2] - يعـني المسـجد الحـرام، والمسـجد النبــوي، والمســجد الأقصى - فـإن صح فـالمراد به الاعتكـاف الكامل.
29 ـــ ومنها: أن ظـاهر الآية أن الاعتكـاف يصح في كل مسـجد - وإن لم يكن مسجد جماعة -؛ وهذا الظاهر غير مراد لوجهين:
الوجه الأول: أن «أل» في { المساجد } للعهد الـذهني؛ فتكـون دالة على أن المراد بـ{ المساجد } المساجد المعهودة التي تقام فيها الجماعة.
الوجه الثاني: أنه لو جاز الاعتكاف في المسجد الـذي لا تقـام فيه الجماعة للــزم من ذلك أحد أمــرين: إما تــرك صــلاة الجماعة - وهي واجبة -؛ وإما كثرة الخروج إليها - وهذا ينافي الاعتكاف، أو كماله -.
30 ـــ ومن فوائد الآية: النهي عن مباشرة النساء حال الاعتكاف.
31 ـــ ومنها: أن الجمــاع مبطل للاعتكـاف؛ وجه كونه مبطلاً أنه نهي عنه بخصوصه؛ والشيء إذا نهي عنه بخصوصه في العبادة كان من مبطلاتها.
32 ـــ ومنهــا: ما اســتنبطه بعض أهل العلم أن الاعتكــاف يكــون في رمضان، وفي آخر الشـهر؛ لأن الله ذكر حكمه عقب آية الصـيام؛ وهـذا هو الذي جاءت به السنة: فإن النـبي صـلى الله عليه وسـلم لم يعتكف إلا في العشر الأواخر من رمضــان حين قيل لــه: «إن ليلة القــدر في العشر الأواخــر» ؛ وكـان اعتكافه في العشر الأول، والأوسط يتحـرى ليلة القـدر؛ فلما قيل له: «إنها في العشر الأواخـر» تـرك الاعتكـاف في العشر الأول، والأوسط .

---

(1) سبق تخريجه 2/349.
(2) أخرجه عبد الرزاق موقوفاً 3/348، حديث رقم 8016؛ وأخرجه الطحاوي مرفوعاً في شرح مشكل الآثار 7/201، وقال شعيب في تحقيق مشكل الآثار: ورواية من وقفه على حذيفة أصح وأقوى وأثبت (مشكل الآثار للطحاوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط 7/203).

33 ــــ ومنها: أن أوامر الله حدود له؛ وكذلك نواهيـه؛ لقوله تعـالى: { تلك حدود الله }.
34 ــــ ومنها: أنه ينبغي البعد عن المحارم؛ لقوله تعالى: { فلا تقربوها }؛ وفي الحديث عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «من اتقى الشـبهات فقد استبرأ لدينه، وعرضـه؛ ومن وقع في الشـبهات وقع في الحـرام كـالراعي يــرعى حــول الحمى يوشك أن يقع فيــه؛ ألا وإن لكل مَلِك حمى؛ ألا وإن حمى الله محارمه»[1].
35 ــــ ومنهـا: أن الله سـبحانه وتعـالى يـبين للنـاس الآيـات الكونيـة، والشرعية؛ لقوله تعالى: { كذلك يبين الله آياته للنـاس }؛ والآيـات الكونية هي المخلوقـات؛ فكل المخلوقـات ذواتهـا، وصـفاتها، وأحوالها من الآيـات الكونيـة، كما قـال تعـالى: {ومن آياته الليل والنهـار والشـمس والقمـر} [فصـلت: 37] ، وقــال تعــالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفســكم أزواجاً} [الروم: 21] ، وقال تعـالى: {ومن آياته أن خلقكم من تـراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون} [الروم: 20] ... إلخ؛ وكـانت المخلوقـات آية للـه؛ لأنه لا أحد من المخلوق يصنع مثلها.
والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله تعالى على رسله، وأنبيائه من الــوحي؛ فإنها آيــات شــرعية تــدل على كمــال منزلها ســبحانه وتعــالى في العلم، والرحمة، والحكمـة، وغـير ذلك مما تقتضـيه أحكامهـا، وأخبارهـا؛ وجه ذلك أنك إذا تأملت أخبارها وجـدتها في غاية الصـدق، والبيـان، والمصـلحة، كما قال تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن} [يوسف: 3] ؛ فأحسن الأخبـار أخبـار الـوحي: القـرآن، وغـيره؛ وأصـلحها للخلق قصصــها، كما قــال تعــالى: {لقد كــان في قصصــهم عــبرة لأولي الألباب} [يوسـف: 111] ؛ وإذا تـأملت أحكامها وجـدتها أحسن الأحكـام، وأصلحها للعباد في معاشهم، ومعادهم، كما قـال تعـالى: {ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون} [المائدة: 50] ؛ ولو اجتمع الخلق على أن يـأتوا بمثل الأحكام الـتي أنزلها الله على رسـوله ما اسـتطاعوا إلى ذلك سـبيلاً؛ بهذا تكون آية على ما تقتضيه من صفات الله سبحانه وتعالى.
36 ــــ ومن فوائد الآية: الرد على أهل التعطيل، وغـيرهم الـذين يحرفـون الكلم عن مواضـعه في أسـماء اللـه، وصـفاته؛ وجه ذلك أنهم لما قـالوا: المراد بـ«اليد» النعمة، أو القوة؛ والمراد بـ«الاسـتواء» الاسـتيلاء؛ والمـراد بكذا كذا - وهو خلاف ظاهر اللفظ، ولا دليل عليه - صار القـرآن غـير بيـان للناس؛ لأنه ما دام أن البيان خلاف ما ظهر فلا بيان.
37 ــــ ومنهـا: أن العلم سـبب للتقـوى؛ لقوله تعـالى: { لعلهم يتقـون }؛ ووجهه أنه ذكره عقب قوله تعالى: { كذلك يبين الله آياته للنـاس }؛ فـدل هذا أنه كلما تـبينت الآيـات حصـلت التقـوى؛ ويؤيد ذلك قوله تعـالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: 28] ؛ فكلما ازداد الإنسـان علمـاً بآيات الله ازداد تقًى؛ ولهذا يقال: من كان بالله أعرف كان منه أخوف.
38 ــــ ومنهـا: علو مرتبة التقـوى؛ لكـون الآيـات تـبين للنـاس من أجل الوصول إليها.

مـســـألــــة:

---

(1) أخرجه البخاري بدون ذكر اعتكاف النبي صلى الله عليه وسلم العشر الأول ص157، كتاب فضل ليلة القدر، باب 1: فضل ليلة القدر، حديث رقم 2016، وأخرجه مسلم تاماً ص867، كتاب الصيام، باب 40: فضل ليلة القدر والحث على طلبها...، حديث رقم 2771 [215] 1167.

لو أذن المـؤذن للفجر وفي يد الصـائم الإنـاء يشـرب منه فهل يجب عليه أن ينزل الإناء، أو له أن يقضي نهمته منه؟ على مـذهب الإمـام أحمد يجب أن ينزل الإناء؛ بل يجب لو كان في فمه ماء لفْظه؛ وكـذلك الطعـام؛ وهـذا هو ظـاهر القـرآن؛ لكن ورد في مسـند الإمـام أحمد من حـديث أبي هريرة بإسناد صححه أحمد شاكر بأنه لو أذن المـؤذن والإنـاء في يـدك فلا تضعه حتى تقضي حاجتك منه[2]؛ فإن كان هذا الحديث صحيحاً فإنه يحمل على أن المؤذن قد احتـاط فيـؤذن قبل الفجر - أي لا يـؤخر الأذان إلى أن يطلع الفجر -؛ لأنه قد يـؤذن وهو لم يتـبين له كثـيراً فسُـمح للإنسـان أن يقضي نهمته من الإناء الذي في يده؛ وإنما حملناه على ذلك لظـاهر الآيـة، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلـوا، واشـربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم؛ فإنه لا يؤذن حـتى يطلع الفجـر»[1]، وقد يقال: الحديث على ظاهره؛ ووجهه: أن هذا الشـارب شـرع في شـربه في وقت يسمح له فيه، فكان آخر شربه تبعاً لأوله، كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة» ؛ ويكـون هـذا مما سامح به الشارع.

القرآن

{)وَلا تَأْكُلُوا أَمْـوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِـلِ وَتُـدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَـأْكُلُوا فَرِيقـاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:188)

التفسير:

مناسبة هذه الآية لما سبق مناسبة واضحة؛ لأن ما سبق في آيـات الصـيام تحريم لأشياء خاصة في زمان خـاص؛ وهـذه الآية تحـريم عـام في زمانـه، وفي مكانه؛ هذا وجه المناسبة: أنه لما ذكر التحـريم الخـاص الـذي يحصل في الصيام بيَّن التحريم العام الذي يحصل في الصيام، وفي غير الصيام.

{ 188 } قوله تعالى: { ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل }؛ المراد بالأكل ما هو أعم منه، فيشمل الانتفاع بغير الأكل من الملبوسات، والمفروشات، والمسـكونات، والمركوبـات؛ لكنه خَص الأكـل؛ لأنه أقـوى وجـوه الانتفـاع؛ الإنسـان ينتفع في المـال ببنـاء مسـكن له - وهو منفصل عنه -؛ ويفـترش الفـــراش فينتفع به - وهو منفصل عنه إلا أنه ألصق به من الـــبيت؛ ويلبس ثوباً فينتفع به - وهو منفصل عنه -؛ إلا أنه ألصق به من الفراش؛ والإنسان

---

(2) راجع أحمد ص752، حديث رقم 10637؛ وأبا داود ص1398، كتاب الصيام، باب 18: الرجل يسمع النداء والإناء على يده، حديث رقم 2350؛ والحاكم 1/426، كتاب الصوم؛ وتفسير الطبري 3/526، تفسير سورة البقرة آية رقم 187، حديث 3015؛ وفي سنده حماد بن سلمة: قال الحافظ في التقريب: "ثقة عابد أثبت الناس في ثابت، وتغير حفظه بأخرة"؛ وذكره الذهبي في جملة ذكرهم من الثقات الذين تكلم فيهم بعض الأئمة بما لا يرد أخبارهم، فحديثهم إن لم يكن في أعلى مراتب الصحيح فلا ينزل عن رتبة الحسن، إلا الأحاديث التي تكلم فيه من أجلها، فينبغي التوقف فيها (راجع كتاب: ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق ص27، 70 – 71)، وفي سنده أيضاً محمد بن عمرو بن علقمة؛ قال الذهبي: حسن الحديث (ميزان الاعتدال 3/673)؛ ولم ينفرد به محمد بن عمرو، بل تابعه عمار بن أبي عمار (راجع أحمد ص753، حديث رقم 10638)؛ قال أبو حاتم في عمار: ثقة لا بأس به (الجرح والتعديل 6/389 رقم 2167). وأما الحديث فقد قال الحاكم فيه: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (المستدرك 1/426، كتاب الصوم)؛ وقال الألباني: "حسن صحيح" (صحيح أبي داود 2/57، حديث رقم 2350)؛ وذكره في السلسلة الصحيحة (المجلد الثالث، ص382، حديث رقم 1394)، وقال عبد القادر الأرناؤوط: "إسناده صحيح" (جامع الأصول 6/371، حاشية رقم 2).

(1) أخرجه البخاري ص47، كتاب مواقيت الصلاة، باب 29: من أدرك من الصلاة ركعة، حديث رقم 580، وأخرجه مسلم ص772، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب 30، من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة، حديث رقم 1371 [161] 607.

يأكل الأكل فينتفع - وهو متصل ممـــازج لعروقه -؛ فكـــان أخص أنـــواع الانتفاع، وألصـقها بـالمنتفع؛ ولهـذا ذكر بعض أهل العلم - رحمهم الله - أن الإنسان إذا كان عنده مال مشتبه ينبغي أن يصرفه في الوقـود؛ لا يصـرفه في الأكل والشرب يتغذى بهما البدن وهما أخص انتفاع بالمـال؛ فـإذا كـان الله تعالى يقول: { لا تأكلوا أموالكم } وهو أخص الانتفاع، والذي قد يكون الإنســان في ضــرورة إليــه: لو لم يفعل لهلك - لو لم يأكل لمــات فكيف بغيره!!!

وقوله تعالى: { أموالكم }: عندنا آكل، ومأكول عنه؛ فـإذا كنت أنت أيها الآكل لا ترضى أن يؤكل مالك فكيف ترضى أن تأكل مــــال غــــيرك؛ فاعتبر مال غيرك بمنزلة مالك في أنك لا ترضى أن يأكله أحد؛ وبهذا تتبين الحكمة في إضـافة الأمـوال المأكولة للغـير إلى آكلهـا؛ و{ بينكم } أي في العقــود من إجـارات، وبيــوع، ورهــون، وغيرهـا؛ لأن هــذه تقع بين اثـنين؛ فتصدق البينية فيها.

وقوله تعـالى: { بالباطل }؛ البـاء للتعديـة؛ أي تتوصـلون إليه بالباطـل؛ و «الباطل» كل ما أخذ بغير حق.

قوله تعالى: { وتدلوا بها إلى الحكام }؛ الضـمير المجـرور يعـود إما على الأموال؛ وإما على المحاكمة؛ والإدلاء أصـلها مـأخوذ من: أدلى دلـوه؛ ومعلوم أن الذي يدلي دلـوه يريد التوصل إلى المـاء؛ فمعـنى: { تـدلوا بها إلى الحكام } أي تتوصلوا بها إلى الحكام لتجعلوا الحكام وسيلة لأكلها بأن تجحد الحق الـذي عليك وليس به بينـة؛ ثم تخاصـمه عند القاضـي، فيقـول القاضي للمدعي عليـك: «هـاتِ بينـة»؛ وإذا لم يكن للمـدعي بينة تـوجهت عليك اليمين؛ فــإذا حلفت بــرئت؛ فهنا توصـــلت إلى جحد مــال غــيرك بالمحاكمة؛ هذا أحد القولين في الآية؛ والقــول الثـاني: أن معـنى: { تـدلوا بها إلى الحكام } أي توصلوها إليهم بالرشـوة ليحكمـوا لكم؛ وكلا القـولين صحيح.

قوله تعالى: { لتأكلوا }؛ قد يقول قائل: إن فيها إشـكالاً؛ لأنه تعـالى قال: { ولا تـأكلوا }، ثم قـال تعـالى: { لتـأكلوا } كيف يعلل الحكم بنفس الحكم؟ فنقــول: إن اللام هنا ليست للتعليــل؛ اللام هنا للعاقبة ــــ يعــني أنكم إذا فعلتم ذلك وقعتم في الأكل ـــ أكل فريق من أمـوال النـاس ـــ؛ وتأتي اللام للعاقبة، كما في قوله تعالى: {فالتقطه آل فرعون ليكــون لهم عدواً وحزناً} [القصص: 8] : فآل فرعون لم يلتقطوه لهـذا الغـرض؛ ولكن كانت هذه العاقبة.

قوله تعالى: { فريقاً من أموال النـاس }؛ الفريق بمعـنى الطائفـة؛ وسمي فريقاً؛ لأنه يُفْرَق عن غيره؛ فهذا فريق من الناس ـــ يعــني طائفة منهم افترقت، وانفصلت ـــ؛ لو قال قائل: قد يأكل كل مال المـدعى عليه لا فريقاً منه؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لو أكل جميع مال المدعى عليه لم يأكل جميع أموال الناس؛ لأن مال المدعى عليه فريق من أموال الناس.

الثاني: أنه إذا كان النهي عن أكل فريق من أموال المـدعى عليه فهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

قوله تعالى: { بالإثم }؛ الباء للمصاحبة؛ يعني أكلاً مصحوباً بالإثم ــــ وهو الذنب ـــ؛ وذلك لأنه باطل.

قوله تعالى: { وأنتم تعلمون }: الجملة حالية؛ وهي قيد للحكم على أعلى أنواع بشاعته؛ لأن من أكل أموال الناس بالباطل عالماً أبشع مما لو أكله جاهلاً.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: تحريم أكل المال بالباطل؛ و«الباطل» كل شيء ليس لك به حق شرعاً.

2 ـــ ومنها: حرص الشارع على حفظ الأموال؛ لقوله تعالى: { ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل }؛ ولأن الأموال تقوم بها أمور الدين، وأمور الدنيا، كما قال تعالى: {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً} [النساء: 5] .

3 ـــ ومنها: تحريم الرشوة؛ لقوله تعالى: { وتدلوا بها إلى الحكام } على أحد التفسيرين، كما سبق.

4 ـــ ومنها: أن الحاكم يحكم بما ظهر له ـــ يعني يقضي بما سمع ـــ؛ كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع»[1]؛ لقوله تعالى: { وتدلوا بها إلى الحكام }؛ وهذه فيمن يدعي ما ليس له، ويخاصم، ويقيم بينة كذباً؛ أو يجحد ما عليه، ويخاصم، ويحلف كاذباً؛ كل هذا من الإدلاء بها إلى الحكام؛ لكن إن علم الحاكم أن الحق بخلاف ما سمع فالواجب عليه التوقف في الحكم، وإحالة القضية إلى حاكم آخر ليكون هو شاهداً بما علم.

5 ـــ ومن فوائد الآية: تيسير الله سبحانه وتعالى على الحكام بين الناس، حيث لا يعاقبهم على الأمور الباطنة؛ وإلا لكان الحكام في حرج، ومشقة؛ وجه ذلك من الآية أن الحاكم إذا حكم بما ظهر له ـــــ وإن كان خلاف الواقع - فلا إثم عليه.

6 ـــ ومنها: أن من حُكم له بما يعتقد أنه حق فلا إثم عليه؛ لكن لو تبين له بعد الحكم أنه لا حق له وجب عليه الرجوع إلى الحق؛ مثاله: لو فرض أن غريمه أوفاه؛ لكنه ناسٍ، وحلف أنه لم يوفه، وحُكم له فلا إثم عليه؛ لكن متى ذكر أنه قد أوفي وجب عليه رد المال إلى صاحبه.

القرآن

{)يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة:189)

التفسير:

{ 189 } قوله تعالى: { يسألونك عن الأهلة }؛ { الأهلة } جمع هلال؛ وهو القمر أول ما يكون شهراً؛ وسمي هلالاً لظهوره؛ ومنه: الاستهلال؛ والإهلال هو رفع الصوت، كما في حديث خلاد بن السائب عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال» يعني بالتلبية؛ ومنه قولهم: «استهل المولود» إذا صرخ بعد وضعه.

---

[1] أخرجه أحمد 6/307، حديث رقم 27153، واللفظ له؛ وأخرجه البخاري ص581، كتاب الحيل، باب 10: حديث رقم 6967؛ وأخرجه مسلم ص981، كتاب الأقضية، باب 3: بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن، حديث رقم 4473 [4] 1713.

وقوله تعالى: { يسألونك عن الأهلة } يعني: الحكمة فيها بدليل الجواب: { قل هي مواقيت للناس والحج وأما ما ذكره أهل البلاغة من أنهم سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن السبب في كون الهلال يبدو صغيراً، ثم يكبر؛ فأجاب الله سبحانه وتعالى ببيان الحكمة؛ وقالوا: إن هذا من أسلوب الحكيم أن يجاب السائل بغير ما يتوقع إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يُسأل عن هذا؛ فالصواب أنهم لم يسألوا الرسول عن هذا؛ ولكن سألوه عن الحكمة من الأهلة، وأن الله سبحانه وتعالى خلقها على هذا الوجه؛ والدليل: الجواب؛ لأن الأصل أن الجواب مطابق للسؤال إلا أن يثبت ذلك بنص صحيح.

قوله تعالى: { قل هي } أي الأهلة { مواقيت للناس } جمع ميقات ـــ من الوقت ـــ؛ أي يوقتون بها أعمالهم التي تحتاج إلى توقيت بالأشهر، كعدة الوفاة أربعة أشهر وعشر، وعدة المطلقة بعد الدخول إذا كانت لا تحيض ثلاثة أشهر، وآجال ديونهم، وإجاراتهم، وغير ذلك.

قوله تعالى: { والحج } يعني مواقيت للحج؛ لأن الحج أشهر معلومات تبتدئ بدخول شوال، وتنتهي بانتهاء ذي الحجة؛ ثلاثة أشهر؛ وكذلك هي مواقيت للصيام، كما قال تعالى: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} [البقرة: 185] ؛ لكن سياق الآيات توطئة لبيان أشهر الحج؛ فلهذا قال تعالى: { مواقيت للناس والحج }؛ ولم يذكر الصيام؛ لأنه سبق.

قوله تعالى: { وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها }؛ { البر } هو الخير الكثير؛ وسمي الخير براً لما فيه من السعة؛ ومنه في الاشتقاق «البَرّ» ـــ الذي هو الخلاء: وهو ما سوى البنيان ـــ لسعته.

وقوله تعالى: { بأن تأتوا }: الباء حرف جر زائد للتوكيد؛ يعني: وليس البر بإتيانكم البيوت من ظهورها؛ و{ البُيوت } بضم الباء؛ وفي قراءة بكسر الباء.

وقوله تعالى: { من ظهورها }؛ { من } بيانية؛ أي تأتوها من الخلف؛ وكانوا في الجاهلية من سفههم يأتون البيوت من ظهورها إذا أحرموا بحج، أو بعمرة إلا قريشاً؛ فإنهم يأتونها من أبوابها؛ أما غيرهم فيقولون: نحن أحرمنا؛ لا يمكن أن ندخل بيوتنا من أبوابها؛ هذا يبطل الإحرام؛ لا بد أن نأتي من الظهور لئلا يسترنا سقف البيت؛ فكانوا يتسلقون البيوت مع الجدران من الخلف، ويعتقدون أن ذلك بِرّ وقربة إلى الله عز وجل؛ فنفى الله هذا، وأبطله بقوله تعالى: { وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها }؛ لما فيه من التعسير، ولما فيه من السفه ومخالفة الحكمة، فهو خلاف البر؛ ولهذا قال تعالى: { ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها }.

قوله تعالى: { ولكن البر من اتقى }؛ وفي قراءة: { ولكنِ البرُّ } بتخفيف النون في { لكنِ }؛ ورفع { البرُّ }؛ على أن تكون { لكن }مخففة من الثقيلة مهملة؛ و{ البر } مبتدأ؛ أما على قراءة التشديد فهي عاملة؛ و{ البر } اسمها؛ وقوله تعالى: { البر من اتقى }: { البر } اسم معنى؛ و{ من اتقى } اسم جثة؛ كيف يخبر بالجثة عن اسم المعنى؟

فالجواب أنه يخرج على واحد من أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: أن يكون المصدر هنا بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البار.

الوجه الثاني: أن يكون المصدر على تقدير محذوف؛ أي: ولكن البر بر من اتقى.

الوجه الثـالث: أن هـذا على سـبيل المبالغة أن يجعل { من اتقى } نفس البر، كما يصفون المصدر فيقولون: فلان عدل، ورضا.
وقوله تعـالى: { من اتقى } أي اتقى الله عز وجـل؛ لأن الاتقـاء في مقـام العبـادة إنما يـراد به اتقـاء الله عز وجـل؛ الـبر هو التقـوى؛ هـذا هو حقيقة البر؛ لا أن تتقي دخول البيت من بابـه؛ ولهـذا قـال تعـالى: { وأتـوا البيوت من أبوابها } أي من جهة الباب فإن هذا هو الخير.
قوله تعالى: { واتقوا الله } أي اجعلوا لكم وقاية من عذابه بفعل أوامـره، واجتناب نواهيه.
قوله تعــالى: { لعلكم تفلحــون }؛ «لعــل» للتعليــل؛ أي لأجل أن تنــالوا الفلاح؛ و «الفلاح» هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.
الفوائد:
1 ـــ من فوائد الآيـة: حـرص الصـحابة رضي الله عنهم على العلم، وأنهم يسألون عن أمور الدين، وأمور الدنيا؛ لأن هذا مما يتعلق بالدنيا.
2 ـــ ومنهـا: عناية الله سـبحانه وتعـالى برسـوله (ص)، حيث يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه؛ وهذا من معونة الله للرسول (ص)، وعنايته به.
3 ـــ ومنها: بيان علم الله، وسمعه، ورحمته؛ لقوله تعالى: { يسـألونك }؛ علم الله بسؤالهم، وسمعه، ورحمهم بالإجابة.
4 ـــ ومنها: أن الحكمة من الأهلة أنها مـواقيت للنـاس في شـؤون دينهم، ودنياهم؛ لقوله تعالى: { مواقيت للناس
5 ـــ ومنها: أن ميقات الأمم كلها الميقات الـذي وضـعه الله لهم ـــ وهو الأهلة ـــ؛ فهو الميقات العالمي؛ لقوله تعـالى: { مـواقيت للنـاس }؛ وأما ما حدث أخيراً من التوقيت بالأشـهر الإفرنجية فلا أصل له من محسـوس، ولا معقول، ولا مشـروع؛ ولهـذا تجد بعض الشـهور ثمانية وعشـرين يومـاً، وبعضها ثلاثين يوماً، وبعضها واحـداً وثلاثين يومـاً من غـير أن يكـون سـبب معلـوم أوجب هـذا الفـرق؛ ثم إنه ليس لهـذه الأشـهر علامة حسـية يرجع النـاس إليها في تحديد أوقـاتهم ـــ بخلاف الأشـهر الهلالية فـإن لها علامة حسية يعرفها كل أحد ـــ.
6 ـــ ومنها: أن الحج مقيد بالأشهر؛ لقوله تعالى: { والحج }.
7 ـــ ومنها: أن البر يكـون بـالتزام ما شـرعه اللـه، والحـذر من معصـيته؛ لقوله تعالى: { ولكن البر من اتقى }.
8 ـــ ومنها: أن العـادات لا تجعل غـير المشـروع مشـروعاً؛ لقوله تعـالى: { وليس البر بأن تأتوا الـبيوت من ظهورها } مع أنهم اعتـادوه، واعتقـدوه من البر؛ فمن اعتاد شيئاً يعتقده براً عُرِض على شريعة الله.
9 ـــ ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يـأتي الأمـور من أبوابهـا؛ لقوله تعـالى: { وأتوا البيوت من أبوابها }؛ فـإن هـذه الآية كما تنـاولت الـبيوت الحسـية كذلك أيضاً تنـاولت الأمـور المعنويـة؛ فـإذا أردت أن تخـاطب مثلاً شخصـاً كبير المنزلة فلا تخاطبه بما تخاطب سائر النـاس؛ ولكن ائت من الأبـواب؛ لا تتجشم الأمر تجشــماً؛ لأنك قد لا تحصل المقصــود؛ بل تــأتي من بابه بالحكمة، والموعظة الحسنة حتى تتم لك الأمور.
10 ـــ ومن فوائد الآيـة: أن الله سـبحانه وتعـالى إذا نهى عن شـيء فتح لعباده من المأذون ما يقـوم مقامـه؛ فإنه لما نفى أن يكـون إتيـان الـبيوت من ظهورها من البر بيّن ما يقوم مقامه، فقال تعالى: { وأتـوا الـبيوت من

أبوابها }؛ وله نظـائر منها قوله تعـالى: {لا تقولـوا راعنا وقولـوا انظرنـا} [البقرة: 104] ؛ ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له: «ما شاء الله وشئت»: «أجعلتني لله نـداً؛ بل ما شـاء الله وحـده»[1]؛ والأمثلة في هذا كثيرة.

11 ــــ ومنها: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: { واتقوا الله }.

12 ــــ ومنها: أن التقوى تسمى براً.

13 ــــ ومنها: أن التقوى سبب للفلاح؛ لقوله تعالى: { لعلكم تفلحون }.

القرآن

{)وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة:190)

التفسير:

{ 190 } قوله تعـــالى: { قـــاتلوا } فعل أمـــر؛ والمقاتلة مفاعلة من الجانبين؛ يعني اقتلوهم بمقاتلتهم إياكم؛ ولكن قال: { في سبيل الله } أي في دينه، وشرعه، ولأجله؛ فسبيل الله سبحانه وتعـالى يتنـاول الـدين، وأن يكـون القتـال في حـدود الـدين، وعلى الوجه المشـروع، ولله وحـده؛ فهو يتضــمن الإخلاص، والمتابعــة؛ ولهــذا قــدم المقاتَل من أجله قبل المقاتَل إشارة إلى أنه ينبغي الإخلاص في هذا القتال؛ لأنه ليس بـالأمر الهين؛ فـإن المقاتِل يَعرض رقبته لسيوف الأعداء؛ فإذا لم يكن مخلصاً لله خسر الـدنيا والآخرة: قتل، ولم تحصل له الشهادة؛ فنبه بتقديم المراد { في سبيل الله } ليكون قتاله مبنياً على الإخلاص.

قوله تعـالى: { الـذين يقـاتلونكم } أي ليصـدوكم عن دينكم؛ وهـذا القيد للإغراء؛ لأن الإنسان إذا قيل له: «قاتل من يقاتلك» اشتدت عزيمته، وقويت شكيمته؛ وعلى هذا فلا مفهوم لهذا القيد.

قوله تعالى: { ولا تعتدوا } أي في المقاتلة؛ والاعتداء في المقاتلة يشــمل الاعتـداء في حق اللـه، والاعتـداء في حق المقـاتَلين؛ أما الاعتـداء في حق الله فمثل أن نقـاتلهم في وقت لا يحل القتـال فيـه، مثل أن نقـاتلهم في الأشهر الحرم على القول بأن تحريم القتال فيها غير منسوخ ــــ؛ وأما في حق المقـاتَلين فمثل أن نُمَثِّل بهم؛ لأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم نهى عن المثلة[1].

قوله تعالى: { إن الله لا يحب المعتدين }: الجملة هنا تعليل للحكم؛ والحكم: النهي عن الاعتداء.

وقوله تعالى: { المعتدين } أي في القتال، وغيره؛ و «الاعتـداء» تجـاوز ما يحل له.

الفوائد:

1- من فوائد الآية: وجوب القتال؛ لقوله تعـالى: { وقـاتلوا }؛ ووجـوب أن يكـون في سـبيل الله - أي في شـرعه، ودينـه، ومن أجله -؛ لقوله تعـالى: { في سـبيل الله }؛ وقد دل الكتـاب والسـنة على أنه إذا كـان العـدو من أهل الكتـاب - اليهـود، والنصـارى - فـإنهم يـدعون إلى الإسـلام؛ فـإن أبـوا أخذت منهم الجزية؛ فـإن أبـوا قوتلـوا؛ واختلف العلمـاء فيمن سـواهم من

[1] سبق تخريجه 1/217.

[1] راجع مسلم ص985، كتاب الجهاد والسير، باب 2: تأمير الإمام الأمراء على البعوث...، حديث رقم 4522 [3] 1731.

الكفار: هل يعاملون معاملتهم؛ أو يقاتلون إلى أن يسلموا؛ والقول الـراجح أنهم يعاملون معاملتهم، كما يدل عليه حـديث بريـدة[2] الثـابت في صـحيح مسلم؛ وقد ثبت أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أخذ الجزية من مجـوس هجر[3] - وهو يدل على أن أخذ الجزية ليس خاصاً بأهل الكتاب -.

2- ومنهـا: أنه ينبغي للمتكلم أن يـذْكر للمخـاطب ما يهيجه على الامتثـال؛ لقوله تعالى: { الذين يقاتلونكم }؛ هذا إذا قلنا: إنها قيد للتهييج، والإغـراء؛ فإن قلنا: «إنها قيد معنوي يراد به إخراج من لا يقاتلوننا»، اختلف الحكم.

3- ومنها: تحريم الاعتداء حتى على الكفـار؛ لقوله تعـالى: { ولا تعتـدوا }؛ وعلى المسلمين من باب أولى؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسـلم لمن يبعثهم، كالسرايا والجيوش: «لا تمثلوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً»[4]؛ لأن هذا من العدوان.

4- ومنها: إثبـات محبة الله - أي أن الله يحب -؛ لقوله تعـالى: { إن الله لا يحب المعتـدين }؛ وجه الدلالـة: أنه لو كـان لا يحب أبـداً ما صح أن ينفي محبته عن المعتـدين فقـط؛ فما انتفت محبته عن هـؤلاء إلا وهي ثابتة في حق غيرهم.

5- ومنهـا: حسن تعليم الله عز وجـل، حيث يقـرن الحكم بالحكمـة؛ لقوله تعالى: { ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين }؛ وقد سبق ذكر فوائد قـرن الحكم بالعلة.

القرآن

{)وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَـدُّ مِنَ الْقَتْـلِ وَلا تُقَـاتِلُوهُمْ عِنْـدَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ حَتَّى يُقَـاتِلُوكُمْ فِيـهِ فَـإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (البقرة:191)

التفسير:

{ 191 } قوله تعـالى: { واقتلـوهم }: الضـمير الهـاء يعـود على الكفـار الذين يقاتلوننـا؛ لقوله تعـالى: {وقـاتلوا في سـبيل الله الـذين يقـاتلونكم} [البقرة: 190] .

قوله تعـالى: { حيث }: ظـرف مكـان مبـني على الضم في محل نصب - أي اقتلـوهم في أي مكـان { ثقفتمـوهم } أي ظفـرتم بهم -؛ أولاً قال تعالى: {قاتلوا} [آل عمـران: 167] ، ثم قـال تعـالى: { واقتلـوا }؛ والقتل أشد؛ يعني متى وجدنا هذا المحـارب الـذي يقاتلنا حقيقة أو حكمـاً، فإننا نقتله في أي مكـان؛ لكنه يسـتثنى من ذلك المسـجد الحـرام؛ لقوله تعالى: { ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه }.

قوله تعالى: { أخرجوهم من حيث أخرجـوكم }؛ الإخـراج يكـون من شيء إلى شيء؛ أما القتـال فيكـون في شـيء؛ القتـال يكـون في مكـان؛ والإخـراج يكـون من المكـان؛ ولهـذا قـال تعـالى: { أخرجـوهم من حيث أخرجوكم} أي من المكان الذي أخرجـوكم منـه، فمثلاً إذا قـدر أن الكفـار غلبوا على هذه البلاد، وأخرجوا المسلمين منها فإن المسلمين يجب عليهم

---

[2] المراجع السابق.

[3] أخرجه البخاري ص255، كتاب الجزية والموادعة، باب 1: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، حديث رقم 3156، 3157.

[4] سبق تخريجه 2/374 حاشية (1).

أن يقاتلوهم؛ فإذا قـاتلوهم يخرجـونهم من البلاد من حيث أخرجـوهم؛ فهم الذين اعتدوا علينا، واحتلوا بلادنا؛ فنخرجهم من حيث أخرجونا.

قوله تعـالى: { والفتنة أشد من القتل }؛ «الفتنـة» هي صـدّ النـاس عن دينهم، كما قال تعـالى: {إن الـذين فتنـوا المؤمـنين والمؤمنـات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم} [البروج: 10] ؛ فصد الناس عن دينهم فتنة أشد من قتلهم؛ لأن قتلهم غاية ما فيه أن نقطعهم من ملذات الدنيا؛ لكن الفتنة تقطعهم من الدنيا، والآخرة، كما قال تعالى: {وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة} [الحج: 11] .

قوله تعـالى: { ولا تقـاتلوهم عند المسـجد الحـرام } أي في مكـة؛ لأن { المسجد الحرام } هو المسجد نفسـه؛ وما «عنـده» فهو البلد ـــ أي لا تقـاتلوهم في مكة { حـتى يقـاتلوكم فيه } ـــ؛ و «في» هنا الظـاهر أنها للظرفية.

قوله تعالى: { فإن قاتلوكم فاقتلوهم } أي إن قاتلوكم عند المسجد الحـرام فـاقتلوهم؛ وتأمل كيف قـال تعـالى: { فـاقتلوهم }؛ لأن مقـاتلتهم إياكم عند المسجد الحرام توجب قتلهم على كل حال.

قوله تعالى: { كذلك جزاء الكافرين } أي مثلَ هـذا الجـزاء - وهو قتل من قاتل عند المسجد الحرام - جزاء الكافرين؛ أي عقوبتهم التي يكافَؤون بها.

وقوله تعـالى: { ولا تقـاتلوهم... }؛ { حـتى يقـاتلوكم... }؛ { فـإن قاتلوكم }؛ { فاقتلوهم }: الجمل هنا الأربع كلها بصيغة المفاعلة إلا واحدة ـــ وهي الأخيرة ـــ؛ وهناك قراءة أخرى؛ وهي: { ولا تقتلوهم }؛ { حـتى يقتلوكم }؛ { فإن قتلوكم }؛ { فاقتلوهم }؛ وعلى هذا فتكـون الأربع كلها بغير صيغة المفاعلة.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيـة: وجـوب قتـال الكفـار أينما وجِـدوا؛ لقوله تعـالى: { واقتلوهم حيث ثقفتموهم }؛ ووجوب قتالهم أينما وجدوا يستلزم وجـوب قتالهم في أي زمان؛ لأن عموم المكان يستلزم عمـوم الزمـان؛ ويسـتثنى من ذلك القتـال في الأشـهر الحـرم: فإنه لا قتـال فيهـا؛ لقوله تعـالى: { يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتـال فيه كبـير }؛ وقـال بعض أهل العلم: لا استثناء، وأن تحريم القتال في الأشـهر الحـرم منسـوخ؛ لكن لوجوب قتالهم شروط؛ من أهمها القدرة على ذلك.

2 ـــ ومنها: أن نخرج هؤلاء الكفار، كما أخرجونـا؛ المعاملة بالمثـل؛ لقوله تعالى: { وأخرجوهم من حيث أخرجوكم }؛ ولهذا قال العلماء: إذا مثّلوا بنا مثّلنا بهم؛ وإذا قطعوا نخيلنا قطعنا نخيلهم مثلاً بمثل سواءً بسواء.

3 ـــ ومنهـا: الإشـارة إلى أن المسـلمين أحق النـاس بـأرض اللـه؛ لقوله تعالى: { وأخرجوهم من حيث أخرجوكم }، وقـال تعـالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين} [الأنبياء: 105، 106] ، وقـال موسى لقومـه: {اسـتعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عبـاده والعاقبة للمتقين} [الأعراف: 128] .

4 ـــ ومنها: أن الفتنة بالكفر، والصد عن سبيل الله أعظم من القتل.

فيتفرع على هذه الفائدة: أن استعمار الأفكـار أعظم من اسـتعمار الـديار؛ لأن اسـتعمار الأفكـار فتنـة؛ واسـتعمار الـديار أقصى ما فيها إما القتـل، أو

سلب الخيرات، أو الاقتصاد، أو ما أشبه ذلك؛ فالفتنة أشـد؛ لأنها هي القتل الحقيقي الذي به خسارة الدين، والدنيا، والآخرة.
5 ـــ ومنها: تعظيم حرمة المسجد الحـرام؛ لقوله تعـالى: { ولا تقـاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه }.
6 ـــ ومنها: جواز القتال عند المسجد الحـرام إذا بـدأنا بـذلك أهلـه؛ لقوله تعـالى: { حـتى يقـاتلوكم فيه }؛ ولا يعـارض هـذا قـول رسـول الله (ص): «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله (ص) فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»[1]؛ الممنوع هو ابتداء القتال لندخل مكة؛ فهذا حرام، ولا يجـوز مهما كان الأمر؛ وأما إذا قاتلونا في مكة فإننا نقاتلهم من باب المدافعة.
7 ـــ ومن فوائد الآيـة: المبالغة في قتـال الأعـداء إذا قاتلونا في المسـجد الحرام؛ لقوله تعالى: { فإن قاتلوكم فاقتلوهم }.
8 ـــ ومنها: وجوب مقاتلة الكفار حتى لا تكـون فتنـة، ويكـون الـدين للـه؛ وقتال الكفار في الأصل فرض كفاية؛ وقد يكون مستحباً؛ وقد يكون فـرض عين ـــ وذلك في أربعة مواضع ـــ:
الموضع الأول: إذا حضر صف القتال فإنه يكـون فـرض عين؛ ولا يجـوز أن ينصرف؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفـاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبـره إلا متحرفـاً لقتـال أو متحـيزاً إلى فئة فقد بـاء بغضب من الله ومـأواه جهنم وبئس المصـير} [الأنفـال: 15، 16] .
الموضع الثاني: إذا حصر بلده العدو فإنه يتعين القتال من أجل فكّ الحصار عن البلد؛ ولأنه يشبه من حضر صف القتال.
الموضع الثالث: إذا احتيج إليـه؛ إذا كـان هـذا الرجل يحتـاج النـاس إليه إمّا لرأيه، أو لقوته، أو لأيّ عمل يكون؛ فإنه يتعين عليه.
الموضع الرابع: إذا اسـتنفر الإمـام النـاس وجب عليهم أن يخرجـوا، ولا يتخلف أحد؛ لقوله تعالى: {يا أيها الـذين آمنـوا ما لكم إذا قيل لكم انفـروا في سـبيل الله اثـاقلتم إلى الأرض أرضـيتم بالحيـاة الـدنيا من الآخـرة...} [التوبة: 38 إلى قوله تعالى: {إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم...} [التوبة: 39] الآية.
وما سـوى هـذه المواضع فهو فـرض كفايـة؛ واعلم أن الفـرض سـواء قلنا فرض عين، أو فرض كفاية لا يكون فرضاً إلا إذا كـان هنـاك قـدرة؛ أما مع عدم القدرة فلا فرض ؛ لعموم الأدلة الدالة على أن الله لا يكلف نفسـاً إلا وسـعها، ولقوله تعـالى: {ليس على الضـعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حـرج إذا نصحوا لله ورسـوله} [التوبـة: 91] ؛ فإذا كنا لا نسـتطيع أن نقاتل هـؤلاء لم يجب علينـا؛ وإلا لأثَّمْنا جميع النـاس مع عـدم القـدرة؛ ولكنه مع ذلك يجب أن يكـون عنـدنا العـزم على أننا إذا قدرنا فسـنقاتل؛ ولهـذا قيـدها الله عز وجل بقوله تعـالى: {إذا نصـحوا لله ورسوله} [التوبة: 91] ؛ ليس على هؤلاء الثلاثة حرج بشرط أن ينصـحوا لله ورسوله؛ فأما مع عدم النصح لله ورسوله، فعليهم الحرج ـــ حتى وإن وجدت الأعذار في حقهم ـــ.
فالحاصل أننا نقـول إن القتـال فـرض كفايـة؛ ويتعين في مواضـع؛ وهـذا الفرض ـــ كغيره من المفروضات ـــ من شـرطه القـدرة ؛ أما مع العجز

---

[1] سبق تخريجه 2/47.

فلا يجب؛ لكن يجب أن يكـون العـزم معقـوداً على أنه إذا حصـلت القـوة جاهدنا في سبيل الله؛ لقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: «من مـات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق»[2].
9 ـــ ومن فوائد الآية: إثبـات العـدل لله عز وجـل؛ لقوله تعـالى: { كـذلك جزاء الكافرين }؛ والجزاء من جنس العمل.

القرآن

{)فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:192)

التفسير:

{ 192 } قوله تعالى: { فإن انتهـوا } أي كفـوا عن قتـالكم؛ ويحتمل أن يكون المـراد: كفـوا عن قتـالكم، وعن كفـرهم؛ فعلى الأول يكـون المـراد بقوله تعالى: { فإن الله غفور رحيم } طلب مغفرة المسلمين لهم بالكف عنهم؛ وعلى الثـاني يكـون المـراد أن الله غفر لهم؛ لقوله تعـالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} [الأنفال: 38] .

---

(2) أخرجه مسلم ص1019، كتاب الإمارة، باب 47 ذم من مات ولم يغز...، حديث رقم 4931 [158] 1910.

الفوائد:
1 ـــ من فوائد الآية: تمام عدل الله سبحانه وتعـالى، حيث جعل أحكامـه، وعقوبته مبنية على عدوان من يستحق هذه العقوبة فقـال تعـالى: { فـإن انتهوا فإن الله غفور رحيم }.
2 ـــ ومنها: وجوب الكف عن الكفار إذا انتهوا عما هم عليه من الكفر؛ فلا يؤاخذون بما حصل منهم حال كفرهم؛ ويؤيد هذا قوله تعـالى: {قل للـذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} [الأنفال: 38] .
3 ـــ ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله، وما تضمناه من صـفة، أو حكم؛ وهما «الغفور» ، و «الرحيم» .
4 ـــ ومنهـا: أخذ الأحكـام الشـرعية مما تقتضـيه الأسـماء الحسـنى؛ ولها نظائر؛ منها قوله تعالى في المحاربين: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقـدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} [المائدة: 34] .

القرآن

{)وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) (البقرة:193)

التفسير:

{ 193 } قوله تعالى: { وقاتلوهم } أي قاتلوا الكفار { حـتى لا تكـون فتنة } أي صد عن سـبيل الله بـأن يكفـوا عن المسـلمين، ويـدخلوا في الإسلام، أو يبذلوا الجزية؛ { ويكـون الـدين لله } أي يكـون الـدين الظـاهر الغالب لله تعالى أي دين الله ـــ.

قوله تعالى: { فإن انتهوا } أي عن قتالكم، وعن كفرهم، ورجعوا { فلا عـــدوان إلا على الظـــالمين }؛ وهم قد انتفى عنهم الظلم؛ وحينئذ لا يكون عليهم عدوان.

وقوله هنا: { فلا عدوان }: قيل: إن معنـاه فلا سـبيل، كما في قوله تعالى في قصة موسـى: {أيما الأجلين قضـيت فلا عـدوان علي والله على ما نقول وكيل} [القصـص: 28] أي لا سـبيل عليّ؛ وقيـل: { فلا عـدوان } أي لا مقاتلة؛ لأنه تعالى قال: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه} [البقـرة: 194] ؛ وهي من باب مقابلة الشيء بمثله لفظاً؛ لأنه سببه؛ وليس معناه: أن فعلكم هـذا عـدوان؛ لكن لما صـار سـببه العـدوان صح أن يعـبر عنه بلفظه.

وقوله تعالى: { فلا عدوان إلا على الظالمين }: خبر «لا» يجـوز أن يكـون الجار والمجرور في قوله تعالى: { على الظالمين }؛ ويجوز أن يكون خـبر «لا» محـذوفاً؛ والتقـدير: فلا عـدوان حاصل ـــــ أو كـائن ـــــ إلا على الظالمين.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: أن الأمر بقتالهم مقيد بغايتين؛ غاية عدميـة: { حـتى لا تكون فتنة } أي حتى لا توجد فتنة؛ و «الفتنـة» هي الشـرك، والصد عن سبيل الله؛ والغاية الثانية إيجابية: { ويكون الـدين لله } بمعـنى: أن يكـون الدين غالباً ظـاهراً لا يعلو إلا الإسـلام فقـط؛ وما دونه فهو دين معلو عليه يؤخذ على أصحابه الجزية عن يد وهم صاغرون.

2 ـــ ومنهـا: أنه إذا زالت الفتنـة، وقيـام أهلها ضد الـدعوة الإسـلامية ــــ وذلك ببذل الجزية ـــ فإنهم لا يقاتلون.
3 ـــ ومنها: أنهم إذا انتهوا ـــ إما عن الشرك: بالإسـلام؛ وإما عن الفتنـة: بالاستسلام ـــ فإنه لا يعتدى عليهم؛ لقوله تعالى: { فإن انتهوا فلا عـدوان إلا على الظالمين }.
4 ـــ ومنها: أن الظالم يجازى بمثل عدوانه؛ لقوله تعالى: { فلا عـدوان إلا على الظالمين }؛ وقد قلنا فيما سبق: إن مثل هذا التعبير يراد به المماثلة بالفعل ـــ يعني: أن تسمية المجازاة اعتداءً من باب المشاكلة حتى يكـون الجزاء من جنس العمل.

القرآن

{)الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة:194)

التفسير:

{ 194 } قوله تعالى: { الشهر الحرام بالشهر الحرام }: الجملة مبتدأ، وخبر؛ ومعناها: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه؛ وهذا في انتهاك الزمن؛ وقوله تعالى فيما سبق: {ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم} [البقرة: 191] في انتهاك المكان.

قوله تعالى: { والحرمات قصاص }؛ { الحرمات } جمع حُرُم؛ والمراد بـ«الحرم» كل ما يحترم من زمان، أو مكان، أو منافع، أو أعيان؛ لأن «حُرُم» جمع حرام؛ و«حرمات» جمع حُرُم؛ فالمعنى: أن المحترم يقتص منه بمحترم آخر؛ ومعنى ذلك أن من انتهك حرمة شيء فإنه تنتهك حرمته: فمن انتهك حرمة الشهر انتهكت حرمته في هذا الشهر؛ ومن انتهك عِرض مؤمن انتهك عِرض مثله؛ ومن انتهك نفس مؤمن فقتله انتهكت حرمة نفسه بقتله؛ وهكذا.

وكل هذا التأكيد من الله عز وجل في هذه الآيات من أجل تسلية المؤمنين؛ لأن المؤمنين لا شك أنهم يحترمون الأشهر الحرم والقتال فيها؛ ولكن الله تعالى سلاهم بذلك بأن الحرمات قصاص؛ فكما أنهم انتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة لكم فإن لكم أن تنتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة إليهم؛ ولهذا قال تعالى مفرعاً على ذلك: { فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم }.

قوله تعالى: { فمن اعتدى عليكم } أي من تجاوز الحد في معاملتكم سواء كان ذلك بأخذ المال، أو بقتل النفس، أو بالعرض، أو بما دون ذلك، أو أكثر فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.

وقوله تعالى هنا: { فاعتدوا عليه }: ليس أخذنا بالقصاص اعتداء؛ ولكنه سمي اعتداءً؛ لأنه مسبَّب عن الاعتداء؛ فكأنه يقول: أنتم إذا اعتدى عليكم أحد فخذوا حقكم منه؛ ثم فيه نكتة أخرى أن العادي يرى نفسه في مقام أعز من المعتدى عليه، وأرفع منه؛ ولو كان يرى نفسه في مكان دونه لم يعتدِ؛ فكأنه يقول: إن قصاصكم يعتبر أيضاً عزاً لكم؛ كما أنه هو طغى واعتدى، فأنتم الآن يعتبر قصاصكم بمنزلة المرتبة العليا بالنسبة إليهم؛ وإن شئت فقل: أطلق على المجازاة اعتداءً من باب المشاكلة اللفظية.

قوله تعالى: { بمثل ما اعتدى عليكم }: ادعى بعضهم أن الباء هنا زائدة، وقال: إن التقدير: فاعتدوا عليه مثل ما اعتدى عليكم؛ على أن تكون «مثل» هنا مفعولاً مطلقاً ــــ أي عدواناً، أو اعتداءً مثل اعتدائه ــــ؛ ولكن الصواب أنها ليست زائدة، وأنّها أصلية؛ وأن المعنى: اعتدوا عليه بمثله؛ فالباء للبدل؛ بحيث يكون المثل مطابقاً لما اعتدى عليكم به في هيئته، وفي كيفيته، وفي زمنه، وفي مكانه؛ فإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الحرم فاقتلوه؛ وإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الأشهر الحرم فقاتلوه؛ فتكون الباء هنا دالة على المقابلة، والعوض.

قوله تعـــالى: [واتقـــوا الله } أي اتخـــذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وفي هذا المقام اتقوا الله فلا تتعدَّوا ما يجب لكم من القصاص؛ لأن الإنسان إذا ظُلِم فإنه قد يتجاوز، ويتعدى عند القصاص.
قوله تعـالى: { واعلمـوا أن الله مع المتقين }؛ أمر بـالعلم بـأن الله مع المتقين؛ وهو أوكد من مجرد الخبر؛ والمراد به العلم مع الاعتقاد.
وقوله تعـالى: { مع المتقين } أي المتخـذين وقاية من عـذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: تسلية الله عز وجل للمسلمين بأنهم إذا فاتهم قضاء عمرتهم في الشـهر الحـرام فيمكنهم أن يقضـوها في الشـهر الحـرام من السنة الثانية، كما حصل في الحديبية.

2 ـــ ومنهـا: أن الحرمـات قصـاص؛ يعـني أن من انتهك حرمتك لك أن تنتهك حرمته مثلاً بمثـل؛ ولهـذا فـرع عليها قوله تعـالى: { فمن اعتـدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم }.

3 ـــ ومنها: أن المعتدي لا يجازى بأكثر من عدوانه؛ لقوله تعـالى: { بمثل ما اعتدى عليكم }؛ فلا يقول الإنسـان: أنا أريد أن أعتـدي بـأكثر للتشـفي؛ ومن ثم قـال العلمـاء: «إنه لا يقتص من الجـاني إلا بحضـرة السـلطان، أو نائبـه» خوفـاً من الاعتـداء؛ لأن الإنسـان يريد أن يتشـفى لنفسـه، فربما يعتدي بأكثر.

4 ـــ ومنهـا: وجـوب تقـوى الله عز وجل في معاملة الآخـرين؛ بل في كل حال؛ لقوله تعالى: { واتقوا الله}.

5 ـــ ومنها: إثبات أن الله مع المتقين؛ لقوله تعالى: { واعلموا أن الله مع المتقين }؛ والمعية تنقسم إلى قســمين: عامــة، وخاصــة؛ فالعامة هي الشـــاملة للخلق كلهم، وتقتضي الإحاطة بهم علمـــاً، وقـــدرة، وســـلطاناً، وسمعاً، وبصراً، وغير ذلك من معاني الربوبية؛ لقوله تعـالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكـون من نجـوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسـهم ولا أدنى من ذلك ولا أكـثر إلا هو معهم أينما كانوا} [المجادلة: 7] ؛ وأما الخاصة فهي المقيدة بوصف، أو بشخص؛ مثـال المقيـدة بوصف قوله تعـالى: {إن الله مع الـذين اتقـوا والـذين هم محسنون} [النحل: 128] ؛ ومثال المقيدة بشـخص قوله تعـالى لموسى وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى} [طه: 46] ، وقوله تعالى فيما ذكـره عن نبيه (ص): {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: 40] .

تـــنـــبـــيـــه:

اعلم أن ما أثبته الله لنفسه من المعية لا ينـــافي ما ذَكر عن نفسه من العلو لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولا يقـاس بخلقـه؛ فمعيته ثابتة مع علوه تبارك وتعالى؛ وإذا كان العلـو، والمعية لا يتناقضـان في حق المخلوق ـــ فإنهم يقولون: «ما زلنا نسـير والقمر معنـا»، ولا يعـدون ذلك تناقضاً مع أن القمر في السماء ـــ فثبـوت ذلك في حق الخـالق من بـاب أولى ـــ؛ وبهـذا يبطل قـول من زعم أن معية الله تسـتلزم أن يكـون في الأرض مختلطاً بالخلق؛ فإن هذا قول باطل باتفـاق السـلف المسـتنِد على الكتاب، والسنة في إثبـات علو الله فـوق خلقـه؛ وتفصـيل القـول في هـذا مدوَّن في كتب العقائد.

6 ـــ ومن فوائد الآية: تأكيد هذه المعية؛ ولهذا قال تعـالى: { واعلمـوا }؛ ولم يقتصر على مجرد أن يخبر بها؛ بل أمرنا أن نعلم بذلك؛ وهذا أمر فوق مجرد الإخبار.
7 ـــ ومنهـا: بيـان إحاطة الله عز وجل بـالخلق، وتأييـده بـالمتقين الـذين يقومون بتقـواه؛ ووجه ذلـك: أنه من المعلـوم بالكتـاب، والسـنة، والعقـل، والفطرة أن الله فوق جميع الخلق؛ ومع ذلك أثبت أنه مع الخلق.
8 ـــ ومنهـا: فضـيلة التقـوى، حيث ينـال العبد بها معية اللـه؛ فإنه من المعلوم إذا كان الله معك ينصرك، ويؤيدك، ويثبتك فهذا يـدل على فضـيلة السبب الذي هو التقوى؛ لقوله تعالى: { واعلموا أن الله مع المتقين }.

القرآن

{)وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ وَأَحْسِـنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة:195)

التفسير:

(195)} قوله تعالى: { وأنفقـوا في سـبيل الله } أي ابـذلوا الأمـوال في الجهـاد في سـبيل اللـه؛ ويحتمل أن يكـون المـراد ما هو أعم من الجهـاد ليشمل كل ما يقرب إلى الله عز وجل، ويوصل إليه.
قوله تعالى: { ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة } بعضـهم يقـول: إن البـاء هنا زائـدة؛ أي لا تلقـوا أيـديكم إلى التهلكـة؛ والصـواب أنها أصـلية، وليست بزائـدة؛ ولكن ضـمنت معـنى الفعل «الإفضـاء» أي لا تفضـوا بأيـديكم إلى التهلكـــة؛ و{ التهلكة }: من الهلاك؛ والمعـــنى لا تلقوها إلى ما يهلككم، ويشمل الهلاك الحسي والمعنوي، فالمعنوي مثل أن يدع الجهاد في سـبيل اللـه، أو الإنفـاق فيـه؛ والحسي أن يعـرض نفسه للمخـاطر، مثل أن يلقي نفسه في نار، أو في ماء يغرقه، أو ينـام تحت جـدار مائل للسـقوط، أو ما أشبه ذلك.
قوله تعالى: { وأحسـنوا } أي افعلـوا الإحسـان في عبـادة الخـالق؛ وفي معاملة المخلوق؛ أما الإحسـان في عبـادة الخـالق فقد فسـره النـبي صلى الله عليه وسـلم بقولـه: «أن تعبد الله كأنك تـراه فـإن لم تكن تـراه فإنه يراك»[1]؛ وأما الإحسان في معاملة الخلق: فأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به من بذل المعروف، وكفّ الأذى.
قوله تعـالى: { إن الله يحب المحسـنين } تعليل للأمر بالإحسـان؛ ولو لم يكن من الإحسان إلا هذا لكان كافياً للمؤمن أن يقوم بالإحسان.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله؛ والزكاة تدخل في هـذا الإنفاق؛ بل هي أول ما يـدخل؛ لأنها أوجب ما يجب من الإنفـاق في سـبيل اللـه؛ وهي أوجب من الإنفــاق في الجهــاد، وفي صــلة الــرحم، وفي بر الوالدين؛ لأنها أحد أركان الإسلام.
2 ـــ ومنها: الإشارة إلى الإخلاص في العمـل؛ لقوله تعـالى: { في سـبيل الله }؛ ويدخل في هذا: القصد، والتنفيذ ـــ أن يكـون القصد لله ـــ، وأن يكون التنفيذ على حسب شريعة الله، كما قال تعالى: {والـذين إذا أنفقـوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً} [الفرقان: 67] .

---

(1) سبق تخريجه 1/201.

3 ـــ ومنهـا: تحـريم الإلقـاء باليد إلى التهلكـة؛ لقوله تعـالى: { ولا تلقـوا بأيـــديكم إلى التهلكة }؛ والإلقـــاء باليد إلى التهلكة يشـــمل التفريط في الواجب، وفعل المحـرم؛ أو بعبـارة أعم: يتنـاول كل ما فيه هلاك الإنسـان، وخطر في دينه، أو دنياه.
4 ـــ ومنهـا: أن ما كـان سـبباً للضـرر فإنه منهي عنـه؛ ومن أجل هـذه القاعـدة عرفنا أن الـدخان حـرام؛ لأنه يضر باتفـاق الأطبـاء، كما أن فيه ضياعاً للمال أيضاً؛ وقد نهى (ص) عن إضاعة المال[2].
5 ـــ ومنهـا: الأمر بالإحسـان؛ لقوله تعـالى: { وأحســنوا }؛ وهل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟
الجـواب: أما الإحسـان الـذي به تمـام الـواجب فـالأمر فيه للوجـوب؛ وأمّا الإحسان الذي به كمال العمل فالأمر فيه للاستحباب.
6 ـــ ومنها: فضيلة الإحسـان، والحث عليـه؛ لقوله تعـالى: { إن الله يحب المحسنين }.
7 ـــ ومنهـا: إثبـات المحبة لله عز وجـل؛ لقوله تعـالى: { إن الله يحب المحسنين }؛ وهي محبة حقيقية على ظاهرهـا؛ وليس المـراد بها الثـواب؛ ولا إرادة الثـــواب خلافـــاً للأشـــاعرة، وغـــيرهم من أهل التحريف الـــذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته؛ فـإن مجـرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشـبهتهم أن المحبة إنما تكـون بين شـيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقـوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن أحُـداً - وهو حصى - جبل يحبنا ونحبه[3]؛ والإنسان يجد أن دابته تحبه، وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعاً من ماله أكثر من النوع الآخر.

---

(2) أخرجه البخاري ص543، كتاب الرقاق، باب 22، ما يكره من قيل وقال، حديث رقم 6473؛ وأخرجه مسلم ص982، كتاب الأقضية، باب 5: النهي عن كثرة السؤال...، حديث رقم 4486 [44] (593).
(3) أخرجه البخاري ص232، كتاب الجهاد والسير، باب 71: فضل الخدمة في الغزو، حديث رقم 2889، وأخرجه مسلم ص905، كتاب الحج، باب 85 فضل المدينة 3321 [462] 1365.

القرآن

{)وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْـرَةَ لِلَّهِ فَـإِنْ أُحْصِـرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَـرَ مِنَ الْهَـدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَـانَ مِنْكُمْ مَرِيضـاً أَوْ بِـهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِـيَامُ ثَلاثَـةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَـبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْـكَ عَشَـرَةٌ كَامِلَـةٌ ذَلِـكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُـهُ حَاضِـرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (البقرة:196)

التفسير:

{ 196 } قوله تعالى: { وأتموا الحج والعمرة لله } أي ائتوا بهما تامتين؛ وهذا يشمل كمال الأفعال في الزمن المحدد، وكذلك صفة الحج، والعمـرة - أن تكـون موافقة تمـام الموافقة لما كـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم يقوم به واللام في قوله تعالى: { لله } تفيد الإخلاص - يعني مخلصـين لله عز وجل ممتثلين لأمره -.

قوله تعالى: { فإن أحصرتم } أي منعتم عن إتمامها { فما استيسر } أي فعليكم ما تيسر من الهـدي؛ وزيـادة الهمـزة، والسـين للمبالغة في تيسر الأمــر؛ و{ من الهــدي } أي الهــدي الشــرعي؛ فــ«أل» فيه للعهد الذهني؛ والهدي الشرعي هو ما كان ثنيـاً مما سـوى الضـأن؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «لا تـذبحوا إلا مسـنَّة إلا إن تعسر عليكم فتـذبحوا جذعة من الضـأن»[1]؛ وهـذا النهي يشـمل كل ما ذبح تقربـاً إلى الله عز وجل من هدي، أو أضحية، أو عقيقة.

قوله تعالى: { ولا تحلقوا رؤوسكم } أي لا تزيلوها بالموسى { حتى يبلغ الهدي محله }: «محل» يحتمل أن تكون اسم زمـان؛ والمعـنى: حـتى يصل إلى يوم حلوله - وهو يوم العيد -؛ وثبتت السـنة بـأن من قـدّم الحلق على النحر فلا حرج عليه[2]؛ ويحتمل أن المعنى: حتى يذبح الهدي؛ وتكـون الآية فيمن ساق الهدي؛ ويؤيد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم سـئل ما بال الناس حلوا ولم تحل؟ فقـال (ص): «إني لبـدت رأسي وقلـدت هـديي فلا أحل حتى أنحر»[3].

قوله تعــالى: { فمن كــان منكم مريضــاً } أي واحتــاج إلى حلق الــرأس؛ { أو به أذًى من رأسه } وهو صـحيح، كما لو كـان الـرأس محلاً للأذى، والقمل، وما أشبه ذلـك؛ { ففدية } أي فعليه فدية يفـدي بها نفسه من العذاب { من صيام أو صدقة أو نسك }؛ { أو } هنا للتخيــير؛ وقد بين النبي صـلى الله عليه وسـلم أن «الصـيام» ثلاثة أيـام[4]، وأن «الصـدقة» إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع(3)؛ وأما «النسك» فهو ذبح شاة()؛ وهذه الجملة قد حـذف منها ما يـدل عليه السـياق؛ والتقـدير: فمن كان منكم مريضاً، أو به أذًى من رأسه، فحلق رأسه فعليه فدية.

{ فإذا أمنتم } أي من العدو ــــ يعني فأتموا الحج والعمرة ــــ.

---

[1] أخرجه مسلم ص1028، كتاب الأضاحي، باب 2: سن الأضحية، حديث رقم 5082 [13] 1963.

[2] راجع البخاري ص10، كتاب العلم، باب 23: الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها، حديث رقم 83؛ ومسلماً ص895، كتاب الحج، باب 57: جواز تقديم الذبح على الرمي...، حديث رقم 3156 [327] 1306.

[3] أخرجه البخاري ص123 – 124، كتاب الحج، باب 34: التمتع والقران، والإفراد...، حديث رقم 1566، وأخرجه مسلم ص883، كتاب الحج، باب 25: بيان أن القارن لا يتحلل إلا في وقت تحلل الحاج المفرد، حديث رقم 2984 [176] 1229.

[4] سبق تخريجه 2/392.

ثم فصّل الله عز وجل المناسك فقال: { فمن تمتع بـالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي } أي فمن أتى بالعمرة متمتعـاً بحله منها بما أحل الله له من محظـورات الإحـرام { إلى الحج } أي إلى ابتـداء زمن الحج؛ وهو اليـــوم الثـــامن من ذي الحجة { فما استيسر من الهـــدي } أي فعليه ما استيسر من الهدي شكراً لله على نعمة التحلل؛ ويقال في هذه الجملة ما قيل في الجملة التي سبقت في الإحصار.

قوله تعـالى: { فمن لم يجد } أي فمن لم يجد الهـدي، أو ثمنه { فصـيام ثلاثة أيـام } أي فعليه صـيام ثلاثة أيـام { في الحج } أي في أثنـاء الحج، وفي أشهره.

قوله تعـالى: { وسـبعة إذا رجعتم } أي إذا رجعتم من الحج بإكمـال نسكه، أو إذا رجعتم إلى أهليكم.

قوله تعالى: { تلك عشرة كاملة } للتأكيد على أن هذه الأيام العشرة وإن كانت مفرقة فهي في حكم المتتابعة.

قوله تعالى: { ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحـرام }، أي ذلك التمتع الموجب للهدي.

وقوله تعالى: { أهله }: قيل: المراد به نفسه ـــ أي لمن لم يكن حاضـراً المسجد الحرام ـــ؛ وقيل: المراد بـ «الأهل» سكنه الـذي يسـكن إليه من زوجة، وأب، وأم، وأولاد، وما أشبه ذلك؛ فيكون المعـنى: ذلك لمن لم يكن سكنه حاضري المسجد الحـرام؛ وهـذا أصـح؛ لأن التعبـير بـ «الأهـل» عن النفس بعيد؛ ولكن { أهله } أي الذين يسـكن إليهم من زوجـة، وأب، وأم، وأولاد هذا هو الواقع.

وقوله تعـالى: { حاضـري المسـجد الحـرام } المـراد به مسـجد مكـة؛ و{ الحرام } صفة مشبهة بمعنى ذي الحرمـة، وقد قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «وقد عـادت حرمتها اليـوم كحرمتها بـالأمس»[1]؛ وحرمة المسجد الحرام معروفة من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

واختلف في المراد بـ{ حاضري المسـجد الحـرام } فقيـل: هم أهل الحرم ـــ يعني: من كانوا داخل حدود الحـرم ـــ؛ فمن كـان خـارج حـدود الحرم فليسوا من حاضـري المسـجد الحـرام؛ وروي هـذا عن ابن عبـاس، وجماعة من السـلف، والخلـف؛ وقيـل: حاضـرو المسـجد الحـرام أهل المواقيت، ومن دونهم؛ وعلى هذا فأهل بدر من حاضري المسجد الحـرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وأهل جدة من حاضري المسـجد الحـرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وقيل: حاضرو المسجد الحـرام أهل مكـة، ومن بينهم وبين مكة دون مسافة القصر؛ وهي يومان؛ وعلى هذا فأهل جـدة، وأهل بـدر ليسـوا من حاضري المسجد الحرام؛ وأهل بحرة - وهي بلدة دون جدة - على هذا القـول يكـون أهلها من حاضـري المسـجد الحـرام؛ لأنهم داخل المسـافة؛ وأهل الشـرائع من حاضـري المسـجد الحـرام؛ والأقـرب القـول الأول أن حاضري المسجد الحرام هم أهل الحرم؛ وأما من كان من غير أهل الحـرم فليسوا من حاضريه؛ بل هم من محل آخر؛ وهذا هو الذي ينضبط.

قوله تعالى: { واتقـوا الله } أي الزمـوا تقـوى الله عز وجـل؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

---

[1] سبق تخريجه 2/47 حاشية رقم (1).

قوله تعـالى: { واعلمـوا أن الله شـديد العقـاب } أي شـديد المؤاخـذة، والعقوبة لمن لم يتقه تبارك وتعالى؛ وسـميت المؤاخـذة عقابـاً؛ لأنها تـأتي عقب الذنب.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: وجوب إتمام الحج، والعمرة؛ وظاهر الآية أنه لا فرق بين الواجب منهمـا، وغـير الـواجب؛ ووجه هـذا الظـاهر: العمـوم في قوله تعالى: { وأتموا الحج والعمرة }؛ فيكون شاملاً للفريضة، والنافلة؛ ويؤيده أن هــذه الآية نــزلت قبل فــرض الحج؛ لأن الحج إنما فــرض في الســنة التاسـعة في قوله تعـالى: {ولله على النـاس حج الـبيت من اسـتطاع إليه سبيلاً} [آل عمران: 97] ؛ السنة التي يسميها العلماء سنة الوفود.

2 ــــ ومن فوائد الآيـة: أن العمـرة، والحج سـواء في وجـوب إتمامهمـا؛ لقوله تعالى: { الحج والعمرة }.

3 ــــ ومنها: أنه لا تجوز الاستنابة في شيء من أفعال الحج، والعمرة؛ فلو أن أحداً استناب شخصاً في أن يطوف عنه، أو أن يسعى عنـه، أو أن يقف عنه بعرفة، أو أن يقف عنه بمزدلفة، أو أن يرمي عنه الجمـار، أو أن يـبيت عنه في منى فإنه حـرام؛ لأن الأمر بالإتمـام للوجـوب؛ فيكـون في ذلك رد لقــول من قــال من أهل العلم: إنه تجــوز الاســتنابة في نفل الحج، وفي بعضه: أما الاستنابة في نفل الحج ــــ كل النسك ــــ فهـذا له موضع آخـر؛ وأما في بعضه فالآية تدل على أنها لا تصح.

4 ــــ ومن فوائد الآية: الحذر مما يفعله بعض الناس الآن من التساهل في رمي الجمـرات، حيث إنهم يوكلـون من يـرمي عنهم بـدون عـذر مخالفة لقوله تعـالى: { وأتمـوا الحج والعمـرة لله }؛ وعليه فلا يصح رمي الوكيل حينئـذ؛ لقوله (صـلى الله عليه وسـلم): «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2] أي مـردود عليـه؛ أما إذا كـان لعـذر كـالمريض، والخـائف على نفسه من شدة الزحـام إذا لم يكن وقت آخر للـرمي يخف فيه الزحـام فلا بأس أن يستنيب من يـرمي عنـه؛ ولـولا ورود ذلك عن الصـحابة لقلنـا: إن العاجز عن الرمي بنفسه يسقط عنه الرمي كسائر الواجبات، حيث تسقط بالعجز؛ ويدل لعدم التهاون بالتوكيل في الـرمي أن النـبي صـلى الله عليه وســلم لم يــأذن لســودة بنت زمعة أن توكــل؛ بل أمرها أن تخــرج من مزدلفـة، وتـرمي قبل حطمة النـاس[3]؛ ولو كـان التوكيل جـائزاً لمشـقة الزحام لكان الرسـول صـلى الله عليه وسـلم يبقيها معه حـتى تـدرك بقية ليلة المزدلفة، وتدرك صلاة الفجر فيها، وتدرك القيام للـدعاء بعد الصـلاة؛ ولا تُحْــرَم من هــذه الأفعــال؛ فلما أذن لها في أن تــدفع بليل عُلم بــأن الاسـتنابة في الـرمي في هـذا الأمر لا يجـوز؛ وكـذلك لو كـان جـائزاً لأذن للرعاة أن يوكلوا، ولم يأذن لهم بأن يرموا يوماً، ويدعوا يوماً.

5- ومن فوائد الآيـة: وجـوب الإخلاص للـه؛ لقوله تعـالى: { وأتمـوا الحج والعمرة لله } يعني أتموها لله لا لغيره؛ لا تراعوا في ذلك جاهاً، ولا رتبــة، ولا ثناءً من الناس.

---

(2) سبق تخريجه ص1/91.

(3) راجع صحيح البخاري ص132، كتاب الحج، باب 98: من قدم ضعفة أهل بليل...، حديث رقم 1681، وصحيح مسلم ص892، كتاب الحج، باب 49: استحباب تقديم الضعفة من النساء وغيرهن، حديث رقم 3118 [293] 1290.

6- ومنهـا: أن الحج، والعمـرة يخالفـان غيرهما في وجـوب إتمـام نفلهمـا؛ لقوله تعـالى: { وأتمـوا }؛ والأمر للوجـوب؛ ويـدل على أنه للوجـوب قوله تعالى: { فإن أحصرتم فما استيسر من الهـدي }، حيث أوجب الهـدي عند الإحصـار؛ أما غيرهما من العبـادات فـإن النفل لا يجب إتمامـه؛ لأن النـبي صلى الله عليه وسلم دخل على أهله ذات يوم فقال: «هل عندكم شـيء؟ قالوا: نعم، حيس؛ قال: أرينيه؛ فلقد أصبحت صائماً؛ فأكل»[1]؛ لكن يكـره قطع النفل إلا لغرض صـحيح - كحاجة إلى قطعـه، أو انتقـال لما هو أفضل منه -.
7- ومن فوائد الآية: أنه إذا أحصر الإنسان عن إتمام الحج والعمـرة فله أن يتحلل؛ ولكن عليه الهدي؛ لقوله تعـالى: { فـإن أحصـرتم فما استيسر من الهدى }.
8- ومنها: أن الله تعالى أطلق الإحصـار، ولم يقيـده؛ لقوله تعـالى: { فـإن أحصرتم }؛ لأن الفعل لو بُني للفاعل، وذُكر الفاعل اختص الحكم به؛ فـإذا قلت مثلاً: «أقـام زيد عمـراً» صـار المقيم زيـداً؛ وإذا قلت: «أقيم عمـرٌو» صار عاماً؛ فظاهر الآية شمول الإحصار لكل مـانع من إتمـام النسـك؛ فكل ما يمنع من إتمام النسك فإنه يجوز التحلل بـه، وعليه الهـدي؛ أما الإحصـار بالعدو فأظنه محل إجماع فيتحلل بالنص، والإجمـاع؛ النص: تحلل الرسـول صلى الله عليه وسلم في الحديبية[2]؛ والإجمـاع: لا نعلم في هـذا مخالفـاً؛ وأما الحصر بغير عدو، كمـرض، أو كسـر، أو ضـياع نفقـة، أو ما أشـبه ذلك مما لا يستطيع معه إتمام الحج، والعمرة؛ فـإن العلمـاء اختلفـوا في ذلـك؛ فمنهم من قال: إنه لا يتحلل، ويبقى محرماً حتى يـزول المـانع؛ ومنهم من قال: إنه يتحلل، كالحصر بالعدو؛ حجة الأولين: أن الله تعـالى قـال: { فـإن أحصرتم }؛ والآية نزلت في شأن قضية الحديبيـة؛ وهم قد أحصـروا بعـدو؛ فيكون الحصر هنا خاصاً بالعدو؛ ودليل آخر: يقولون: ضباعة بنت الزبير لما جاءت تشتكي إلى الرسول صـلى الله عليه وسـلم أنها مريضـة، وأنها تريد الحج قال لهـا: «حجي واشـترطي»[3]؛ فلو كـان الإحصـار بـالمرض مبيحـاً للتحلل ما احـتيج إلى اشـتراط؛ فكـانت تـدخل في النسـك، وإذا عجـزت تحللت؛ وأجـاب القـائلون بـأن الحصر عـام بحصر العـدو وغـيره بـأن الآية مطلقة: { فإن أحصرتم }؛ لم تقيد بحصر العدو؛ والعـبرة بعمـوم اللفظ لا بخصـوص السـبب؛ لأن العلة في جـواز التحلل بحصر العـدو عـدم القـدرة على إتمام النسك؛ وهذا حاصل بالحصر بغير العـدو؛ والشـرع لا يفـرق بين متمـاثلين؛ وأجـابوا عن حـديث ضـباعة بـأن يقـال: إن الفائـدة من حـديث ضـباعة أنه إذا حصل مـرض يمنع من إتمـام النسك فإنها تتحلل بلا شـيء؛ وأما إذا لم تشترط فإنها لا تتحلل إلا بدم؛ وحينئذ تظهر فائدة اشـتراط من خاف أن يعوقه مرض، أو نحوه عن إتمام النسك؛ والفائـدة هي أنه لا يجب عليه الهـدي لو تحلل بهـذا الحصـر؛ والصـواب القـول الثـاني: أن الإحصـار يكون بالعدو، وبغيره.

---

(1) أخرجه مسلم ص862، كتاب الصيام، باب 32 جواز صوم النافلة...، حديث رقم 2715 [170] 1154.
(2) أخرجه البخاري ص217 – 219، كتاب الشروط، باب 15: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم 2731، 2732.
(3) أخرجه البخاري ص440، كتاب النكاح، باب 16: الأكفاء في الدين وقـله تعالى: (وهو الذي خلق من الماء بشر فجعله نسباً وصهراً)، حديث رقم 5089، وأخرجه مسلم ص876، كتاب الحج، باب 15: جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه، حديث رقم 2902 [104] 1207.

فإن قال قائل: إن قوله تعالى في سياق الآية: { فإذا أمنتم } يشير إلى أن الإحصار المذكور بعدو؟
فـــالجواب: أن ذكر بعض أفـــراد العـــام بحكم يوافق العـــام لا يقتضي التخصيص، كما هو قول المحققين من أهل أصول الفقه، وغـيرهم؛ ونظـير ذلك حـديث جـابر رضي الله عنـه: «قضى النـبي صـلى الله عليه وسـلم بالشـفعة في كل ما لم يقسـم؛ فـإذا وقعت الحـدود وصـرفت الطـرق فلا شفعة»[4]؛ فإن قولـه: «فـإذا وقعت الحـدود...» الخ لا يسـتلزم اختصـاص الشفعة بما له حدود، وطرق؛ بل الشفعة ثابتة في كل مشترك على القول الراجح.
9- ومن فوائد الآيـة: وجـوب الهـدي على من أحصـر؛ لقوله تعـالى: { فما استيسر من الهدي }.
10- ومنهـا: أن من تعـذر، أو تعسر عليه الهـدي فلا شـيء عليـه؛ لقوله تعالى: { فما استيسر من الهدي}؛ ولم يذكر الله بـديلاً عند العجـز؛ وقـال بعض أهل العلم: إنه إذا لم يجد هـدياً صـام عشـرة أيـام، ثم حـلّ - قياسـاً على هدي التمتع -؛ ولكن هذا القياس ليس بصحيح من وجهين:
الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر الآية؛ لأن الله لم يذكر بديلاً للهدي.
الوجه الثـــاني: أن تحلل المتمتع تحلل اختيــــاري؛ وأما المحصر فتحلله اضطراري.
11 ـــ ومن فوائد الآيـة: أنه لا يجب على المحصر الحلق عند التحلـل؛ لأن الله سـبحانه وتعـالى لم يـذكره؛ وهو أحد القـولين في المسـألة؛ والقـول الثاني: وجوب الحلق؛ لثبوته بالسنة؛ لأن النبي صـلى الله عليه وسـلم أمر به، وغضب على الصحابة حين تأخروا في تنفيذه[1]؛ ولا يغضب النبي صلى الله عليه وسلم لترك مستحب؛ لا يغضب إلا لترك واجب.
12 ـــ ومنها: أن المحصر لا يجب عليه القضـاء؛ لأن الله سـبحانه وتعـالى لم يذكره؛ ولو كان القضـاء واجبـاً لـذكره الله عز وجـل؛ وهـذا يشـمل من حصر في فريضة؛ ومن حصر في نافلة؛ لكن الفريضة إذا حصر عن إتمامها يلزمه فعلها بالخطـاب الأول؛ لا على أنه بـدل عن هـذه الـتي أحصر عنهـا؛ فمثلاً رجلاً شـرع في حج الفريضـة، ثم أحصر عن إتمامهـا، فـذبح الهـدي، وتحلل؛ فيجب الحج عليه بعد ذلك؛ لكن ليس على أنه قضاء؛ لكن على أنه مخـاطب به في الأصـل؛ وتسـمية العمـرة الـتي وقعت بعد صـلح الحديبية عمـرة القضـاء ليست لأنها قضـاء عما فـات؛ ولكنها من «المقاضـاة» ـــــ وهي المصالحة ـــ؛ ولذلك لم يأت بها كل من تحلل من عمرة الحديبية.
13 ـــ ومن فوائد الآية: أنه لا بد أن يكون هذا الهـدي مما يصح أن يهـدَى: بأن يكون بالغاً للسن المعتبر سالماً من العيوب المانعة من الإجزاء؛ لقوله تعالى: { من الهدي }؛ و «أل» هنا للعهد الذهني المعلوم للمخـاطب؛ وهو الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسـلم: «لا تـذبحوا إلا مسـنة إلا إن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن»[2].
فإن قال قائل: هل يؤكل من هذا الهدي أم لا؟

---

(4) أخرجه البخاري ص171، كتاب البيوع، باب 96: بيع الشريك من شريكه، حديث رقم 2213، وأخرجه مسلم ص957، كتاب المساقاة، باب 28 الشفعة، حديث رقم 4128 [134] واللفظ للبخاري.
(1) راجع حاشية (2) 2/398.
(2) سبق تخريجه 2/392.

فالجواب: يؤكل؛ كل شيء فيه: { فما استيسر } فهو يؤكل؛ وأما ما فيه: «فعليه» فإنه لا يؤكل؛ فجزاء الصيد لا يؤكل منه؛ وفدية الأذى لا يؤكل منها؛ لأن الله جعلها كفارة؛ أما ما استيسر من الهدي هنا، وفي التمتع فإنه يؤكل منه.

14 ــــ ومن فوائد الآية: تحريم حلق الرأس على المحرم؛ لقوله تعـالى: { ولا تحلقـوا رؤوسـكم }؛ والنهي عـام لكل الـرأس، ولبعضـه؛ إذاً لو حلق بعضه وقع في الإثم؛ لأن النهي يتناول جميع أجزاء المنهي عنـه؛ فـإذا قلت لك: «لا تأكل هذه الخبزة» وأكلت منها فإنك لم تمتثل.

15 ــــ ومنهـا: أنه لا يحـرم حلق شـعر غـير الـرأس؛ لأن الله خص النهي بحلق الرأس فقط؛ وأما الشارب، والإبط، والعانـة، والسـاق، والـذراع، فلا يـدخل في الآية الكريمـة؛ لأنه ليس من الـرأس؛ والأصل الحـل؛ وهـذا ما ذهب إليه أهل الظاهر؛ قالوا: لا يحرم على المحرم حلق شيء من الشـعر المبـاح حلقه سـوى الـرأس؛ لأن الله سـبحانه وتعـالى خصه فقـال: { ولا تحلقوا رؤوسـكم }؛ ولأن حلقه يفـوت به نسك بخلاف غـيره من الشـعور؛ ولكن أكثر أهل العلم ألحقـوا به شـعر بقية البـدن؛ وقـالوا: إنه يحـرم على المحرم أن يحلق أيّ شعر من بدنه حتى العانة -قياساً على شـعر الـرأس؛ لأن العلة في تحريم حلق شعر الـرأس الترفـه، وإزالة الأذى؛ وهـذا حاصل في حلق غيره من الشعور؛ وهذا القياس غير صحيح لوجهين:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر النص، أو صريحه.

الوجه الثـاني: أن بين شـعر الـرأس وغـيره فرقـاً كثـيراً: فـإن حلق شـعر الرأس يتعلق به التحلل من النسك؛ فهو عنـوان التحلـل؛ بخلاف غـيره من الشعور.

وأما التعليل بأنه للترفــه، ودفع الأذى ففيه نظــر؛ ثم لو ســلمنا ذلك فـأين دفع الأذى في حلق شـعر العانـة، وشـعر السـاق، ونحو ذلـك؟! وأين الدليل على منع المحرم من الترفه مع أنه يجـوز له التنظـف، والاغتسـال، والتظلل من الشمس، واستعمال المكيفات؟!

وهل تلحق الأظافر بشعر الرأس؟

الجواب: لا تلحق؛ فالأظافر ليست شعراً؛ وليست في الرأس أيضــاً؛ فهي أبعد من إلحاق شعر بقية البدن بشعر الـرأس؛ ووجه البعد أنها ليست من نوع الشعر؛ صحيح أنها تشبه الشعر من حيث إنها جـزء منفصـل؛ لكنها ليست من نوع الشعر؛ ولذلك من لم ير تحريم حلق شعر بقية البــدن فإنه لا يرى تحريم قص الأظافر من باب أولى؛ ولكن جمهور أهل العلم على أن تقليم الأظافر محرم على المحرِم قياساً على تحـريم حلق شـعر الـرأس؛ والعلة: ما في ذلك من الترفه، والتنعم؛ ولكن هذه العلة غير مسلمة:

أولاً: لأن العــرب في زمنهم لا يـترفهون بحلق الـرأس؛ بل الرفاهية عندهم إنما هي في إبقاء الرأس، وترجيله، وتسريحه، ودهنـه، والعناية بـه؛ فليست العلة إذاً في حلق شعرِ الرأس: الترفه.

ثانياً: أن العلة لا بد أن تطَّرد في جميع معلولاتهـا؛ وإلا كـانت باطلـة؛ وهذه العلة لا تطرد بـدليل أن المحـرم لو ترفـه، فتنظـف، وتغسـل، وأزال الوسخ عنه، ولبس إحراماً جديداً غير الذي أحرم به لم يحرم عليه ذلك.

وأقـرب شـيء للتعليل أن في حلق الـرأس حـال الإحـرام إسـقاطاً للنسك الـذي هو حلْقُه عند التحلـل؛ وهـذا لا يسـاويه حلق بقية الشـعر، أو

تقليم الأظافر؛ ولكن نظراً لأن جمهور أهل العلم ألحقوا ذلك بشعر الرأس فالاحتياط تجنب ذلك مراعاة لقول الجمهور.

16 ـــ ومن فوائد الآية: أن المحرَّم ما يسمى حلقاً؛ فأما أخذ شعرة، أو شعرتين، أو ثلاث شعرات من رأسه فلا يقال: إنه حلق؛ وهذه المسألة مما تنازع فيها أهل العلم؛ فقال بعضهم: إذا أخذ شعرة واحدة من رأسه فقد حلق؛ فعليه فدية إطعام مسكين؛ وإن أخذ شعرتين فإطعام مسكينين؛ وإذا أخذ ثلاث شعرات فدم؛ أو إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع؛ أو صيام ثلاثة أيام؛ وقال بعض العلماء: إن الحكم يتعلق بربع الرأس؛ فإن حلق دون الربع فلا شيء عليه؛ وهذا لا شك أنه تحكم لا دليل عليه؛ فلا يكن صحيحاً؛ بل هو ضعيف؛ وقال آخرون: تتعلق الفدية بما يماط به الأذى؛ ومعنى يماط: يزال؛ أي بما يحصل به إزالة الأذى؛ وهذا لا يكون إلا بجزء كبير من الرأس؛ قالوا: لأن الله تعالى قال: { فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه ففدية... }؛ فدل هذا على أن المحرَّم الذي تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى؛ وهذا مذهب مالك؛ وهو صحيح من حيث أنَّ الفدية لا تجب إلا بما يماط به الأذى فقط؛ لكنه غير صحيح من كون التحريم يتعلق بما يماط به الأذى فقط؛ فالتحريم يتعلق بما يسمى حلقاً؛ والفدية تتعلق بما يماط به الأذى.

فإن قال قائل: ما هو دليلكم على هذا التقسيم؛ فالعلماء لم يقولوا هذا الكلام؟

فالجواب: أن نقول: دليلنا على هذا التقسيم الآية الكريمة، وفعل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقوله تعالى: { ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله }؛ هذا عام لكل حلق؛ فكل ما يسمى حلقاً فإنه منهي عنه لهذه الآية؛ ثم قال تعالى: { فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه ففدية }؛ فأوجب الفدية فيما إذا حلق حلقاً يزول به الأذى؛ لقوله تعالى: { أو به أذًى }؛ فلو قدرنا محرِماً رأسه تؤذيه الهوام، فحلق منه شيئاً يسيراً لا يزول به الأذى فلا فدية عليه؛ لأن الله تعالى إنما أوجب الفدية بحلق ما يزول به الأذى؛ ويدل لذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم: فقد احتجم وهو محرم في يافوخه في أعلى رأسه[1]؛ ومعلوم أن الحجامة تحتاج إلى حلق الشعر الذي يكون في موضع الحجامة؛ ولم ينقل أن الرسول صلى الله عليه وسلم افتدى؛ فدل ذلك على أن ما تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى دون الشيء اليسير.

17 ـــ ومن فوائد الآية: أنه لا يجوز الحلق إلا بعد النحر؛ لقوله تعالى: { حتى يبلغ الهدي محله }؛ وإلى هذا ذهب كثير من أهل العلم مستدلين بقوله (ص): «إني لبدت رأسي وقلدت هديي؛ فلا أحل حتى أنحر»[2]؛ وهؤلاء الذين قالوا به عندهم ظاهر الآية الكريمة؛ وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: «فلا أحل حتى أنحر» ؛ لكن قد وردت الأحاديث بجواز التقديم، والتأخير تيسيراً على الأمة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم سئل في يوم العيد عن التقديم، والتأخير؛ فما سئل عن شيء قدِّم ولا أخِّر إلا قال (ص): «افعل ولا حرج»[1].

---

[1] أخرجه البخاري ص144، كتاب جزاء الصيد، باب 11: الحجامة للمحرم، حديث رقم 1836، وأخرجه مسلم ص875، كتاب الحج، باب 11: جواز الحجامة للمحرم، حديث رقم 2886 [88] 1203.

[2] سبق تخريجه 2/393، حاشية رقم (2).

18 ـــ ومن فوائد الآية: جواز حلق الرأس للمـرض، والأذى؛ لقوله تعـالى: { فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه... } إلخ.
19 ـــ ومنها: وجوب الفدية على المحـرم إذا حلق رأسـه؛ وهي إما صـيام ثلاثة أيام؛ وإما إطعام سـتة مسـاكين: لكل مسـكين نصف صـاع؛ وإما ذبح شاة تفرق على الفقراء ـــ كما بينت ذلك السنة ـــ؛ والسنة تبين القرآن، كما قـال الله تعـالى: {وأنزلنا إليك الـذكر لتـبين للنـاس ما نـزل إليهم} [النحل: 44] ؛ والتبيين يشمل تبيين اللفظ، وتبيين المعنى.
20 ـــ ومن فوائد الآيـة: أن هـذه الفدية على التخيـير؛ لأن هـذا هو الأصل في معاني «أو».
21 ـــ ومنها: التيسير على العباد؛ وذلك بوقوع الفدية على التخيير.
22 ـــ ومنهـا: أن محل الإطعـام والنسك في مكـان فعل المحظـور؛ لأن الفورية تقتضي ذلك؛ أما الصيام فالظاهر ما قاله العلمـاء ـــــ رحمهم الله ـــ من كونه يصح في كل مكان؛ لكن الفورية فيه أفضل.
23 ـــ ومنهـا: أن كفـارات المعاصي فـدًى للإنسـان من العقوبـة؛ لقوله تعالى: { ففدية من صيام أو صدقة... }.
24 ـــ ومنهـا: أن محظـورات الإحـرام لا تفسـده؛ لأن الله لم يـوجب في حلق الرأس ــــ مع أنه من محظـورات الإحـرام ــــ إلا الفديـة؛ ومقتضى ذلك أن النسك صـحيح؛ وهـذا مما يخـالف الحجَّ، والعمـرةُ فيه غيرَهما من العبادات؛ فإن المحظورات في العبادات تبطلها؛ وألحق العلماء بفدية حلق الـرأس فدية جميع محظـورات الإحـرام ما عـدا شـيئين؛ وهما الجمـاع في الحج قبل التحلل الأول، وجزاء الصيد؛ فالجماع في الحج قبل التحلل الأول يجب فيه بدنة؛ وجزاء الصيد يجب فيه مثلـه؛ أو إطعـام مسـاكين؛ أو عـدل ذلك صياماً؛ وما عدا ذلك من المحظورات ففديتها كفدية حلق الـرأس عند الفقهاء، أو كثير منهم.
25 ـــ ومن فوائد الآيــة: جــواز التمتع بــالعمرة إلى الحج؛ أي أن يــأتي الإنسـان بـالعمرة في أشـهر الحج، ويتحلل منهـا؛ ويبقى حلاً إلى أن يـأتي وقت الحج؛ وكـانوا في الجاهلية يـرون العمـرة في أشـهر الحج من أفجر الفجور؛ ويقولون: «إذا انسلخ صفر، وبرأ الـدَّبَر، وعفا الأثـر، حلت العمـرة لمن اعتمر»؛ لكن الله سبحانه وتعالى يسَّر وبيَّن أنه يجوز للإنسان القـادم في أشهر الحج أن يتحلل بالعمرة متمتعاً بها إلى الحج.
26 ـــ ومنها: أنه إذا حل من عمرته حل الحل كلـه؛ لقوله تعـالى: { فمن تمتع }؛ لأن إطلاق التمتع لا يكون إلا كذلك.
27 ـــ ومنها: أن من لم يحل من عمرته لا يسمى متمتعاً؛ لقوله تعالى: { فمن تمتع بالعمرة إلى الحج}؛ وعلى هذا فالقارن ليس بمتمتع؛ وهو كذلك عند الفقهاء أن القارن غير متمتع؛ لكن ذكر كثير من أهل العلم أن القـارن يسمى متمتعاً في لسان الصحابة؛ وذلـك؛ لأن بعض الصـحابة عـبر عن حج النبي صـلى الله عليه وسـلم بـالتمتع، فقـالوا: تمتع النـبي صـلى الله عليه وسـلم بـالعمرة إلى الحج[2]؛ ومن المعلـوم أن الرسـول صـلى الله عليه

(1) أخرجه البخاري ص10، كتاب العلم، باب 23: الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها حديث رقم 83، وأخرجه مسلم ص894، كتاب الحج، باب 57: جواز تقديم الذبح على الرمي. حديث رقم 3156 [327 1306.
(2) أخرجه البخاري ص133، كتاب الحج، باب 104: من ساق البدن معه، حديث رقم 1692؛ وأخرجه مسلم ص883، كتاب الحج، باب 24، وجوب الدم على المتمتع...، حديث رقم 2983 [175 1228.

وسلم لم يحل من إحرامه؛ ولهذا قال الإمام أحمد: «لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم حج قارنـاً؛ والمتعة أحب إليّ»؛ ولهـذا كـان وجـوب الهـدي على المتمتع بالإجمـاع؛ ووجـوب الهـدي على القـارن فيه خلاف؛ وجمهـور أهل العلم على وجوب الهدي عليه؛ وسبب اختلافهم في ذلك اختلافهم في العلة: هل هي حصول النسكين في سفر واحـد؛ فيكـون قد ترفه بسـقوط أحد السفرين؛ أو العلة التمتع بالتحلل بين العمرة، والحج؛ فمن قال بالأول أوجب الهـدي على القـارن؛ ومن قـال بالثـاني لم يوجبـه؛ لأنه لم يحصل للقارن تحلل بين النسكين.

28 ـــ ومن فوائد الآية: أنه لا يجب على الإنسان أن يقترض للهـدي إذا لم يكن معه ما يشـتري به الهـدي ـــــ ولو كـان غنيـاً - لقوله تعـالى: { فما استيسر من الهدي }.

29 ـــ ومنهـا: تيسـير الله على العبـاد؛ لقوله تعـالى: { فما استيسر من الهدي }؛ والدين كله من أوله إلى آخره مبني على اليسر.

30 ـــ ومنهـا: بلاغة القـرآن؛ لقوله تعـالى: { فمن لم يجد }؛ فحُـذف المفعـول للعمـوم ليشـمل من لم يجد الهـدي، أو ثمنـه؛ فاسـتفيد زيـادة المعنى مع اختصار اللفظ.

31 ـــ ومنهـا: أن من لم يجد الهـدي، أو ثمنـه، فإنه يصـوم ثلاثة أيـام في الحج: أولها من حين الإحـرام بـالعمرة؛ وآخرها آخر أيـام التشـريق؛ لكن لا يصوم يوم العيد؛ لتحريم صـومه؛ ولا ينبغي أن يصـوم يـوم عرفـة؛ ليتفـرغ للدعاء والذكر وهو نشيط؛ وعلى هـذا فيجـوز لمن كـان عادمـاً للهـدي من متمتع أو قارن أن يصوم من حين إحرامه بالعمرة.

فإن قال قائل: هذا ظاهر في القارن؛ لأنه إذا صـام من حين إحرامه فقد صـام في الحج؛ لكنه في المتمتع فيه إشـكال؛ لأن المتمتع يحل بين العمرة والحج؟

والجـواب: عن هـذا الإشـكال أن نقـول: إن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: «دخلت العمـرة في الحج»[1]؛ ولأن المتمتع من حين إحرامه بالعمرة فقد نوى أن يحج.

32 ـــ ومن فوائد الآيـة: أن صـيام السـبعة لا يجـوز في أيـام الحج؛ لقوله تعالى: { وسبعة إذا رجعتم }.

33 ـــ ومنها: أنه يجوز التتابع، والتفريق بين الأيام الثلاثة، والأيام السـبعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أطلق، ولم يشترط التتابع؛ ولو كـان التتـابع واجبـاً لذكره الله، كما ذكر وجوب التتابع في صيام كفـارة القتـل، وصـيام كفـارة الظهار.

34 ـــ ومنها: تيسـير الله ـــ تبـارك وتعـالى ـــ على عبـاده، حيث جعل الأكثر من الصيام بعد رجوعه؛ لقوله تعالى: { وسبعة إذا رجعتم }.

35 ـــ ومنها: أن الهـدي، أو بدله من الصـيام لا يجب على من كـان حاضر المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: { ذلك لمن لم يكن أهله حاضـري المسـجد الحرام }؛ وقد سبق أن الصحيح أنهم من كانوا داخل حـدود الحـرم؛ وعلى هذا إذا تمتع أهل جـدة، أو الطـائف، أو أهل الشـرائع فعليهم الهـدي؛ ولكن هل لحاضر المسجد الحرام التمتع؟

---

[1] أخرجه مسلم ص880 – 881، كتاب الحج، باب 19: حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 2950 [147] 1218.

الجواب: نعم؛ لأن حاضر المسجد الحـرام قد تـدخل عليه أشـهر الحج وهو خـارج مكـة، ثم يرجع إلى أهله في مكة في أشـهر الحج، فيحـرم بعمـرة يتمتع بها إلى الحج.

فإن كان شخص في مكة للدراسة، لكن وطنه الريـاض، أو المدينـة، وتمتع فعليه الهدي؛ لأن أهله ليسوا من حاضري المسـجد الحـرام؛ وإقامته في مكة ليست إقامة استيطان؛ والمراد أن يكون مستوطناً في مكة.

وإذا كـان له مَقَـرَّان ــــ في الطـائف، وفي مكة ـــ؛ يعـني من أهل مكة والطـائف، فهنا نقـول: إن نظرنا إلى مقـره في الطـائف قلنـا: ليس من حاضـري المسـجد الحـرام؛ وإن نظرنا إلى مقـره في مكة قلنـا: هو من حاضري المسجد الحرام؛ فنعتبر الأكـثر: إذا كـان أكـثر إقامته في الطـائف فليس من أهل المسـجد الحـرام؛ وإذا كـان أكـثر إقامته في مكة فهو من حاضري المسجد الحرام.

36 ـــ ومن فوائد الآيـة: فضـيلة المسـجد الحـرام؛ لوصف الله سـبحانه وتعالى له بأنه حرام ـــ أي ذو حرمة ـــ؛ ومن حرمته تحريم القتـال فيـه، وتحريم صـيده، وشـجره، وحشيشـه، وأن من أراد الإلحـاد فيه بظلم أذاقه الله من عذاب أليم؛ وبسط ذلك في المطولات.

37 ـــ ومنها: وجوب تقـوى الله عز وجـل، وتهديد من خـالف ذلـك؛ لقوله تعالى: { واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب }.

38 ـــ ومنها: أن العلم بشـدة عقوبة الله من أهم العلـوم؛ ولهـذا أمر الله سـبحانه وتعـالى به بخصوصـه؛ لأنه يـورث الخـوف من اللـه، والهـرب من معصيته.

39 ـــ ومنها: أن العقوبة على الذنب لا تنافي الرحمة؛ إذ من المعلـوم أن رحمة الله سبقت غضبه؛ لكن إذا عاقب من يستحق العقاب فـإن ذلك من رحمة المعاقب؛ لأن هذه العقوبة إن كانت في الـدنيا فهي كفـارة لـه؛ وإن كانت في الآخرة فما دون الشرك أمره إلى الله: إن شاء عذب؛ وإن شـاء غفر.

40 ـــ ومنهـا: أن شـدة العقـاب من كمـال المعـاقِب، وبسط قوتـه، وسـلطانه؛ ولا يوصف الله سـبحانه وتعـالى إلا بالكمـال؛ بل أَمَرَنا أن نعلم ذلك في قوله تعالى: {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم} [المائدة: 98] ؛ إذاً فإذا عاقبت ولدك بما يستحق، وكانت الجناية كبـيرة، فـأكبرت العقوبة فإنك تُحمَـد، ولا تـذم؛ ولهـذا قـال (ص): «مـروا أبنـاءكم بالصلاة لسبع، واضـربوهم عليها لعشـر»[1]؛ لأنه إذا بلغ عشـراً صـار تركه إياها، والإخلال بها أعظم.

تــنــبــيــه:

كثـير من النـاس كلما رأوا مخالفة من شـخص في الإحـرام قـالوا: «عليك دم»؛ لو قال: حككت رأسي فسقطت منه شعرة بـدون اختيـار ولا قصد قالوا: «عليك دم»؛ وهذا غلط:

---

(1) أخرجه أحمد ج2/187، حديث رقم 6756، وأخرجه أبو داود ص1259، كتاب الصلاة، باب 26: متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم 495، وفيه سوار بن أبي حازم قال الحافظ في التغريب: صدوق له أوهام؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح 1/145، وله شاهد من حديث سبرة بن معبد (الإرواء 1/266).

أولاً: لأنه خلاف ما أمر الله بــه؛ والله أوجب واحــدة من ثلاث: صــيام؛ أو صدقة؛ أو نسك؛ فـإلزامهم بواحـدة معينة فيها تضـييق عليهم، وإلـزام لهم بما لا يلزمهم.
ثانياً: أن الدم في أوقات النحر في أيام منى غالبه يضيع هدراً؛ لا ينتفع به.
ثالثاً: أن فيه إخفاءً لحكم الله عز وجـل؛ لأن النـاس إذا كـانوا لا يفـدون إلا بالدم، كأنه ليس فيه فدية إلا هـذا؛ وليس فيه إطعـام، أو صـيام! فـالواجب على طالب العلم أن يختار واحداً من أمرين:
* إما أن يرى الأسهل، ويفتي بالأسهل.
* وإما أن يقول: عليك هذا، أو هذا، أو هذا؛ واختر لنفسك.
أما أن يذكر الأشد فقط، ويسكت فهذا خلاف ما ينبغي للمفتين.

القرآن

{)الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَـاتٌ فَمَنْ فَـرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُـوقَ وَلا جِـدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُـوا مِنْ خَيْـرٍ يَعْلَمْـهُ اللَّهُ وَتَـزَوَّدُوا فَـإِنَّ خَيْـرَ الـزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (البقرة:197)

التفسير:

{ 197 } قوله تعالى: { الحج أشهر معلومات } يعني أن الحج يكون في أشهر معلومات؛ وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة؛ وقيـل: العشر الأول من ذي الحجة؛ والأول أصح؛ وقد استُشـكل كـون الخـبر { أشـهر }؛ ووجه الإشكال: أن الحج عمل، والأشهر زمن؛ فكيف يصح أن يكون الـزمن خـبراً عن العمل؟ وأجيب بأن هذا على حذف مضـاف؛ والتقـدير: الحج ذو أشـهر معلومات؛ فحذف المضـاف، وأقيم المضـاف إليه مقامـه؛ وقيـل: التقـدير: الحج وقته أشهر معلومات؛ والتقدير الأول أقرب.

قوله تعــالى: { فمن فـــرض فيهن الحج فلا رفث }؛ «مَن» اسم شرط؛ و{ فرض } فعل الشرط؛ { فيهن} الضمير يعـود إلى أشـهر الحج؛ وقد أجمع العلماء على أن الضمير في { فيهن } يرجع إلى بعضهن؛ لأنه لا يمكن أن يفرض الحج بعد طلوع الفجر يـوم النحـر؛ ويفـرض الحج من أول ليلة من شـوال إلى ما قبل طلـوع الفجر يـوم النحر بـزمن يتمكن فيه من الوقوف بعرفة.

قوله تعـالى: { فلا رفث ولا فسـوق ولا جـدال في الحج } جــواب الشــرط؛ وفيها قراءتــان؛ إحـــداهما البنـــاء على الفتح في { رفثَ }، و{ فسوقَ }؛ والثانية: التنوين فيهما؛ أما { جدالَ } فإنها بالبناء على الفتح على القراءتين.

قوله تعالى: { فلا رفث } نفي بمعـنى النهي؛ و «الـرفث» الجمـاع، ومقدماته.

قوله تعالى: { ولا فسوق } أي لا خـروج عن طاعة الله بمعاصـيه لا سـيما ما يختص بالنسك، كمحظورات الإحرام.

قوله تعــالى: { ولا جــدال في الحج } يشــمل الجــدال فيــه، وفي أحكامه، والمنازعات بين الناس في معاملاتهم؛ مثال الجدال فيه: أن يقال: «ما هو الحج؟»، فيحصل النزاع؛ أو «متى فُرض؟»، فيحصل النزاع فيه؛ ومثاله في أحكامه: النزاع في أركانه، وواجباته، ومحظوراته؛ ومثال النزاع بين الناس في معاملاتهم: أن يتنازع اثنان في العقود، فيقول أحدهما: «بعتك»، والثاني يقول: «لم تبعني»؛ أو يقول: «بعتك بكذا»، ويقول الثاني: «بل بكذا»؛ أو يتنازع اثنان عند أنابيب الماء في الشرب، أو الاستسقاء، أو عند الخباز.

قوله تعالى: { وما تفعلوا من خير يعلمه الله }: لما نهى عن هذه الشرور انتقل إلى الأمر بالخير؛ وهذه الجملة شرطية: { ما } أداة الشرط؛ وفعل الشرط: { تفعلوا }؛ وجواب الشرط: { يعلمه الله }؛ ولهذا جزمت؛ و{ مِن } بيانية تبين المبهم من اللفظ؛ لأن { ما } شرطية مبهمة كالموصول؛ و{ خير } نكرة في سياق الشرط، فيشمل كل خير سواء كان قليلاً، أو كثيراً.

وقوله تعالى: { يعلمه الله }: أي يحيط به علماً.

قوله تعالى: { وتزودوا } أي اتخذوا زاداً لغذاء أجسامكم، وغذاء قلوبكم -وهذا أفضل النوعين - لقوله تعالى: { فإن خير الزاد التقوى } و«التقوى» اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ هذا أجمع ما قيل في التقوى.

لما رغب الله سبحانه وتعالى في التقوى أمر بها طلباً لخيرها فقال تعالى: { واتقون يا أولي الألباب }؛ و{اتقونِ } فعل أمر؛ والنون للوقاية؛ والياء المحذوفة للتخفيف مفعول به؛ و{ يا أولي الألباب } جمع لب؛ أي يا أصحاب العقول؛ ووجه الله تعالى الأمر إلى أصحاب العقول؛ لأنهم هم الذين يدركون فائدة التقوى، وثمرتها؛ أما السفهاء فلا يدركونها.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: تعظيم شأن الحج، حيث جعل الله له أشهراً مع أنه أيام ـــ ستة أيام ـــ؛ وقد جعل الله له أشهراً ثلاثة حتى يأمن الناس، ويتأهبوا لهذا الحج؛ ولهذا ما بعد الحج أقصر مما قبله؛ الذي قبله: شهران وسبعة أيام؛ والذي بعده: سبعة عشر يوماً فقط؛ لأنه إذا حج انتهى غرضه؛ فطُلب منه العودة؛ بخلاف ما إذا كان قبله.

2 ـــ ومن فوائد الآية: أن أشهر الحج ثلاثة؛ لقوله تعالى: { أشهر }؛ وهي جمع قلة؛ والأصل في الجمع أن يكون ثلاثة فأكثر؛ هذا المعروف في اللغة العربية؛ ولا يطلق الجمع على اثنين، أو اثنين وبعض الثالث إلا بقرينة؛ وهنا لا قرينة تدل على ذلك؛ لأنهم إن جعلوا أعمال الحج في الشهرين وعشرة الأيام يرد عليه أن الحج لا يبدأ فعلاً إلا في اليوم الثامن من ذي الحجة؛ وينتهي في الثالث عشر؛ وليس العاشر؛ فلذلك كان القول الراجح أنه ثلاثة أشهر كاملة؛ وهو مذهب مالك؛ وهو الصحيح؛ لأنه موافق للجمع؛ وفائدته أنه لا يجوز تأخير أعمال الحج إلى ما بعد شهر ذي الحجة إلا لعذر؛ لو أخرت طواف الإفاضة مثلاً إلى شهر المحرم قلنا: هذا لا يجوز؛ لأنه ليس في أشهر الحج والله تعالى يقول: { الحج أشهر }؛ فلا بد أن يقع في أشهر الحج؛ ولو أخرت الحلق إلى المحرم فهذا لا يجوز؛ لأنه تعدى أشهر الحج.

وهل هذه الأشهر من الأشهر الحرم؟
الجــواب: أن اثــنين منها من أشــهر الحــرم، وهما ذو القعــدة، وذو الحجة؛ وواحد ليس منها -وهو شوال كما أن «المحرم» من الأشهر الحرم، وليس من أشهر الحج؛ فرمضان شهر صيام؛ وشوال شهر حج؛ وذو القعدة شـهر حج، ومن الحـرم؛ وذو الحجة شـهر حج، ومن الحـرم؛ والمحـرم من الحرم، وليس شهر حج.
3 ـــ ومن فوائد الآيــة: الإحالة على المعلـوم بشـرط أن يكـون معلومـاً؛ لقوله تعالى: { معلومات }؛ وهـذا يسـتعمله الفقهـاء كثـيراً يقولـون: هـذا معلوم بالضرورة من الدين؛ وأمر هذا معلوم؛ وما أشبه ذلك؛ فلا يقـال: إنه لم يـبين؛ لأنه ما دام الشـيء مشـهوراً بين النـاس معروفـاً بينهم يصح أن يعَرِّفه بأنه معلــوم؛ ومن ذلك ما يفعله بعض الكتــاب في الوثــائق: يقــول: «باع فلان على فلان كذا، وكذا» -وهو معلوم بين الطــرفين -يجــوز وإن لم تفصل ما دام معلومــاً؛ فإضــافة الشــيء إلى العلم وهو معلــوم يعتــبر من البيان.
4 ـــ ومنهــا: أن من تلبس بــالحج، أو العمــرة وجب عليه إتمامــه، وصــار فرضــاً عليــه؛ لقوله تعــالى: { فمن فــرض فيهن الحج }؛ ويؤيد ذلك قوله تعـالى: {ثم ليقضـوا تفثهم وليوفـوا نـذورهم} [الحج: 29] ؛ فسـمى الله تعالى أفعال الحج نذوراً؛ ويدل على ذلك أيضـاً قوله تعـالى: {وأتمـوا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي} [البقـرة: 196] ؛ فلم يبح الله تعالى الخروج من النسك إلا بالإحصار.
5 ـــ ومنها: وجوب إتمام النفل في الحج؛ لقوله تعـالى: { فمن فـرض }؛ والفرض لا بد من إتمامه.
6 ـــ ومنها: أن الإحرام بالحج قبل أشهره لا ينعقــد؛ لقوله تعـالى: { فمن فرض فيهن الحج فلا رفث }؛ فلم يرتب الله أحكام الإحرام إلا لمن فرضه في أشـهر الحج؛ ومعلـوم أنه إذا انتفت أحكـام العمل فمعنـاه أنه لم يصح العمل، وهذا مذهب الشافعي -رحمه الله -أنه إذا أحـرم بـالحج قبل دخـول أشـهر الحج لم ينعقد إحرامـه؛ ولكن هل يلغـو، أو ينقلب عمـرة؟ في هـذا قولان عندهم؛ أما عندنا مذهب الحنابلة؛ فيقولـون: إن الإحـرام بـالحج قبل أشهره ينعقد؛ ولكنه مكروه -يكره أن يحرم بـالحج قبل أشـهره - ومـذهب الشافعي أقرب إلى ظاهر الآية الكريمة: أنه إذا أحرم بالحج قبل أشهره لا ينعقد حجاً؛ والظـاهر أيضـاً أنه لا ينعقـد، ولا ينقلب عمـرة؛ لأن العبـادة لم تنعقد؛ وهو إنما دخل على أنها حج؛ فلا ينعقد لا حجاً، ولا عمرة.
7 ـــ ومن فوائد الآية: أن المحظورات تحرم بمجرد عقد الإحرام - وإن لم يخلع ثيابه من قميص، وسراويل، وغيرها؛ لقوله تعالى: { فمن فرض فيهن الحج فلا رفث }؛ لأنه جواب الشرط؛ وجواب الشـرط يكـون تاليـاً لفعلـه؛ فبمجرد أن يفرض فريضة الحج تحرم عليه المحظورات.
8 ـــ ومنها: أن الإحـرام ينعقد بمجـرد النية - أي نية الـدخول إلى النسـك؛ وتثبت بها الأحكـام - وإن لم يلبّ؛ لقوله تعـالى: { فمن فـرض فيهن الحج فلا رفث }.
9 ـــ ومنهـا: تحـريم الجمـاع، ومقدماته بعد عقد الإحـرام؛ لقوله تعـالى: { فلا رفث }؛ وجــواب الشــرط يكــون عقب الشــرط؛ فبمجــرده يحــرم الرفث.

10 ـــ ومنها: تحريم الفسوق؛ لقوله تعالى: { فلا فسوق }.
فإن قال قائل: الفسوق محرم في الإحرام، وغيره.
فالجواب: أنه يتأكد في الإحرام أكثر من غيره.
11 ـــ ومنهـا: تحـريم الجـدال؛ لقوله تعـالى: { ولا جـدال في الحج }؛ والجدال إن كـان لإثبـات الحـق، أو لإبطـال الباطل فإنه واجب، وعلى هـذا فيكـون مسـتثنًى من هـذا العمـوم؛ لقوله تعـالى: {وجـادلهم بـالتي هي أحسن} [النحل: 125] ؛ وأما الجدال لغير هذا الغـرض فإنه محـرم حـال الإحرام؛ فإن قلت: أليس محرماً في هذا، وفي غـيره لما يـترتب عليه من العداوة، والبغضاء، وتشويش الفكر؟
فالجواب: أنه في حال الإحرام أوكد.
12 ـــ ومنهـا: البعد حـال الإحـرام عن كل ما يشـوش الفكـر، ويشـغل النفس؛ لقوله تعـالى: { ولا جـدال في الحج }؛ ومن ثم يتـبين خطأ أولئك الـذين يزاحمـون على الحجر عند الطـواف؛ لأنه يشـوش الفكـر، ويشـغل النفس عما هو أهم من ذلك.
13 ـــ ومنهـا: الحث على فعل الخـير؛ لأن قوله تعـالى: { وما تفعلـوا من خير يعلمه الله } يدل على أنه سيجازي على ذلك، ولا يضيعه؛ قال تعـالى: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمـاً ولا هضـماً} [طـه: 112] .
14 ـــ ومنهـا: أن الخـير سـواء قـلّ، أو كـثر، فإنه معلـوم عند اللـه؛ لقوله تعالى: { من خـير }؛ وهي نكـرة في سـياق الشـرط؛ والنكـرة في سـياق الشرط تفيد العموم.
15 ـــ ومنها: عموم علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: { وما تفعلوا من خير يعلمه الله }.
16 ـــ ومنها: الحث على التزود من الخير؛ لقوله تعـالى: { وتـزودوا فـإن خير الزاد التقوى }.
17 ـــ ومنهـا: أنه ينبغي للحـاج أن يأخذ معه الـزاد الحسـيّ من طعـام، وشـراب، ونفقـة، لئلا يحتـاج في حجـه، فيتكفف النـاس؛ لقوله تعـالى: { وتزودوا }.
18 ـــ ومنها: أن التقـوى خـير زاد، كما أن لباسـها خـير لبـاس؛ فهي خـير لباس؛ لقوله تعالى: {ولباس التقوى ذلك خير} [الأعراف: 26] ؛ وهي خير زاد؛ لقوله تعالى: { فإن خير الزاد التقوى }.
19 ـــ ومنها: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: { واتقون }.
20 ـــ ومنها: أن أصحاب العقول هم أهل التقوى؛ لقوله تعالى: { واتقون يا أولي الألباب }.
21 ـــ ومنهـا: أنه كلما نقص الإنسـان من تقـوى الله كـان ذلك دليلاً على نقص عقله - عقل الرشد؛ بخلاف قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «ما رأيت من ناقصـات عقـل، ودين»[1]؛ فـإن المـراد بنقص العقل هنا عقل الإدراك؛ فـإن منـاط التكليف عقل الإدراك؛ ومنـاط المـدح عقل الرشـد؛ ولهذا نقول: إن هؤلاء الكفار الأذكياء الذين هم في التصـرف من أحسن ما يكـون؟ نقـول: هم عقلاء عقـول إدراك؛ لكنهم ليسـوا عقلاء عقـول رشـد؛

---

(1) أخرجه البخاري ص26، كتاب الحيض، باب 6: ترك الحائض الصوم، حديث رقم 304، وأخرجه مسلم ص692، كتاب الإيمان، باب 34: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، حديث رقم 241 [132] 79.

ولهـذا دائمـاً ينعى الله عليهم عـدم عقلهم؛ والمـراد عقل الرشد الـذي به يرشدون.

القرآن

{)لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَـإِذَا أَفَضْـتُمْ مِنْ عَرَفَـاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُـرُوهُ كَمَا هَـدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِـهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ) (البقرة:198)

التفسير:

{ 198 } لما أمر الله بالتزود، وبيَّن أن خير الزاد التقوى، وأمر بـالتقوى، قد يقول قائل: إذا اتجرت أثناء حجي صـار عليّ في ذلك إثم؛ ولهـذا تحـرج الصـحابة من الاتجـار في الحج؛ فـبين الله عـزّ وجـلّ أن ذلك لا يـؤثر، وأنه ليس فيه إثم؛ فقال تعالى: { ليس عليكم جناح أن تبتغـوا فضـلاً من ربكم } أي أن تبتغوا الرزق، وتطلبوه بالتجارة؛ كقوله تعالى: {وآخرون يضـربون في الأرض يبتغون من فضل الله} [المزمل: 20] .

قوله تعـالى: { فـإذا أفضـتم من عرفـات }؛ أصل الإفاضة الانـدفاع؛ ومنه إفاضة الماء؛ ومنه الإفاضة في الكلام، والاستمرار فيـه؛ ومعـنى { أفضـتم }: دفعتم؛ والتعبير بـ{ أفضتم } يصور لك هذا المشـهد كـأن النـاس أودية تنــدفع؛ و{ عرفــات } على صــيغ الجمــع؛ وهي اسم لمكــان واحــد؛ وهو معروف؛ وسمي عرفات لعدة مناسبات:

قيل: لأن الناس يعترفون هناك بذنوبهم، ويسألون الله أن يغفرها لهم.

وقيــل: لأن النــاس يتعــارفون بينهم؛ إذ إنه مكــان واحد يجتمعــون فيه في النهار؛ فيعرف بعضهم بعضاً.

وقيل: لأن جبريل لما علَّم آدم المناسك، ووصل إلى هذا قال: عرفت.

وقيل: لأن آدم لما أهبط إلى الأرض هو وزوجته تعارفا في هذا المكان.

وقيل: لأنها مرتفعة على غيرها؛ والشيء المرتفع يسمى عُرْفاً؛ ومنــه: أهل الأعراف، كما قال تعالى: {ونادى أصحاب الأعراف رجالاً} [الأعراف: 48] ؛ ومنه: عُرْف الديك؛ لأنه مرتفع؛ وكل شيء مرتفع يسمى بهذا الاسم.

وعندي - والله أعلم - أن هذا القول الأخـير أقـرب الأقـوال؛ وكـذلك الأول: أنه سمي عرفات؛ لأن الناس يعترفون فيه لله تعالى بالذنوب؛ ولأنه أعرف الأماكن التي حوله.

و{ عرفـات } مشـعر حلال خـارج الحـرم؛ ومع ذلك فهو الحج، كما قـال الرسـول صـلى الله عليه وسـلم: «الحج عرفــة»[2]؛ والحكمة من الوقوف فيها أن يجمع الحاج في نسكه بين الحل والحرم؛ ولهذا أمر النـبي صلى الله عليه وسلم عائشة أن تحـرم بـالعمرة من التنعيم[3]؛ لتجمع فيها بين الحل والحرم.

---

(2) أخرجه أبو داود ص1367، كتاب المناسك، باب 68: من لم يدرك عرفة، حديث رقم 1949، وأخرجه الترمذي ص1951، كتاب تفسير القرآن، باب 2: ومن سورة البقرة، حديث رقم 2975، وأخرجه النسائي ص2283، كتاب المناسك، باب 211: فمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة، حديث رقم 3047، وأخرجه ابن ماجة ص2659، كتاب المناسك، باب 57: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، حديث رقم 3015، وأخرجه الدارمي 2/82، كتاب المناسك، باب 54: بما يتم الحج، حديث رقم 1887، وقال الألباني في الإرواء (صحيح)، 4/256، حديث رقم 1064.

(3) أخرجه البخاري ص27، كتاب الحيض، باب 15: امتشاط المرأة...، حديث رقم 316؛ وأخرجه مسلم ص876، كتاب الحج، باب 17: بيان وجوه الإحرام...، حديث رقم 2910 [111] 1211.

قوله تعالى: { فاذكروا الله عند المشـعر الحـرام } الفـاء هنا واقعة في جواب الشرط؛ وأداة الشرط: «إذا» ؛ وقوله تعالى: { فـاذكروا الله } أي باللسـان، والقلب، والجـوارح؛ فيشـمل كل ما فعل عند المشـعر من عبادة؛ ومن ذلك صلاة المغـرب، والعشـاء، والفجـر؛ و{ المشـعر } مكـان الشعيرة؛ فهي «مَفْعَل» اسم مكان؛ وهو المكان الـذي تـؤدى فيه شـعيرة من شعائر الله عـزّ وجـلّ؛ و{ الحـرام } أي ذي الحرمـة؛ لأنه داخل حـدود الحرم؛ وقال العلماء: إن هذا الوصف وصف قيدي؛ ليخرج المشـعر الحلال ـــ وهو عرفة ـــ؛ وقالوا: إن المشعر مشـعران: حلال ـــ وهو عرفة ـــ؛ وحرام ـــ وهو مزدلفة ـــ.

قوله تعالى: (واذكروه كما هـداكم }؛ أمر بالـذكر مـرة أخـرى؛ لكن لأجل التعليل الـذي بعـده ـــ وهو الهداية ـــ؛ لهـذا الكـاف هنا للتعليـل؛ و «مـا» مصـدرية تسـبك، وما بعـدها بمصـدر؛ فيكـون التقـدير: واذكـروه لهدايتكم؛ والكاف تأتي للتعليل، كما قال ابن مالك في الألفية:

شبه بكاف وبها التعليل قد يعنى وزائـداً لتوكيد ورد ومن ذلك قوله تعـالى: {كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا...} [البقـرة: 151] الآيـة؛ وكما في التشـهد في قولـه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم...» ، أي لأنك صليت على إبـراهيم فصل على محمـد؛ فهو توسل إلى الله تعالى بفعل سبق منه نظير ما سألته.

ويحتمل أن تكـون الكـاف للتشـبيه؛ وعليه فيكـون الأمر بـذكره ثانية عائداً على الوصف ـــ أي اذكـروه على الصـفة الـتي هـداكم إليها ـــ أي على حسب ما شـرع؛ وعليه فلا تكـرار؛ لأن الأمر بالـذكر أولاً أمر بمطلق الذكر، والأمر به ثانية أمر بكونه على الصفة التي هدانا إليها.

وقوله تعالى: { هداكم } أي دلكم، ووفقكم.

قوله تعـالى: { وإن كنتم من قبله لمن الضـالين }؛ { إن } مخففة من الثقيلة؛ فهي للتوكيد بدليل وجـود اللام الفارقـة؛ والتقـدير: وإنكم كنتم من قبله لمن الضالين؛ واسم { إن } ضمير الشأن محـذوف؛ وهو مناسب للسياق؛ وبعض النحويين يقدر ضمير الشأن دائماً بضمير مفرد مذكر غائب فيكـون التقـدير: وإنه ـــ أي الشأن والصـواب القـول الأول أنه يقـدر بما يقتضـيه السـياق - يعـني: وإنكم كنتم من قبله لمن الضـالين -؛ وجملـة: { كنتم من قبله لمن الضالين } خبر { إن } المخففة؛ والضـمير في قوله تعـالى: { من قبله } يعـود على القـرآن؛ أو يعـود على الرسـول؛ أو يعـود على الهدى؛ كل ذلك محتمل؛ وكل ذلك متلازم؛ فالهـدى جـاء من القـرآن، ومن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: { لمن الضالين }: يشـمل الضـال عن جهـل؛ والضـال عن علم؛ فالضال عن جهل: الذي لم يعلم بالحق أصـلاً؛ والضـال عن علم: الذي ترك الطريق الذي ينبغي أن يسلكه - وهو الرشد -؛ والعـرب من قبل هذا الدين ضالون؛ منهم من كان ضالاً عن جهل؛ ومنهم من كان ضـالاً عن علم؛ فمثلاً قريش لا تفيض من عرفة؛ وإنما تقف يـوم عرفة في مزدلفـة؛ قالوا: لأننا نحن أهل الحرم؛ فلا نخرج عنـه؛ فكـانوا يقفـون في يـوم عرفة في مزدلفة، ولا يفيضـون من حيث أفـاض النـاس؛ وإذا جـاء النـاس وبـاتوا فيها خرجوا جميعاً إلى منى؛ وهذا من جهلهم، أو عنادهم.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: جواز الاتجار أثناء الحج بالبيع، والشراء، والتأجير ـــــ كالذي يؤجر سيارته التي يحج عليها في الحج؛ لقوله تعـالى: { ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم }.
2 ـــ ومنها: أنه ينبغي للإنسان في حـال بيعـه، وشـرائه أن يكـون مترقبـاً لفضل الله لا معتمداً على قوته، وكسبه؛ لقوله تعـالى: { أن تبتغـوا فضـلاً من ربكم }.
3 ـــ ومنها: ظهـور منة الله على عبـاده بما أبـاح لهم من المكاسـب؛ وأن ذلك من مقتضى ربوبيته سـبحانه وتعـالى، حيث قـال تعـالى: { فضـلاً من ربكم }.
4 ـــ ومنها: مشروعية الوقـوف بعرفـة؛ لقوله تعـالى: { فـإذا أفضـتم من عرفات }؛ وهو ركن من أركان الحج؛ لقول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «الحج عرفة»[1]؛ لو قال قائل: إن قوله تعالى: { فإذا أفضتم من عرفـات } ليس أمراً بالوقوف بها.
فـالجواب: أنه لم يكن أمـراً بهـا؛ لأنها قضـية مسـلمة؛ ولهـذا قـال تعالى: { فإذا أفضتم من عرفات }.
5 ـــ ومنها: أنه يشترط للوقـوف بمزدلفة أن يكـون بعد الوقـوف بعرفـة؛ لقوله تعالى: { فإذا أفضتم من عرفات فـاذكروا الله عند المشـعر الحـرام }؛ فلو أن أحــداً مر بمزدلفة في الليــل، ووقف بها يــدعو، ثم وقف بعرفة يدعو بها، ثم رجع إلى منى لم يجزئه الوقوف بمزدلفة؛ لأنه في غــير محله الآن؛ لأن الله ذكره بعد الوقوف بعرفة.
6 ـــ ومنهـا: أن الصـلاة من ذكر اللـه؛ لقوله تعـالى: { فـاذكروا الله عند المشعر الحرام }؛ والنبي صلى الله عليه وسلم أول ما بدأ: بالصلاة[1]؛ ولا شك أن الصــلاة ذكر للــه؛ بل هي روضة من ريــاض الــذكر: فيها قــراءة، وتكبير، وتسبيح، وقيـام، وركـوع، وسـجود، وقعـود؛ كل ذلك من ذكر اللــه: ذكر بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ثم من خاصية الصــلاة أن كل عضو من أعضاء البدن له ذكر خاص به، وعبادة تتعلق به.
7 ـــ ومنهـا: بيـان أن مزدلفة من الحـرم؛ لقوله تعـالى: { عند المشـعر الحرام }.
8 ـــ ومنهـا: جـواز المـبيت في مزدلفة في جميع نواحيهـا؛ لقوله تعـالى: { عند المشعر الحرام }.
9 ـــ ومنها: أن عرفة مشعر حلال؛ لأنها من الحل؛ ولهذا يجوز للمحرم أن يقطع الأشجار بعرفة.
10 ـــ ومنهـا: أن مزدلفة مشـعر من المشـاعر؛ فيكـون فيه رد على من قــال: إن الوقــوف بها ســنة؛ والقــول الثــاني: أنه ركن لا يصح الحج إلا به كالوقوف بعرفة؛ والقول الثـالث: أنه واجب يصح الحج بدونـه؛ ولكن يجـبر بدم؛ وأنا أتوقف بين كونها ركناً، وواجباً؛ أما أنها سنة فهو ضعيف؛ لا يصح.
11 ـــ ومنها: أن الإنسان يجب عليه أن يـذكر الله تعـالى لما أنعم عليه به من الهدايــة؛ لقوله تعــالى: { واذكــروه كما هــداكم } إذا جعلنا الكــاف للتعليل؛ وإن جعلناها للتشبيه فالمعنى: اذكروه على الوجه الذي هداكم له؛ فيستفاد منها أن الإنسان يجب أن يكـون ذكـره لله على حسب ما ورد عن الله عزّ وجلّ.

---

(1) سبق تخريجه 2/422، حاشية (1).
(1) راجع البخاري ص132، كتاب الحج، باب 95: الجمع بين الصلاتين بالمزدلفة، حديث رقم 1672.

12 ـــ ومنهــا: أن الــذكر المشــروع ما وافق الشــرع؛ لقوله تعــالى: { واذكـروه كما هـداكم }؛ والهداية نوعـان: هداية دلالـة: وهـذه عامة لكل أحـد؛ فكل أحد قد بين الله له شـريعته سـواء وفِّق لاتباعهـا، أم لا؛ ودليلها قوله تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصــلت: 17] ، وقوله تعالى: {إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً} [الإنسان: 3] ؛ والثاني: هداية توفيق بأن يوفق الله العبد لاتبـاع الهـدى؛ ومنها قوله تعـالى حين ذكر من ذكر من الأنبيــاء: {أولئك الـذين هـدى الله فبهـداهم اقتده} [الأنعام: 90] ، وقوله تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت} [القصص: 56] أي لا توفق للهدى من أحببته، أو من أحببت هدايته.

13 ـــ ومن فوائد الآية: تذكير الإنسان بحاله قبل كماله؛ ليعرف بذلك قدر نعمة الله عليـه؛ لقوله تعـالى: { وإن كنتم من قبله لمن الضـالين }؛ ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: «ألم أجـدكم ضـلالاً فهـداكم الله بي»[2]؛ ومنه قول الملَك للأبـرص والأقـرع: «ألم تكن أبـرص يقـذرك الناس فقيراً فأغناك الله»[3] الحديث؛ فالتذكير بالنعم بـذكر الحـال، وبـذكر الكمال بعد النقص مما يوجب للإنسان أن يزداد من شكر نعمة الله عليه.

القرآن

{)ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:199)

التفسير:

{ 199 } قوله تعالى: { ثم أفيضوا } أي من عرفات.

قوله تعالى: { من حيث أفاض الناس } أي من المكان الـذي يفيض الناس منـه؛ وكـانت قـريش في الجاهلية لا يقفـون مع النـاس في عرفة - يقولـون: نحن أهل الحـرم فلا نقف خـارج الحـرم -؛ فـأمر المسـلمون أن يفيضــوا من حيث أفــاض النــاس - أي من عرفة -؛ هــذا هو ظــاهر الآية الكريمة؛ ولكنه مشكل حيث إنه ذُكر بعد قوله: { فإذا أفضـتم من عرفـات }؛ وأجيب عن هذا الإشكال أن الترتيب ذكـري - لا تـرتيب حكمي ؛ بمعـنى أن الله تعـالى لما ذكر إفاضـتهم من عرفـات أكد هـذا بقوله تعـالى: { ثم أفيضوا من حيث أفاض النـاس } دون أن يكـون المـراد الـترتيب الحكمي؛ ويحتمل أن يكون قوله تعالى: { ثم أفيضـوا من حيث أفـاض النـاس } أي أفيضوا من المشعر الحرام من حيث أفاض الناس؛ فيكون المراد بالإفاضة هنا الإفاضة من مزدلفة؛ وعلى هذا الاحتمال لا يبقى في الآية إشكال.

قوله تعالى: { واستغفروا الله } أي اطلبوا المغفرة منه؛ والمغفـرة سـتر الـذنب، والتجـاوز عنـه؛ لأنها مـأخوذة من المغفر الـذي يوضع على الرأس عند القتال لتوقي السهام؛ وليست المغفـرة مجـرد السـتر؛ بل هي ستر، ووقاية.

---

(2) أخرجه البخاري ص354، كتاب المغازي، باب 57: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث رقم 4330؛ وأخرجه مسلم ص845، كتاب الزكاة، باب 46: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، حديث، رقم 2426 [139] 1061.

(3) أخرجه البخاري ص282 – 283، كتاب أحاديث الأنبياء، باب 51: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث رقم 3464، وأخرجه مسلم ص1191 – 1192، كتاب الزهد والرقائق، باب 1: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، حديث رقم 7431 [10] 2964.

قوله تعالى: { إن الله غفـور رحيم }؛ هـذه الجملة تعليل للأمـر؛ أي استغفروا الله؛ لأنه أهل لأن يُستغفَر؛ فإنه سبحانه وتعالى غفور رحيم.
وإعراب { رحيم }: خبر ثانٍ لـ{ إن }؛ والخبر الأول: { غفور }.
وقوله تعالى: { غفـورٍ } صـيغة مبالغـة؛ وذلك لكـثرة غفرانه تبـارك وتعالى، وكثرة من يغفر لهم؛ و «الغفور» أي ذو المغفرة، كما قال تعـالى: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} [الرعد: 6] .
وقوله تعالى: { رحيم } إما صفة مشبهة؛ وإما صيغة مبالغـة؛ و «الـرحيم» أي ذو الرحمة؛ وهي صفة تقتضي جلب النعم، ودفع النقم، كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجـأرون} [النحـل: 53] .

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآية: وجوب المبيت بمزدلفة؛ لقوله تعـالى: { ثم أفيضـوا من حيث أفـاض النـاس } على أحد التفسـيرين، كما سـبق؛ ومـتى أفـاض الإنسـان من حيث أفـاض النـاس فإنه يلـزم من ذلك أن يكـون قد بـات بمزدلفة.
2 ـــ ومنها: أن هذا النسك كان أمراً معلوماً يسير النـاس عليه من قـديم الزمان؛ لقوله تعالى: { ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس }.
3 ـــ ومنها: أن النـاس في أحكـام الله تعـالى سـواء؛ فلا يخص أحد بحكم من الأحكـام إلا لمعنًى يقتضي ذلـك؛ والمعـنى المخصِّـص يكـون من قِبَل الشرع - لا من قبل الهوى، والعادة -؛ لقوله تعالى: { ثم أفيضـوا من حيث أفاض النـاس }؛ ولا يشـكل على قولنا هـذا ما ورد في قصة أبي بـردة بن نيار أنه ذبح في عيد الأضحى أضحية قبل الصـلاة؛ ولما خطب النـبي صـلى الله عليه وسـلم وقـال: «إن من ذبح قبل الصـلاة فلا نسك لـه، وأن شـاته شاة لحم» قام أبو بردة فقال: «يا رسول اللـه، إن عنـدي عناقـاً هي أحب إلي من شاتين أفتجزي عني؟ قال: نعم؛ ولن تجزئ عن أحد بعدك»[1]؛ لأن المراد بقوله (ص): «لن تجزئ عن أحد بعـدك» أي بعد حالـك؛ بمعـنى: أن من جـرى له مثله فإنها تجـزي عنـه؛ هكـذا قـرره شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله - وهو ظاهر -؛ وكذلك لا يشكل على هذا قصة سالم مـولى أبي حذيفة الذي كان قد تبنـاه؛ فلما أبطل الله التبـني جـاءت زوجة أبي حذيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم تسـتفتيه في سـالم أنه كـان يـدخل عليهـا؛ يعـني: وكأنه أحد أبنائهـا؛ فقـال لها النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «أرضعيه تحرمي عليه»[2]؛ فإنه ليس خاصـاً بـه؛ بل لو جـرى لأحد مثل ما جـرى لسـالم لحكمنا له بمثل ما حكم به النـبي صـلى الله عليه وسـلم لسالم؛ لكن هذا لا يمكن بعد نسخ التبني؛ إذ لا يمكن أحداً أن يتبنى؛ وعلى هذا فالصورة التي تلحق بقصة سالم ممتنعة.
4 ـــ ومنها: أنه يشرع أن يستغفر الله عزّ وجـلّ في آخر العبـادات؛ لقوله تعالى: { واستغفروا الله }.
5 ـــ ومنهـا: إثبـات اسـمين من أسـماء اللـه؛ وهمـا: «الغفـور» ، و «الرحيم» ؛ وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ وهي المغفرة، والرحمة؛ وإثبات

---

(1) أخرجه البخاري ص75، كتاب العيدين، باب 5: الأكل يوم النحر، حديث رقم 955، وأخرجه مسلم ص 1027 – 1028، كتاب الأضاحي، باب 1: وقتها، حديث رقم 5070 [5] 1961.
(2) أخرجه مسلم ص923، كتاب الرضاع، باب 7: رضاعة الكبير، حديث رقم 3602 [28] 1453، وأصله في البخاري.

ما تضـمناه من الحكم بمقتضـاهما؛ وهو أنه يغفر ويـرحم كما قـال تعـالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء} [العنكبوت: 21] ، وقال تعالى: {ومن يغفر الذنوب إلا الله} [آل عمران: 135] .
6 ـــ ومنها: قـرن الحكم بالعلـة؛ لقوله تعـالى: { واسـتغفروا الله إن الله غفـور رحيم }؛ وقـرن الحكم بالعلة في مثل هـذا يفيد الإقـدام، والنشـاط على استغفار الله عزّ وجلّ.

القرآن

{)فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) (البقرة:200)وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (البقرة:201)

التفسير:

{ 200 } قوله تعالى: { فإذا قضيتم مناسـككم } أي أنهيتم مناسـككم؛ وذلك بالتحلل من النسك.
قوله تعـالى: { فـاذكروا الله } أمر تعـالى بـذكره بعد فـراغ النسـك؛ لأن الإنسان إذا فرغ من العبادة قد يغفل عن ذكر الله.
وقوله تعـالى: { مناسـككم } جمع منسـك؛ وهو فيما يظهر اسم مصدر - يعـني مصـدراً ميميـاً -؛ أي قضـيتم نسـككم؛ و «النسـك» بمعـنى العبـادة؛ وهو كل ما يتعبد به الإنسـان للـه؛ ولكن كـثر اسـتعماله في الحج؛ وفي الذبح؛ ومنه قوله تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين} [الأنعام: 162] .
قوله تعالى: { كـذكركم آبـاءكم أو أشد ذكـراً }؛ «ذكـر» هنا مصـدر مضاف لفاعله؛ و «آباء» مفعول به؛ أي كما تذكرون آباءكم، أو أشد ذكـراً؛ و{ أشد } يشمل الشـدة في الهيئـة، وحضـور القلب، والإخلاص؛ والشـدةَ في الكثرة أيضـاً؛ فيـذكر الله ذكـراً كثـيراً، ويـذكره ذكـراً قويـاً مع حضـور القلب.
وقوله تعالى: { كذكركم آباءكم }؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يـذكرون أمجاد آبائهم إذا انتهوا من المناسك؛ وكل يفخر بنسبه، وحسـبه؛ فـأمر الله تعالى أن نذكره سبحانه وتعالى كذكرهم آباءهم، أو أشد ذكراً.
وقوله تعالى: { أو أشد ذكراً }: قال كثير من النحويين: إن { أو } بمعنى: بل؛ أي بل أشـد؛ وهو هنا متوجِّه؛ ويشـبهها من بعض الوجـوه قوله تعـالى: {وأرسـلناه إلى مائة ألف أو يزيـدون} [الصـافات: 147]ـ ؛ وقد ذكر ابن القيم في قوله تعـالى: {أو يزيـدون} أن {أو} هنا ليست بمعـنى «بـل»؛ ولكنها لتحقيق ما سبق - يعني: إن لم يزيدوا فلن ينقصوا -؛ وبناءً على هذا نقول مثله في هذه الآية: أي كذكركم آباءكم - إن لم يزد فلا ينقص -؛ إلا أنّه هنا إذا جعلناها بمعنى «بل» تكـون أبلـغ؛ لأن ذكر الله يجب أن يكـون أشد من ذكر الآباء.
قوله تعـالى: { فمن النـاس }؛ «من» للتبعيض؛ والمعـنى: بعض الناس؛ بدليل أنها قوبلت بقوله تعالى: { ومنهم }؛ فيكون المعنى: بعضهم كذا؛ وبعضهم كذا؛ وهـذا من بـاب التقسـيم؛ يعـني: ينقسم النـاس في أداء العبادة لا سيما الحج إلى قسمين.

قوله تعـالى: { من يقـول ربنا آتنا في الـدنيا } أي أعطنا في الـدنيا؛ والمفعول محذوف؛ والتقـدير: آتنا نصـيبنا في الـدنيا، بحيث لا يسـأل إلا ما يكون في ترف دنياه فقـط؛ ولا يسـأل ما يتعلق بالـدين؛ وربما يكـون قوله تعالى: { ربنا آتنا في الدنيا } شاملاً للقول باللسـان، والقـول بالحـال ـــ أي قد يقول صراحة -: ربنا آتنا في الدنيا مثلاً سكناً جميلاً؛ سـيارة جميلـة؛ وما أشبه ذلك؛ وربما يقوله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأنه إذا دعا في أمور الدنيا أحضر قلبه، وأظهر فقـره؛ وإذا دعا بـأمور الآخـرة لم يكن على هذه الحال.

قوله تعالى: { وما له في الآخرة من خلاق }؛ { ما } نافيــة؛ و{ مِن خلاق } مبتدأ؛ وخبره الجار والمجرور: {لـه}؛ ودخلت { مِن } على المبتـدأ من أجل توكيد العموم؛ لأن { خلاق } نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ فإذا دخلت عليها { مِن } كان ذلك تأكيداً للعموم؛ و «الخلاق» بمعنى النصيب؛ يعني ما له في الآخرة من نصـيب؛ لأنه لا يريد إلا الـدنيا؛ فلا نصـيب له في الآخرة مما دعا به؛ وقد يكون له نصيب من أعمال أخرى.

{ 201 } قوله تعالى: { ومنهم } أي ومن الناس.

قوله تعـالى: { من يقـول ربنا آتنا في الـدنيا حسـنة }؛ { حسـنة }: مفعـول «آتِ» الثـاني؛ وأما { حسـنة } الثانية فهي معطوفة على الأولى؛ يعني من الناس من تكون همته عليا يريد الخير في الدنيا، والآخرة؛ يقـول: ربنا آتنا في الــدنيا حســنة، وفي الآخــرة حســنة؛ وحســنة الــدنيا كل ما يستحســنه الإنســان منهــا، مثل الصـحة، وسـعة الــرزق، كـثرة البـنين، والزوجـات، والقصـور، والمـراكب الفخمـة، والأمـوال؛ وأما حسـنة الآخـرة فقيل: إنها الجنة؛ لقوله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيـادة} [يـونس: 26] ؛ ولا شك أن الحسنة العظمى في الآخرة هي الجنة؛ لكن في الآخرة حسنات يستحسن المرء وقوعها غير الجنة، مثل أن يبيض وجهه، وأن تثقل موازينه، وأن يعطي كتابه بيمينه؛ فإنه إذا أعطي الكتاب بيمينه يقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه فرحاً مسروراً.

قوله تعالى: { وقنا عذاب النار } أي اجعل لنا وقاية من عذاب النار؛ وهـذا يشمل شيئين:

الأول: العصمة من الأعمال الموجبة لدخول النار.

الثاني: المغفرة للذنوب التي توجب دخول النار.

الفوائد:

1 ـــ من فوائد الآيـتين: أن الإنسـان ينبغي له إذا قضى من العبـادة أن لا يغفل بعدها عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: { فـإذا قضيتم مناسـككم فـاذكروا الله }؛ وهـذا كقوله تعـالى: {فـإذا قضـيت الصـلاة فانتشـروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون} [الجمعة: 10] .

2 ـــ ومنها: تقديم ذكر الله تعـالى على ذكر الوالـدين؛ لقوله تعـالى: { أو أشد ذكراً }.

3 ـــ ومنهـا: أن الأجـداد داخلـون في مسـمّى الآبـاء؛ لأن العـرب كـانوا يفتخرون بأمجاد آبائهم، وأجدادهم، وقبائلهم.

4 ـــ ومنهـا: بيـان انقسـام النـاس فيما يطلبـون من اللـه، وأن منهم ذوي الغايات الحميدة، والهمم العالية الذين يقولون: { ربنا آتنا في الدنيا حسـنة

وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار }؛ ومنهم ذوو الغايات الذميمة، والهمم النازلة الذين يقولون: { ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق }.
5 ــــ ومن فوائد الآيتين: أن الإنسان لا يذم إذا طلب حسنة الدنيا مع حسنة الآخرة؛ لقوله تعالى: { ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة }.
6 ــــ ومنها: أن الإنسان محتاج إلى حسنات الدنيا، والآخرة.
7 ــــ ومنها: إثبات الآخرة.
8 ــــ ومنها: إثبات النار، وعذابها.
9 ــــ ومنها: إثبات علم الله، وسمعه، وقدرته؛ إذ لا يدعى إلا من اتصف بذلك.

القرآن

{)أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (البقرة:202)

التفسير:

{ 202 } قوله تعالى: { أولئك لهم نصيب مما كسبوا }: «أولاء» اسم إشارة؛ والمشار إليه فيه خلاف؛ فقال بعض العلماء: إن الإشارة تعود إلى مورد التقسيم كله؛ يعني: أولئك المذكورون الذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا} [البقرة: 201] ؛ والذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة} [البقرة: 201] ؛ ويكون كل له نصيب مما كسب، كقوله تعالى: {ولكل درجات مما عملوا} [الأنعام: 132] ؛ ولأنه تعالى قال: { والله سريع الحساب }؛ وهذا يقتضي أن يكون المشار إليه كلا القسمين؛ وقال آخرون: بل إن الإشارة تعود إلى التقسيم الثاني الذين يقولون: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار} [البقرة: 201] ؛ فهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا؛ لقوله تعالى: {من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها} [النساء: 85] ؛ الآية إذاً محتملة للمعنيين؛ والثاني منهما أظهر؛ لأن الإشارة تعود إلى أقرب مذكور.

قوله تعالى: { والله سريع الحساب } أي محاسبة الله سبحانه وتعالى الخلائق؛ والسرعة هنا قد تكون سرعة الزمن؛ بمعنى: أن حساب الله قريب، كما في قوله تعالى: {وما يدريك لعل الساعة قريب} [الشورى: 17وقوله تعالى: { وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً } [الأحزاب: 63] ؛ وقد يكون المراد سرعة محاسبة الله للخلق ــــ أي أن نفس حسابه سريع ـــ؛ والثاني أبلغ؛ فإن الله عزّ وجلّ يحاسب الخلائق كلها في يوم واحد، ويعطي كل إنسان ما يستحقه من ذلك الحساب؛ ومحاسبة الله للخلائق على نوعين؛ النوع الأول للمؤمنين؛ والنوع الثاني للكافرين؛ أما حساب المؤمنين فإن الله سبحانه وتعالى يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، ويقول له: «عملت كذا في يوم كذا» حتى يقر ويعترف، فيقول الله عزّ وجلّ له: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1]؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من نوقش الحساب عذب؛ فقالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: {فسوف يحاسب حساباً يسيراً} فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذلك

---

[1] سبق تخريجه 1/200.

العرض»[2]: أي تعرض الأعمال على الشخص حتى يقر؛ فـإذا أقر بها قـال الله تعالى له: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليـوم» ؛ وأما غـير المؤمنين فإنهم لا يحاسبون كـذلك؛ وإنما الأمر كما قـال شـيخ الإسـلام: لا يحاسبون حساب من توزن حسناته، وسـيئاته؛ لأنهم لا حسـنات لهم؛ ولكن تحصى أعمـالهم، وتحفـظ، فيوقفـون عليهـا، ويقـررون بهـا، ويخـزون بهـا؛ يعني: وينادى عليهم على رؤوس الخلائق: {هـؤلاء الـذين كـذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} [هود: 18

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآية: أن الثواب يكون بالعـدل؛ لقوله تعـالى: { أولئك لهم نصيب مما كسبوا }؛ لكنه بالعدل في العقوبة؛ وبالفضل في المثوبة.

2 ــــ ومنها: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: { مما كسبوا }.

3 ــــ ومنها: إثبات الحساب؛ لقوله تعالى: { والله سريع الحساب }.

4 ــــ ومنها: تمام قدرة الله تعالى؛ لقوله تعـالى: { والله سـريع الحسـاب }.

5 ــــ ومنها: إثبات علم الله؛ لأن المحاسِب لا بد أن يكـون لديه علم يقابل به من يحاسبه.

القرآن

{)وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَـأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْـهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَاعْلَمُـوا أَنَّكُمْ إِلَيْـهِ تُحْشَـرُونَ) (البقرة:203)

التفسير:

{ 203 } قوله تعالى: { واذكروا الله في أيام معدودات }؛ لما ذكر الله - تبـارك وتعـالى - أفعـال الحج ذكر ما بعد انتهـاء أفعـال الحج؛ وهو ذكر الله تعالى في أيام معدودات؛ وهي أيام التشريق الثلاثة: الحادي عشر؛ والثاني عشر؛ والثالث عشر من شهر ذي الحجة؛ والذكر هنا يشمل كل ما يتقـرب به إلى الله عزّ وجلّ من قول أو فعل في هذه الأيام؛ فيشـمل التكبـير في تلك الأيـام مطلقـاً، ومقيـداً؛ والنحر من الضـحايا، والهـدايا؛ ورمي الجمـار؛ والطــواف، والسـعي إذا وقعا في هــذه الأيــام؛ بل والصـلاة المفروضــة، والتطــوع؛ وقد قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «إنما جعل الطــواف بالبيت، وبالصفا، والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله»[3]، وقـال (ص): «أيام التشريق أيام أكل، وشرب، وذكر لله عزّ وجلّ»[4].

قوله تعــالى: { فمن تعجل في يــومين فلا إثم عليه } أي من تعجل قبل تمام الأيام الثلاثة، وأنهى حجه فلا إثم عليه.

قوله تعــالى: { ومن تــأخر فلا إثم عليه }، أي من تــأخر إلى اليــوم الثالث في منى لرمي الجمرات فلا إثم عليه.

---

(2) أخرجه البخاري ص548، كتاب الرقاق، باب 49: من نوقش الحاسب عذب، حديث رقم 6536.

(3) أخرجه أحمد 6/64، حديث رقم 24855، وأخرجه أبو داود ص1362، كتاب المناسك، باب 50: في الرمل، حديث رقم 1888، وأخرجه الترمذي ص1737، كتاب الحج، باب 64: ما جاء كيف ترمي الجمار، حديث رقم 902، وأخرجه الدارمي 2/71، كتاب المناسك، باب 36: الذكر في الطواف والسعي بين الصفا والمروة، حديث رقم 1853، وأخرجه الحاكم في مستدركه 1/459، كتاب المناسك، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(4) أخرجه مسلم ص860، كتاب الصيام، باب 23: تحريم صوم أيام التشريق...، حديث رقم 2677 [144] 1141.

قوله تعالى: { لمن اتقى }: الظاهر أنها قيد للأمرين جميعـاً للتعجل والتأخر، بحيث يحمل الإنسان تقوى الله عزّ وجلّ على التعجل أو التأخر.

قوله تعالى: { واتقـوا الله }: ما أكـثر ما يـأمر الله سـبحانه وتعـالى بالتقوى في كتابه العزيز؛ لأن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله عـزّ وجـلّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة.

قوله تعالى: { واعلموا أنكم إليه تحشرون } أي تجمعون إلى الله - تبـارك وتعالى؛ وذلك يوم القيامـة؛ وصـدر هـذا بقوله تعـالى: { واعلمـوا } للتنبيه على أنه لا بد من الإيمان بهذا الحشر، والاستعداد له.

الفوائد:
1 ــــ من فوائد الآية: مزية الذكر في هذه الأيام المعدودات؛ لقوله تعـالى: { واذكروا الله في أيام معدودات }؛ لأن ذكر الله على سـبيل العمـوم في كل الوقت؛ لكن هذا على سبيل الخصوص.
2 ــــ ومنها: أنه يجوز في هذه الأيام الثلاثة التعجل، والتأخر؛ لقوله تعـالى: { فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه }.
3 ــــ ومنها: سعة فضل الله عـزّ وجـلّ، وتيسـيره في أحكامـه، حيث جعل الإنسان مخيراً أن يبقى ثلاثة أيام، أو يتعجل في اليومين.
4 ــــ ومنها: أنّه لا بد أن يكـون خروجه من مـنى قبل أن تغـرب الشـمس؛ لأن { في } للظرفية؛ والظرف يحيط بالمظروف؛ فلا بد أن يكون التعجل في خلال اليومين بعد الرمي الواقع بعد الزوال.
5 ــــ ومنها: أنه لا يجوز التعجل في اليوم الحادي عشـر؛ لأنه لو تعجل في اليوم الحـادي عشر لكـان تعجل في يـوم لا في يـومين؛ فكثـير من العامة يظنون أن المراد باليومين: يـوم العيـد، واليـوم الحـادي عشـر؛ وهـذا ليس بصحيح؛ لأن الله تعـالى قـال: { واذكـروا الله في أيـام معـدودات }؛ وهي أيام التشريق؛ وأيام التشريق إنما تبتدئ من الحادي عشر.
6 ــــ ومنهــا: أن الأعمــال المخــير فيها إنما ينتفي الإثم عنها إذا فعلها الإنسـان على سـبيل التقـوى لله عـزّ وجـلّ دون التهـاون بـأوامره؛ لقوله تعالى: { لمن اتقى }؛ فمن فعل ما يخير فيه على سـبيل التقـوى لله عـزّ وجلّ والأخذ بتيسيره فهذا لا إثم عليه؛ وأما من فعلها على سـبيل التهـاون، وعدم المبالاة فإن عليه الإثم بترك التقوى، وتهاونه بأوامر الله.
تــنــبــيــه:
لا يستفاد من الآية جـواز التـأخر إلى اليـوم الرابع عشـر، والخـامس عشر مع أن الله تعالى أطلق: { ... ومن تأخر }؛ لأن أصل الذكر في أيـام معـدودات؛ وهي ثلاثة أيـام؛ فيكـون المعـنى؛ من تـأخر في هـذه الأيـام المعدودات؛ وهي الأيام الثلاثة.
7 ــــ ومنها: وجوب التقوى؛ لقوله تعالى: { واتقوا الله }.
8 ــــ ومنها: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: { واعلموا أنكم إليه تحشرون }.
9 ــــ ومنها: قرن المواعظ بالتخويف؛ لقوله تعالى: { واتقوا الله واعلمـوا أنكم إليه تحشرون }؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلى الله عزّ وجـلّ، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتقي الله، ويقوم بما أوجب اللـه، ويـترك ما نهى الله عنه؛ وبهذا عرفنا الحكمة من كون الله عزّ وجلّ يقرن الإيمـان بـاليوم الآخر في كثير من الآيات بالإيمان بالله دون بقية الأركان الـتي يـؤمن بهـا؛ وذلـك؛ لأن الإيمـان بـاليوم الآخر يسـتلزم العمل لـذلك اليـوم؛ وهو القيـام بطاعة الله ورسوله.

القرآن

{)وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَيُشْـهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) (البقرة:204)

التفسير:
{ 204 } فيما سبق من الآيات قسم الناس في الحج إلى قسمين؛ منهم من يقــول: {ربنا آتنا في الــدنيا وما له في الآخــرة من خلاق} [البقــرة:

200] ؛ ومنهم من يقول: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسـنة} [البقرة: 201] ؛ وهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا؛ هنا قسم الناس أيضاً إلى قسمين: إلى مؤمن؛ وإلى منافق؛ فقال تعالى في المنافق: { ومن النـاس من يعجبك قوله في الحيـاة الـدنيا }؛ { من } هنا للتبعيض؛ وهي بمعـنى بعض الناس؛ ولهذا أعربها بعض النحويين على أنها مبتدأ؛ قال: لأنها حـرف بمعنى الاسم؛ إذ إنها بمعـنى بعض النـاس؛ فيكـون { من } مبتـدأ، و{ من يعجبك } خبره؛ لكن المشهور أن { مِنْ } حرف جر؛ و{ من الناس} جـار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ و{ من يعجبك } مبتدأ مـؤخر؛ يعـني: ومن الناس الذي يعجبك قوله، والخطـاب في قوله تعـالى: { يعجبك } إما للرسول (ص)؛ وإما لكل من يتأتى خطابه؛ والأولى الثاني.

وقوله تعالى: { من يعجبك قوله } ذكر بعض النحـويين أنه إذا قيـل: «أعجبـني كـذا» فهو لما يستحسـن؛ وإذا قلت: «عجبت من كـذا» فهو لما ينكر؛ فتقول مثلاً: «أعجبني قول فلان» إذا كان قولاً حسـناً؛ و«عجبت من قوله» إذا كـان قـولاً سـيئاً منكـراً؛ فقوله تعـالى: { من يعجبك قوله } أي من تستحسن قوله.

قوله تعـالى: { في الحيـاة الـدنيا } أي إذا تكلم فيما يتعلق بـأمور الـدنيا كـأن يتكلم بشـيء، ويتوصل به إلى نجاته من القتـل، والسـبي؛ لأن هـذه الآية في المنـافقين؛ ودليل ذلك قوله تعـالى: {وإذا رأيتهم تعجبك أجسـامهم وإن يقولـوا تسـمع لقـولهم} [المنـافقون: 4] من حسـنه، وفصاحته؛ ولكنهم أهل غرور، وخداع، وكذب؛ فإن آية المنافق ثلاث؛ منهـا: إذا حدث كذب.

وقوله تعالى: { في الحياة الدنيا } متعلق بمحذوف حالاً من { قوله }؛ والتقـدير: قوله حـال كونه فيما يتعلق بالـدنيا؛ لأنه لا يتكلم في أمـور الـدين؛ ويحتمل أن المعـنى: القـول الـذي يعجب حـتى في الـدين؛ لكن لا ينتفع به في الآخرة؛ إنما ينتفع به في الدنيا فقط.

قوله تعـالى: { ويشـهد الله على ما في قلبه }؛ اختلف المفسـرون في معناها على قـولين: الأول: أن المعـنى اسـتمراره في النفـاق؛ لأن الله - تبارك وتعالى - يعلم ما في قلبه من هـذا النفـاق؛ فاسـتمراره عليه إشـهاد لله تعالى على ما في قلبه.

والقـول الثـاني: أن المعـنى: أن يُقسـم، ويحلف بالله أنه مـؤمن مصدق، وأن الذي في قلبه هو هذا؛ فيشهد الله على ما في قلبه من محبة الإيمان، والتمسك به وهو كـاذب في ذلـك؛ ويـدل لـذلك قوله تعـالى: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} [المنافقون: 1] ، أي لكاذبون في دعـواهم أنهم يشهدون بذلك؛ وعندي أن المعنيين لا يتنافيان؛ كلاهما حق؛ فهو منطو على الكفر والنفاق؛ وهو أيضاً يُعلم الناس، ويُشهد الله على أنه مؤمن؛ أما حقيقته قال الله تعالى فيه: { وهو ألد الخصام } يعني: أعوجهم، وأكذبهم؛ و{ الخصام } يحتمل أن يكون مصـدراً؛ ويحتمل أن يكـون جمعـاً؛ إن كـان مصدراً ففعله: خاصم يخاصم، مثل: جادل يجادل؛ وقاتل يقاتل؛ وعلى هذا: { ألد الخصـام } تكـون الإضـافة لفظيـة؛ لأنها صـفة مشـبهة مضـافة إلى موصـوفها - أي وخصـامه ألد الخصـام؛ وإن كـان جمعـاً فمفـرده: خَصِـم؛ فيكون المعنى أنه ألد الخصوم - أي أعوجهم، وأشدهم كذباً؛ ويكـون أيضـاً

من بـاب إضـافة الصـفة إلى موصـوفها؛ لأنَّ المعـنى؛ وهو من الخصـوم الأشداء الأقويـاء في خصـومتهم؛ وهـذا الرجل صـار ألد الخصـام؛ لأن قوله جيد، وبيِّن يعجبك قوله، فتجده لاعتماده على فصاحته، وبيانه ألد الخصام.

الفوائد:

1- من فوائد الآية: أنه لا ينبغي للإنسـان أن يغـتر بظـواهر الأحـوال؛ لقوله تعـالى: { ومن النـاس من يعجبك قوله }؛ وكـذلك من النـاس من يعجبك فعله؛ ولكنه منطوٍ على الكفر - والعياذ بالله؛ ولكن لا شك أنه بالنسبة إلينا ليس لنا أن نحكم ًإلا بما يقتضيه الظـاهر؛ لأن ما في القلـوب لا نعلمـه؛ ولا يمكن أن نحاسب الناس على ما في القلـوب؛ وإنما نحاسـبهم على حسب الظاهر.

2- ومنها: أن هـذا الصـنف من النـاس يُشـهد الله على ما في قلبه إما مما أظهره؛ وإما مما أبطنه - حسب ما سبق.

3- ومنهـا: الإشـارة إلى ذم الجـدل، والخصـام؛ لقوله تعـالى: { وهو ألد الخصـام }؛ لأن الخصـومات في الغـالب لا يكـون فيها بركـة؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صـلى الله عليه وسلم قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[1] أي الإنسان المخاصم المجـادل بالباطل ليـدحض به الحـق؛ وما من إنسـان في الغـالب أعطي الجدل إلا حـرم بركة العلم؛ لأن غـالب من أوتي الجـدل يريد بـذلك نصـرة قوله فقط؛ وبـذلك يحـرم بركة العلم؛ أما من أراد الحق فـإن الحق سـهل قـريب لا يحتـاج إلى مجـادلات كبـيرة؛ لأنه واضـح؛ ولـذلك تجد أهل البـدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خـير فيهـا؛ وتجد أنهم يخاصمون، ويجادلون، وينتهون إلى لا شيء؛ لا ينتهون إلى الحـق؛ لأنهم لم يقصدوا إلا أن ينصـروا ما هم عليـه؛ فكل إنسـان جـادل من أجل أن ينتصر قوله فـإن الغـالب أنه لا يوفـق، ولا يجد بركة العلم؛ وأما من جـادل ليصل إلى العلم، ولإثبات الحق، وإبطال الباطل فإن هذا مأمور به؛ لقوله تعـالى: {ادع إلى سـبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسـنة وجـادلهم بـالتي هي أحسن} [النحل: 125] .

4- ومنها: إثبات علم الله عزّ وجلّ بما في الصدور؛ لقوله تعالى: { ويشهد الله على ما في قلبه }؛ لأن ما في القلب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ.

القرآن

{)وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْـلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ) (البقرة:205)

التفسير:

{ 205 } قوله تعالى: { وإذا تولى } أي عنك، وذهب { سعى في الأرض }: المـراد بالسـعي هنا مطلق الحركـة؛ وليس المـراد بالسـعي الـركض بالرِّجل؛ { ليفسد فيها } أي بالمعاصي، والكفر، والفتنة.

قوله تعـالى: { ويهلك الحـرث والنسل } أي يكـون سـبباً لإهلاكهمـا؛ لأن المعاصي سـبب لـذلك؛ لقوله تعـالى: {ظهر الفسـاد في الـبر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليـذيقهم بعض الـذي عملـوا لعلهم يرجعـون} [الـروم:

---

[1] أخرجه البخاري ص193، كتاب المظالم والغصب، باب 15: قول الله تعالى: (وهو ألد الخصام)، حديث رقم 2457، وأخرجه مسلم ص1142، كتاب العلم، باب 1: في الألد الخصم، حديث رقم 6780 [5] 2668.

41] ، ولقوله تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسـبون} [الأعـراف: 96] ؛ والمراد بـ{ الحرث } المحروث؛ وهو الزروع، كما يقال: «الغرس» يعني المغروس؛ والمراد بـ{ النسل } مثلها أيضاً ــــ يعني: المنسول؛ وهو الأولاد؛ يعني: يكون سعيه سبباً لفساد الحرث، والحيوانات.

قوله تعالى: { والله لا يحب الفساد } بيان أن عمله هذا مكروه إلى الله؛ لأن الله لا يحب الفساد؛ وإذا كان لا يحب هـذا الفعل فإنه لا يحب من اتصف به؛ ولهذا جاء في آية أخرى؛ {والله لا يحب المفسـدين} [المائـدة: 64] ؛ فالله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين؛ فالفسـاد نفسه مكـروه إلى الله؛ والمفسدون أيضاً مَكروهون إليه لا يحبهم.

الفوائد:

1 ــــ من فوائد الآيـة: أن المعاصي سـبب لهلاك الحـرث، والنسـل؛ لقوله تعالى: {وإذا تولى سـعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحـرث والنسـل} [البقـرة: 205] ؛ وهـذا كقوله تعـالى: {ولو أن أهل القـرى آمنـوا واتقـوا لفتحنا عليهم بركات من السـماء والأرض ولكن كـذبوا فأخـذناهم بما كـانوا يكسبون} [الأعراف: 96] .

2 ــــ ومنهـا: إثبـات محبة الله عـزّ وجـلّ للصـلاح؛ لقوله تعـالى { والله لا يحب الفسـاد }؛ فـإن قيـل: هـذا نفي، وليس بإثبـات؛ قلنـا: إن نفيه محبة الفساد دليل على ثبوت أصل المحبة؛ ولو كـان لا يحب أبـداً لم يكن هنـاك فـرق بين الفسـاد، والصـلاح؛ فلما نفى المحبة عن الفسـاد علم أنه يحب الصلاح.

3 ــــ ومنها: التحذير من الفساد في الأرض؛ لقوله تعـالى: { والله لا يحب الفساد }؛ ومعلوم أن كل إنسان يجب أن يكون حذراً من التعـرض لأمر لا يحبه الله.

القرآن

{)وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْـبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَـادُ) (البقرة:206)

التفسير:

{ 206 } قوله تعالى: { وإذا قيل له اتق الله } أي إذا قال له أهل العلم، والإيمان اتق الله ــــ أي اتخذ وقاية من عذاب الله بترك الكفـر، والفسـاد؛ و{ أخذته العزة بالإثم } أي حملته على الإثم؛ و{ العـزة } بمعـنى الأنفـة، والحميـة، والـترفع؛ والعـزة قد تكـون وصـفاً محمـوداً؛ وقد تكـون وصـفاً مـذموماً، فـالمعتز بدينه محمـود، كما قـال تعـالى: {ولله العـزة ولرسـوله وللمؤمنين} [المنافقون: 8] ؛ والمعتز بحسبه ونسبه حتى يكون عنده أنفة إذا أمر بالدين والإصلاح مذموم.

والمـراد بــ {الإثم} الـذنب المـوجب للعقوبـة؛ فكل ذنب مـوجب للعقوبة فهو إثم.

قوله تعالى: { فحسبه جهنم } أي كافيـه؛ وهو وعيد له بها - والعيـاذ باللـه؛ و «الحسْـب» بمعـنى الكـافي، كما قـال الله تعـالى: {فقل حسـبي الله} [التوبـة: 129] أي كـافيني؛ وقـال تعـالى: {وقـالوا حسـبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران: 173] أي كافينا؛ فقوله تعالى؛ { فحسبه جهنم } أي

كافيتـه؛ والمعـنى: أنه يكـون من أهلها - والعيـاذ بالله و{ جهنم } اسم من أسـماء النـار؛ قيـل: إنها كلمة معربـة، وأنها ليست من العربية الفصـحى؛ وقيل: بل هي من اللغة الفصـحى، وأن أصـلها من الجهمـة؛ وهي الظلمـة؛ ولكن زيدت فيها النون للمبالغة؛ وعلى كلٍّ فإن { جهنم } اسم للنار الـتي أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين؛ وسميت بذلك لبعد قعرهـا، وظلمتها - والعياذ بالله -.

قوله تعالى: { ولبئس المهاد }: اللام هنا للابتـداء؛ أو موطئة للقسم - أي: وواللَّهِ لبئس المهاد - وهذا أقرب؛ و «بئس» فعل جامد لإنشاء الذم؛ وفاعلها { المهـاد }؛ وهي من الأفعـال الـتي تحتـاج إلى مخصـوص بالـذم؛ والمخصوص محذوف؛ أي: ولبئس المهاد مهاده، حيث كانت جهنم.

الفوائد:

1- من فوائد الآية: أن هذا الرجل الموصوف بهذه الصفات يـأنف أن يـؤمر بتقوى الله؛ لقوله تعالى: { أخذته العزة بالإثم } فهو يأنف، كأنه يقـول في نفسـه: أنا أرفع من أن تـأمرني بتقـوى الله عـزّ وجـلّ؛ وكـأن هـذا الجاهل تعامى عن قـول الله تعـالى لأتقى البشـر: {يا أيها النـبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين} [الأحزاب: 1] ؛ وقال تعالى في قصة زينب: {واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى النـــــــــاس والله أحق أن تخشاه} [الأحزاب: 37] .

2- ومنهـا: البلاغة التامة في حـذف الفاعل في قوله تعـالى: { وإذا قيل له اتق الله }؛ ليشمل كل من يقول له ذلك؛ فيكون رده لكراهة الحق.

3- ومنها: التحذير من رد الناصحين؛ لأن الله تعالى جعل هـذا من أوصـاف هـؤلاء المنـافقين؛ فمن رد آمـراً بتقـوى الله ففيه شـبه من المنـافقين؛ والواجب على المرء إذا قيل له: «اتق الله» أن يقـول: «سـمعنا، وأطعنـا» تعظيماً لتقوى الله.

4- ومنهـا: أن الأنفة قد تحمل صـاحبها على الإثم؛ لقوله تعـالى: { أخذته العزة بالإثم }.

5- ومنها: أن هذا العمل موجب لدخول النار؛ لقوله تعالى: { فحسبه جهنم }.

6- ومنها: القدح في النار، والذم لها؛ لقوله تعالى: { ولبئس المهـاد }؛ ولا شك أن جهنم بئس المهاد.

القرآن

{)وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَـاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَـادِ) (البقرة:207)

التفسير:

لما ذكر الله حال المنافقين الذين يعجبك قولهم في الحيـاة الـدنيا وهم ألد الخصام؛ والذين إذا تولوا سعوا في الأرض فساداً ليهلكوا الحـرث، والنسل - والله لا يحب الفساد - ذكر حال قوم على ضدهم؛ وهكـذا القـرآن مثـاني تتَثَّى فيه الأمور؛ فيؤتى بـذكر الجنة مع النـار؛ وبـذكر المتقين مع الفجـار... لأجل أن يبقى الإنسان في روضة متنوعة؛ ثم ليبقى الإنسـان بين الخـوف، والرجاء - لا يغلب عليه الخوف فيقنط من رحمة الله -؛ ولا الرجـاء فيـأمن مكر الله؛ فإذا سمع ذكر النـار، ووعيـدها، وعقوبتها أوجب له ذلك الخـوف؛

وإذا سمع ذكر الجنة، ونعيمها، وثوابها أوجب له ذلك الرجاء؛ فترتيب القرآن من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى؛ وهو الموافق لإصلاح القلوب؛ ولهذا نرى من الخطأ الفادح أن يؤلف أحد القرآن مرتباً على الأبواب والمسائل كما صنعه بعض الناس؛ فإن هذا مخالف لنظم القرآن، والبلاغة، وعمل السلف؛ فالقرآن ليس كتاب فقه؛ ولكنه كتاب تربية، وتهذيب للأخلاق؛ فلا ترتيب أحسن من ترتيب الله؛ ولهذا كان ترتيب الآيات توقيفياً لا مجال للاجتهاد فيه؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت الآية قال: «ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا»[1].

{ 207 } قوله تعالى: { ومن الناس من يشري نفسه }؛ هذا هو القسيم لقوله تعالى: {ومن الناس من يعجبك...} [البقرة: 204] ؛ وعلى هذا تكون { مِن } للتبعيض؛ والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ و{ من يشري } مبتدأ مؤخر.

وقوله تعالى: { من الناس }: قال بعض المفسرين: إنها تعني شخصاً معيناً؛ وهو صهيب الرومي لما أراد أن يهاجر من مكة منعه كفارها، وقالوا: لا يمكنك أن تهاجر أبداً إلا أن تدع لنا جميع ما تملك؛ فوافق على ذلك، وأنقذ نفسه بالهجرة ابتغاء مرضاة الله؛ وقال بعض العلماء - وهم أكثر المفسرين -: بل هي عامة لكل المؤمنين المجاهدين في سبيل الله؛ قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون} [التوبة: 111] ؛ وهذا القول أصح؛ وهو أنها للعموم حتى لو صح أن سبب نزولها قصة صهيب؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقوله تعالى: { من يشري نفسه } أي يبيعها؛ لأن «شرى» بمعنى باع، كقوله تعالى: {وشروه بثمن بخس} [يوسف: 20] أي باعوه بثمن بخس؛ أما «اشترى» فهي بمعنى ابتاع؛ فإذا جاءت التاء فهي للمشتري الآخذ؛ وإذا حذفت التاء فهي للبائع المعطي؛ و{ نفسه } يعني ذاته.

قوله تعالى: { ابتغاء مرضات الله } أي طلباً لمرضات الله؛ فهي مفعول لأجله؛ و{ مرضات الله } أي رضوانه أي يبيع نفسه في طلب رضا الله عزّ وجلّ -؛ فيكون قد باع نفسه مخلصاً لله في هذا البيع.

قوله تعالى: { والله رؤوف } أي ذو رأفة؛ و«الرأفة» قال العلماء: هي أرق الرحمة، وألطفها؛ و{ بالعباد } أي جميعهم.

وفي قوله تعالى: { رؤوف } قراءتان؛ إحداهما: مد الهمزة على وزن فعول؛ والثانية قصرها على وزن فعُل.

الفوائد:

1- من فوائد الآية: تقسيم الناس إلى قسمين؛ القسم الأول: {ومن الناس من يعجبك قوله} [البقرة: 204] ؛ والقسم الثاني: { ومن الناس من يشري نفسه }.

2- ومنها: بلاغة هذا القرآن حيث يجعل الأمور مثاني؛ إذا جاء الكلام عن شيء جاء الكلام عن ضده.

3- ومنها: فضل من باع نفسه لله؛ لقوله تعالى: { ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله }.

4- ومنها: الإشارة إلى إخلاص النية؛ لقوله تعالى: { ابتغاء مرضات الله }.

---

[1] أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار 3/403، باب 215: بيان مشكل ما اختلف فيه عن عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الأنفال وبراءة وهل هما سورتان أو سورة واحدة.

5- ومنهـا: إثبـات الرضا للـه؛ لقوله تعـالى: { مرضـات الله }؛ ورضا الله صفة حقيقية لله عزّ وجـلّ متعلقة بمشـيئته؛ وينكرها الأشـاعرة وأشـباههم من أهل التعطيل؛ ويحرفون المعنى إلى أن المراد برضا الله إما إثابتـه؛ أو إرادة الثواب.

6- ومنها: استحباب تقديم مرضـاة الله على النفس؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام المدح، والثناء.

7- ومنها: إثبات الرأفة لله؛ لقوله تعالى: { والله رؤوف بالعباد }.

8- ومنها: عموم رأفة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { بالعباد }؛ هذا إذا كـان { العباد } بـالمعنى العـام؛ أما إذا قلنا بـالمعنى الخـاص فلا يسـتفاد ذلـك؛ واعلم أن العبودية لها معنيان: خاص؛ وعام؛ والخـاص له أخص؛ وهو خـاص الخاص؛ فمن العام قوله تعالى: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الـرحمن عبـداً} [مـريم: 93]؛ وأما الخـاص فمثل قوله تعـالى: {وعبـاد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً} [الفرقان: 63] ؛ المراد بهم عباد الرحمن المتصفون بهذه الصـفات؛ فيخـرج من لم يتصف بهـا؛ وأما الأخص مثل قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقـان على عبـده} [الفرقـان: 1] ؛ هذه عبودية الأخص - عبودية الرسالة -.

*** * ***

انتهى المجلد الثاني من التفسير بحمد الله تعالى، ويليه المجلد الثالث بإذن الله تعالى وبدايته تفسير الآية 208 من سورة البقرة